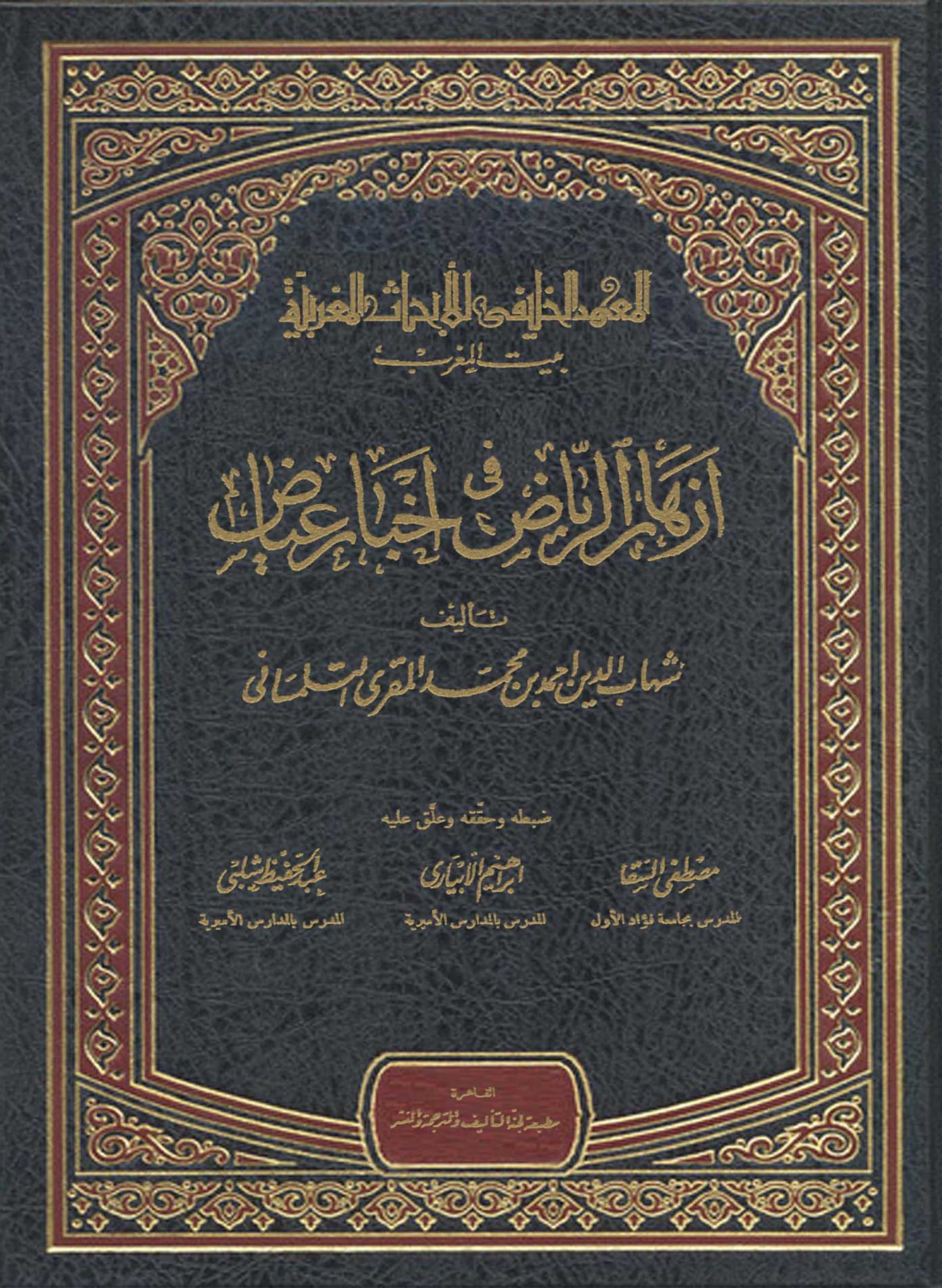

المعهد الخليفي للأبحاث المغربية
بيت المغرب
أزهار الرياض في أخبار عياض
تأليف
شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني
ضبطه وحققه وعلّق عليه
مصطفى السقا
المدرس بجامعة فؤاد الأول
ابراهيم الأبياري
المدرس بالمدارس الأميرية
عبد الحفيظ شلبي
المدرس بالمدارس الأميرية
القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

المعهد الخليفي للأبحاث المغربية
بيت المغرب

أزهار الرياض في أخبار عياض

تأليف
شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني

ضبطه وحققه وعلّق عليه

مصطفى السقا
المدرس بجامعة فؤاد الأول

ابراهيم الأبياري
المدرس بالمدارس الأميرية

عبد الحفيظ شلبي
المدرس بالمدارس الأميرية

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م



صورة صاحب السمو الخليفة المعظم مولاى الحسن بن المهدى العلوى خليفة جلالة ملك المغرب الأقصى ، وباعث النهضة العلمية ، ومؤسس المعهد الخليفى بتطوان وبيت المغرب بمصر ، ومن آثار سموه نشر هذا الكتاب

مقدمة الناشرين

كتاب « أزهار الرياض فى أخبار عِياض » ، من خير ما أُلّف فى أدب المغاربة ، نرجو أن ننشر بنشره آية فَخَار من مجد علماء الإسلام ، وأن نضيف إلى الأدب العربى الخالد ، صفحة مُشْرِقة من الأدب المغربى الزاهى الألوان ، وأن نضع بين يدى العلماء والنقاد خير الوثائق وأنفس المصادر التى يُعْتمد عليها فى تاريخ الآداب .

أما مؤلفه فهو حافظ عصره فى علوم الدين ، وحُجة زمانه فى علوم الدنيا ، وخاتمة أدباء المغرب ، الذى جمع الشعر والكتابة والخطابة ، والمحاضرة والمسامرة ، شهاب الدين أحمد بن محمد المَقّرى التِّلِمسَانِىّ ، صاحب « نفح الطيب » وغيره من الكتب الممتعة . تُوُفى سنة إحدى وأربعين وألف للهجرة بالقاهرة .

وأما المؤلَّف فى ترجمته وسيرته فهو قاضى المغرب الأجل ، وحافظه الأكبر ، الإمام الطائر الصيت ، عِياض بن موسى اليَحْصُبى السِّبتى صاحب الشفاء ومشارق الأنوار وكثير من المصنفات الجليلة فى الدين وعلوم اللغة والنحو والأنساب . تُوُفى سنة ٥٤٤ ﻫ بمراكش .

وكتاب أزهار الرياض فى أخبار عياض ، هو كصِنْوه نفح الطيب ، فى أخبار لسان الدين بن الخطيب ، كلاهما قد تضمن ترجمة واسعة خِصبة النواحى ، لعَلَم مفرد من أفذاذ الرجال فى المغرب والأندلس ، وقد استطاع مؤلفهما أبو العبّاس المقّرى أن يجعل كلا من صاحبى الترجمة مركزا لدائرة معارف تاريخية وأدبية ، تحوى أخبار عصره ومصره ، لا ، بل تستوعب كثيراً من أخبار الأجيال التى تعاقبت فى الأندلس والمغرب إلى زمان وجوده ، وهما لذلك جديران أن يُعَدَّا من أعظم الأركان التى يقوم عليها تاريخ تلك البلاد .

و بين الكتابين وجوه من الشبه ، وتشابه فى المزايا ، لا نريد إحصاءها فى هذه المقدمة الموجزة ، و بحسْبنا أن نذكر هنا المنهج الذى انفردا به دون أكثر كتب التراجم العربية القديمة ، فإن مؤلفنا الشيخ المقّرى يرسُم للترجمة خطة واضحة ، ويرتب عناصرها ترتيباً حسناً ، ويتغلغل فى التفاصيل ويتعمق ، ويتتبع أخبار المترجَم حتى قبل ولادته ، ويتجسس عن أوليته وأسرته ، ويبحث عن نشأته فى صباه وشبابه وكهولته ، ثم يذكر شيوخه الذين أخذ العلم عنهم ، فى كثير من التفصيل والعناية بذكر مؤلفاتهم ، ويخص بالعناية النِّتاج الأدبى للمترجم ، ويذكر تآليفه ، وتصرفه فى الحياة ، وعمله فى خدمة السلطان ، ووفاته ، وآراء الناس فيه .

منهج المؤلف فى أزهار الرياض ونفح الطيب متأثر تأثراً مّا بمنهج لسان الدين ابن الخطيب فى كتاب الإحاطة فى أخبار غَرناطة ، فإن هذه الكتب تتشابه فى العناصر التى تتألف منها الترجمة ، وفى أسلوب الإنشاء ، إلا أن لسان الدين كان أميل إلى مجانبة الاستطراد الذى فشا فى تواليف المقرى ، وطَبَعَها بهذا الطابعَ الخاص .

ألف المقرى كتاب أزهار الرياض فى مدينة فاس ، فى المدة التى بين سنتى ١٠١٣ و ١٠٢٧ للهجرة ، إذ كان قد نزح عن وطنه لأسباب سياسية ، واتخذ فاس مقرا له ، وكان الباعث له على تأليفه رغبة أهالى بلده تِلِمْسان فى التعريف بالقاضى عِياض ، عالم المغرب الأوسط وقاضيه الأشهر ، وقد ألَمّ فى هذه الترجمة بكثير من شئون بلاد الأندلس ، وذكر طائفة من أخبار لسان الدين بن الخطيب وأحوال المسلمين فى عصر الجلاء عن الأندلس ، على سبيل الاستطراد ، ثم ألّف كتاب نفح الطيب بعد سنة ١٠٢٨ فى القاهرة ، استجابة لرغبة بعض أعيان دمشق وعلمائها فى التعريف بلسان الدين بن الخطيب ، فذكر كثيراً من شئون

الأندلس فى تفصيل وترتيب عجيبين . ومن أجل هذا يظهر للمتأمل أن المؤلف كان مضطرا أن يكرر فى نفح الطيب طائفة من الأخبار التى ذكرها من قبل فى أزهار الرياض ، لبعد ما بين الأفقين اللذين ظهر فيهما الكتابان .

وقد يمتاز أزهار الرياض ، فوق اشتماله على ترجمة القاضى عياض ، بطائفة كبيرة من الأخبار والنصوص المغربية والأندلسية ، التى لم ترد فى نفح الطيب ولا فى غيره من الكتب المطبوعة حتى الآن ، وإنما بادت أصولها ، أو هى لا تزال سرا مطويا فى خزائن الكتب لم تنشره المطابع بعد . ولذلك يُعَد نشر هذا الأثر الجليل اليوم ثروة جديدة تضاف إلى ما سبق نشره من آثار المغرب والأندلس فى عالم الدراسات العربية .

وكان الفضل فى إخراج هذا الكتاب الجليل ، على هذا الوضع الأنيق ، « لمكتب التبادل الثقافى » التابع للمعهد الخليفى بتطوان ، الذى أسسه سمو الخليفة المعظم **مولاى الحسن بن المهدى** ، فقد اختط خطة موفقة فى نشر الكتب النفيسة ، التى تحيي آثار السلف ، وكان هذا الكتاب باكورة أعماله ، وأول ثماره .

ولما عُهِد إلينا فى تحقيق هذا الكتاب ، بالأسلوب العلمى الذى يجرى عليه علماء المشرقيات ، فتشنا عما يوجد من أصوله المخطوطة والمطبوعة فى دار الكتب المصرية ، فعثرنا منه على النسخ الآتية :

الأولى : النسخة المخطوطة المرموز لها فى حواشى هذه الطبعة بالحرف (ط) ، ورقمها فى دار الكتب المصرية (٢٠١٣ تاريخ) وهى فى ألف ومئة وسبعين صفحة ، من القطع المتوسط ، طول الجزء المكتوب فى كل منها عشرون سنتيمتراً وعرضه عشرة . وهى مخطوطة بخطوط مختلفة ، فالست والأربعون صفحة الأولى بخط مغربى جميل ، وما بعدها إلى صفحة ١٠٥٨ بخط نسخى معتاد ، ويتلو ذلك

الثالثة : النسخة المحفوظة بالخزانة التيمورية فى دار الكتب المصرية ، ورقمها (٧٩٤ تاريخ) ، وهى فى أربعة أجزاء :

الجزء الأول منها هو المطبوع بتونس المقدم ذكره ، المرموز إليه فى حواشى طبعتنا بالحرف (ت) .

والجزء الثانى مخطوط يحتوى على بقية الروضة الأولى ، وتبقى منها بقية تأتى فى الجزء الثالث .

والجزء الثالث يتضمن بقية الروضة الأولى كلها وتنتهى فى الصفحة ٤٣ ، والروضة الثانية كلها إلى الصفحة ١٠٥ ، ثم الروضة الرابعة جميعها إلى نهاية هذا الجزء فى صفحة ٤٤٢ .

والجزء الرابع يحوى الروضة الرابعة من أوله إلى الصفحة ٣٠٥ ثم الخامسة إلى الصفحة ٤٥٠ .

وهذا الجزء ينتهى بآخر رحلة أبى عبد الله المقرى . وفى نهايته بخط المرحوم أحمد تيمور باشا ما نصه :

« والروضة السادسة والسابعة والثامنة تأتى فى جزء خامس » . وليس لهذه النسخة جزء خامس فى الحقيقة ، وهى أجود خطًّا من النسخة (ط) .

وجاء فى آخرها أيضاً أنها نقلت من نسخة قديمة فى مكتبة الملك الظاهر بدمشق ، وأن كاتبها هو محمد صادق فهمى المالح سنة ١٣٤٥ هـ

والنسخ الثلاث من هذه الأصول متشابهة فى كثرة ما بها من الخطأ والتحريف والكلمات الغامضة ، التى تصعب قراءتها أو تحار فى فهمها العقول .

وقد جعلنا النسخة (ط) أساساً للطبع ، وعارضنا بها الجزء الأول المطبوع بتونس ، وأثبتنا ماوجدناه من خلاف بينهما بالزيادة والنقص ، وصححنا الأخطاء

اللغوية والنحوية والهجائية الكثيرة ، ولم نكتف بهذا ، بل كنا نفتش عن كل خبر فى مظانّه من الكتب المطبوعة ، مثل نفح الطيب للمؤلّف ، والإحاطة لابن الخطيب ، وتاريخ ابن خلدون ، والاستقصا للسلاوى ، كما كنا نلجأ فى شرح الكلمات الأندلسية والمغربية التى لم ترد فى المعجمات العربية ، إلى تكملة المعجمات العربية للعلامة دُوزى ، وجعلنا كل ملاحظاتنا حواشى فى أسفل صفحات الكتاب إيثاراً لتعجيل الفائدة للقارئ . ولم نشرح من مفردات الألفاظ إلا ماظننا أنه يغمض على القارئ المتوسط ، وما اعتقدنا أن معجمته ليست فى أيدى جميع الناس ، وتركنا بعد ذلك الفرصة لذهن القارئ ، لينشط إلى البحث عما يروم البحث عنه من معانى الأشعار ، ولم نشرح شيئاً من ذلك إلا ما كان ضروريا لابد منه .

وقد وضعنا فى الهوامش الجانبية الخارجية عناوين للمعانى الجزئية ، لتجزئة الموضوع الواحد المطول ، إلى عناصره التى يتألف منها ، وفى ذلك إراحة للذهن ، وتفصيل لمجمل الموضوع ، وتنبيه على مواضع الانتقال : ووضعنا فى الهوامش التى فى الجهة الداخلية أرقام صفحات النسخة المخطوطة المرموز إليها بالحرف (ط) أمام السطر الذى تبدأ عنده الصفحة الجديدة من الأصل المخطوط ، لنسهل المضاهاة على من أراد أن يتتبع ذلك الأصل ، ويعارض به طبعتنا هذه .

وقد عملنا لهذا الجزء فهارس مُنوَّعة ، تيسيراً للبحث والمراجعة .

والله نسأل أن يوفق المعهد الخليفى ويوفقنا إلى إخراج البقية من أجزاء هذا السفر الجليل ، إنه أكرم مسئول ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

مصطفى السقا   ابرهيم الابيارى   عبد الحفيظ شلبى

القاهرة فى أول نوفمبر سنة ١٩٣٩



صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

[مقدمة المؤلف]

[٢] الحمد لله الذى أَعْلَى مراتبَ العلماء الأعلام ، وزكّى منهم العقولَ الرّاجحة والأحلام ، ومَنَحهم مآثرَ تَقْصُر عَنْ جَمْعها(١) المَحابرُ والأقلام ؛ ومَفاخِرَ طارت كلّ مَطَار . وجعل مَعاليَهم زاهرةً زاهيه ، وأضواء فُهومهم نامية ساميه ، وأنواءَ(٢) عُلومهم هامِعة هاميه(٣) ؛ بِوَاكِف الأمطار(٤) ، وأَطْلَعهم على دَقائقِ الأسرار . وهَدَاهم وهَدَى بهم إلى ترتيب المَدارك ، وتقريب المسالك ؛ وجَلَّى بمَشارق الأنْوار مِنْ مَعارفهم وآدابهم ، عمَّن تمسك بأذيالهم وأَهْدابهم ، غَياهبَ الجَهْل الحَوَالك(٥) ؛ فأضاءت الأقطار . وعَرَّفهم المَقاصد الحِسَان ، والوسائل المُغْتَبَطَة والإلماع(٦) ، بأصول الرِّواية والسَّماع ؛ والإعلامَ ، بحُدود قواعد الإسلام ؛ وأرشدهم إلى التنبيهات المُستَنْبَطة السامية الأخطار ؛ حتى رَفَلوا من حُلل التحقيق السابغه ، فى مَطارف(٧) وبُرُود ؛ ووَرَدُوا من مَناهل التوفيق السائغه ، كلَّ عَذْبٍ

---

(١) فى ت : « عن فهمها » .

(٢) الأنواء : النجوم ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى ظهورها ، فيقولون مثلا : مطرنا بنوء الثريا .

(٣) هامعة هامية : أى تسيل فى غزارة وانصباب .

(٤) واكف الأمطار : هاطلها .

(٥) غياهب الجهل : ظلماته . والحوالك : الشديدة السواد .

(٦) الإلماع : التنويه والإشارة .

(٧) المطارف : أردية من خز مربع ذى أعلام ؛ الواحد : مطرف كمنبر ومقعد .

بَرُود[١] ؛ وتنسَّموا من حُجَج الحق البالغه ، الروضَ المِعطار ؛ واجتنَوْا أَزاهِر[٢] ، أضحت مُنْية الطالب ، و بُغْية الرائد[٣] ؛ واجتَلَوْا[٤] جواهر[٥] ، نُظِمت منها الدُّرر والفَرائد ؛ فى أجياد[٦] الأسْطار . فإن أَمَّهم ناقصٌ عَدِيم ، ألفَى لديهم الغُنْيَةَ والإكمال ؛ أو قَصدهم عَلِيل سقيم ، وجَدَ فى يدَيْهم الشِّفاء ، فنال غايةَ الآمال ، وظَفِر بمُنْتَهى الأوْطار[٧] . والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمّد أفضلِ العالَمين بإطلاق ، سِرَاج المُريدين ، وكَنْز العارِفين ، الذى لا يُخْشَى معه إمْلاق ، عُمْدتنا العُظْمى ، ووسيلتنا الكُبْرى عند الملك الخلّاق ؛ صاحب المُعْجِزات الباهره ، التى اهتدى بها ذَوُو الأفكار ، والآيات الظاهره ، التى حصل بها التمييز[٨] لمَنْ له استذكار ؛ المُوطَّأ الأكناف[٩] والأخلاق ، المُنْتَقى من أعظم الذخائر ، وأنفس الأعْلاق[١٠] ، المُخْتار من قَبْل نَشْأة آدمَ والكونُ

(١) البرود : البارد .
(٢) فى ط : « أزهارا » .
(٣) الرائد : الذى يتقدم القوم يبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث .
(٤) اجتلى : نظر .
(٥) فى ت : « بواهر » .
(٦) فى ت : « بأجياد » .
(٧) الأوطار : جمع وطر «بالتحريك» ، وهو الحاجة .
(٨) فى ت : « التمهيد » .
(٩) الموطأ الأكناف : الكريم الدمث الأخلاق .
(١٠) الأعلاق : جمع علق ، وهو النفيس من كل شىء .
وقد ذكر المؤلف هنا — على سبيل التورية — أسماء طائفة من الكتب ، للقاضى عياض وغيره ، وهى : « الروض المعطار ، فى أخبار الأقطار » لأبى عبد الله الحميرى ؛ و « منية الطالب ، لأعز المطالب » لم يعلم مؤلفه ؛ و « بغية الرائد ، لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد » ؛ و « الغنية » و « الإكمال لكتاب المعلم ، فى شرح صحيح مسلم » ، وهذه الثلاثة للقاضى عياض ؛ و « سراج المريدين » لأبى بكر بن العربى . و « كنز العارفين » لم يعلم مؤلفه ؛ و « الذخائر والأعلاق ، فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق » لأبى عبد الله الباهلى الإشبيلى ؛ و « الموطأ » للإمام مالك . و « المنتقى » اسم لعدة كتب .

لم تُفتح له أغْلاق ، صَلَّى اللهُ وسلَّمَ عليه وعلى آله وأصحابه ، الذين لنُجومهم فى سماء الحق ائتلاق ؛ صلاةً وتَسْليما دائِمَيْن ، ما أنشِئت فى ثنائه الأحمدىّ ، وأُنشدت بفِنائه المحمّدىّ ، القصائدُ والأبياتُ والأشطار . و بعد[1] : [٣]

فيقولُ أحمــدُ ذو القُصُو ... رِ المَقَّرِىُّ إذا انتسبْ[2]

جَبَرَ المُهيمنُ صَـدْعَهُ ... ووَقاهُ سَيِّئَ ما اكتسب

وحَبَـاهُ مِنْحةَ مُؤْمِنٍ ... مَحَضَ العبادةَ واُحتسب[3]

وأَسْدى إليه من المَواهب أسْناها ، ومن العواقب حُسْناها :

إنه لما سَبق القضاء وجرَت الأقدار ، بارتحالى عن الوطن المَحْبوب والقَرار ، بعد أن شَمِمْت عَرارهُ[4] النَّجْدِىّ ولا أشجانَ ولا أكدار[5] ، فى عَشيَّة لم يكن بعدها من عَرار ؛ ونَزَحْتُ عن بلد ، به الوالدُ وما ولَد ؛ مَحَلِّ قَطْع التَّمائم[6] ، وفَتْح الكمائم[7] ، سقَى الله عِهَادَه[8] صَوْبَ الغمائم :

بَلَدٌ تحُفّ به الرِّياضُ كأنهُ ... وَجْهٌ جَميل والرياضُ عِذارُهُ[9]

---

(١) فى ت : « أما بعد » .

(٢) القصور : العجز .

(٣) محض العبادة : أخلصها . واحتسب : نوى بعمله وجه الله .

(٤) العرار : بهار البر ، وهو نبت طيب الريح ؛ يشير إلى قول الصمة القشيرى :

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

(٥) فى ط : « بعد أن شممت عرارة النجد من الأشجان والأكدار » ؛ ولا يستقيم بها الكلام .

(٦) التمائم : خرزات كان الأعراب يعلقونها على أولادهم يتقون بها النفس والعين بزعمهم . يريد بقطع التمائم : وقت أن شب وترعرع .

(٧) الكمائم : أغطية الزهر . يريد وقت تفتح زهرة صباه .

(٨) يريد «بالعهاد» : جمع عهد ، وهو الزمان . وفى كتب اللغة أن العهاد جمع العهد ، وهو المطر بعد المطر . أما العهد للزمان فجمعه عهود .

(٩) العذار : جانب اللحية . وهذا البيت والذى بعده للسان الدين بن الخطيب .

وكأنّما واديهِ مِعْصَمُ غادةٍ ومِنَ الجُسورِ المحكَمَاتِ سِوارُه

وكانَ ذلك وغُصْن النشاط يانع[١] ، وبُرْد الشباب قَشيب ؛ وشَمْل النفس مجتمع دون مانع ، وكأس[٢] الأنس مُزج بتَسْنيم القُرب وشِيب[٣] ؛ وفَوْد[٤] الرأس غير خاضع ولا خانع ، إذ[٥] لم تَطْرُق ساحتَه ولم تَجُس خلالَه جيوشُ المَشيب ؛ حللتُ الحَضْرة الفاسيَّة — حاطها الله — حيثُ المجالس غاصَّه ، بالعامة والخاصّه ؛ والمساجد آهلة مَعْموره ، والمشاهد بالزُّوار مَغْموره ؛ وحُلَل المعارف فَضْفاضه ، والعوارف[٦] الجليلة مُفَاضه ؛ حَضرة دِيباجُها رَبيعيّ ، وامتزاجها بالنفوس طَبيعيّ ، ولِمَ لا ، وقد نَظَمَت المفاخرَ ونَسَّقَتْها ، وجَمَعَتِ المآثرَ وَوَسَقَتْها ، جادَتْها غُرُّ السُّحُب[٧] وسَقَتها :

بِلادٌ بها الحَصْباء دُرٌّ وتُرْبُها عَبيرٌ وأَنْفاس الرِّياح شَمُولُ[٨]
تسلسلَ منها ماؤُها وهو مُطْلَقٌ وصحّ نَسيمُ الرَّوْض وَهْو عَليل

فألقيتُ بها عَصَا التَّسْيار ، وقاها الله من الآفات والأغيار ، واقتفيت فى ذلك سَنَنَ بعضِ سَلَفِي الأخيار ؛ إذ كان أشهرَ أسلافنا الشيخُ الإمام — صاحبُ التصانيف الشهيرة ، التى اقتادت المَحاسن بزِمَام ؛ القاضى الأشهر ، العلاّمة

---

(١) الأصل فى الينع : نضج الثمار .
(٢) فى ط : « وكأن » .
(٣) تسنيم : ماء فى الجنة . وشيب : خلط (بالبناء للمجهول فيهما) . ولعله راعى المضاف إليه فذكر الفعلين .
(٤) الفود : معظم شعر الرأس مما يلى الأذن . ويريد بخضوعه وخنوعه : إمالته من كبر وضعف .
(٥) فى ط : « إذا » وهو تحريف .
(٦) العوارف : جمع عارفة ، وهى المعروف .
(٧) فى ت : « السحاب » .
(٨) العبير : الزعفران ، أو هو أخلاط الطيب . والشمول : الخمر ، أو ما برد منها .

الأظهر ، سيّدى أبو عبد الله محمد [بن محمد[١]] بن أحمد المَقَّرِىّ القُرشىّ ، التِّلِمْسانىّ النشأة والقَبْر ، أفاضَ اللهُ سِجَال[٢] الرحمة على مَثْوى ذلك الحَبْر — انتقلَ إليها أيّام السلطان المرحوم أبى عِنانٍ فارس ، فولاّه قضاءَ جماعتها ، وبَنَى له[٣] المتوكليّةَ أعظَم المدارس ، حَسْبما ذَكَره غيرُ واحد من أهل الفهارس ، وأشار إليه الوزير ابنُ الخَطِيب فى كتاب « الإحاطة » التى أحْيَت من التاريخ الرَّسْم الدَّارس .

ولم تزل كُتُب الأقارب والإخوان ترد علىّ ، وتَثْنِى عِنَانَ اعتنائها إلىّ ؛ وتَكَرّر وتَعَدّد ، وتنتاب وتَتَرَدّد ، وتتنوّع وتتجدّد ؛ فأرتاحُ إليها ارتياحَ الغُصْن عند هزَّته ، وأحِنّ إليها حَنين كُثَيِّرٍ إلى مَعاهد عَزَّته :

[٤] يا مَنْ يُذكّرُنى حَديثَ أحبّتِى طابَ الحديثُ بِذِكْرِهمْ ويَطيبُ
أَعِدِ الحديثَ علىّ مِنْ جَنَبَاتِهِ إنَّ الحديثَ عن الحَبيب حَبيبُ[٤]

وكثيراً ما يحرّك ذلك مِنّى كامِنَ شوق ، شَبّ عَمْرُه عن الطَّوْق[٥] ؛ وأجد من لَوَاعِج الأُوَار[٦] ، ما وجده الفرزدق عندَ[٧] مُبَاينة النَّوَار[٨] :

(١) زيادة عن الإحاطة ونفح الطيب .
(٢) جمع سجل ، وهى الدلو الضخمة المملوءة بالماء .
(٣) فى ت : « وبذله » وهو تحريف .
(٤) جنباته : نواحيه .
(٥) أى جاوز حد الاحتمال ؛ مأخوذ من المثل : « كبر عمرو عن الطوق » . قاله جذيمة لعمرو بن عدى ، ابن أخته رقاش ، حين رأى عليه طوقا من ذهب كان له فى صغره ، وقد طوقته به أمه بعد غيبة غابها عنها ، فى حديث طويل ، ذكره الميدانى فى أمثاله وصاحب القاموس فى مادة « طوق » .
(٦) لواعج الأوار ، أى حرق نار الشوق .
(٧) فى ت : « من » .
(٨) يشير إلى ندم الفرزدق لما طلق امرأته النوار فى قوله :
ندمت ندامة الكسعى لما غدت منى مطلقة نوار

بَلَدُ الجزائر ما أمرَّ نَوَاها   كَلِفَ الفؤادُ بحُبِّها وهَوَاهَا
يا عاذِلى فى حُبِّها كُنْ عاذِرى   يَكْفِيك منها ماؤُها وهَواها

والحنين إلى الوطن مَجال لكل حُرٍّ ومِضْمار!

إِيهٍ أحاديثَ نَعمانٍ وساكِنِه   إنّ الحديث عن الأحْباب أسْمارُ

وليس بمُسْتَنكرٍ حنينُ الناب[(١)] إلى عَطَنه[(٢)]، والمرءِ إلى محلّ نَشْأته ووطنه. وقد رَوَيْنا فى الصحيح من حَنِين سيِّد الوجود عليه الصلاة والسلام وأصحابه إلى مكة، ما لا يجهله إلا من هو عن العلوم بمَعْزِل. ومن الأبيات السائرة:

كمْ منزلٍ فى الأرض يألفه الفتى[(٣)]   وحَنِينــــه أبدًا لأوّل مَنْزِلِ

وربّ ذِكْرى أثارت الأشواق وحرّكتها، وأنْشبت النفوسَ فى حبائل البُوس وتَركتها؛ وكم من ماجدٍ بكى لفَقْد المَشاهد، واهتمّ لبُعد المعالم والمعاهد:

سلامٌ على تلك المَعاهد إنها   مَرَاتع أُلّافى وعَهْد صِحَابى
ويا سَرْحة الحىّ أنعَمِى فلَطالما   سكبتُ على مَثْواكِ ماء شَبابى

فلّله تلك المعاهد، ما أبهج مُحيّاها! وحاط[(٤)] بعين كلاءته تلك المشاهدَ، مَا أطيبَ[(٥)] رَيّاها، حين باكَرَها الوَسْمىّ[(٦)] وحيّاها:

(١) الناب: الناقة المسنة؛ وهى مؤنثة. وقد أعاد الضمير عليها مذكرا، كأنه نظر إلى الأصل، وهو الناب من العظم، فهو مذكر فى الأشهر.
(٢) العطن: وطن الإبل ومبركها حول الماء.
(٣) كذا فى ط وديوان أبى تمام. وفى ت: «كم من منازل كان يألفها الفتى».
(٤) فى ت: «وبعين كلاءته».
(٥) فى ت: «فما أطيب».
(٦) الوسمى: مطر الربيع الأول؛ لأنه يسم الأرض بالنبات. ويليه «الولى» وهو المطر الثانى.

حَيّا تِلِمْسانَ الحَيَا فرُبُوعها صَدَفٌ يَجُود بدُرّهِ المكنونِ[١]

ما شئتَ من فَضْلٍ عَمِيم إنْ سَقَى أَرْوَى ومَنٍّ لَيْس بالمَمْنون

أو شئتَ من دِينٍ إذا قِدْحُ الهُدَى أَوْرَى وَدُنيا لم تكنْ بالدُّون[٢]

ورَدَ النسيمُ لها بنشْر حديقةٍ قدْ أزهرت أفنانُها بفُنون[٣]

وإذا حَبيبةُ أمّ يحيي أنجبَتْ فلها الشُّفُوف على عُيون العُون[٤]

طالما ذكّرتِ الأُبُلّةَ وشِعْب بوّان[٥]، وأَنْسَتْ صُروفَ الزّمان الخَوّان، وأنبتت أزهار أُنس ذاتَ ألوان، وثِمار نخل من القُرب[٦]، صِنوانٍ وغير صِنْوان[٧]، والشملُ مُجْتَمِع بالجيران[٨] والإخوان؛ والروض مَطْلُول النبات[٩]، مُخْضَرُّ العذبَات[١٠]، مُخْضَلُّ الجنَبات[١١]، مُفَوَّف الخمائل[١٢]،

---

(١) الحيا: المطر. وهذه الأبيات للسان الدين بن الخطيب.

(٢) أورى: أنار وأضاء.

(٣) نشر الحديقة: ما ينتشر عنها من رائحة طيبة.

(٤) حبيبة أم يحيي: عين ماء بتلمسان ماؤها عذب. (عن هامش الأصل المخطوط). والشفوف: الرقة. والعون: البقر الوحشي. أى أن ماءها أصفى وأرق من عيون العون.

(٥) الأبلة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة. وشعب بوان: بفارس؛ وهو والأبلة من متنزهات الدنيا، التي سار ذكرها.

(٦) فى ت: «من العزب».

(٧) الصنوان: المجتمعة، أو التي أصلها واحد.

(٨) فى ت: «بالأقارب».

(٩) مطلول النبات: مندى بماء الطل.

(١٠) العذبات، أى أطراف الأغصان.

(١١) مخضل: مبتل. والجنبات: النواحى؛ أى إنه غير جاف ولا متصوح.

(١٢) مفوف: فيه بياض. والخمائل: جمع خميلة، وهى الأرض ذات النبات؛ يصف نبات هذه الخمائل وقد ظهر عليه النور الأبيض.

مُتَضوِّع الشمائل[١] ؛ مُنْسَاب المـاء ، مُنْجَاب السماء[٢] ؛ والغصون مُتأوِّدة الأعطاف[٣] ، دانية الجَنَى والقِطاف ، والنسيم يَعْبَق نَشْرا ، والجوّ يتألَّق رونقاً وبشرا ؛ فتقصُر عنه أوصاف ذوِى[٤] الإنصاف :

والزَّهْر حيّانا بثَغْر باسِمٍ والنَّهر قابلَنا بقلبٍ صافِى

ولآلِئُ الأنداء[٥] فى الغدير غَرْقَى ، ودموع النهر لا تَرْقَا[٦] ؛ والزهر يسقط ، وأكفّ الريح تكتب ، والغمام يُنقِّط :

كأن أكفَّ الريح تكتبُ أسْطرًا على النَّهْر إلا أنَّ أحْرفَها زُرْقُ

فتَحنِى عليهن الغصونُ قُدودَها لتقرأها جَهْرًا من الوَرقِ الوُرْق[٧]

[٥] والورقاء تَهتِف لفَقْد إلْف نازح ، فتَهيجُ شَجْو الجادّ والمازح :

رُبَّ ورقاءَ هَتوفٍ بالضُّحى ذاتِ شجْوٍ صَدَحتْ فى فَنَنِ

ذَكَرَت إلفًا ودَهْرًا صالحا فبكتْ شَجْوًا فهاجَتْ حَزَنى

فبُكائى ربّما أَرَّقَها وبُكاها رُبَّما أرَّقنى

فإذا تَبْدَؤُنى أُسْعِدُها وإذَا أَبْدؤها تُسْعِدُنى[٨]

ولقدْ تبكِى فما أفهمُها ولقدْ أبكِى فما تَفْهمنى

غيْرَ أنّى بالشَّجَا أَعْرِفُها وهْىَ أيضاً بالشَّجَا تعْرِفُنى

(١) التضوع : انتشار الرائحة الطيبة . والشمائل : جمع شمال وهى الريح . أى أن الرياح تنبعث معطرة بأريج هذا الروض .

(٢) كذا فى ط . ومنجاب السماء ، أى سماؤها صافية . وفى ت : « منجاف » .

(٣) متأودة : تهتز وتميل . والأعطاف : جمع عطف ، وهو الجانب .

(٤) فى ت « ذى » .

(٥) كذا فى ت . وفى ط : « الأنواء » . وهى النجوم ، وقد يراد بها المطر .

(٦) لا ترقأ (بالهمز وسهل) : لا تسكن .

(٧) الورق : الحمام ؛ الواحدة : ورقاء .

(٨) أسعدها : أعينها على البكاء .

فأَكرِمْ بها من ذات طوْق ، عبَّرت عما فى ضميرها من جوًى وشَوْق ، فساقت لواعجَ الأفكار أى سَوْق ، وبَينها و بين الصَّبِّ فَرْق ، عند ذوى الذَّوْق :

وترَنَّمَتْ ذاتُ الجَناح بسُحْرةٍ ... بالوادِيَيْن فهيَّجَتْ أَشواقِى

وَرْقا تَعلَّمَتِ البُكا والبثَّ مِنْ ... يَعْقوبَ والأَلْحانَ من إِسْحاق[١]

أَنَّى تُضاهِينِى هوًى وصَبابةً ... وأَسًى وفرطَ جَوًى وفَيْض مآقى[٢]

وأنا الذى أُملِى الهوى من خاطِرى ... وهى التِى تُمْلِى من الأوراق

فما كان بأسرع من تمزيق ذلك الإِهاب ، وحُصول شَمْله فى يد الانتهاب ، و إنشاد لسان حاله عند الذَّهاب :

أَلاَ إنَّ هَذَا الدهرَ يومٌ وليلة[٣] ... يَكُرَّانِ من سَبْتٍ عليك إلى سَبْتِ

فَقُلْ لجديد العَيْش لا بُد من بِلًى ... وقل لاجتماع الشَّمل لابد من شتِّ[٤]

وهكذا الدنيا إحْلاء و إمْرار ، و إقرار وإنكار[٥] ، و إعلان و إسرار ؛ تعفِّى كل رَبْع عامر[٦] ، و تبدّد شَمْل كل مأمور وآمر :

كأنْ لم يكن بين الحَجون إلى الصّفا ... أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكة سامِرُ[٧]

بعدما نَعِمنا بُرْهة من [الزمان ، فى ظلال[٨]] الأمان ؛ وقطعنا نُبذة من

---

(١) يعقوب : هو يعقوب النبى والد سيدنا يوسف عليهما السلام . وإسحاق : هو ابن إبراهيم الموصلى ؛ من شيوخ المغنين فى الدولة العباسية .

(٢) تضاهينى : تشاكلنى . والمآقى : مجارى الدموع من العيون .

(٣) فى ت : « ألم تر أن الدهر يوم وليلة » .

(٤) شت : تفرق .

(٥) فى ط : « وإنكار وإقرار » .

(٦) تعفى : تطمس وتغير ، والربع : المنزل والدار .

(٧) الحجون والصفا : جبلان بمكة . وهذا البيت لعمرو بن الحارث بن مضاض .

(٨) زيادة عن ت .

الشّباب ، فى مواطن الأحباب ؛ ما بين دراسة ودِراية ورواية ، وممارسة أمور تُبعد عن طُرق الغَواية ؛ وتَحْبير طُروس ، وملازمة دروس ، ومُثول بين يدى أشياخ مجالستهم نامية الغُروس ؛ وخصوصاً شيخَهم الذى [فضله[1]] لا يفتقر إلى دلاله ، عمَّنا مُفْتِيَها سيدى سعيد بن أحمد المَقّرىّ ، شَكَر الله خِلالَه ، فهو شيخ أولئك[2] الأعلام الذين وَرِثوا العلم عن غيْرِ كَلالَه[3] ، وعَمَروا ربوع المجد ، وتفيَّئوا ظِلالَه ، وأرشدوا إلى سُبُل الهُدَى ، وأزاحوا عن الضَّلاله ، وعَمَرَت أرضُهم بكل مجد وجَلاله ، وإن نَبَتْ[4] بى لا عن جَفوة ومَلاله ؛ فآهًا على ذلك العَصْر ما أبهاه وأجمله ! وأتمّه وأكمله ؛ عصر يكاد يُكلّمنا فيه الجمادُ ، وتُرْوينا الثِّماد[5] ؛ وتُحيّينا العشيات والبُكَر ، ولا تَنْتابنا التَّعِلاّت ولا الفِكر ؛ فإن سألنا فَعنْه فى الحقيقة ، وإن صَرّحنا أو كَنَيْنا ، فنعنى حِماه وعَقِيقه :

نُسَائلُ عَن ثُماماتٍ بحُزْوَى ... وبانُ الرَّمْل يَعلمُ ما عَنَيْنا[6]

وقد كُشفَ الغِطاءُ فما نُبالى ... أَصَرَّحْنا بذكرىٰ أَمْ كَنَيْنا

ولو أَنّى أُنادِى يا سُلَيمَى ... لقالُوا ما أردتَ سِوى لُبَيْنى

أَلاَ لله طَيفٌ كان يَسْقِى ... بكاسات الكَرى زُورا ومَيْنا

فأمسينا كأنَّا ما افْترقْنا ... وأَصْبَحْنا كأنا ما الْتَقَيْنا

[٦]

وكنا نحسَبُ أن الدهر لا يَدُور ، وأن الأعجازَ صُدور ، والأهلةَ بُدُور ؛

(١) زيادة عن ت .

(٢) فى ط : « هؤلاء » .

(٣) عن غير كلالة : أى باستحقاق . وفى ت : « لا عن كلالة » .

(٤) فى ت : « نفت » .

(٥) الثماد (ككتاب) : جمع ثمد ، وهو الماء القليل .

(٦) الثمام : نبت قصير ضعيف لا يطول . وحزوى (بالضم) : جبل من جبال الدهناء . والبان : الكثيب من الرمل .

حتى ضرب الدهرُ ضَرَبانَه[١] ، وبدّد الرّفيق من ذلك الفريق وأبانَه ؛ فلم تتأوّدْ قُدود الأغصان ، ولم تَترنّح أعطاف البان ؛ وانقطعت الأسباب ، عن مواصلة الجيران والأحباب ؛ الذين :

جَرَى[٢] بعضهم ذاتَ اليمين و بعضُهم شِمــالاً وقلبى بينهم مُتوزِّعُ
فوالله ما أدرى بليْـل وقد مَضَت حُمولُهمُ أىَّ الفريقين أَتبَـع ؟

وهأنا الآن أحاول إطفاء لهيبٍ بالضلوع وَقَدْ[٣] ، وأعالج أدواء سُقْمٍ جَلّ وكيف لا وقَدْ :

رُوِّعْت بالبَيْن حتى ما أُراعُ بِهِ وبالمَصائِب فى أهلى وجيرانِى
لم يتركِ الدهرُ لى عِلْقاً أَضَنُّ به[٤] إلا رَماه بفَقْد أو بِهِجْران

وفى هذا التاريخ الغَريب ، وردتْ كتبٌ من تلك الناحية حركت شَجْو الغريب ؛ والشوقُ إلى لقائهم ، والتَّوْقُ إلى ما يَرِد من تِلقائهم ، يقتادان القَلْب بزِمام فَينْقاد ، ويُوقِدان نار الوَجْد بين الضلوع أى إيقاد :

هى الدارُ لا أَصْحُو بها عن عَلاقة [لأمر لنـا بين الجَوانح مُضْمَرِ
فجادَ عَلَى أرجائها الغيثُ إنّهـا منازلُ جيران كرام ومَعْشرِ][٥]

وكان من جُملة فُصولها ، وفُروع أصولها ؛ طابُ التَّعريف والإلمام ، ببعض أحوال الشيخ الإمام ، قاضى الأئمة وعَلَم الأعلام ، عُمْدة أرباب المحابر والأقلام ، ومَفْخَر عُلماء الإسلام ، ذى الفَضائل التى استقلّت رسومُها[٦] ، فلم تحتج إلى إعمال

(١) ضرب الدهر ضربانه : أحدث حوادثه .
(٢) فى ت : « حدا » .
(٣) وقد : اتقد واشتعل .
(٤) فى ت : « أظن » ، وهو تحريف .
(٥) ما بين القوسين ساقط فى ت .
(٦) استقلت : علت فبانت وظهرت . والرسوم : جمع رسم ، وهى الآثار التى لاظل لها .

الأعلام[١] ؛ والمَحاسن التى بَهرت أقمارًا وشُموسا ، سيّدى أبى الفَضْل عِياضِ ابن موسى ؛ الشهير الصّيت فى كل قُطْر ، صَبَّ الله على مَثْواه من الرَّحمات شآبيبَ القَطْر :

فهو الإمامُ الذى سارت مآثِرُه فى الشَّرْق والغَرْب سيرَ الشَّمس والقمرِ
وكم له من تآليفٍ قد اشتهرَت بكل قُطْر فسَلْ تُنْبيك عن خَبَر

فقلت : مالى بهذَا الأمرِ يَدَان ، ولو أيَّدنى كلُّ قاص ودان ؛ وماذا عسى أن أَصِف من جَلالة يتهلّل بِشْرُها ، وجَزالة يتضوّع نَشْرها ؛ و بلاغة تَبذّ بلاغة سَحْبان ، و براعة تَقاعس عن رُتْبتها[٢] الشِّيبُ والشبان ، وعِلْم أظْهر غوامِض الحقائق وأبان ، وحِلْم أرْسخ من رَضْوى وأبان[٣] ؛ ومحَاسن ، ماؤها غير آسِن ، وحُلَى ، حازت مراتب العُلَى ، ومصنّفات ، مُقَرّطات مُشَنَّفات[٤] ، أعْلاقٍ لا تَعدِلُها الأثْمان ، ولا تُشَدّ على مثلها الأيْمان[٥] .

على أنى لستُ من رجال هذا المَجال ، ولا من فُرْسان مَيْدان الإحسان ؛ إذ الباعُ قصير ، والعَقل بقواعد العلم[٦] غيرُ بَصير ؛ والقلب حليف أشجان وأوصاب ، والفكر أليف غُصَص تجرّع منها جَنَى حَنْظلٍ أَوْ صَاب[٧] ؛

(١) الأعلام : العلامات يهتدى بها فى الطريق ؛ الواحد : علم .
(٢) فى ت : « وثبتها » .
(٣) رضوى : جبل بالمدينة . وأبان : جبلان ، الأبيض والأسود ، بينهما نحو فرسخ ، الأبيض لبنى جريد من فزارة ، والأسود لبنى والبة منى بنى الحارث بن ثعلبة . (انظر معجم ما استعجم للبكرى) .
(٤) مقرطات : ذات أقراط . ومشنفات ذات شنوف ، وهى الأقراط توضع فى أعلى الآذان .
(٥) الأيمان : جمع يمين ، وهى اليد اليمنى .
(٦) فى ت : « العلوم » .
(٧) الصاب : شجر مر .

لا أستطيع إنشاء قول ، ولا أفكر[١] إلا فى همٍّ أو هول ؛ إلى ما دَهِم من الفتن ، التى محت ما بالدهر[٢] من ازديان ؛ وطَرَق من المحن ، التى يُغنى عن خَبَرِها العِيان ؛ فتنوّعت منها الأعداد ، إلى أفراد وأزواج ؛ وكَثُر التَّرداد ، من الخطوب ذات الجموع والأفواج ؛ وتفاقم وازداد ، هول بحُورها المُتلاطمة الأمواج : [٧]

حملنا من الأيام ما لا نُطيقه ... كما حمل العظمُ الكسيرُ العَصائبا[٣]

وعصر رجونا منه إبداء مِنْحة ... فأبْدى ولكن مِحنةً ومصائبا[٤]

وما حال من قَرَتِ[٥] المصائِب عيونَه دُموعا وجوانحه جَوى ، ورَمته النوائِب[٦] عن قِسِيّ النَوى ؛ نخلع على الكواكب كَراه ، وبرّح به الشوق وبَراه . وقطع ودِج[٧] صبره وفَراه[٨] ، واعتراه من دَهْره ما اعتراه ، وضاعف ما به كَذِبُ حاسد[٩] افتراه ؛ يأكل المَحاسن ، ويجْهَل بمَساويه أن يحاسن ؛ ويُعيد الحق باطلا ، والحالىَ عاطلا ؛ ويَقْلِب المِنحة مِحْنه ، ويرى المصافاة إحنه ؛ يخاتل مخاتلة الذّيب ، ويُكدّر مناهل الخُلوص والتهذيب ، ويقابل الحق

(١) فى ت : « ولا فكر » .
(٢) فى ت : « إلى فادح من الفتن التى محت هابا الدهر » . وهو تحريف .
(٣) الكسير : المكسور . والعصائب : جمع عصابة ، وهى مايلف حول الجبيرة ونحوها .
(٤) رواية هذا البيت فى ت :

وعصر رجونا أن يجود بمنحة ... وإدراك آمال فأسدى المصائبا

(٥) كذا فى ط . وقرت : زودت ، من القرى ، وهو الطعام يقدم للضيف . وفى ت : «وقرت» . ووقرت ، أى حملت (بالتضعيف) . والمعروف فى هذا المعنى : أوقر .
(٦) فى ط : « ورمته سهام النوائب » .
(٧) كذا فى ط . والودج (محركة) : عرق فى العنق . وفى ت : « وجد » .
(٨) فراه : قطعه .
(٩) فى ت : « خاسر » .

الواضح بالتَّكذيب ؛ ويشتغل بما لا يَعنيه ، ويُعْرِض عما يقرّبه إلى ربه ويُزْلِفُه ويُدْنيه[(١)] :

لى حيلة فيمن يَنِمُّ وليس للكَذّاب حيله
من كان يَخْلق ما يقو لُ فحيلتى فيه قليله

إلى الله المُشتكى من هذا وأضرابه ، مِمَّن لم تَصْفُ مواردُ شرابه :

مضت أعمارُنا ومضت سِنُونا ولم تَظْفر بذى ثِقَةٍ يدانِ
وجَرَّبنا الزَّمان فلم يُفِدْنا سوى التَّخْويفِ من أهل الزمان

ولا غَرْوَ أن كان لأهل الزّمان به اشتباه ، ولله قولُ بعض أهل الذكاء والتيقظ والانتباه :

والناس مثلُ زمانِهِمْ قَدُّوا[(٢)] الحِذاء على مثالِهْ
ورجال دَهْرِك مثل دهـرِك فى تَقَلُّبه وحاله
ولذا إذا فَسد الزما ن جرى الفَسادُ على رجاله

أستغفر الله ، هذه نَفْثة مَصْدور ذى أَلَم ، أو هَفْوة مَغْمور ساعدها طُغيان القَلَم :

نَذُمُّ زمانًا ما له من جِناية ونشكوه لو تُغنِى عن المرء شَكواهُ
ولا ذَنْب فينا للزمان وإنما جَنَينا فعُوقبنا بما قد جَنيناه
هو القَدَر الجارى عَلى الكُره والرِّضا فَصبْرًا وتَسْليما لما قدّر الله

ونفوسنا أولى باللَّوم ، لو سلكنا سبيل خِيار القوم ؛ واقْتَفَيْنا سَنَن التقوى ، وتمسّكنا بحَبْل التوفيق الأقوى :

---

(١) فى ت : « يقربه لربه زلفى ويدنيه » .

(٢) كذا ط ولعلها محرفة عن : « حذو » أو « قد » وكلاهما مصدر بمعنى قطع الشيء على مثال شيء آخر .

وما دارنا إلا مَواتٌ لَوَ أننا نُفَكِّر والأخرى هى الحَيوانُ
شَرَينا[١] بها عزًّا بهُونٍ جهالةً وشتّانَ عزٌّ للفتى وهَوان

وحُق لمنْ عَلم تقلّبات الدهر بأهله وتصرّفاته ، أن يستعمل ما بقى من عُمره فيما يُوصله إلى منازل النعيم المُقيم وغُرُفاته :

للدهر قَوْسٌ لا تزال سِهامُها تُصْمِى الأنامَ أصاغرًا وأكابرَا
طُوبى لمن هَجر القَبيحَ ولم يكن إلّا على فعل الجَميل مثابرا

جعلنا الله ممّن ثابر على فِعل الجميل ، و بلغ من خير الدارَيْن غاية التأميل .

وحين ورد علىّ هذا الخطابُ الذى تقدّم ، وألْفَى ركن الاصطبار كاد يتهدّم أو تهدّم ؛ أضربت عن جوابه حِيناً من الدهر ، وماطلت مُقْتَضِىَ دَيْنه من [٨] يوم إلى يوم ، ومن شهر إلى شهر ؛ والأرض تَميد اضطراباً واختلالا ، والأحوال تزيد دَنَفاً واعْتلالا ؛ وأنا أحوم على مناهل الجواب حَوْماً ، وأروم الوُرود فى مَشاربها العَذْبة يوماً فيوماً ؛ والأيام لاتسمح بنَهْله ، ولا تَفسَح[٢] إليها فُسْحة ، ولا توسعها مُهْله ؛ ثم وقع العَزْم والتصميم على جواب هذا السائل ، راجيًا من الله سبحانه أن يكون ذلك من أفضل القُرَب وأعظم الوسائل ؛ ودخلت من هذا الباب بعد أن قرعت ، وأخذت فى هـذا الغَرض وشرعت ، وشربت من ماء التَّصْنيف وكَرَعت ، وبذَرت فى أرض التَّأْليف وزَرعت ، هـذا[٣] مع أنى ما مَهرت ولا برعت ؛ ولا أتقنت لصناعة التأليف عملا :

لـكنْ قدرةَ مثلى غيرُ خافيةٍ والنّمل يُعْذَر فى القَدْر الذى حَملاَ

وكثيراً ما خرجتُ من الشىء إلى ما يناسبه ويدانيه ؛ وربما أبعدت

(١) شرينا (هنا) : بعنا .
(٢) فى ت : « تفتح » .
(٣) هذه الـكلمة « هذا » : ساقطة فى ت .

النُّجْعة[١] ، ثم وقعت الأوبة والرَّجْعة ؛ على رَغْم أنف قالِى ذلك وشانيه ، وقرّبت بذلك كلّه شاسعاً ، كى تسهل مئونته على مُعانيه ، وهصَرت أفنان ألفاظه ومعانيه ؛ ليَقْرُب اقتطافُه لجانيه ؛ وسميته[٢] « بأزهار الرياض ، فى أخبار عياض ، وما يُناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض » ؛ تسميةً وافقت إن شاء الله مَعْناه ، وناسبت منزله ومَغْناه ؛ لأنه جَمع أزاهرَ ذات ألوان ، من وَرْد وأُقحوان ؛ وبَهار[٣] ، عَرْفُه ذو انتشار[٤] ؛ ومَنثور ، روضه مَريع[٥] مَمْطور ، ونِسْرين[٦] ، يَفُوق أرَجه مِسْك دارين[٧] ؛ وآس[٨] ، عاطر الأَنْفاس ؛ وشَقِيق[٩] ، خَليق بالمَدْح حَقِيق ؛ ونَيلُوفَر[١٠] ، حازَ من المحاسن النصيبَ الأوْفر ؛ وأجريتُ جداول أنهار ، من الحكايات لسَقْى هذه الأزهار ؛ فأينع النُّوار ، وتألقت الأَنْوار ، وتفنَّن الناظر بين أَنْجاد وأغوار ، ولم يَدْرِ وقد انتقل من أطوار إلى أطوار ، وتأمل صَرْحا[١١] بُنى على غير [شفا[١٢]] جُرُفٍ هَار :

أَضياءُ هَدْىٍ أم ضِياءُ نَهـارِ ... وشَذا المَحامدِ أم شذا الأزهارِ

---

(١) النجعة (بضم النون) : الارتياد والطلب .
(٢) كذا فى ت وهو موافق للمصدر الذى بعده . وفى ط : « ووسمته » .
(٣) الأقحوان : نبت طيب الريح ، له نور أبيض كأنه ثغر جارية حدثة السن ، وهو البابونج بالفارسية . والبهار : نبت جعد له فقاحة صفراء ، طيب الرائحة .
(٤) فى ت : « ذو اشتهار » .
(٥) مريع : خصيب .
(٦) النسرين (بكسر النون) : ورد أبيض عطرى الرائحة .
(٧) دارين : فرضة بالبحرين ، يجلب إليها المسك من الهند . (عن معجم البلدان) .
(٨) الآس : الريحان .
(٩) الشقيق : نبات أحمر الزهر مبقع بنقط سود . وفى ط : « والشقيق » .
(١٠) النيلوفر (بفتح النون المشددة وكسرها) : نبات مائى ، له ساق أملس ، فاذا ساوى سطح الماء أورق وأزهر زهراً أبيض ، وسطه زعفرانى اللون .
(١١) فى ت : « سرحا » بالسين .
(١٢) زيادة عن ت .

وقد أفْصح تَرْجُمان التراجم عن عدِّها[١] وسَرْدها ، ولوَّح لنُكْتة الاختتام بنَيلوفرها والافتتاح بوَرْدها .

وهى هذه الترجمة :

الأولى : روضة الورد ، فى أوَّلية هذا العالِم الفرْد .

الثانية : روضة الأُقحوان ؛ فى ذكر حاله فى المَنْشأ والعُنْفوان .

الثالثة : روضة البَهار ، فى ذكر جملة من شيوخه الذين فَضْلُهم أظهر من شمس النَّهار .

الرابعة : روضة المنثور ، فى بعض ماله من منظوم ومنثور .

الخامسة : روضة النِّسْرين ، فى تصانيفه العديمة النظير والقَرين .

[٩] **السادسة** : روضة الآس ، فى وفاته وما قابله به الدهر الذى ليس لجُرْحه من آس .

السابعة : روضة الشَّقِيق ، فى جُمَل من [فوائده ، ولُمَع من[٢]] فرائده ، المنظومة نظم الدرّ والعَقيق .

الثامنة : روضة النَّيلوفر ، فى ثناء الناس عليه وذكر بعض مناقبه التى هى أعطر من المسك الأذفَر .

فدونَك أيها الناظر[٣] روضاتِ أزهار ، وجناتٍ تجرى من تحتها الأنهار ؛ أبوابها ثمانيه ، وقُطوفها دانيـه ؛ تعَطَّر منها نسيم الصَّبَا بزهر الآداب ، وسما إلى

(١) فى ط : « عددها » .

(٢) زيادة عن ت .

(٣) فى ت : « أيها الأخ النـاظر » .

مَحاسنها من تعلَّق من التاريخ بأهداب[(١)] ؛ لم أُسْبَق إلى مثلها فيما رأيت ، وإن بَعُدْتُ فيها عن المَهْيع المَطْروق ونأَيت ؛ والإنسان مُغْرَم[(٢)] ببُنَيَّات أفكاره ، وإن قُوبل ما صَدر منه بإنكاره ؛ وقد أَنْشَدَتْ بلسان حالها ، مخاطبة من رضى بانتسابها وانتحالها :

سَرِّحْ جُفونَكَ فى الحَدا ئق وأُجنِ أزْهار الرياضِ
مِن وَرْدٍ أَحْمَرَ أو شَقا ئقَ أو بَهارٍ ذى بَياض
وأشربْ بكاساتِ الرَّقا ئقِ من عُيون أو حِياض
وانظُر مناقب ذى الحقا ئقِ عالِم الدنيا عِياض

واكرع بماء التعريف زُلالا ، وأَدِرْ كأسَ التَّشريف حَلالا ؛ وأُروَ من هذا النهر ، واقطِف ما شئت من أصناف الزَّهْر ؛ وأَخطِر هذه الروضةَ ببالك ، وأدر إليها وجهَ قَبولك وإِقبالك ؛ فمؤلِّفها وإن لم يكن بمُصيب ، ولا ممن له فى الإجادة حظٌّ وافر ولا نصيب[(٣)] ، فمَنْ أَلَّفت فيه تَحْسن بإحسانه وتنال[(٤)] المرعى الخَصِيب :

سلام مثلُ عَرْف المِسك طِيبًا وحُسْنا مثل أزهار الرياضِ
على لَفْظِ الجَلالة والمَعالى إمام الدِّين والدنيا عِياض[(٥)]
إذا ما قِيس بالعُلَماء طُرًّا غدا بَحْرًا وأَضْحَوا كالحِياض

(١) فى ت : « قطفا إلى محاسنها من تعلق من التاريخ الأهداب » . وهى ظاهرة التحريف .
(٢) فى ت : « يقرع » وهو تحريف .
(٣) فى ط : « وافر ونصيب » .
(٤) أشير فى هامش ط فوق هذه الكلمة إلى رواية نسخة أخرى ، وهى : « وترعى » .
(٥) رواية الشطر الثانى من هذا البيت فى ت : « ومعنى المجد والعليا عياض » .

وكنت حين شرعت فى هذا المَجموع السامى ، وأطْلعت على بعضه صاحبَنا الفقيه العلامة الأصيل الحاجّ الرَّحال ، أبا الحسن سَيدى علىّ بن أحمد الخَزْرجىّ الشامىّ ، حفظ الله كماله ، وبلّغه آماله ، خاطبنى بقصيدة من نظمه ، أسْماه الله ، ألمّ فيها بذكر هذا الموضوع بما يقتضيه شرفُ خِلاله ، وكرمُ جَلاله ؛ وأشار فيها إلى نَقْض عَزْم الرِّحلة التى نَوَيت إذ ذاك[1] للمكان الشريف ، لا حرَمنا[2] الله من[3] مُشاهدته عن قُرب ، فى حفظ وعافية ، بمَنّه ويُمْنِه . وهى هذه ، وأنشدنيها من لفظه ، وكتبها بخطه ، وأرسلها إلىّ ، شكر الله صَنِيعه :

أَمُفْتِى الغرب أبدعْتُمْ طِرازًا ... نَثرتم فيـــه أَزهار الرِّياضِ[4]
ونَظَّمتمْ عُقودًا من لآلٍ ... لجِيد حُلَى المآثر من عِياض
وأَورقتم غُصونَ عُـــلاه لمّا ... سَقاها فِكرُكُمْ سَقْىَ الحِياض[5]
ونَمَّقتم مَطارِف ما رأَينا ... كطُرَّتهـا سَوَادًا فى بَياض[6]
ونادَيتمْ عَقائلَهَـــــا فذَلّت ... شَوامسُهـا إليكم بارْتِياض[7]
وأَسَّسْتم من الآثار طُرًّا ... قواعدَ لا تُساوَمُ[8] بانْتِقاض
لك التَّبْريز فى العَلْياء فاقضِ ... على عُلمائها ما أنت قاضى

[١٠]

(١) فى ت : « ذلك » .
(٢) فى ت : « لا أحرمنا » .
(٣) المسموع أن الفعلين (حرم ، وأحرم) يتعديان بنفسهما إلى مفعولين .
(٤) الطراز : علم الثوب ، أى ما فيه من نقش .
(٥) جاء بالفعل « أورق » هنا متعديا ، وهو لازم .
(٦) الطرة : نقش فى الثوب يخالف لونه ، يمتد على الجانبين .
(٧) العقائل : جمع عقيلة ، وهى النجيبة الكريمة ، والشوامس : جمع شامسة ، وهى الممتنعة .
(٨) كذا فى ط . ولا تساوم بانتقاض ، أى لا يطمع فى نقضها ، من المساومة ، وهى المجاذبة بين البائع والمشترى . وفى ت : «لا تسام» ، إلا أن الوزن لا يستقيم بها .

تَبَـــدَّيتُم بها بَدْرًا وحُزْتم خِصالَ سباقكم[١] دُون اعْتِراضِ
نُعِتُّمْ بالـكَمالِ بغَـيْرِ عَطْف وكُلُّهُمُ بذاكَ النَّعْت راضى
وما وَفُّوا بحقِّـكُمُ ولـكِنْ يُؤَدِّى البعضُ من بعضٍ افتراض
بعِلْمِـكُمُ شَفَيْتم أرضَ غَرْبٍ وكانت ذاتَ أحشاءٍ مِرَاض
ولمّـا أنْ بدَا منكم فِراقٌ تَوَقَّعَتَ أن يَئول إلى انقراض
وأنّ نُجومها بالبُعـد يُخْشَى عليها من سُقوط وانْقضاض
فأرْسلَ شافِعاً خِلٌّ حَشَـــاه بهذا البُعْد أَمْست فى انفضاض
يُذَكِّرُكُمْ ليـــالىَ نَيِّراتٍ بأُنْسكُمُ تُنير دُجَى المُضاض[٢]
يَوَدّ الطَّرْفُ يجعلها اكتحالاً مكانَ سَـوادِهِ دون اغْتِماض
بحقّ الله لا تُبـــدِى دُجاها بغَيْبةِ بَدْرِكم بعـــد اتِّماض[٣]
ولا تُهمِل شـفاعةَ مُسْتَهام صَدوق الوُدّ فى آتٍ وماضى
ودُمْ للدِّين والدنيـا إمامًا وبَحْرَ هُدًى علومُك فى افْتِياض
يَعُمُّ الأرضَ ما لاحت[٤] بُدورٌ وما فاحت أزاهِرُ فى رياض

يَكْرَع منه المملوكُ عَلًّا ونَهْلا ، ويَضْرع فى الجواب فِعْلاً لا قولا ؛ ويُعيد السلام التامّ ، الزكىّ العامّ ، على المجلس العلمىّ ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

انتهى ما كتب به صانه الله ، وأضفى عليه حُلَل المجد .

---

(١) فى ط : « سباقهم » .

(٢) المضاض (بالضم) : وجع يصيب العين (كما فى شرح القاموس) ؛ ويريد بدجى المضاض : ما يجده المريض بعينيه من سواد حالك .

(٣) اتماض : بريق ولمعان ؛ وهو افتعال من ومض . وفى ط « ائتماض » ، والصواب ما أثبتناه .

(٤) فى ت : « ما دامت » .

وقد ذَكرتُ فى هذا الكتاب حكاياتٍ مختلفة ، وفنوناً مفيدة[١] ، يَزْداد الناظر بها معرفة [حَسْبما[٢]] جَرَت بذلك عادة كثير من الأئمة فى مُصنّفاتهم ، ومجالس دَرْسهم . وقد قال الماوردىّ ، أقضَى القُضاة فى كتاب آداب الدين والدنيا[٣] : القلوب تَرْتاح إلى الفُنون المختلِفة ؛ وذَكر أنّ المأمون كان ينتقل فى قَصْره من موضع إلى موضع ، ويُنشد قولَ أبى العتاهية :

[١١] لايُصْلِحُ النفسَ إذ كانت مُدَبِّرَةً إلا التَّنقلُ من حالٍ إلى حالِ[٤]

وقال أبو حنيفة : الحكايات عن العُلماء أحبّ إلىّ من كثير من الفقه ، لأنها آداب القوم . وقال الشيخ سيّدنا أبو القاسم الجُنيد ، رضى الله عنه ، ونفعنا ببركاته : الحكاياتُ جُند من جنود الله ، يُقوّى الله بها أبدانَ المُريدين . وقال الإمام المَوّاق[٥] فى كتابه المسمّى «سند المهتدين[٦] » عن شيخه المَنْتورى ، بسنده إلى أبى العبّاس بن العريف ، قال : كنت فى مجلس أستاذى أبى على الصَّدَفى[٧] أقرأ عليه الحديث ، فقرأ يوماً الحديث ثم أغلق الكتابَ وجعل

(١) فى ت : « حكايات عظيمة ، وفنون بديعة » .
(٢) زيادة عن ت .
(٣) هو كتاب « أدب الدنيا والدين » كما فى كتب الفهارس .
(٤) النفس المدبرة : المشغولة بالتفكير فى الأمور .
(٥) كذا فى ط . والمواق ، هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن أبى القاسم خطيب غرناطة . وفى ت : « المولق » وهو تحريف .
(٦) كذا فى ط . وهو « سند المهتدين فى مقامات الدين » . والكتاب محفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٨٣٥ تصوف . وفى ت : « سنن المهتدى » وهو تحريف .
(٧) هو القاضى أبو على حسين بن محمد بن حيون بن فيرة الصدفى السرقسطى ، يعرف بابن سكرة وبابن الدراج . لم يكن بشرق الأندلس فى وقته مثله فى تقييد الحديث وضبطه ، والعلو فى روايته . توفى سنة ٥١٤ هـ . (راجع بغية الملتمس للضبى ، ونفح الطيب للمؤلف ، والصلة لابن بشكوال) .

يَحكى حكايات[١] الصالحين ، فوقع فى نَفْسى : كيف يُجِيز الشيخُ أن يَقْطع حديثَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ويحكى الحكايات ؟ قال : فما تمَّ لى الخاطرُ حتى نَظر إلىّ[٢] الشيخ شَزْراً ، وقال : يا أحمد ، الحكاياتُ جُنْدٌ من جنود الله يثبِّت الله بها قلوبَ العارفين من عباده . قال : فما بَقِى فى جَسدى شعرةٌ إلا قطَر منها العرق . فلما رآنى دَهِشت ، قال لى : يا أحمد ، أين مِصْداق ذلك من كتاب الله ؟ قلت : الشيخ أعلم ؛ قال : قوله تعالى : « وكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ » الآية . انتهى .

وهذا آوان الشُّروع ، وعلى الله قَصْد السَّبيل ، وهو حَسْبى ونعم الوكيل .

---

(١) كذا فى ت وسند المهتدين . وفى ط : « حكاية » .
(٢) كذا فى سند المهتدين ، وفى الأصلين : « نظرنى » .

روضة الورد فى أولية هذا الإمام الفرد[١]

نسب عياض

أقول ، وعلى الله أعتمد ، ومن بَحْر كرمه أَسْتَمِدّ :

هذه ترجمة نذكر فيها أصلَه ومَحْتِدَه ، وأَوَّلِيّته ومولدَه .

عند الوادى آشى

قال الشيخ الإمام الرّحال أبو عبد الله محمد بن جابر الوادى آشى[٢] ، الملقّب بشَمْس الدين ، رحمه الله ورَضِى عنه :

هو عِيَاض بن موسى بن عِياض بن عَمْرون بن موسى بن عِياض بن محمد ابن عبد الله بن موسى بن عياض اليَحْصُبىّ السَّبْتىّ . هكذا ذكر نسبَه الشيخُ أبو القاسم المّلاحى . وعَمْرون ، ثبت عنده بنون بعد الواو .

عند ابن الأبار

ووقع فى مُعْجم أصحاب الصَّدَفِىّ ، للإمام الشهير القاضى أبى عبد الله محمد بن عبد الله القُضَاعى ، المعروف بابن الأبّار : « عمرو » ، دون نون .

عند ابن خاتمة

قلت : ونحوه لابن خاتمة[٣] فى الكتاب المسمّى بـ « مَزِيّة المَرِيَّة ، على غيرها من البلاد الأندلسية » .

عند ابن الملجوم

وقال الشيخ أبو القاسم بن المَلْجوم :

إجتاز علينا القاضى عِياض عند انصرافه من سبْتة قاصدا إلى الحَضْرة ، زائراً لأبى بداره[٤] عشية يوم الأثنين الثامن لرجب ، سنة ثلاث وأربعين وخمس

---

(١) فيما سبق عند الكلام على تقسيم الروضات (ص ١٧ من هذا الجزء) : « العالم الفرد » .

(٢) هو محمد بن أحمد بن على الهوارى ، من أهل المرية ، كان كفيف البصر ، وهو من شيوخ لسان الدين بن الخطيب ، وصاحب البديعية المعروفة ببديعية العميان . وقد رحل إلى المشرق فى طلب الحديث . والوادى آشى : نسبة إلى وادى آش (ويقال فيه : وادى الأشات) . وهى مدينة جليلة من أعمال غرناطة . (عن نفح الطيب) .

(٣) ابن خاتمة : هو أحمد بن على بن محمد بن على بن محمد بن خاتمة الأنصارى ، من أهل المرية ، يكنى أبا جعفر . (راجع الإحاطة ونفح الطيب) .

(٤) فى ت : « فى داره » .

مِئَة ، وفى هذه العشية استجَزْته[(١)] ، وسألتُه عن نسبه ؛ فقال لى : إنما أحفظ : « عِياض بن موسى بن عِياض بن عمرون بن موسى بن عياض . وأحفظ أيضا بعد ذلك : محمد[(٢)] بن عبد الله[(٣)] بن موسى بن عياض . ولا أعرف أن محمدا هذا هو أبو عياض أو بينهما أحد » . انتهى كلام ابن الملجوم .

[١٢] وقوله « اجتاز علينا » يعنى بمدينة فاس ، وقوله « قاصدا إلى الحضرة » يعنى مَرّاكُش .

نزوله بدار ابن الغرديس

وأفادنى الشيخُ العارف المُتَبَتِّل ، الرَّبّانى البَرَكة ، سيدى حُسَين الزَّروِيلِيّ أبقى الله بركاته ، وأدام وُجوده والنفعَ به :

أن القاضىَ عياضاً ، رضى الله عنه ، لما دخل الحَضْرة الفاسيّة ، حاطها الله ، نزل بدار ابن الغرديس التَّغلَبى[(٤)] بزَنقَة حجامة ، حسبما أشار إليه ابنُ الأحمر ، ولم تزل هذه الدار إلى الآن بيد أولاد ابن الغرديس .

عند ولده محمد

وقال نجلُ عِياض الشيخُ الإمام أبو عبد الله محمدُ بن عِياض ، قاضى دانِيَة[(٥)] ، عَلى ما قال ابن خَلِّكان ؛ وقاضى غَرناطة ، على ماقال[(٦)] ابنُ قنفذ وغيرُه . ولعله تَولّى القضاء فيهما معا رحمه الله ، المتوفَّى سنة خمس وسبعين وخمس مئة :

(١) استجزته : طلبت منه أن يجيزنى ، أى يأذن لى بقراءة مؤلفاته ومروياته .
(٢) كذا فى ت ومعجم أصحاب الصدفى لابن الأبار ، وفيما سيأتى فى الأصلين . وفى ط هنا : « أحمد » وهو تحريف .
(٣) لم يذكر ابن الأبار « عبد الله » فى أجداد القاضى عياض .
(٤) هو محمد بن الغرديس قاضى فاس إذ ذاك . (انظر كتاب البستان لابن مريم طبع الجزائر صفحة ٥٤) .
(٥) دانية : مدينة بالأندلس من أعمال بلنسية ، على ضفة البحر شرقا . (عن معجم البلدان) .
(٦) فى ط : « ما قاله » .

« كان أبى يقول : لا أدرى : هل محمّد والد عياض ، أو بينهما رجل ؟ فهو جدّه » . انتهى .

وهو مثل ما حَكى ابنُ الملجوم عن عِياض ، كما سبق قريبا .

عند ابن خلكان

ورأيت فى تاريخ الشَّمس ابن خَلِّكان ، المسمى بـ « وفيات الأعيان » ، فى تَعْداد آباء القاضى عياض ، خلافَ ما سبق ؛ ولا أدرى : هل ذلك تَحريف من الناسخ أو وَهم من المؤلف ؟ ونصه : « عياض بن موسى بن عياض بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليَحْصُبى » . انتهى .

فأنت تراه قد أسقط « عمرون[1] » فيما بين عياض وموسى ، وأسقط أيضا « عبد الله » فيما بين « محمد » و « موسى » .

عند ابن خاتمة أيضا

وقد وافقه على إسقاط « عبد الله » الشيخُ العلامة ابن خاتمة فى « مَزِيَّة المَرِيَّة » ، فإنه قال فى باب العين ما نصه : « ومن الغُرباء : عِياض بن موسى ابن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصُبى[2] » . انتهى .

شىء عن ابن خلكان وابن خلدون

على أن ابن خَلِّكان وغيرَه من المشارقة ربما يقع لهم الغَلط فى تاريخ أهل المغرب ، لبعد الديار ، ولغير ذلك ، مما لا يخفى على من مارس علم التاريخ ؛ كما أن كثيراً من المغاربة لا يُحرِّرون تاريخ المشارقة ، لما ذكرناه ؛ ولذا قال شيخ الإسلام ابن حَجَر[3] فى تأليفه المسمى بـ « إنباء الغُمْر ، بأنباء العُمْر » حين عرَّف

(١) الذى فى وفيات الأعيان لابن خلكان المطبوع يخالف ما ذكره المؤلف ، إذ فيه : « عياض بن موسى بن عياض بن عمر بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي السبتى » بذكر « عمر » فى مكان « عمرون » .

(٢) ووافقهما أيضا ابن الآبار فى معجمه على إسقاط اسم « عبد الله » من نسب عياض .

(٣) هو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن على ، الشهير بابن حجر العسقلانى ، المولود سنة ٧٧٣ هـ ، والمتوفى سنة ٨٥٢ هـ .

بشيخه ولىّ الدين بن خلدون الحَضْرَمىّ المَغربىّ قاضى القضاة المالكية ، بالديار المصرية ، وهو صاحب التاريخ الكبير المشهور ، الموسوم : « ديوان العِبَر ، وكتاب المبتدأ والخبر ، فى تاريخ العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر[(١)] » ما نصه :

« وصنف التاريخ الكبيرَ فى سبع مجلدات ضخمة ، ظهرت فيه فضائله ، وأبان فيه عن براعته ، ولم يكن مطلعا على الأخبار على جَلِيّتها ، ولا سيّما أخبار[(٢)] المشرق ، وهذا[(٣)] بيّن لمن نظر فى كلامه » . انتهى .

وأين هذا الكلام وقولَ[(٤)] الشيخ[(٥)] شمس الدين البغدادى فى الشيخ ولىّ الدين عبد الرحمن بن خَلدون المذكور ، رحم الله الجميع :

قاضى القضاة ابنُ خَلدونٍ أتى عَجَبا تاريخُه مُخبِرٌ عن سائر الدُّوَلِ
قالوا وَلِىٌّ فقلنا من كرامتـهِ وكَشْفِه جاء يُنْبِينا عن الأُوَلِ[(٦)] [١٣]
وليس بِدْعا ولا فى الله مُمْتَنِعا أن يجمع العالَمَ الكُلِّى فى رجل[(٧)]

وبالجملة فما ذكرنا أولاً فى تَعداد آباء القاضى عياض ، رحمه الله ، هو الذى

---

(١) اسم الكتاب على النسخة المطبوعة ، وفى كشف الظنون ، وفى نفح الطيب : « كتاب العبر ، وديوان المبتدا والخبر ... » الخ .
(٢) كذا فى ط وإنباء الغمر . وفى ت : « أخبار أهل المشرق » .
(٣) كذا فى ط وأنباء الغمر المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٧٦ تاريخ . وفى ت : « وهو » .
(٤) فى ت : « من قول » .
(٥) هذه الكلمة : « الشيخ » ساقطة فى ت .
(٦) يشير بقوله : « ولى » إلى لقب ابن خلدون وهو : « ولى الدين » .
(٧) ينظر فى هذا البيت إلى قول أبى نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

عليه المعوّل ، وعليه أُعتمد ولدُه ، وابن الملجوم ، وابن بَشْكُوال [١] ، وابن جابر ، وابن الخطيب فى « الإحاطة » ، وغير واحد ؛ وكفى بهؤلاء حُجة . وناهيك بولده وابن المَلْجوم ، الذىأخذ ذلكمن لَفْظه ، حَسْبما سبق آنفا ؛ وهو الصواب الذى لا يُعْدل عنه ، والله تعالى أعلم .

الكلام فى ضبط «اليحصبى»

واليَحْصُبِىّ ، بضم الصاد وكسرها ، وزاد بعضهم فَتْحها [٢] ، ونحوه لابن خلكان ؛ واقتصر بعضُهم على الكَسْر قائلا : وهو الصواب ، بناء على أنها ، أعنى القَبِيلة ، يَحْصِب ، بكسر الصاد ، كتغلِب . ولا أشك أنّ النسب إليه إن كان بكسر الصاد : يَحْصِبِىّ ، بالكسر كتَغْلِبى [٣] ؛ وأما ضم الصاد فى النسب ، فهو مبنى على أن « يحصُب » بضم الصاد [٤] فى الحىّ . قال ابن سيده فى مُحكمه : ويَحصُب : قبيلة ، وإنما هى يحصُب ، يعنى بضم الصّاد ، نُقِلت من قولك : حَصَبه بالحصى يحصُبه ؛ قال ابن جابر : وليس بالقوىّ [٥] .

ويَحْصب : من حِمْير ، وهو يَحْصب بن مُدْرِك ، حسْبما هو مذكور فى كتب الأنساب .

محمد بن عياض يخبر عن موطن أجداده

قال القاضى أبو عبد الله محمّد بن القاضى أبى الفضل عِياض :

---

(١) لم يذكر ابن بشكوال فى الصلة غير : « عياض بن موسى بن عياض اليحصبى » .
(٢) زيد فى هامش ط عند هذه الكلمة : « فيكون مثلثا ، ونقل التثليث الجعبرى فى شرح الشاطبية ، وابن مالك فى مثلثاته ، وغيرها » .
(٣) يجوز فى النسب إلى تغلب ونحوه كسر الثالث وفتحه . وزيد فى هامش ط عند هذه الكلمة : « فيه نظر يعلم من شرح الشفاء للشهاب . وفى كتب الصرف فى التسهيل : الفتح ، وهو الجارى على قواعد النسب وإن كان بالكسر ، كأنه كنمر ونحوه » .
(٤) فى ط : « يعنى بضم الصاد » .
(٥) أى أن جعل الفعل من باب نصر ليس بالقوى ، وإنما القوى فيه أنه من باب ضرب .

« استقر أجدادُنا فى القديم بجهة بَسْطة[١] ، من بلاد الأندلس ، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس ، وكان لهم استقرار بالقَيْروان ، فلا أدْرى أ كان قبل استقرارهم بالأندلس أم بعده ؟ ولذلك يقول عبد الله بن حَــكيم :

وكانت لهم بالقَيْروان مَآثر عليها لِمَحْضِ الحق أوضح بُرْهانِ

قال :

وكان « عمرون » والد جدّ أبى ، رحمة الله على جميعهم ، رجلاً خيّرا صالحا ، من أهل القُرآن ، حَجّ إحدى عَشْرةَ حِجَّة ، وغزا مع ابن أبى عامر[٢] غزوات كثيرة ، وانتقل من مدينة فاسَ إلى مدينــة سَبْتة ، بعد دخول بنى عُبَيْد[٣] المَغْرب ، وكان سبب ذلك أنه كان له ولأبيــه نباهةٌ بمدينة فاس ، فأخذ ابنُ أبى عامر رُهُناً من أعيان مدينة فاس ، فأخذ فيهم أخَوىْ « عَمْرون » : عيسى والقاسم ، فخرج عَمْرون إلى مدينة سبْتة ، ليقْرُب من أخبارهما بمدينة قُرْطبــة ، فاستحسن سُــكنى مدينة سبْتة ، وكان مُوسِراً ، فاشترى [بها[٤]] أرضاً ، وهى المعروفة بالمَنارة ، فبنى فى بعضها مَسْجدا ، وفى بعضها دارا ، حَبَسها على المسجد ، وهو حتى الآنَ منسوب إليه ، وحَبَس باقى الأرض للدّفن ، ولم يزل منقطعاً فى ذلك المسجد إلى أن مات ، رحمه الله ، سنةَ سبع وتسعين وثلاث مئة . ووُلِد له قبل وفاته بيسير ابنُه عياض ، ثم وُلد لعياض ابنُه موسى ، ثم ولد لموسى ابنُه [١٤]

(١) بسطة : من أعمال جيان . (عن تقويم البلدان) .

(٢) هو المنصور محمد بن أبى عامر المعافرى الوزير الحاجب فى دولة المؤيد هشام بن الحــكم المستنصر الأموى . كان من أهل الفقه والحنــكة والدهاء ، وأبلى فى محاربة الإسبان أعظم البلاء .

(٣) يريد الفاطميين أولاد عبيد الله المهدى .

(٤) زيادة عن ت .

عياض ، أبى ، رحمهم الله أجمعين ؛ وذلك ، فيما رأيتـه بخطه ، فى النصف من شعبان عامَ ستة وسبعين وأربع مئة بسَبْتة » . انتهى .

شيء عن سبتة

والسَّبْتى : نِسبةٌ إلى سَبتة ، مدينة بساحل بحر الزُّقاق ، مشهورة ، واختُلِف فى سبب تسميتها بذلك ، فقيل لانقطاعها فى البحر ، من قولك : سَبَتُّ النعل : إذا قطعتها[1] ، وقيل لأن مختَطَّها هو سبْت بن سام بن نوح ، وإلى هذا الأخير يَنظُر قولُ لسان الدين الوزير الشهير ، العلّامة أبو عبد الله بن الخَطيب السَّلمانى الغَرْناطىّ ، رحمه الله ، من قصيدة :

حُييتَ يا مُخْتَطَّ سَبْتِ بن نوح بكل مُزْن يَغْتدِى أو يرُوحْ
مَغْنَى أبى الفضلِ عياضِ الذى أَضحتْ بِريَّاهُ رياضٌ[2] تفوح

وفيهما يقول الأديب أبو الحَكم مالك بن المُرَحَّل ، من قصيدة طويلة بديعةٍ[3] جدّا ، مطلعها :

سَلام على سَبْتَةِ المغرب أُخيةِ مكةَ أو يَثْرِبِ

وفى مَدْحِها يقول أيضاً رحمه الله :

اِخْطِر على سَبْتَةَ وانظرُ إلى جَمالهـا تَصْبو إلى حُسْنِهِ
كَأَنها عُود غِنـاء وَقَدْ أُلْقِىَ فى البَحْر على بَطْنِهِ

وقال الحِجَارى فى المُسْهِب :

« أول من سكن برّ العُدوة وبر الأندلس من ولد نوح بعد الطوفان ، سَبْت وأندلس ابنا[4] يافث بن نوح ، فنزل سَبْتُ فى آخر المَعْمور من بر العُدوة ،

(١) فى ط : « قطعته » . والمعروف أن النعل مؤنثة .
(٢) فى ت ونفح الطيب : « رياضا » .
(٣) هذه الكلمة « بديعة » ساقطة فى ت .
(٤) فى ط : « ابن » وهو تحريف .

و بنى له منزلا فى موضع سَبْتة ، فدُعيت[١] باسمه ، وتناسلت منه قبائل البربر ، واتسعت فى برّ العُدوة إلى أن بلغت إلى فِلَسْطين ، وكان مَلِكهم يسمى جالوت ، وكان مَجوسيّا ، وهزَمه طالوت ، وقتله داودُ ، فانضمّت البربر عن فِلسطين ، وعن الديار المصرية ، واقتصرت من بَرْقة إلى آخر المعمور ؛ وسكن أَخوهُ أندلس [مقابلا له فى[٢]] انتهاء المعمور ، فعرفت باسمه » . انتهى .

وأكثر بلاد العُدْوة فى الإقليم الثالث[٣] ، وفيه حَضْرتها مَرّاكُش ، وما قارب منها الأندلس كسَبتة[٤] وما قرب منها فى الإقليم الرابع .

قال ابن سعيد :

« ولا نُطالب فى هذا البر بما صنعناه فى الأندلس[٥] ، فأهل الأندلس إما عرب أو متعربون[٦] ، قد توارثوا قوام اللسان[٧] وحافظوا عليه ، وأهل بر العُدوة إما بَرْبَر أو مُتَبَرْبِرون » . اهـ .

وصف ابن الخطيب لسبتة

وفى وصْفِها يقول لسانُ الدين بن الخطيب فى مَقامة وصف البلدان :

« قلت : فمدينة سَبْتة ؟ قال : تلك عروس المَجْلَى[٨] ، وثَنِيّة الصَّباح الأَجْلى ؛

---

(١) فى ت : « فعرفت » .
(٢) زيادة عن ت .
(٣) هذا حسب التقسيم الجغرافى القديم . (انظر تقويم البلدان لأبى الفداء ، ومسالك الأبصار للعمرى ، ونزهة المشتاق للإدريسى) .
(٤) كذا فى ط . وفى ت : « وما قاربها منها الأندلس كسبتة فى الإقليم الرابع » .
(٥) فى ت : « فى هذا الفن عما صنعنا بالأندلس » .
(٦) كذا فى نفح الطيب (ج ١ ص ٦٣ طبع مصر) . وفى الأصلين : « فكان أهل الأندلس إما عرب أو متعربون » .
(٧) كذا فى نفح الطيب وفى ط : « أقوام الأندلس » . وفى ت : « قدام الأندلس » ولا يستقيم بهما الكلام .
(٨) فى ط : « مجلى » .

تبرّجت تبرّجَ العَقِيله ، ونظرتْ وجهَها من البحر فى المرآة الصّقيله ، واختصّ ميزانُ حَسناتها بالأعمال الثقيلة ؛ وإذا قامت بيضُ أسوارها[١] ، وكان جبل بلْيونش[٢] شمَّامةَ أزهارها[٣] ، والمنارةُ منارةَ أنوارها ؛ فكيف[٤] لا ترغب النفوس فى جِوارها ، وتَهيم الخواطر بين أنجادها وأغْوارها ؛ إلى الميناء الفلكية ، والمراقى الملكية[٥] . والرَّكيّة[٦] الزَّكيّة ، غير المَنْزورة[٧] ولا البكية[٨] . ذات[٩] الوقود الجَزْل ، المعدّ للأَزْل[١٠] ، والقُصور المقصُورة على الجدّ والهزل ؛ والوجوه الزُّهر السِّحَن ، المَضْنون بها عن المِحَن ؛ دار الناشبه[١١] ، والحامية المُضْرِمة للحرب المُناشِبه[١٢] ؛ والأسطول المرهوب ، المحظور الألْهوب[١٣] ، [١٥] والسّلاح المكتوب المحسوب ، والأثر المعروف المنسوب ؛ كرسى الأمراء والأشراف ، والوسيطه ، لخامس أقاليم البسيطه ، فلا حظَّ لها فى الانحراف ؛

(١) فى ت : « أصوارها » وهو تحريف .
(٢) كذا فى تقويم البلدان لأبى الفداء إسماعيل ، والمغرب ، فى بلاد إفريقية والمغرب ، للبكرى ، وفى نفح الطيب للمؤلف فى بعض مواضع ، وفى الاستبصار ، فى عجائب الأمصار ، عند الكلام على سبتة ، وفى الأصلين هنا وفيما سيأتى : « بنيونش » .
(٣) الشمامة : ما يتشمم من الأرواح الطيبة . يريد أن جبل بليونش أعطر رياضها .
(٤) فى الأصلين ونفح الطيب : « كيف » .
(٥) فى ت : « الفلكية » .
(٦) الركية : البئر . ورواية هذه الكلمة فى الأصلين « الذكية » وظاهر أنها محرفة عما أثبتناه . ويعين عليه قرينتا « المنزورة والبكية » بعده .
(٧) المنزورة : القليلة الماء .
(٨) البكية : القليلة الماء . ورواية هذه الكلمة فى الأصلين : « المبكية » وظاهر أنها محرفة عما أثبتناه .
(٩) يريد سبتة .
(١٠) الأزل : الضيق والشدة .
(١١) كذا فى ت . والناشبة : القوم الذين يرمون بالنشاب ، أى النبل .
(١٢) يقال : ناشبه الحرب ، أى نابذه .
(١٣) الألهوب (هنا) : السطو والبطش ، مأخوذ من ألهوب الفرس ، وهو اضطرامه فى عدوه .

بَصْرة علوم اللسان ، وصَنْعاء الحُلل الحسان ، وثمرة امتثال قوله : « إنّ اللهَ يأمُرُ بالعَدْلِ والإِحْسَان » ، الأمينة على الأختزان ، القويمة المكيال والميزان ، مَحْشَر أنواع الحيتان ، ومَحطّ قوافل العَصِير والحرير والكَتّان ، وكفاها السكنى ببَلْيونش فى فصول الأزمان ، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان ؛ والمَدْفن المرحوم غير المزحوم ، وخزانة كتب العلوم[1] ، والآثار المُنْبِئة عن أصالة الحُلوم ؛ إلا أنها فاغرة الأفواه للجَنوب[2] ، للغيث المَصْبوب ، عُرْضة للرياح ذات الهُبوب ، عَديمة الحَرْث فقيرة من الحُبوب ، ثغر تَنْبو فيه المضاجع بالجُنوب ، وناهيك بحَسَنة تُعَدّ من الذنوب ؛ فأحوال أهلها رقيقه ، وتكلّفهم ظاهر مهما ظهرت وَلِيمة أو عَقِيقه[3] ، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقه ، وأنساب نَفَقاتهم فى تقدير الأرزاق عريقه ؛ فهم يَمَصّون البُلالة مصّ المَحاجم[4] ، ويجعلون الخبز فى الولائم بعَدد الجماجم ، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم ، بالبشير المهاجم[5] ، وراعِى الجَدِيب بالمطر الساجم[6] ؛ فلا يفضّلون على مدينتهم مدينه ، الشك عندى فى مكة والمدينه » . انتهى .

قلت : ولعله عرّض بقوله : « الشك عندى فى مكة والمدينة » ، بقول مالك بن المُرحّل : « أُخَيَّة مكة أو يَثْرِب » . والله أعلم .

الشريف أبو العباس وحفاوته بابن الخطيب

وكان لسان الدين بن الخطيب كثيراً ما ينزل فى وِجْهاته المَغْربية ، عند الشريف الشهير ، سيدى أبى العباس أحمد بن سيدى محمد ، ابن سيدى أحمد ،

(١) هذه العبارة : « وخزانة كتب العلوم » . ساقطه فى ت .
(٢) فى ت ونفح الطيب : « أفواه الجنوب » .
(٣) العقيقة : الطعام يدعى إليه الناس عند حلق شعر المولود .
(٤) المحاجم : جمع محجم ، أو محجمة ، وهى شبه الكأس يمص به الدم من الجسم .
(٥) فى ت : « الهاجم » .
(٦) المطر الساجم : القليل .

ابن سيدى طاهر(١) ، ابن سيدى رفيع ، ابن سيدى علىّ المدعو بالمكين ، ابن سيدى أحمد ، ابن سيدى علىّ ، ابن سيدى أبى الطاهر ، ابن سيدى الحسين ، ابن [سيدى(٢)] مَوْهوب ، ابن سيدى أحمد ، ابن سيدى محمد ، ابن سيدى طاهر ، ابن سيدى الحسين ، ابن مولانا على ، المدعو بالهادى ، ابن مولانا محمد ، المدعو بالجواد ، ابن مولانا علىّ الرِّضا ، ابن مولانا موسى ، المدعو بالكاظم ، ابن مولاى جعفر الصادق ، ابن مولاى محمد الباقر بن زين العابدين ، ابن مولاى على ، ابن مولانا الحسين الشهيد(٣) ، ابن مولانا أمير المؤمنين ، مولانا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ونفعنا ببركة هؤلاء السادات ، الذين سرَدْنا أسماءهم تبرّكا بها .

قال صاحب كتاب « الكواكب الوقّادة ، فى ذكر من دُفن فى سَبْتة(٤) من العلماء والصلحاء القادة » :

« كان هذا السيّد الشريف يُوسِع ابنَ الخطيب إكراما ، وكان من عادة الشريف المذكور أن يخرج إلى بساتينه فى المَصيف بقرية بَلْيُونش ، كمُنية العبا ، وجنَّة الحافة ، ويجلس فى القبة السامية المُطِلّة على البحر بجنة الحافة ، ويجعل الطريقَ تحته ، فإذا رأى جماعةً سائرين من أىّ صِنف كانوا ، من التجار أو الغرباء أو البلديين ، يوجّه رجالَه إليهم ، ويقدّم لهم الطعام ، ويرتاح إلى ذلك ، ويُسَرّ به ، ويُؤْنِس كُلاًّ بما يُناسبه ، من ذِكْر عيون أخبار بلده(٥) ، وخاصيّة قُطره ، وما يَجُرُّ إلى ذلك ويرجع إليه ، من بديع الحكايات ، ولطيف [١٦]

(١) فى ت : « الطاهر » .
(٢) زيادة عن ت .
(٣) فى ط : « الشهير » .
(٤) فى ت : « بسبتة » . واسم هذا الكتاب فى البستان لابن مريم (ص ٣١٤) : « الكواكب الوقادة ، فيمن كان بسبتة من العلماء والصالحين القادة » .
(٥) فى ت : « بلاده » .

النوادر ؛ ثم يأمر بإدارته على تلك البساتين ، ورؤية ما بها من المصانع[١] ، ثم يبعث وراء آخرين ، ويُنْزل كلَّ واحد منزلته ؛ ويغيب[٢] عمن يُخْجله حضورُه ؛ ويُغْضِى عن مُداعبةٍ إن وقعت ، ويتجاهل الهفوةَ إن بدرت . وكان يُخرِج الوزيرَ ابن الخطيب — عند نزوله عنده — إلى هذه القرية البَلْيونشية .

شعر لابن الخطيب فى بليونش

ومن بديع نظم ابن الخطيب فيها :

بليونشٌ أسنَى الأماكن رفعةً وأجلّ أرْض الله طُرًّا شانَا

هى جَنّة الدنيا التى مَنْ حَلَّها[٣] نال الرِّضا والرَّوْح والرَّيْحانا

قالوا القُرود بها فقلت فَضِيلة حيوانُها قد قاربَ الإنسانا[٤]

شعر لعياض فيها أيضا

وفيها يقول القاضى عياض[٥] :

بَليونش جَنّـــة ولــكنْ طريقُها يَقْطع النِّيـاطا

كجنّــة الخُلْد لا يَراها إلا الذى[٦] جاوَز الصِّراطا

وصف ابن حيان لها

ونقلتُ من خط ابن حيّان[٧] — بعد كلام فى سَبْتة — ما نصّه :

« ومتنزّهاتها أعظمها بليونش ، تحتوى على مياه عيون ، وأودية ، ومتنزهات ، وأبنية عظيمة ؛ وفيها من جميع الأشجار والثمار » .

---

(١) المصانع : جمع مصنع ، أو مصنعة (بفتح النون وضمها) ، وهى شبه الحوض يجمع فيها ماء المطر ؛ والمصانع (أيضا) : المبانى من القصور ونحوها .
(٢) فى ت : « وينيب » .
(٣) فى ت : « من شأنها » . ولا يستقيم بها الكلام .
(٤) قال فى الاستبصار : « وعلى قرية بليونش المذكورة جبل عظيم فيه القردة » . وسيعرض المؤلف لهذا بعد قليل .
(٥) نسب هذان البيتان فى تقويم البلدان لابن عياض .
(٦) كذا فى تقويم البلدان . وفى الأصلين : « إذا » ، وما أثبتناه أظهر .
(٧) فى الأصلين : « أبى حيان » وهو تحريف .

شعر للمنصفى فيها أيضا

وفيها يقول أبو الحجّاج المَنْصَفِىّ (١) :

بَلْيونش شَكْلُها بَديع أُفْرِغ فى قالَب الجمالِ (٢)
فيها الذى ما رأته عَيْنِى يومًا ولم يخْتَطر ببالى (٣)
طريقُها كالصدود لكن تَعْقُبُه لذّةُ الوِصال (٤)

شعر الكميلى فيها

قال ابن رشيد :

وأنشدنى القاضى أبو عبد الله محمد بن أبى عبد الرحمن الكُمَيْلى (٥) قاضى أَزَمُّور (٦) فيها :

بَليونش كلّها عَذَابُ (٧) فالمَشْى فى سُبْلِها عِقابُ (٨)
يَكْنُفُها شامخٌ مُنيف كأنه فوقها عُقاب

وهذا الشامخ يعرف بجبل موسى . [وإليه أشار المَنْصَفىّ فى مخمّسة :

وطَوْدُ موسى (٩)] لها تاج على الراس

وبهذا الجبل متعبّد مبارك ، وبساحله مَغْطِس المَرْجان ، ومن عجائب هذا المتعبّد أن من دخله ممن ليس له أهلاً فإنه يجد فى عنقه (١٠) صَفْعاً إلى أسفل الجبل ؛ وهو مسيرة ثلاثة أميال ، وهو من سَبْتَه على تسعة أميال ، وبهذا الجبل منشأ

(١) نسبة إلى « منصف » بفتح الميم والصاد ، من قرى بلنسية .
(٢) فى ط : « فى قالب كمال » .
(٣) لم ترد صيغة « اختطر » فى القاموس وشرحه ولا فى اللسان ولا فى الأساس .
(٤) فى ط : « من الصدود لكن » وهو تحريف .
(٥) فى ت : « الأبلى » .
(٦) أزمور (بفتح الهمزة والزاى المعجمة وتشديد الميم ثم واو وراء مهملة) : من مدن بر العدوة على ميلين من البحر . (عن تقويم البلدان) .
(٧) فى ط : « عقاب » .
(٨) فى ط : « عذاب » .
(٩) زيادة عن ت .
(١٠) فى ط : « فى شقه » .

القُرود ، وهو مستشرف على بعض الأندلس . و بسَبْتة مدرسة بناها أبو الحسن الشارى[١] ، ووقف بها كتباً عظيمة .

و بموضع يقال له التوتة يوجد كثير من الياقوت الأحمر[٢] دقيق[٣] . ومن عجائبها أن البُلّارج[٤] لاتعشّش فيها[٥] ، وقلّما تخطِر عليها . ويقال إنها[٦] بناها سبت بن سام بن نوح ، وإنه دَعا لها باليُمْن والبركة ، وروَوْا فى ذلك حديثاً عن مالك عن نافع عن ابن عمر . قال عياض : وأبرأ أنا من عُهْدَته ، وقد خرّجه فى الغُنية ، ولذلك قال بعض الشعراء :

فكل جبّار إذا ما طغَى وكان فى طُغْيانه يُسْرِفُ
أرسله الله إلى سَبْتةٍ فكل جَبّار بها يُقْصَفُ

أنشدها أبو عبد الله محمد بن حمادة [البُرْنُسِىّ[٧]] ، خال أبى لأمه[٨] ، فى كتابه المسمى بـ « المقتبَس ، فى أخبار المغرب والأندلس » .

شعر المنصفى فيها

ومن نظم المَنْصَفى فى بليونش من قصيدة :

انظُر إلى نَضْرَة زهر الرُّبَا كأنه وَشْى على كاعبِ
ومَتِّع الطَّرْف ببَلْيُونشٍ ومائها المُنبعثِ السّاكب
تشاركتْ والحسن فى وصفها تَشارُكَ العين مع الحاجب

(١) فى ت : « الشاوى » .
(٢) فى ت : « كسر من الياقوت السمر » .
(٣) كذا فى ت : وقد وردت هذه الكلمة مطموسة فى ط .
(٤) البلارج : اللقالق . (عن تكملة المعجمات العربية لدوزى) .
(٥) فى ت : « بها » .
(٦) فى ت : « إنه » .
(٧) زيادة عن ت . والبرنسى : نسبة إلى برنس (بوزن قنفذ) : قبيلة من البربر ، سميت بهم مساكنهم .
(٨) فى ت : « قال أبى لأمه » . وهو تحريف .

وقد أَرَتْنا[١] اليومَ من حُسْنِها ما لم يكن فى زَمَن الحاجِب

— والحاجب : أحد[٢] ملوك سبتة ؛ [وله عمل ابن مَرَانة[٣] قصيدة فى الـكوائن والحوادث[٤]] —

فعّالَةٌ بالطَّبْع فى أَهْلِهـــا ما تَفْعل القَهْوةُ بالشـــارِبِ
تُذكِّر الشيخَ زمانَ الصِّـــبا وتُفْسِد[٥] التوبةَ للتـــائب

وله :

انظر إلى بَهْجـــة بَلْيُونشٍ وحُسْنِ ذاكَ المَنْظر اللّامِـعِ
تَحكى الثُّريّا عندما أُسْرِجَتْ بلَيلَة الخَتْمـــــة فى الجامع[٦]

مثل من كرم الشريف أبى العباس

ولما قَفَل السلطان الأَشْهر أبو عبد الله محمد بن يوسف بن الأَحْمر من المغرب ، حين رجوعه إلى بلده[٧] مع قاضى حَضْرته غَرْناطة ، أبى الحسن على بن الحسن ، المعروف بالنَّبَاهِىّ شيخِنا ، ووزيره أبى عبد الله بن الخطيب ، صنع له ضيافة مُلوكية[٨] بالمُنْية ، من قرية بَلْيونش المشار إليها ، حيثُ القصر هنالك ، وعُنصر

(١) فى ت : « رأتنا » .
(٢) فى ت : « آخر » .
(٣) كذا فى معجم البلدان طبعة أوربة عند الـكلام على سبتة . وفى ت : « مراتة » بالتاء المثناة الفوقية .
(٤) زيادة عن ت .
(٥) فى ط : « وتكسر » .
(٦) فى ت : « بالجامع » . ولعله يريد بليلة الختمة ما يفعله أهل المغرب من الاحتفاء بختم حفظ القرآن أو تفسيره أو ختم صحيح البخارى فى حفل عام بالمساجد تضاء له الأنوار ، ويحضره الناس خاصتهم وعامتهم . وقد أفاض فى شىء من ذلك ابن أبى دينار فى كتابه « المونس ، فى أخبار إفريقية وتونس » .
(٧) فى ت : « ملـكه » .
(٨) كذا هنا وفيما سيأتى . والنسبة إلى الملوك : « ملـكى » ، وشاع على أقلام بعض الـكتاب كالجاحظ : « ملوكى » .

الماء المختص بها . ومن هناك ركب البحر ليلا ، وذلك فى جُمادى الأُخْرَى[(١)] من عام ثلاثة وستين وسبع مئة . وفى الحادى والعشرين من الشهر المذكور دخل دار ملكه حمراء غَرناطة ، وأكل من فضل هذه الضيافة مُعظمُ من كان بالقرية ، من قوىّ وضعيف ، ورفيع ووَضيع .

ثناء أبى الحسن النباهى على الشريف وشىء عنه

وكان شيخنا القاضى أبو الحسن المذكور يُثْنِى عليه ، ويُعظِّمه تعظيما يَليق بمثله ، ويقول فى أثناء حديثه : فعل أبو العباس الشريف صاحب سبتة كذا ، وصنع كذا . ولم تزل حالته هذه ، رحمة الله عليه ، إلى أن أَسنَّ وأُقْعِد ، فلزم منزله ثلاث سنين ، من غير أن يَنقُص ذلك من مَنصِبه شيئا ، ولا من انتفاع الناس به ؛ وكان أبيضَ اللون ، حسنَ الهيئة والملبَس ، يخضِب بالحِنَّاء ؛ [١٧] وتُوُفِّىَ فى زَمانته وقد نَيَّف على[(٢)] الثمانين ، عامَ ستة وسبعين وسَبْع مِئة ، وله الآن قَرابة بمدينة فاس بقَيْد الحياة » .

انتهى كلام صاحب الكواكب الوَقّادة باختصار ، و بعضه بالمعنى .

شعر للشريف

ومن نظم هذا الشريف ، ممّا أمر به أن يُنقش بالقبة المذكورة آنفاً فى معنى الاستعاذة :

وَثِقتُ باللهِ رَبِّى وحَسْبِىَ اللهُ حَسْبِى
واللهُ كافٍ وواقٍ ودَافِعٌ كُلَّ خَطْب
ولستُ أخشَى إذا ما وَثِقْت باللهِ رَبّى
بلَغْتُ فيها مُرادى مُهَنّأً مع صَحْبِى
والخَمْسُ تَفْقَأُ عَيْناً لكلِّ حاسدِ نَدْب[(٣)]

(١) فى ط : « الآخر » .
(٢) فى ط : « عن » وهو تحريف .
(٣) الندب : الخفيف فى الحاجة الظريف .

حفاوة أبي عنان بالشريف أبي العباس ومنزلته فى سبتة

وكان السلطان المرحوم أبو عِنان فارس ، ابن السلطان أبي الحسن المَرِينِيّ يُجِلُّ هذا الشريف ، ويعترف له بالفضل ، ويعطيه العطاء الجَزْل ، وكان يستدعيه كلَّ سنة إلى حضرته فاس ، لحضور المولِد السعيد ، الذى سَنَّه ببلاد المَغْرِب الشيخ أبو العباس العَزْفِيّ ، وتلك السُّنَّة باقية إلى الآن بحسن نيَّته ، واعتنائه بالجَناب العَلِيّ[١] ، نفعه الله بذلك ، ويَخلع عليه الخِلَعَ المُلُوكيَّة ، ويُعِدُّ له دينارا مَشْكُوكا يُصْنع بمدينة مَرَّاكُش ، زِنته مِئَةُ دينار ذهبا ، يدفع له ذلك مع جائزته ، إلى غير ذلك مما كان يُتْحِفه به ، رحمه الله ، ويصحبه فى وِجْهَته تلك من الضعفاء والتجار ما لا يُحصى كثرة ، ويتولّى هو الإنفاقَ على الجميع من ماله ، ويرفع[٢] عنهم اللوازمَ المَخْزَنيّة ، فكان التجّار لأجل ذلك يَرْصُدون وقت سَفره وقُفوله . وقدّمه السلطان أبو عِنانٍ المذكور ناظرا على بلده سبتة ، وأمر صاحب قَصَبتها ألا يقطع أمرا إلا بمَشورته ، فكان العمّال يخافونه ويشاورونه ، فإذا رأى من أحدهم خُرُوجاً عن العادة ، أو حَيْفا على الرعية ، كتب إلى السلطان فى شأنه ، فيَعْزله من فَوْره ، ويُعَوِّضه بغيره . وكان يقول للسلطان : لعلّكَ تَحْسبنى خَدِيما[٣] ، لست كذلك ، وإنما نحن معشرَ أهل البيت شُفعاء فى الدنيا ، وشفعاء فى الآخرة . فكان أهل سبتة فى أيامه فى عيش هنىّ ، ونَعْمة شاملة ، بقى على هذه الحالة المَرْضية مدة عشرين سنة . وله بسبتة آثار تحكى الآثار العَزْفية[٤] ، كالرياض[٥] [١٨]

(١) فى ت : « العالى » .
(٢) فى ت : « يدفع » .
(٣) يريد : « خادما » . ولم تنقل المعاجم : « الخديم » بمعنى الخادم ، لكن شارح القاموس ذكر هذه العبارة : « والخدمان (بالضم) : جمع خادم ، هكذا تقوله العامة ، وكأنهم تصوروا فيه جمع خديم » .
(٤) فى ت : « العربية » .
(٥) كذا فى الأصلين هنا وفيما سيأتى ، يريد به القصر وما يحيط به من بساتين ، وقد يجرى فى لسان المغاربة حتى اليوم استعمال لفظ الرياض مفردا مذكرا بهذا المعنى .

الأعظم ، الذى أمام باب الميناء الأسفل الذى تأنق فى بُنيانه وأبدع صَنْعته ، وجلب إليه الماء بالدواليب حتى أوصله إلى القبة ذات الأعمدة ؛ وكالرياض الذى بالصَّفَّارين ، حيث كان قعوده مع خواص الناس وعامتهم .

قال صاحب الكواكب الوقّادة :

وصف أحد كتّاب الشريف له

« سمعت أحد كتّابه الخاصَّ به ، الملازمَ له ليلا ونهارا ، مع مرور الأيام والسنين ، يقول : ما أمرنى قطّ سيدى ومولاى الشريف بكَتْب شىء مخالف للشرع ، بل فى رفع المظالم ، وإنهاء الشفاعات ، وتوجيه الأمانات ، وما فى معنى ذلك ، مما نَدَبَ إليه الشرعُ ، وحضّ عليه ، ووعد بالثواب على فعله . وطالما سمعت الكاتب المذكور يُقسم على ذلك ، نفعه الله [به] »[1] . انتهى .

دواة أبى عنان وشعر مكتوب عليها

قلت : تذكرت بهذا الفعل الجميل ما كتب [به][1] على دواة أمير المؤمنين أبى عِنَان ، رحمه الله ، وهو :

أَنا دواة فارس ... أبى عِنانَ المعتمدْ
حَلَفْتُ مَن يكتبُ بى ... بالواحد الفَرْد الصَّمَد
أَنْ لا يَمُدّ مَدَّةً ... فى قَطْع رِزْق لأحَد

وقد رأيت فى هذه الأيام دواةً فى غاية ما يكون من الإتقان والصنعة والتذهيب ، وفيها مكتوب البيتان الأخيران ، وهى عند بعض أصحابنا الكُتَّاب بالحَضْرة الفاسِيَّة — حاطها الله — وأظنها هى الدواة التى كانت لأبى عنان ، والله أعلم .

---

(١) زيادة عن ت .

رجع إلى ذكر الشريف

شيء من كرم الشريف وشعره

وكان الشريف المذكور يصنع أنواع المطاعم الرفيعة ، ويتبسط فى ألوانها ، ويطعمها الغنى والفقير ، والقوى والضعيف ، ممن يحضُر مجلسه أو يأتى إليه ، وبالجملة فهو قُطْب الجود الذى عليه المدار ، وإمام الأدب الذى لايجاريه الرَّضِيُّ ولامِهْيار ؛ ومن نظمه ، وقد ساير قاضى الجماعة بحضرة غرناطة ، أبا البركات البَلْفِيقِي[(١)] الشهير بابن الحاج السُّلَمى ، من ولد العباس بن مِرْداس رضى الله عنه ، زمن الشبيبة فى بعض أسفاره ببرّ الأندلس ، فلما انتهيا إلى قرية بِزِلْيانة[(٢)] وأدركهما النصب ، واشتد عليهما حرّ الهجير ، نزلا وأكلا من باكر التين الذى هنالك ، وشربا من ذلك الماء العَذْب ، واستلقى أبو البركات على ظهره تحت شجرة مستظلا بظلها ، ثم التفت إلى الشريف وقال :

ماذا تقول ، فَدَتْكَ النفس فى حالى ... يفنى زمانىَ فى حَلّ وتَرْحالِ[(٣)]

وأُرتِجَ عليه ؛ فقال لأبى العبّاس : أجز ؛ فقال بديها :

[١٩] كذا[(٤)] النُّفوس اللواتى العزُّ يَصْحَبها ... لا ترتضى بمُقام دون آمال

---

(١) البلفيق : نسبة إلى بلفيق (بالفتح ، ويروى بتشديد اللام المكسورة مع كسر الموحدة) : حصن بالمرية . (عن تاج العروس) .

(٢) كذا فى معجم البلدان . وبزليانة (بكسرتين وسكون اللام) : بليدة قريبة من مالقة بالأندلس . وفى ط ونفح الطيب (ج ٤ ص ٢٤٩ طبعة مصر) : « ترليانة » . وفى ت : « قرليانة » .

(٣) فى ت : « فى حل وترحالى » .

(٤) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « إن » .

دَعْهَا تجُوب الفَيافى والقِفارَ إلى أن تبلغ السُّؤْلَ أو تَفْنَى بتَجْوال(١)

أشراف سبتة

وكان عطاء هذا السيد الشريف المرسوم له من بيت المال ، ثلاثين ديناراً من الذهب العين(٢) فى رأس كل شهر ، وهو خاتمة الشرفاء العظام بمدينة سبتة . ولهؤلاء الشرفاء بمدينة سبتة نحو الثلاثين قبراً ، فى روضتهم المنسوبة إليهم ، بالجانب الشرقى من رابطة الفصال . وهؤلاء الشرفاء من ذُرية أبى الطاهر الذى خرج من جزيرة صِقِلية ، وكانت لهم بسبته وجاهة(٣) وسياده ، وجلالة ومَجاده ؛ لمكان بيتهم الشريف ، ونسبهم العالى المنيف ؛ ما منهم واحد إلا غَذَاه العلمُ بلِبانه ، والأدبُ ببيانه . ووَلِىَ منهم قضاء بلدهم سبتة رجلان ، لم يُطلِع مثلَهما المَلَوان ؛ تُقًى وعِلْماً ، وأناة وحِلْما ؛ أولهما القاضى أبو الشرف(٤) رفيع ، والثانى ابنه القاضى أبو الحسن علىّ . وكم نشأ عن هذا الأصل الطاهر من جِهْبِذ نِحرير ، وعالم ماهر ؛ وسخىّ جواد ، له إلى الإعطاء(٥) ارتياح وإلى الكرم استناد(٦) ؛ وناهيك بخاتمتهم أبى العباس المذكور .

دخل الشريف من مضرب الميناء وما كان ينفقه فيه

وكان فائد مَضْرِب(٧) الميناء لهذا الشريف أبى العباس الحسينى ، دون أن يَشْرَكه غيره ؛ وكان له بمَضْرب أويات يوم يضرب فيه ، ويومان لبيت المال ،

(١) رواية هذا البيت فى نفح الطيب :

دعها تسر فى الفيافى والقفار إلى أن تبلغ السؤل أو موتا بتجوال

وزاد بعده :

الموت أهون من عيش لدى زمن يعلى الأثيم ويدنى الأشرف العالى

(٢) فى ت : « ذهبا » .

(٣) فى ط : « وجهة » .

(٤) فى ط : « الشريف » .

(٥) فى ت : « العطا » .

(٦) فى ط : « استناح » وهو تحريف .

(٧) المضرب (كما هو ظاهر من السياق هنا) : سوق يتخذها حاكم الميناء لبيع مايستخرج من السمك ونحوه .

وكانت عادة عامل المَضارب ، الناظر فى فوائدها وما تحتاج إليه من نفقة وآلة ، أن يأمر رجاله وأعوانه ، حين يُقْعِد النَّواتِيّةُ الـكيسَ ، بالوقوف إليه ، والدفاع عنه ، بعد أن يُحضر الشهود ، خَفْراً وضبطاً لما يحصُلُ من فائد[(١)] المضرب المالى فى يومه[(٢)] ؛ فإذا كان يوم [السَّيِّد[(٣)]] الشريف يأمر رجاله وخدّامه وأعلاجه[(٤)] الإسلاميين ، بإباحة المضرب للمساكين ، وتفريق الحوت على من لا يصل إليه ، ممن يحضر متنزِّها ، إما لحفظ مروءة ، وإما لغير ذلك . ولا يزال الناظر من قِبَله ، وهو القائد فارح أحد أعلاجه ، واقفاً على حصانه ، وقد أحاطت به رجاله ، إلى أن يرْضى كلّ من يحضُر ، وما فضل عن ذلك فهو له . وأما السيد الشريف فلا يحضُر ، إذ همّته أرفع من ذلك ، وقدره أعظم ، ومكانته بسبتة مكانته ، بحيث يأتى إليه فى الموضع الذى أعده لجلوسه برياضه الذى بالصفّارين صبيحة كل يوم [٢٠] صاحب القصبة ، كائنا من كان ، مسلّما[(٥)] عليه ، ثم ينصرف ، ثم يأتى الوالى على قبض الجباية مسلّما ، ثم ينصرف بعد تقبيل قدمه ، ثم يأتى صاحبُ الشرطة ، وكذا جميع أمراء سبتة ، إلا القاضى ، لمكان خُطّته ، فيُعامِل كلاًّ بما يستحق من إكرام و إهانة ، و إغلاظ ومجاملة ، فلا يتخلّف أحد عن غرضه ، ولا يَصْدر إلا عن رأيه ونظره . وهذا كلّه مع النصيحة للمسلمين ، وجَلْب المنفعة لهم بالقول والفعل ، و إطعام الطعام الذى لا يقدر عليه الأمير فَمَنْ دونه ، ورَفْع المظالم ، ومنح الجاه ، إلى غير ذلك ، نفعه الله . فكان من حكمة الله عز وجل و بركة أهل البيت ،

---

(١) فى ط : « فوائد » .
(٢) فى ت : « فى يومه » .
(٣) زيادة عن ت .
(٤) أعلاجه : مواليه من غير العرب ؛ مفرده : علج (بوزن ملح) .
(٥) العبارة من « عليه » إلى « مسلما » : ساقطة فى ت .

وفضل الجود والكرم ومكارم الأخلاق ، و إيصال المنفعة للعباد ، أن يخرج فى اليوم الذى له بالمَضْرِب من الحوت ، أى نوع كان من الجارى ، أضعافُ ما يخرج فى اليومين ، و يحصل له من الفائد أكثر مما يحصل لمتولى النظر فيهما ، فيتصل[١] بيده من فائد يومه خَمس مِئَةِ الدينار[٢] وسَبع المِئَة ، وربما يزيد و ينقص ؛ وقد انتهى فى بعض الأحيان إلى ألفى دينار فى اليوم ، حسبما يُسَنِّيه[٣] الله عز وجل ؛ هذا بعد العادة التى عوَّدَهَا نفسَه النفيسة ، من الإيثار والبذل ، للسَّرِىّ والنذْل .

ولم تكن له همّة ، رحمه الله ، فى احتكار المال وجمعه ، بل يصرف ذلك كلّه فى إطعام الطعام ، الخاصّ والعام ، وفى تشييد البُنْيان ، والإنفاق على الفَعلة والصُّنّاع والخدّام ، وآثاره ومَصانعه بداخل سبتة وخارجها شاهدة بذلك مدى الأيام ؛ وكم فى أثناء هذا التصرف من مُؤاساة فقير ، و إعانة ضعيف ، و إغاثة ملهوف ، برفع[٤] لازم أو وظيف[٥] ، حسبما هو معلوم معروف منقول .

حفاوة ملوك بنى مرين به

وكان ملوك بنى مَرِينَ يعتنون به أتم اعتناء ، و يبادرون إلى موافقة أغراضه ، وقبول شفاعته ، وما كان يتلقاه حين وروده على حَضْرتهم فاس إلا الملِكُ بنفسه ، إلى غير ذلك من مَناقبه رضى الله عنه ، ونفعنا به ، و بسلفه الطاهر .

سبب تعريف المؤلف بهذا الشريف

[٢١] قلت : و إنما ذكرت التعريف بهذا الشريف الفيّاض ، تفاؤلا بالابتداء به بعد عياض ، لأنى اشترطت أنى أخرج من الشىء إلى ما يناسبه ، فبدأت

---

(١) فى ت : « ويحصل » .

(٢) فى الأصلين : « الخمسمائة دينار ، والسبعمائة » .

(٣) يسنيه الله : يسهله وييسره .

(٤) برفع : بحمل .

(٥) يريد : « الوظيفة » وهى الراتب الجارى من الأرزاق ونحوها .

فى ذلك بهذا السيد الشريف ، الذى عظمت مَجادته[١] ، وكرمت مناسبه ، وزكت مآثره ، وعلت مناصبه[٢] ؛ والأعمال بالنيات ، والله يُبلغنا فى الدارين غاية الأُمنيات .

استيلاء العدو على سبتة

وبعد أن بلغت سَبتة ما ذكرناه من أحوالها ، وبقيت مدة آمنة من شرور الدنيا وأهوالها ؛ وأَطْلعت فى سمائها نجوما ، كانت علومها[٣] للمردة رجوما[٤] ؛ كعياض المؤلَّف فيه هذا الكتاب ، وهؤلاء الشرفاء الذين لا يُمْترى فى فضلهم ولا يرتاب ؛ وبنى العَزْفِىّ المشاهير ، الذين برّزوا فى ميدان السَّبْق على الخاصة[٥] والجماهير ؛ وحازوا رياسة الدين والدنيا ، وفازوا بالمكانة السامية والمرتبة العليا ؛ وغيرهم ممن لا يحصى كَثْره ، ممن كان لهم تقديم وأَثَره ؛ عدا عليها الدهر بعُدْوانه ، وسقط شَرفها من إيوانه ؛ واستولى عليها العدو الكافر ، فى قضية يطول شرحها ، وعظم على أهل الإيمان قَرْحها ، وأعضلَ أطباءَ الملوك إلى الآن جُرْحها ، ولم يزل بنفوس المؤمنين شَجْوها وبَرْحُها .

أخبرنى الفقيه الطيب العدْل الفَرَضِىّ ، سيدى أبو القاسم بن محمد الوزير الغسانى رحمه الله : أنه لما دخل سبته ، حين وجّهه أمير المؤمنين ، مولانا المنصور ، رحمه الله ، إليها ، فى شأن فِداء الكفّار المأخوذين بالغزوة الشهيرة ، ذهب إلى المدرسة التى كان بناها أحد ملوك بنى مَرِين رحمهم الله ، وأظنه أبا عِنَان[٦] ،

(١) فى ط : « مآثره » .
(٢) فى ت : « وهداه ومناصبه » .
(٣) فى ت : « علومهم » .
(٤) فى ت : « نجوما » .
(٥) فى ت : « الخواص » .
(٦) هذه العبارة : « وأظنه أبا عنان » ساقطة فى ت .

وهى من أجلّ المدارس وأعظمها ، فرأى فى محرابها ناقوساً وصليباً ، قال : فساءنى ذلك ، فرفعت بصرى فإذا كتابة بخطٍّ رائق ، فى تلك النقوش فوق ذلك الناقوس ، فيها قوله تعالى : « شَهِدَ ٱللهُ أَنَّه لاَ إِلٰه إلاَّ هو وَٱلْمَلاَئِكة وأُولُو ٱلْعِلْمِ قائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيم ، إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللهِ ٱلْإِسْلاَم » . وكان ذلك الكَتْب قديماً فيها من جملة ما كتب المسلمون بها حين بنائها ، على ما جرت به عادة الملوك من كَتْب الآيات القرآنية فى النقوش بالزَّلِيج[1] والمرمر . قال لى رحمه الله : فتعجبت[2] من ذلك الاتفاق ، وسلاّنى ذلك بعضَ التسلى ، وإلى الله تُرْجع الأمور .

وكان أخذ سبتة ، أعادها الله ، سنة تسع عشرة وثمانِ مِئَة ؛ بعد ما استولى العــدو الكافر على معظم بلاد الأندلس ، مثل قُرْطبة ، ومُرْسية ، وطُلَيْطِلة ، وبَلَنْسِية ، وغيرها ، مما يطول تَعْداده .

رثاء طليطلة

وقد قال بعض الشعراء حين أُخذت طُلَيطِلة ، وكانت من أول ما أُخذ من القواعد العظام ، يخاطب أهلَ الأندلس :

يأَهْل أندلسٍ شُدُّوا رحالَــكُم	فمـــا المُقام بها إلا من الغَلَطِ
السِّلْكُ يُنْثَر من أَطْرافه وأَرى	سِلْكَ الجَزِيرة مَنْثُوراً من الوَسط
من جاوَر الشرَّ لا يأمن بَوَائقه	كيف الحياةُ مع الحيّات فى سَفَط

[٢٢]

---

(١) الزليج : نوع من الخزف الفاخر الأملس ، تبلط به الأرض أو يلصق على الجدران للزينة ، وهو ما يسمى فى لسان العامة « القاشانى » . (عن مجلة المجمع الملكى للغة العربية) . وقد وردت هذه الكلمة فى نفح الطيب (ج ١ ص ٩٤) ، كما وردت فى صبح الأعشى (ج ٥ ص ١٥٦) مشروحة بما لايخرج عن هذا المعنى .

(٢) فى ت : « فعجبت » .

قصيدة الرندى فى رثاء الأندلس

ولله درّ الإمام العالم[١] العلاّمة خاتمة أدباء الأندلس ، أبى الطيّب[٢] صالح ابن شريف الرُّندى [رحمه الله][٣] إذ قال يندُب بلاد الأندلس ، ويبعث العزائم ويحرّكها من أهل الإسلام لنصرة الدين ، وإنقاذ البلاد من يد الكافرين ، ولسان الحال ينشده « لقد أسمعت لو ناديت حيا » :

لكل شىء إذا ما تم نُقْصـانُ — فلا يُغَرَّ بِطِيب العيش إنسانُ

هى الأمورُ كما شاهدتَها دُوَلٌ — من سَرَّه زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تُبْقِى على أَحد — ولا يَدُوم على حالٍ لها[٤] شان

يُمَزِّق الدهرُ حتماً كل سَابغة — إذا نَبَت مَشْرَفيَّات وخِرصان[٥]

ويَنْتَضِى كلَّ سَيْفٍ للفَناء ولو — كان ابنَ ذِى يَزَنٍ والغِمْدَ غُمْدان[٦]

أين المُلوكُ ذوو التِّيجان من يَمَن — وأين منهم أكاليل وتيجان

وأين ما شاده شدّاد فى إرم — وأين ما ساسه فى الفُرْس ساسان

وأين ما حازه قارُون من ذهبٍ — وأين عادٌ وشدّاد وقَحطان

أتى على الكلِّ أمرٌ لا مَرَدَّ له — حتى قضَوْا فكأن القوم ما كانوا

وصار ما كان من مُلْك ومن مَلِك — كما حكى عن خَيال الطَّيْف وَسْنان

دارَ الزمانُ على دارا وقاتَلَهُ — وأَمَّ كِسْرى فما آواه إيوان[٧]

---

(١) فى ت : « الأديب » .
(٢) فى نفح الطيب : « أبى البقاء » .
(٣) زيادة عن ت .
(٤) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « قوم بها » .
(٥) السابغة : الدرع الكاملة . والمشرفيات : السيوف المنسوبة إلى المشارف ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف . والخرصان (بكسر الخاء) : الرماح ، الواحد : خرص .
(٦) سيف بن ذى يزن : من ملوك اليمن . وغمدان : قصره .
(٧) دارا : أحد ملوك الفرس .

كأنما الصَّعبُ لم يَسْهُل له سَبَب ... يومًا ولا مَلَكَ الدنيـــا سُلَيمانُ
فَجائعُ الدهرِ أنواعٌ منوَّعـــة ... وللزمان مَسرَّات وأحزان
وللحوادث [1] سُـــلْوان يُهَوِّنها ... وما لمـا حَــلَّ بالإسلام سُلْوان
دَهَى الجزيرةَ أمرٌ لا عَزاء له ... هوَى له أُحدٌ وانهدّ ثَهْـلان [2]
أصابها العَيْنُ فى الإسلام فارْتُزِئَتْ [3] ... حتى خلتْ منـــه أقطار وبُلْدان
فاسأل بَلنسيَة ما شأن مُرْسِيَةٍ ... وأين شـــاطبة أم أين جَيّان
وأين قُرْطَبة دار العـــلوم فكم ... من عالم قـــد سما فيها له شان
وأين حِمْص [4] وما تَحْويه من نُزَهٍ ... ونهرها العَــذْب فيّاض وملآن
قواعدٌ كُنَّ أركان البلاد فما ... عسَى البقاء إذا لم تَبْق أركان [٢٣]
تبكى الحنيفيّةُ البيضاء من أسفٍ ... كما بكى لِفراق الإلف هَيْمان
على ديارٍ من الإســـلام خاليةٍ ... قد أسْلمت [5] ولها [6] بالكفر عمران
حيث المَساجد قد صارت كنائسَ ما ... فيهنّ إلا نواقيس وصُلْبان
حتى المحاريبُ تبكى وهى جامـــدةٌ ... حتّى [7] المَنابر تَرْثى وهى عِيـدان
يا غافلاً وله فى الدهرِ مَوْعِظة ... إن كنتَ فى سِنَةٍ فالدهر يَقْظان
وماشـــياً مَرِحًا يُلْهِيه مَوطِنه ... أبعْـــدَ حِمْص تغُرّ المرءَ أوطان

---

(١) فى ت : « والمصائب » .
(٢) أحد وثهلان : جبلان فى بلاد العرب .
(٣) كذا فى ت : ونفح الطيب . وفى ط : « فامتحنت » .
(٤) يريد بحمص : « إشبيلية » لأن الذين سكنوها عندالفتح كانوا من أهل حمص بالشام .
(٥) فى نفح الطيب : « أقفرت » .
(٦) فى ط : « فلها » .
(٧) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « حيث » .

تلك المُصيبة أنستْ ما تقــدَّمها ... وما لها مع طُول الدهر نِسْيانُ
يأيها المَلِكُ البيضاءُ رايتُــه ... أَدْرِكْ بسَيْفك أهل الكفر لا كانوا[1]
يا راكبين عِتاق الخيل ضامرةً ... كأنها فى مَجال السَّبْق عِقبان
وحاملين سيوف الهنـد مُرْهفةً ... كأنها فى ظـلام النَّقْعِ نيران
وراتعين وراء البحر فى دَعةٍ ... لهم بأوطانهـم عزٌّ وسلطان
أعندكم نبأٌ من أهل أندلسٍ ... فقد سرى بحديث القوم رُكْبان
كم يستغيث بنو المستضعفين[2] وهم ... أسرَى وقتلى فما يهتزّ إنسان
ما ذا التقاطع[3] فى الإسلام بَيْنكمُ ... وأنتمُ يا عبـادَ الله إخْوان
ألاَ نفوسٌ أبيَّات لها هِمم ... أمَا على الخَيْر أنصارٌ وأعْوان
يا مَن[4] لذلة قوم بعـد عِزّهمِ ... أحال حالَهم كفر[5] وطُغْيان
بالأمس كانوا مُلوكاً فى منَازلهم ... واليوم هم فى بلاد الكُفر عُبْدان
فلو[6] تراهم حَيارى لا دليـل لَهم ... عليهمُ من ثيـاب الذلّ ألوان
ولو رأيتَ بُكاهم عنـد بَيْعهم ... لهالَك الأمرُ واستهوتْك أحزان
يا رُبَّ أمّ وطفلٍ حِيـل بينهما ... كما تفـرّقُ أَرواح وأَبْدان

(١) هذا البيت ساقط من نفح الطيب .
(٢) فى ت : « بنا المستضعفون » .
(٣) فى ط : « التنافر » .
(٤) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « من ذا » .
(٥) فى ت : « قهر » .
(٦) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « ولو » .

وطَفلةٍ ما رأتها الشمس إذْ[(١)] بَرزت — كأنما هى ياقوتٌ ومَرْجانُ
يَقُودها العِلْج للمكْروه مكرهةً — والعين باكيةٌ والقلب حَيْران
لمثل هـذا يذوب القَلْب من كَمَد — إن كان فى القلب إسلام وإيمان

انتهى[(٢)] .

ابن عاصم وبعض ما جاء فى كتابه عن انحلال أمر الأندلس

[٢٤] وكان الشيخ [الإمام][(٣)] العلّامة الفقيه الوزير الكاتب أبو يحيى بن عاصم صاحب الشرح على تحفة أبيه ، رحم الله الجميع ، عند ما رأى اختلال أمر الجزيرة — أعادها الله — وأخْذ النصارى — دمرهم الله — لمعظمها ، ولم يبق إذ ذاك بيد المسلمين إلا غَرناطة ، وما يقرب منها ، مع وقوع فتن بين ملوك بنى نَصْر حينئذ ، ثم أفضى المُلْك إلى بعضهم ، بعد تمحيص وأمور يطول بيانها ، ألف كتابا سمّاه : « جَنة الرِّضَى ، فى التسليم لما قدر الله وقضى » ، وهو كتاب عجيب جدا غريب ، رأيت بعضه بتِلِمْسان ، ونقلت منه ما نصه :

« مَن استقرأ التواريخ المنصوصة ، وأخبار الملوك المقصوصة ، علم أن النصارى — دمّرهم الله — لم يدركوا فى المسلمين ثارا ، ولم يَرْحَضُوا[(٤)] عن[(٥)] أنفسهم عارا ، ولم يخرّبوا من الجزيرة منازل وديارا ، ولم يستولُوا عليها بلادا جامعة وأمصارا ، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف ، واجتهادهم فى وقوع الافتراق ، بين المسلمين والاختلاف ؛ وتَضْريبهم[(٦)] بالمكر والخديعة بين ملوك

(١) فى ت : « قد » . ورواية هذا الشطر فى نفح الطيب :
« وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت »
(٢) أشار المؤلف فى نفح الطيب بعد ذكر هذه القصيدة إلى أنها قد زيد عليها أبيات أخر ليست منها ، وأنه نقلها على هذه الصورة عمن يوثق به وليس فيها تلك الزيادة .
(٣) زيادة عن ت .
(٤) كذا فى نفح الطيب ، ورحض : غسل . وفى الأصلين : « لم يدحضوا » .
(٥) فى ت : « على » .
(٦) كذا فى ت : ونفح الطيب . وفى ط : « وتصريفهم » .

الجزيره ؛ وتحريشهم بالكيد والخِلابة بين حُماتها فى الفتن المُبيره ؛ ومهما كانت الكلمة مؤتلفه ، والأهواء لا مفترقة ولا مختلفه ، والعلماء بمعاناة اتفاق القلوب إلى الله مزدلفه : فالحرب إذ ذاك سِجال ، ولله فى إقامة الجهاد فى سبيله رجال ، والممانعة[1] فى غرض المدافعة[2] ميدان رحب ومجال ، ورَوِيَّة وارتجال .

ثم قال : وتطاولت الأيام ما بين مهادَنة ومقاطعه ، ومضاربة ومقارعه ، ومُنازلة ومنازعه ، وموافقة وممانعه ، ومحاربة وموادعه ؛ ولا أمل للطاغية إلا فى التمرّس بالإسلام والمسلمين ، وإعمال الحيلة على المؤمنين ، وإضمار المكيدة للموحّدين ، واستبطان الخديعة للمجاهدين ؛ وهو يظهر أنه ساع للوطن فى العاقبة الحسنى ، وأنه منطو لأهله على المقصد الأسنَى ؛ وأنه مُهْتَمٌّ بمُراعاة أمورهم ، وناظِر بنظَر المصلحة لخاصّتهم وجُمْهورهم ؛ وهو يُسِرُّ حَسْوًا فى ارتغائه[3] ، ويُعْمِل الحيلةَ فى التماس هُلْك الوطن وابتغائه . فتبًّا لعقول تقبل مثل[4] هذا المُحال ، وتُصدِّق هذا الكذب بوَجْه أو بحال[5] ؛ وليْت المَغْرور الذى يقبل هذا لو فكّر فى نفسه ، وعَرَض هذا المسموعَ على مُدْركات حِسّه ، وراجع[6] أوّليات عقله وتجريبات[7] حَدْسه ، وقاس عدوّه الذى لا تُرجى مودّته على أبناء جنسه ؛ فأنا أُناشده[8] الله ، هل بات قطُّ بمصالح النصارى وسلطانهم مُهْتَمًّا ، وأصبح من [٢٥] خَطْبٍ طرَقهم مُغْتما ؛ ونظر لهم نظرَ المفكّر فى العاقبة الحسنه ، أو قَصَد لهم قَصْد

(١) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « وللمبالغة » .
(٢) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « الموافقة » . وهو تحريف .
(٣) الحسو : شرب السائل شيئا بعد شىء . والارتغاء : احتساء الرغوة . وهذا مثل يضرب لمن يظهر أمرا وهو يريد غيره ، أو لمن يظهر طلب القليل وهو يسر أخذ الكثير .
(٤) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « تقبل هذا المحال » .
(٥) فى ط : « حال » .
(٦) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « ورجع » .
(٧) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « تجربات » .
(٨) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « أنشده » .

المدبِّر فى المعيشة[١] المستحسنه ؛ أو خطر على قلبه أن يحفظ فى سبيل القُرْبة[٢] أربابَهم وصُلْبانَهم ، أو عَمر ضميره من تمكين عِزّهم بما ترضاه أحبارُهم ورُهْبانهم ؛ فإن لم يكن ممن يَدين بدِينهم الخبيث ، ولم يُشْرَب قَلْبُه حُبّ التَّثْليث ؛ ويكون صادق اللهجة ، مُنْصِفا عنـد قِيام الحُجّة ؛ فسيعترف أن ذلك لم يَخْطُر له قَطُّ على خاطر ولا مَرَّ له ببال ، وأنّ عكسَ ذلك هو الذى كان به ذا اُغتباط و بفعله ذا اُهْتِبال[٣] ، وإن نُسِب لذلك المعنى[٤] ، فهو عليه أثقل من الجبال ، وأشدّ على قلبه من وقْع النِّبال ؛ هـذا وعَقْدُه[٥] التوحيد ، وصَلَاته التحميد ؛ ومِلّته الغَرّاء ، وشريعته البيضاء ؛ ودِينُه الحَنِيف القَويم ، ونَبِيّه الرءوف الرحيم ، وكتابه القرآن الحكيم[٦] ، ومَطْلو به بالهداية الصراطُ المستقيم ؛ فكيف نعتقد هذه المزِيّة الكُبرى ، والمَنْقبة الشُّهْرى ؛ لمن عَقْدُه التَّثْليث ، ودينه المَليث[٧] ؛ ومعبوده الصَّليب ، وتَسْميته التَّصْليب ؛ ومِلّته المَنْسوخة ، وقضيّته المفسوخة ؛ وخِتانه التَّغْطيس ، وغافر ذَنبه القِسِّيس ؛ وربُّه عيسى المسيح ، ونَظَرُه ليس البيِّن[٨] ولا الصحيح ، وأن ذلك الربّ قد ضُرِّج بالدماء ، وسُقِى الخل عِوَضَ الماء ؛ وأنّ اليهود قد[٩] قتلته مَصْلو با ، وأدركته مطلو با[١٠] ، وقهرته[١١]

---

(١) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « العيشة » .
(٢) كذا فى ت ونفح الطيب . والقربة : التقرب . وفى ط « الغربة » .
(٣) الاهتبال : تحين الشيء واغتنامه .
(٤) كذا فى نفح الطيب ، وفى ط : «وإن نسب ذلك لا لمعنى» . وفى ت : « وإن نسب ذلك المعنى » . وما أثبتناه أولى بالسياق .
(٥) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « وعظه » .
(٦) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « العظيم » .
(٧) مليث : مختلط أمره . يقال : رأس مليث إذا اختلط شعره الأبيض بالأسود .
(٨) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « لا أبين » .
(٩) هذه الكلمة : « قد » ساقطة فى ت ونفح الطيب .
(١٠) هذه العبارة « وأدركته مطلوبا » ساقطة فى ت .
(١١) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « وقتلته » .

مغلوبا ؛ وأنه جَزِع من الموت وخاف ، إلى سِوَى[١] ذلك مما يُناسب هذه الأقاويل السِّخاف ؛ فكيف يُرْجَى من هؤلاء الكفرة من الخير مثقال[٢] الذَّرَّة ، أو يُطْمَع[٣] منهم فى جَلْب المنفعة أو دفع المضرّة ؛ اللهم احفظ علينا العقلَ والدين ، واسلُك بنا سبيلَ المهتدين » . انتهى .

ومنه أيضاً ما نصه :

« كانت خِزانةُ هذه الدار النَّصْرية[٤] ، مشتملة على كل نَفيسة من الياقوت ، ويتيمة من الجوهر ، وفريدة من الزُّمُرُّد ، وثمينة من الفَيْرُوزج ، وعلى كل واقٍ من الدُّروع ، وحامٍ من العُدَّة ، وماضٍ من الأسْلحة ، وفاخر من الآلة ، ونادر من الأمتعة ، فمن عُقود فَذَّة[٥] ، وسُلوك جَمَّة ، وأقراط تُفضَّل على قُرْطَىْ مارِيَة[٦] ، نفاسة فائقة ، وحُسْناً رائقاً ، ومن سيوفٍ شواذَّ فى الإبداع ، غرائب فى الإعجاب ، مَنسوبات[٧] الصفائح فى الطَّبْع ، خالصة[٨] الحَلْى من التِّبْر ؛ ومن دُروع مُقَدَّرة[٩] السَّرْد ، متلاحمة النسج ، واقية للبأس[١٠] فى يوم الحرب ، مشهورة النِّسبة إلى داود نبىّ الله ؛ ومن جَواشِنَ[١١] سابغة اللِّبْسة ، ذهبيّة الحِلْية ، [٢٦]

(١) فى ت : « غير » .
(٢) فى نفح الطيب : « مقدار » .
(٣) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « يطلب » . وهو تحريف .
(٤) النصرية : نسبة إلى بنى نصر ، وهم بنو الأحمر أصحاب غرناطة .
(٥) فى هامش نفح الطيب : « عدة » .
(٦) هى مارية بنت ظالم بن وهب الكندية ، زوجة الحارث الأكبر الغسانى ؛ وكان فى قرطيها لؤلؤتان عجيبتان ضربت العرب بنفاستهما المثل .
(٧) معروفة بصانعيها .
(٨) فى ت ونفح الطيب : « خالصات » .
(٩) فى ط : « المقدودة » ، وهو تحريف .
(١٠) فى ط ونفح الطيب : « للناس » .
(١١) الجواشن : الدروع .

هندية الضَّرب ، دِيباجيَّة الثوب ؛ ومن بَيْضات عسجدية الطوق [١] ، جوهرية التنضيد [٢] ، زَبَرجدية [٣] التقسيم ، ياقوتية المركز ؛ ومن مَناطِقَ لُجَيْنيّة الصوغ ، عَرِيضة [٤] الشكل ، مُزَجَّجة [٥] الصَّفْح ؛ ومن دَرَق لَمْطيَّة [٦] ، مُصْمتة المسامّ ، ليِّنة المَجسّة ، معروفة المَنْعة ، صافية الأديم ؛ ومن قِسِيّ ناصعة الصِّبْغة ، هلاليـة الخلقة ، منعطفة الجوانب ، زَارِية بالحواجب ، إلى آلات فاخرة ، من أَتْوَار [٧] نُحاسيّه ، ومناوِرَ [٨] بِلَّوريه ، وطيافير [٩] دِمَشْقيه ، وسُبحات [١٠] زُجاجيه ، وصِحاف صِينيه ، وأكواب عِراقيه ، وأقداح طباشِيريه [١١] ، وسِوى

---

(١) فى نفح الطيب طبع مصر : « الطرق » .

(٢) فى ط : « التنضيض » وهو تحريف .

(٣) كذا فى ت : ونفح الطيب . وفى ط « يجردية » وهو تحريف .

(٤) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « عرضة » . وهو تحريف .

(٥) كذا فى نفح الطيب . وفى ت : « فرجية » وفى ط « برعمة » .

(٦) نسبة إلى لمطة مدينة من المغرب الأقصى ينسب إليها الدرق ، لأنهم ينقعون الجلود فى الحليب سنة ، فيعملونها ، فينبو عنها السيف القاطع .

(٧) كذا فى ت . والأتوار : آنية يشرب فيها ، وأحدها تور . وفى نفح الطيب : « أوتار » . وفى ط : « أتواق » ولا معنى لهذه الأخيرة .

(٨) المناور : جمع منارة ، وتجمع على منائر ومنارات . وهى مايوضع عليه السراج . وقد ذكرها دوزى نقلا عن أبى إسحاق الشيرازى فى عبارة نصها : « فى آنية مختلفة الأعلى والأوسط والأسفل كالأباريق والأسطال الضيقة الرءوس والمنارات (المنائر) » .

(٩) الطيافير : كلمة مولدة لم ترد فى معاجم اللغة . وذكرها دوزى فى كتابه تكملة المعاجم العربية : « وهى أطباق مستديرة عميقة ، قاعها مستو ، وحافاتها مرتفعة نحو ثلاث بوصات أو أربع ؛ الواحد : طيفور ، ويقال فيه « تيفور » وتجمع أيضا على طيافر وطوافير » . وقد وردت أيضا ضمن عبارة فى صبح الأعشى (ج ٥ ص ٢٠٥) هذا نصها : « فيمد لهم السماط ثرائد فى جفان حولها طوافير ، وهى الخافى ، فيها أطعمة ملونة منوعة » . وظاهر من عبارة صبح الأعشى أنها آنية ذوات أغطية .

(١٠) كذا فى الأصلين ونفح الطيب . والسبحات : جمع سبحة ، وهى خرزات تنظم فى خيط للتسبيح ، وهى مولدة . وذكرها هنا بين أسماء آنية الطعام ووصفها بالزجاجية ، يشعر بأنها محرفة عن لفظ آخر .

(١١) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين ورواية أخرى فى نفح الطيب : « طباشرية » ، ولعل المراد بالطباشير هنا : مادة خزفية أو نحوها .

ذلك مما لا يُحيط به الوَصْف ، ولا يَستوفيه العَدّ ؛ وكل ذلك ألْهَبَه[١] شُواظُ[٢] الفِتْنة ، والتقمه تيَّار الخِلاف والفُرْقه ؛ فرُزِئت الدار منه بما يتعذَّر إتيان الدهور بمثله ، وتَقْصر ديار الملوك المؤثّلة النِّعْمة عن بعضه فضلا عن كُلّه » . انتهى .

وسنذكر من كلامه رحمه الله بعد هذا ، زيادة على ما جلبناه الآن ، والله المستعان .

ذكر غرناطة

وكانت غَرْناطة منتهى الآمال ، ووُسْطَى قِلادة الأمصار ، ولم تزل محاسنها مَجْلُوَّة على مَنَصّة الدهور والأعصار . وقد استولى[٣] وصفَها لسانُ الدين الوزير أبو عبد الله بن الخطيب فى كتاب الإحاطة ، ويرحم الله القائل :

غَرْناطةٌ ما لهــــا نَظير ما مِصْرُ ما الشّامُ ما العراق ؟
ما هِىَ إلا العروسُ تُجْلَى والأرض من جُملة الصَّداق[٤]

تقريظ لابن عاصم على كتاب الإحاطة

قال الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن [أحمد بن[٥]] الحدَّاد الشهير بالوادى آشى ، نزيل تِلِمْسان :

كان على ظهر النسخة الرائقة الجمال ، الفائقة الكمال ، من الإحاطه ، فى تاريخ غَرناطه ، المُحْبَسة على المدرسة اليُوسُفيه ، من الحضرة العَليّه[٦] ، بخط قاضى الجماعه ، ومنفِّذ الأحكام الشرعيّة المُطاعه ، صَدْر البلغاء ، وعَلَم العلماء ، ووحيد الكبراء ، وأصيل الحُسباء ، الوزير الرئيس المعظّم أبى يحيى بن عاصم ، [٢٧] رحمة الله عليه ، ما نَصُّه :

(١) كذا فى إحدى روايتى نفح الطيب . وفى الأصلين ورواية أخرى بنفح الطيب « التهبه » . ولم يرد هذا الفعل متعديا فى كتب اللغة . ولعله محرف عن « التهمه » .
(٢) الشواظ : لهب النار .
(٣) يريد : « تولى » . ولم يرد فى المعاجم « استولى » متعديا إلا بالحرف .
(٤) رواية الشطر الثانى من البيت فى نفح الطيب : « وتلك من جملة الصداق » .
(٥) زيادة عن الإحاطة .
(٦) فى ط : « العالية » .

« الحمد لله ، الاستدلالُ بالأثر على المؤثِّر مما سلَّمه الأعلام ، وشهدت به العقول الراجحة والأحلام ؛ وهو الحُجَّة المُعْتمدَة حين تتفاضل الألباب ، وتتقاصر الأفهام ، و به الاستمساك إنْ طَرَقَت الشكوك ، أو عرضت الأوهام . وحسْبُك بما يُسَلَّم فى هذا المقام المتعالى من الأدله ، وما يُعتَمد فى هذا المجال المتضايق من البراهين المستَقِلّه ؛ فحقيق أن يُتلقَّى هذا النوع من الاستدلال فيما دون الفنّ المشار إليه بالقبول ، و يُسْتَقبَلَ المُهْتَدِى لا ستنباطه لما فيه من التَّبادر إلى الأفهام والتسابق للعقول ؛ و إذا ثبت أن المستدلّ بهذه الأدلة سالك على سواء سبيل ، ومنتمٍ من صحة النظر إلى أكرم قبِيل ، فلا خفاء أن كتاب « الإحاطة » للشيخ الرئيس ذى الوزارتين[١] أبى عبد الله بن الخطيب رحمهُ الله ، من أثر هذه الدولة النّصْرية — أدامها الله — بكل اعتبار ، ومآثِرِها التى هى عبرة لأولى الألباب ، وذكرى لأولى الأبصار .

أما الأول فلأن الأنباء التى أظهرت صحتها[٢] ، وأوضحت حجّتها ، وشرّفت مَقصِدَها ، وكرّمت مَصعَدَها ، إنما هى مَناقب ملوكها الكرام ، ومكارم خُلفائها الأعلام ، وأخبار[٣] من اشتملت عليه دولتهم الشريفة من صدور حَملة السيوف والأقلام ؛ وأفذاذ حفظة الدين والدنيا ، والشرف والعَلْيا ، والمُلْك والإسلام ؛ أو ما يرجع إلى مفاخر حضرة المُلْك ، ويُنْظَمَ[٤] نظم الجُمان[٥] فى ذلك السِّلك ، من حَصانة قَلْعتها ، وأصالة[٦] مَنْعتها ؛

(١) فى ط : « ذى الوزارة » . وهو تحريف .
(٢) فى ت : « ظهرت بهجتها » .
(٣) فى ت : « أو أخبار » .
(٤) فى ت : « ينتظم » .
(٥) فى ت : « الجمال »
(٦) فى ط : « وأصانة » . وهو تحريف .

وقَدِيم اختطاطها ، وكريم جهادها ورباطها ؛ وحُسْن ترتيبها ووَضْعها ، وما اشتمل عليه من مقاصد الأنس أهلُ رَبْعها ؛ وما سوى هذه الأقسام الثلاثة فمن قَبيل القليل ، ومما يرجع إلى شرف الحضرة ، ممن انتابها[١] من أهل الفضل الواضح والمجد الأثيل .

وأما ثانياً فإن راسم آياتها المتلوه[٢] ، ومُبدع محاسنها المجْلُوَّه ، وناقل صورتها من الفِعل إلى القوه ، إنما هو حسنة من حسنات هذه الدولة النصرية الكريمه ، ونشأة[٣] من نَشَآت جودها الشامل النعمه ، الهامل الديمه ؛ فما ظهر عليه من كمالات الأوصاف ، على الإنصاف ، فأخلاف[٤] هذه المكارم النَّصْرية أرضعته ، وعنايتها الجميلة أَسْمته ، فوق الكواكب ورفعته ؛ وإليها ينسب إحسانه إن انتسب ، [٢٨] ومن كريم تشريفها اكتسب ، من الفضل الظاهر ما اكتسب . والحضرة هى منشؤه الذى عظم فيه قدره ، بل أُفقه[٥] الذى أشرق فيه بدره ؛ والتشريفات السلطانية هى التى فَتَقَتِ اللَّهى باللُّهى[٦] ، وأحلّت من مراقى العزّ فوق السُّهَا[٧] ؛ وأمكنت الأيدى[٨] من الذّخائر والأعلاق ، وطوقت المِنن كالقلائد فى الأعناق ؛ وقلّدت الرياسةَ والأقلامُ أقلام ، وثنت الوزارةَ والأعلامُ أعلام ؛ فبهرت أنواعُ المحاسن ، وورد معين البلاغة غير المَطْروق ولا الآسن ؛ وبَرَعَتِ التواليف ، فى الفنون المتعدده ، واشتهرت التصانيف ، ومنها هذا التصنيف المشار إليه ، لما له

(١) كذا فى ط . وانتابها : قصدها . وفى ت : « انتهى بها » .
(٢) فى ط : « المتامرة » . وهو تحريف .
(٣) النشأة : السحابة الناشئة .
(٤) الأخلاف : جمع خلف ، وهو من ذوات الخف بمنزلة الثدى للإنسان .
(٥) فى ط : « بالفقه » وهو تحريف .
(٦) اللهى (بالفتح) : جمع لهاة ، وهى اللحمة المشرفة على الحلق ، واللهى (بالضم) : جمع لهية ، وهى العطية .
(٧) السها : كوكب خفى من بنات نعش ، ويضرب به المثل فى العلو والارتفاع .
(٨) فى ط : « الأيادى » .

من الأذمّة المتأ كده . وإذا [١] ظهر هذا الاستدلال ، وأوضح البيان ما كتمه الإجمال ، فلنفصح [٢] الآن بما قَصَد ، ولنحقق من أنجُم السعادة ما رَصَد ، وذلك أن لمولاى [٣] أمير المؤمنين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، الغالب بالله ، المؤيد بنصره أبى عبد الله ، محمد بن الخلفاء النَّصْريين — أيده الله ونصره ، وسنَّى له الفتح المبين ويسّره — مآثرَ لم يُسبق إليها ، ومكارمَ لم يَجْرِ أحد ممّن وُسِم بالكرم عليها ، لجلالة قدرها ، وضخامة أمرها ؛ من ذلك هذا القَصْد الذى آثر لها كالكتاب المذكور وسوَاه ، ممـا هو واحد وفذّ [٤] فى معناه ؛ عَقَد فى جميعها التحبيس على أهل العلم والطلبة بحضرته العلية [٥] هنالك ، ليشمل به الإمتاع ، ويعم به الانتفاع ؛ والله ينفع بهذا القَصْد الكريم ، ويتولّى المثوبة على هذا العَقْد الجسيم .

وهذه النسخة فى اثنى عشر سِفْرا ، متفقة الخط والعمل ، اكْتُتِب هـذا على ظهر الأول منها بتاريخ [٦] رجبٍ الفَرْد ، عام تسعة وعشرين وثمَانِ مِئَة ، عرف الله بركته بمنّه ، آمين [٧] » . انتهى .

نبذة من كتاب الروض لابن عاصم عن ابن يوسف

وقال الوزير أبو يحيى بن عاصم المذكور ، قدّس الله روحه الطيبه ، وسقى [٨] مثواه غيثَ رحمته الصيّبه ، فى كتابه المسمى بـ « الروض الأريض [٩] ، فى ترجمة شموس العصر ، من ملوك بنى نصر » ، فى اسم الغنى بالله محمد بن يوسف بن إسماعيل ابن فرج بن نصر الخزرجىّ ، بعد كلام ما نصه :

(١) فى ط : « إذا » بدون واو .
(٢) فى ت : « فالنصح » .
(٣) فى ت : « لمولانا » .
(٤) فى ت : « ... واحد فى فنه وفى معناه » .
(٥) فى ط : « العليا » .
(٦) فى ط : « وبتاريخ » .
(٧) هذه الكلمة « آمين » ساقطة فى ت .
(٨) فى ط : « وسقاه غيث » .
(٩) بقية الإسم فى نفح الطيب : « فى تراجم ذوى السيوف والأقلام والقريض » .

« كان قد جرى عليه التمحيص الذى أزعجه عن وطنه ، إلى الدار البيضاء بالمغرب من إيالة بنى مَرِين ، فأفادته الحُنْكةُ والتجربة هـذه السيرة التى وقف شيوخنا على حقيقتها ، وانتهجوا واضح طريقتها ، و بلغَتْنا منقولة بألسنَة صدقهم ، معبَّراً عنها فى عرف التخاطب بالعادة ، فلم يكن الوزير الـكيِّس ، والرئيس الجِهْبِذ يجريان من الاستقامة على قانون ، ولا يَطَّردان من الصواب على أسلوب ، إلا بالمحافظة على ما رَسم من القواعد ، والمطابقة لمـا ثبَّت[1] من العوائد ؛ وكان ذوو النُّبل من هذه الطبقة ، وأولو الحِذْق من أرباب هذه المهن السياسـية ، يتعجبون من صحة اختياره لمـا رسم ، وجودة تمييزه لمـا قعّد ، و يرون المَفسدة بالخروج[2] عنها ضربةَ لا زب[3] ، وأن الاستمرار على مَراسمها آ كدُ[4] واجب ؛ فيتحرَّونها بالالتزام كما تُتَحَرَّى السُّنن ، ويتوخَّوْنها بالإقامة كما تُتَوَخَّى[5] الفرائض ، وسواء تبادر لهم معناها ففهموه ، أو خفى عليهم وَجْه رَسْمها فجهلوه » .

[٢٩]

مثل من حرص ابن الخطيب على العوائد

حدثنى شيخُنا القاضى أبو العبّاس أحمد بن أبى القاسم الحسنى :

أن الرئيس أبا عبدالله بن زَمرك دخل على الشيخ ذى الوزارتين أبى عبدالله بن الخطيب يستأذنه فى جملة مسائل ، مما يتوقف[6] عادة على إذن الوزير ، وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة الرئيس أبى عبدالله . قال الشريف : فأمضاها كلَّها له[7] ، ما عدا واحدة منها تضمّنت نقض عادة مستمرة ، فقال له ذو الوزارتين

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « أثبت » .
(٢) فى ط : « فى الخروج » .
(٣) فى ط : « لازم » .
(٤) فى ط : « وا كد » .
(٥) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين « تقام » .
(٦) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « توقف » ،
(٧) هذه الـكلمة : « له » ساقطة فى ت .

[ابن الخطيب] [١] : لا والله يا رئيس أبا عبد الله ، لا آذن لك فى هذا ، لأنَّا ما استقمنا فى هذه الدار إلا بحفظ العوائد .

اضطراب أمر الأندلس بالخروج على القواعد

[ثم] [٢] قال صاحب الروض :

فلما تأذّن الله [تعالى] [٣] للدولة بالاضطراب ، واستحكم الوهْن بتمكن الأسباب ؛ عُدِل عن هذه القواعد [٤] الراسخة ، واستُخِفّ بتلك القوانين [٥] الثابتة ؛ فنشأ من المفاسد ما أعوز رَفْعُه ، وتعدّد وِتْره وشَفْعه ، واستحكم ضرره حتى لم يمكن دفعه ، وتعذّر فيه الدواء الذى يُرْجى نفعه ؛ وكان قد صَحِبه من الجد ما سنّى آمالَه ، وأنجح — بإذن الله — أقواله وأعماله ؛ فكان يُجرِى الأمر على رَسْم من السياسة واضح ، ونظر من الآراء السديدة راجح ؛ ثم يَحفّه [٦] من الجد سياج لايفارقه ، إلى تمام الغاية المطلوبة من حصوله ، وتمكن مقتضى الإرادة السلطانيّة من فروعه وأصوله .

انتهى كلام ابن عاصم ، وإنما أتيت به لغرابته .

وصف البكرى للأندلس

وقال أبو عبيد البكرىّ رحمه الله :

[٣٠] « الأندلس شامية فى طيبها وهوائها ، يمانيَة فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى عطرها وذكائها ، أهوازية فى عظم جباياتها ، صينية فى جواهر معادنها ، عدنية فى منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة لليونانيين » [٧] .

(١) زيادة عن نفح الطيب .
(٢) زيادة عن ت .
(٣) زيادة عن نفح الطيب .
(٤) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : تلك « العوائد » .
(٥) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « القواعد » .
(٦) كذا فى ت . وفى ط : « يحبه » .
(٧) لكلام أبى عبيد البكرى بقية ذكرها المؤلف فى نفح الطيب (ج ١ ص ٦٤ طبعة المطبعة الأزهرية) .

وصف ابن الخطيب للأندلس

وقال ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب :

خص الله بلاد الأندلس من الرَّيع ، وغَدق السُّقيا ، ولذاذة الأقوات ، وفراهة الحيوان ، ودُرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحُّر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وابيضاض ألوان الإنسان[(١)] ، ونبل الأذهان ، وقبول الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك ، وإحكام التمدن والاعتمار ، بما حرمه[(٢)] الكثير من الأقطار ، مما سواها .

ثم قال : وحديث الفتح ، وما فتح الله على الإسلام من المَنْح ، وأخبار ما أفاء الله من خير ، على موسى بن نُصير ، وكتب من جهاد ، لطارق بن زياد ، مَمْلول قُصّاص وأوراق ، وحديث أُفُول وإشراق ، وإرعاد وإبراق ؛ وعَظْم[(٣)] أمتشاش[(٤)] ، وآلة مُعلّقة فى دُكّان قَشّاش[(٥)] . انتهى .

أبو يوسف المرينى ودن جانجه ، ومثل من عز الإسلام

ولا خفاء بما كان لملوك المسلمين بالأندلس والعُدوة على النصارى — دمَّرهم الله — من الاستطالة والغلبة ، حتى وقع التخاذل والتدابر ، فانعكس الأمر . وقد حكى غير واحد أن دُن جانجه[(٦)] بن دُن أُلْفُنْش ، استنصر على أبيه بالسلطان المجاهد أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق المَرينى ، ولاذ به ، ورَهن عنده تاجه[(٧)] ذخيرةَ النَّصارى ، ولقيه بصخرة عَبّاد ، من أحْواز رُنْده ، فسلّم عليه ،

(١) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « الأسنان » .

(٢) فى ت : « أحرمه » .

(٣) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « وأعظام » .

(٤) امتشاش العظم : مصه ممضوغا لاستخراج ما فيه . يريد أن الحديث فى هذا مفروغ منه كالعظم الذى امتش ، فلم يبق فيه شىء .

(٥) القشاش : الذى يبيع القديم البالى من سقط المتاع . (عن دوزى)

(٦) كذا فى ط . وفى الاستقصا للسلاوى (ج ٢ ص ٢٧ طبع مصر) : « شانجة » وفى ت : « تجانجة » . ثم إن السلاوى ذكر أن المستنصر هو هرانده أبو شانجه . على العكس مما ساق المؤلف هنا .

(٧) فى ط : « تاج » .

ويقال إن أمير المسلمين[١] لما فرغ من ذلك ، طلب بلسان زَناتة[٢] الماءَ ، ليغسل يده به من قُبْلة أُلفُنْش ، أو مصافحته[٣] .

تعقيب لابن الخطيب على قصة أبى يوسف

ابن الخطيب :

« والشىء يذكر بالشىء ، فأثبِتُ حكاية اتفقت لى بسبب ذلك ، أَستدعِى بها الدعاء ممن يحسن عنده موقعها ، وهى أن اليهودىّ الحكيم ابن زَرْزار ، على عهد مَلِك النصارى ، حفيد هذا ألفنش المذكور ، وصل إلينا بغَرناطة فى بعض حوائجه ، ودخل إلىّ بدار سكناى ، مجاوراً لقصر السلطان بحمراء غرناطة ، وعندى القاضى اليوم بغرناطة وغيره من أهل الدولة ، و بيده كتاب من سلطان المغرب محمد بن أبى[٤] عبد الرحمن بن السلطان الكبير المولى أبى الحسن ، وكان محمد هذا قد فرّ إلى صاحب قَشْتَالة ، واسْتُدْعِىَ مِن قِبَلِهِ إلى المُلْك ، فسَهَّل له ذلك ، وشرط عليه ما شاء ؛ وربما وصله خطابه بما لم يُقنعه فى إطرائه ، فقال [لى[٥]] : مولاى السلطان دُنْ بطره يُسلِّم عليك ، ويقول لك : اُنظر مخاطبة هذا الشخص ، وكان بالأمس كلباً من كلاب بابه ، حتى ترى خَسارة الكرامة فيه . فأخذت الكتاب من يده ، وقرأته وقلت له : أبلغه عنى أن هذا الكلام ما جَرَّك إليه إلا خُلُوُّ بابك من الشيوخ ، الذين يُعَرِّفونك بالكلاب وبالأسود ، وبمن تُغْسَل الأيدى منهم إذا قَبَّلوها ، فتعلم مَن الكَلْب الذى تُغْسَل اليد منه ، ومَنْ لا ، وأنَّ جَدَّ هذا الولد هو الذى قَبَّل جَدُّك يده ، [٣١]

---

(١) فى ط : « المؤمنين » .
(٢) فى ط : « الزناتية » .
(٣) فى ت : « ومصافحته » .
(٤) كذا فى ت والاستقصا . وفى ط : « محمد بن عبد الرحمن » وهو تحريف .
(٥) زيادة عن ت .

واستدعَى الماءَ لغسل يده منه بمحضَر النصارى والمسلمين ؛ ونِسبة الجدّ إلى الجدّ كنسبة الحفيد إلى الحفيد ؛ وكونه لجأ إلى بلادك ليس بعار عليه ، وأنت مُعَرَّض إلى اللَّجَإ إليه ، فيكافئُك بأَضعاف ما عاملته(١) به . فقام ابن الحسن المستقصى يبكى ، ويُقبّل يدى ، ويَصِفُنِى بولىّ الله ، وكذلك مَنْ حضرنى . وتوجَّه إلى المغرب رسولا ، فقصَّ على بنى مَرِينَ خبر ما شاهده منى وسمعه ؛ وبالحضرة اليوم ممن تلقى منه ذلك كثير ، جعل الله ذلك خالصاً لوجهه » . انتهى .

بعض ما كتب فى استنهاض الهمم ضد النصارى

ولما تقلَّص ظل(٢) الإسلام بالجزيرة ، أعادها الله للإسلام ، واسترد الكفار ، دمرهم الله ، أكثرَ أمصارها وقراها ، على وجه العَنْوة والصلح والاستسلام ، لم يزل العلماء والكتاب والوزراء يحركون حميّات(٣) ذوى البصائر والأبصار ، ويستنهضون عَزَماتهم من كل الأمصار .

لابن زمرك

فمن ذلك ما كتب به الكاتب الرئيس أبو عبد الله بن زَمْرَك رحمه الله لما نزل المسلمون بآخر مَرْج غرناطة ، متوجهين لفتح خير :

« اعلموا أنا نَذْكر لكم ما لا يغيب عن أديانكم وأحسابكم ؛ إن هذا الجهاد وليمة دعا الله عباده إليها ، وحَضَّهم عليها ؛ فالآيات فى المصاحف مسطوره ، والأحاديث مشهوره ؛ لبيع النفوس فيها من الرحْمٰن ، وبذل المهج رغبة فى حصول ثواب الملك الدَّيَّان ، ينزِّل الله فيها الملائكة المسوَّمين . وتفرح الحُور العِين ، وتَسِح الرحمةُ من رب العالمين ، ويباهى الله ملائكته(٤) بالمجاهدين ؛ وقد

(١) فى ط : « ما عملته » .
(٢) فى ط : « ذيل » .
(٣) فى ط : « حماة » .
(٤) فى ت : « الملائكة » .

تضافرت على ذلك النصوص ، وكفى شرفاً الفوز بمحبة الله فى قوله (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) ؛ فينبغى فيه الاستغفار من سالف الذنوب ، وتطهير السرائر والقلوب ، واجتماع الأيدى [٣٢] والكلمة فى مَرْضات عَلَّام الغيوب » .

لابن الخطيب

وأبلغ منه ما كتب به ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب فى الحث على الجهاد ، والترغيب فيه ، وهو :

«أيها الناس ، رحمكم الله ، إخوانكُم المسلمون قد دَهِمَ العدو — قَصَمهُ الله — ساحتهم ، ورام الكفر — قبحه الله — استباحتهم ؛ وزحفت أحزاب الطواغيت عليهم(١) ، ومد الصَّليب ذراعيه إليهم ؛ وأيديكم بعزة الله أقْوَى ، وأنتم المؤمنون أهلُ البر والتقوى ؛ وهو دينكم فانصُرُوه ، وجواركم القريب فلا تُخْفِرُوه ، وسبيل الرُّشْد قد وضح فلتبصروه . الجهادَ الجهادَ ، فقد تَعيّن ؛ الجارَ الجارَ ، فقد قرر الشرع حقه وبَيَّن ؛ اللهَ اللهَ فى الإسلام ، اللهَ اللهَ فى أُمة محمد عليه السلام ؛ اللهَ اللهَ فى المساجد المعمورة بذكر الله ، اللهَ [اللهَ فى(٢)] وطن الجهاد فى سبيل الله ؛ قد استغاث بكم الدين فأَغيثوه ، قد تأكّد عهدُ الله وحاشاكم أن تَنْكُثُوه ؛ أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة ، أعانكم الله عند الشدائد ، جددوا عوائد الخير ، يَصِلِ اللهُ لكم(٣) جميل العوائد ؛ صِلُوا رحِمَ الكلمه ، وآسُوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المُسْلِمه ؛ كتابُ الله بين أيديكم ، وألْسنة الآيات تناديكم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم ، والله يقول فيه : (يأيها الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ) . ومما صح عنه قوله : « من اغْبَرّتْ قدماه فى سبيل

(١) فى ط : « إليهم » .
(٢) زيادة عن ت .
(٣) فى ط : « إليكم » .

الله حَرَّمهما الله على النار » . « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودُخان جَهَنّم »[١] . « ومن جَهَّز غازياً فى سبيل الله فقد غزا » . أَدْرِكوا رَمَق الدين قبل أن يفوت ، بادروا عليل الإسلام قبل أَن يموت ؛ احفظوا وجوهكم مع الله يوم يسألكم عن عباده ، جاهدوا فى الله بالألْسُن والأموال حق جهاده :

ما ذا يكون جوابكم لنبيّكم وطريقُ هذا العُذرِ غيرُ مُمَهَّدِ
إنْ قالَ لِمْ فَرَّطْتُمُ فى أُمَّتى وتركتموهم للعدوّ المُعتَدِى
تالله لو أنّ العقوبةَ لم تُخَفْ لكفَى الحَيا[٢] من وجه ذاكَ السيِّد

[٣٣] اللهم اعطف علينا قلوب العباد ، اللهم بُثَّ لنا الحَمِيّة فى البلاد ، اللهم دافع عن الحريم الضعيف والأولاد ؛ اللهم انصرنا على أعدائك بأحبابك وأوليائك يا خير الناصرين ، اللَّهُمّ أفْرِغ علينا صَبْراً وثَبِّتْ أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . وصلَّى الله على سيدنا [ومولانا[٣]] محمد ، وعلى آله وصحبه وسَلَّم تسليما » . انتهى .

سقوط غرناطة فى يد العدو والخلاف فى تاريخ ذلك

واستمر الأمر بالجزيرة على هذه الحالة مده ، والمسلمون لا يزدادون إلا ضعفا والعدوُّ تَكالُبًا وشِدّه ؛ حتى استولى على الجزيرة بأسرها ، وشَرْح ذلك يطول . وكان استيلاؤه على حمراء غَرناطة ، ودخول جيشه [لها[٣]] ثانىَ ربيع النبوىّ ، من عام سبعة وتسعين وثمان مِئَة . هكذا رأيته فى تأليف لبعض المتأخرين ، ضَمَّنه القضية ، وألّفه بسببها ؛ على أنى رأيت بخط الفقيه أبى عبد الله الوادى آشى ما يخالف ذلك ، وهو[٤] أنه أورد رسالة لابن الخطيب يخاطب بها السلطان أبا سالم

(١) تتمة الحديث كما فى سنن النسائى : « فى منخرى مسلم أبدا » .
(٢) الحيا : مقصور من الحياء .
(٣) زيادة عن ت .
(٤) فى ت : « وذلك » .

المَرِينىّ ، نَصُّ محل[١] الحاجة منها :

« ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلّت عُروة تأميلكم ، أو أعرضتم عن ذلك الوطن ، استولت عليه يد عدوه » . انتهى .

فكتب بطُرّته أبو عبد الله الوادى آشى المذكور[٢] ما نصه :

« كذلك وقع آخرَ الأمر . وكان الاستيلاء على غَرْناطة آخرِ ما بقى من بلاد الأندلس للإسلام ، فى محرّم [عام][٣] سبعة وتسعين وثمان مِئَة ، فرحم الله ابن الخطيب ، العاقل اللبيب ، وغَفَر له برحمته » . انتهى كلام الوادى آشى .

على أنه قد يظهر من كلام بعضهم أن الصلح كان فى محرّم ، ودخول الجيش القَصَبة الحمراء كان فى ربيع ، فلا منافاة ، والله أعلم .

ورأيت بخط الإمام الوانشِريشىّ[٤] سيدى عبد الواحد رحمه الله ما نصه :

« استولى العدوّ على جبل الفتح سنة ست وستين وثمان مئة ، وعلى الحمّة[٥] تاسع المحرم يوم الخميس عام سبعة وثمانين وثمان مئة ؛ وفى عام خمسة وتسعين وثمان مئة استولى العدوّ على جميع [بلاد][٣] الأندلس ماعدا غَرْناطة و بشرتها[٦] ، وكان قبله فى عام اثنين وتسعين استولى على مالَقة فى رمضان منه ، وفى عام سبعة وتسعين استولى على غَرْناطة » . انتهى .

---

(١) هذه الكلمة « محل » ساقطة فى ت :

(٢) هذه الكلمة : « المذكور » ساقطة فى ت .

(٣) زيادة عن ت .

(٤) كذا فى نفح الطيب طبعة أوربة . والوانشريشى : نسبة إلى وانشريش (بالنون وشينين معجمتين وراء ثم ياء) : جبل بين مليانة وتلمسان من نواحى المغرب . وفى الأصلين وهامش نفح الطيب : « الوانشريسى » .

(٥) الحمة : من أعمال مرسية . (عن تكملة كتاب الصلة) .

(٦) كذا فى نفح الطيب وفيما سيأتى فى الأصلين . وظاهر من سياق نفح الطيب أنها ضواح لغرناطة أو مواضع بها . وفى الأصلين هنا : « وبشاراتها » .

خروج أمير الحمراء ابن أبى الحسن إلى فاس

ولما دخل النصارى إلى الحمراء خرج أميرها أبو عبد الله محمد بن أبى الحسن علىّ النَّصْرىّ ، واشترط المسلمون على العدو الكافر شروطاً أظهر قَبولها ، و بسط [٣٤] لهم جَناح العدل ، حتى بلغت بزعمهم نفوسُهم مَأمولها ؛ وكان من جملتها أن من شاء البقاء عنده أقام فى ظل الأمان[١] مُكرَّما ، ومَن أراد الخروج إلى برّ العُدْوة أُنزِل بأى بلاد شاء منها ، من غير أن يُعْطِىَ كِراء ولا مَغْرما ؛ وأظهر للمسلمين العِناية والاحترام ، حتى كان النصارى يَحْسُدُونهم فى ذلك ، و يقولون لهم : أنتم عند ملكنا أعز وأكرم مِنا ؛ ووضع عنهم المَغارم ، حيلة منه وكَيدا ، ليـغُرَّهم بذلك ، و يُثَبِّطهم عن الجواز . فوقع الطمع لكثير من الناس ، وظنوا أن ذلك البَرْق ليس بخُلَّب ، فاشترى كثير من المقيمين الرِّباع العظيمة ، ممن أراد الذهاب للعُدوة ، بأرخص الأثمان ، وأمر — لعنه الله — بانتقال سلطان غَرْناطة أبى عبد الله إلى قرية أنْدَرَش[٢] ، من قُرى البشرة ، فارتحل أبو عبد الله بعِياله وحَشَمه ، وأقام بهـا ينتظر ما يُؤْمَرُ به ، ثم ظهر للطاغية أن يُجيزه إلى العُدوة ، فأمره بالجَواز ، وأعَدَّ له المَراكِب العظيمة ، وركب معه كثير من المسلمين ، ممن أراد الجواز ، حتى نزلوا بمَلِيلة[٣] من رِيف المغرب ، ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلى مدينة فاس — حرسها الله — وما زال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السُّؤّال ، بعد المُلْك الطويل العريض ، فسبحان المعزّ المذلّ ، المانح المانع ، لا إله إلا هو .

---

(١) هذه العبارة : « فى ظل الأمان » ساقطة فى ت .

(٢) كذا فى ط ونفح الطيب وتقويم البلدان . وفى ت : « أندرس » بالسين المهملة ، وهو تصحيف .

(٣) مليلة (بوزن سفينة) : مدينة قديمة مسورة على بحر الزقاق (انظر المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب) .

وفاته وشىء عنه وعن عقبه

وكان خلع أبيه أبى الحسن يوم الأحد ثالث جمادى الأُخرى من عام تسعين وثمان مئة، خلعه أخوه[١]، ودخل أبوعبد الله المذكور، ابن أبى الحسن[٢]، رَبَضَ البَيّازِين سادسَ عَشَرَ شوّال عام واحد وتسعين، وافتَكَّ مُلْكَ أبيه من يد عمّه، وتُوُفِّىَ رحمه الله بفاس عام أربعة وعشرين وتسع مئة، ودفن بإزاء المُصَلَّى، خارج باب الشريعة، وخلّف ولدين، اسم أحدهما يوسف، والآخر محمّد[٣]، وعقبه الآنَ بها كما ذكرناه، والله وارث الأرض ومن عليها، والله خير الوارثين.

حال المسلمين بعده بالأندلس

وكان من قَدَرِ اللهِ تعالى أنهم لما وصلوا مدينة فاس أصاب الناسَ بها شدة عظيمة، من الجوع والغلاء والطاعون، حتى فرّ كثير منها بسبب ذلك، ورجع بعضُ أهل الأندلس إلى بلادهم، فأخبروا بتلك الشدة، فتقاعس من أراد الجَوَاز، وعزَموا على الإقامة والدَّجْن[٤]، ولم يُجِزِ النَّصارى أحدا بعد ذلك إلا بالكِراء والمَغرم وعُشْر المال، فلما رأى الطاغية أن الناس قد تركوا الجَواز وعزموا على الاستيطان والمُقام فى الوطن، أخذ فى نقض الشروط التى اشترط عليه المسلمون أولَ [٣٥] مرة، ولم يزل ينقضها فصلا فصلا، إلى أن نَقَضَ جميعَها، وزالت حُرْمة المسلمين، وأدركهم الهَوان والذِّلّة، واستطال عليهم النصارى، وفُرِضت عليهم المغارم الثقيلة، وقُطِع عنهم الأذان فى الصوامع، وأمرهم بالخروج من غَرناطة إلى الأَرباض والقُرى، فخرجوا أَذِلّة صاغرين، ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصُّر، وأكرههم عليه، وذلك سنة أربع وتسع مِئَة، فدخلوا فيه كَرْها، وصارت الأندلس كلها

(١) فى ط: «وكان أبوه أبو الحسن خلع سنة تسعين وثمان مئة، خلعه أخوه يوم الأحد ثالث جمادى الأخرى من العام».

(٢) هذه العبارة: «ابن أبى الحسن»: ساقطة فى ت.

(٣) كذا فى ت ونفح الطيب. وفى ط: «أحمد».

(٤) الدجن: الإقامة.

دار كُفر ، ولم يبق من يَجْهر بكلمة التوحيد والأذان ، وجُعلت فى المساجد والمآذن النواقيسُ والصُّلْبان ، بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ، فإنا لله و إنا إليه راجعون ، لا رادّ لما قضاه الله الملك الدّيّان .

رسالة فى ذكر ماجرى للمسلمين فى الأندلس

وقد رأيت لبعضهم رسالة ببعض شرح ذلك ، ونصها :

« وتعرّفنا من غير ما طريق ، وعلى لسان غير فريق ، أن قُطْر الأندلس — نظر اللهُ إليه ، وعاد بنوره عليه — طَرَقَ أهلَه خَطْب لم يَجْر فى سالف الدّهر ، وذلك أنهم أُكْرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطقُ بما يقتضى فى الظاهر الكفر ، ولم يُقْبَل منهم الأَسْر ؛ وكان الابتداء فى ذلك من أهل غَرْناطة — جدّد الله رَسْمها ، وأعاد إلى بلاد المسلمين[1] اسمها — وخصوصا أهلَ واسطتها ، لقلة الناس ، وكونهم من الرعيّة الدّهماء ، مع عدم العصبيّة ، بسبب اختلاف الأجناس ؛ وعلم النصارى — دمّرهم الله — بأن من بقى بها[2] من المسلمين إنما هم أُسارى فى أيديهم ، وعِيال عليهم ؛ و بعد أن انتزعوا منهم[3] الأسلحة والمعاقل ، وعَتَوْا فيهم بالخروج والجَلاء ، فلم يبق من المسلمين طائِل ؛ ونقض اللعين طاغية النصارى عُهوده ، ونشر بمحض الغدر بُنوده ؛ من غير مَعْذرة لَفَّقها ، ولا كَذْبة فى مَعْرِض العُذر نمّقها ، إلا أَعْجازا من الكفر ، وصدورا من الغيظ والمكر ، وخالص الغدر ، جَمَعها وفرّقها ؛ وكان الطاغية إذ ذاك بإشْبِيلِيَة — جبرها الله ، وجعل بها قبره ، ووقى المسلمين والإِسلامَ شرّه — و بعد أن كان [قبلُ[4]] قد انسلّ إلى غَرْناطة انسلال

(١) فى ت : « الإسلام » .

(٢) فى ت « منها » .

(٣) فى الأصلين : « لهم » .

(٤) زيادة عن ت .

القَطا إلى الماء ، وطلع إليها طلوع الرقيب على خلوات الأحباء ؛ وأمر بإخلاء الأرباض ، وأذن فى السفَر فى البحر للأبعاض ، ولم يُحضر من الأجفان[1] إلا القليل ، وما كان قصده إلا التفريق والتهويل ؛ على ما عُهِد من غدر النصارى وطغيانهم ، وفعلهم الذميم مع المسلمين وثَوَرَانهم ؛ والإعلان بمحنتهم ؛ والحرص على ارتدادهم وفتنتهم ؛ وأقام بعد انصرافه عنها ، وخروجه منها ، بإشبيلية مُدَيْدَة ، وعقارِبه لأشياعه من النصارى بغَرناطة تَدِبّ وتسرِى ، ونفسه الخبيثة بالعاب[2] تَفْرِى ؛ ثم انتقل عن الواسطة للبيّازين ، حيث الحَمِيّه ، والنُّصْرَة الإيمانيه[3] ، مع السراجة والنحيه[4] ، والعقل الرّصين ، والدين المتين ؛ فجعل صَعْبها ذَلُولا ، وأعاد للكفر كَرها من كان بحضرتها ، وتمتّع أحزاب الشيطان — قصمهمُ الله — بنَضْرتها ، نسأل الله تعالى أن يجعل تمتعهم قليلا » .

[٣٦]

تنكيل طاغية قشتالة وأرغون بالمسلمين

وزيادة[5] الخبر :

« أن طاغية قشتالة وأرغون — قصمهُ الله — صدَم غَرناطة صدْمه ، وأكْرَهَ على الكفر مَنْ بَقِى بها من الامّه ؛ بعد أن هِيض جَناحهم[6] ، وركَدَت رياحهم ؛ وجعل بعدُ جندُه الخاسر على جميع جهات الأندلس يَنْثال ، والطاغية يزدهى فى الكفر ويختال ؛ ودين الإسلام تُنْثَر بالأندلس نجومه ، وتُطْمَس معالمُه ورُسومه ؛ فلو رأيتم ما صنع الكفر بالإسلام بالأندلس وأهليه ، لكان

(١) الأجفان : كلمة أندلسية ، بمعنى السفن . ذكرها دوزى فى معجمه .
(٢) كذا فى ط . وفى ت : « بالعار » .
(٣) فى ط : « الأمانية » .
(٤) كذا فى ط . وفى ت : « مع السداجة والقحية » ولا معنى للروايتين .
(٥) فى ت : « وزبدة » .
(٦) فى ت : « جنابهم » .

كل مسلم يندُبه ويبكيه ؛ فقد عَبِث البلاء برُسومه ، وعَفَّى على أقماره ونجومه ؛ ولو حضرتم من جُبِرَ بالقتل على الإسلام ، وتُوُعِّد بالنَّكال والمهالك العِظام ؛ ومن[1] كان يُعذَّب فى الله بأنواع العذاب ، ويُدْخَل به من الشدة فى باب ويُخْرَج من باب ؛ لأنساكم مَصرعُه ، وساءكم مَقْطعه ؛ وسيوف النصارى إذ ذاك على رءوس الشِّرْذِمة القليلة من المسلمين مَسْلوله ، وأفواه الذاهلين محاوله ؛ وهم يقولون : ليس لأحد بالتنصر أَنْ يُمْطَل ، ولا يلبَثُ حيناً ولا يُمْهَل ؛ وهم يكابدون تلك الأهوال[2] ، ويطلبون لطف الله فى كل حال » . انتهى .

بعض من خرج من علماء الأندلس

وكان جماعة من علماء الأندلس خرجوا إلى تِلِمْسان ، منهم القاضى الشهير أبو عبد الله بن الأزرق ، صاحب الشرح العجيب على مختصر خليل ، وكتابِ السِّياسة الملخَّص من مقدّمة تاريخ ابن خَلدون ، وفيه زيادات بديعات[3] ، وكتاب روضة الإعلام ، بمنزلة العربية من علوم الإسلام ، وغير ذلك ، وارتحل من تِلِمْسان إلى المشرق ، وسنُلِمّ بذكره . ومنهم بنو داودَ المذكورون فى فهْرَسةِ الشيخ ابن غازى ، وهؤلاء خرجوا من الأندلس قبل أخذ غَرناطة[4] ؛ ولكن لما رأوا استطالة العدو عليها ، وأنه آخذها لا محالة ، قوّضوا رِحالهم عنها ، فنزلوا بتلِمْسانَ المحروسة ، وأُخِذت الحضرة الغرناطية[5] بعد ارتحالهم بقريب ، رحمهم الله . ومنهم الفقيه الأديب ، حائز قَصَب السَّبْق فى كثرة النَّسْخ والكتابة ، أبو عبد الله محمد بن الحَدّاد الشهير بالوادى آشِى ، وسنذكره إن شاء الله ، رحم [٣٧]

(١) فى الأصلين : « ولمن » .
(٢) فى ط : « الأحوال » .
(٣) فى ت : « زيادة بديعة » .
(٤) فى ت : « أخذها » .
(٥) فى ت : « وأخذت غرناطة » .

الله الجميع[١] . وممن خرَج بفاس من العلماء ، الفقيه أبو العبّاس البَقَنِّى[٢] ، ثم رجع إلى غَرناطة ، وقضيته معروفة .

كتاب ابن الأحمر لصاحب فاس

ولا بأس أن نُورد كتاب السلطان أبى[٣] عبد الله بن الأحمر المخلوع المذكور ، الذى بعث به لصاحب فاس[٤] فى ذلك العهد ، تمهيداً لعُذْره ، وتوطئة لمقصده ؛ وتَطارُحا على تلك الأبواب وتملّقا ، وتمسّكا بذلك الجَناب وتعلّقا ؛ وهو فى الغاية[٥] من الفصاحة والبلاغة ، من إنشاء الفقيه الأديب ، الشاعر الناظم ، الناثر الكاتب ، المُجيد البارع البليغ ، أبى عبد الله محمد بن عبد الله العربىّ العقيلِىّ رحمه الله ، وسماه بالروض العاطر[٦] الأنفاس ، فى التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس ؛ ونصّه بعد الافتتاح[٧] :

« مَولَى الملوكِ ملوكِ العُرْب والعجَم ... رَعْيًا لِمَا[٨] مِثْلُه يُرْعَى مِنَ الذِّمَمِ

بك استجرْنا ونِعْمَ الجارُ أنتَ لمن ... جار الزمان عليه جَوْر مُنتقِمِ

حتى غدا مُلكُهُ بالرَّغْم مستلَبا ... وَأَفْظَعُ الخَطْبِ ما يأتى على الرَّغَمِ

حُكْمٌ من الله حَتْمٌ لا مَرَدَّ له ... وهلْ مَرَدٌّ لحكمٍ منه مُنْحَتِمِ[٩]

---

(١) فى ت : « جميعهم » .
(٢) فى ط : « الفقانى » .
(٣) فى ط : « أبا » وهو تحريف .
(٤) هو الشيخ الوطاسى سلطان فاس .
(٥) فى ت : « وفى الغاية » .
(٦) كذا فى ت ونفح الطيب ، وفى ط : « العطير » .
(٧) كذا فى ت ونفح الطيب ، وفى ط : « افتتاح » .
(٨) فى نفح الطيب : « لمن » .
(٩) كذا فى الأصلين وإحدى روايتى نفح الطيب ، ولم ترد صيغة « انحتم » فى المعاجم التى بين أيدينا . وفى رواية أخرى لنفح الطيب : « منحسم » .

وَهْىَ الليالى وقاكَ اللهُ صَوْلَتَها ... تَصُولُ حتى عَلَى الآساد فى الأَجَمِ

كنا مُلُوكاً لنا فى أرضنا دُوَلٌ ... نِمْنَا[(١)] بها تحت أَفْنَانٍ من النِّعَمِ

فأيقظتنا سِهامٌ للردَى صُيُبٌ ... يُرْمَى بأَفْجَع حَتْفٍ مَنْ بهن رُمِى

فلا تَنَمْ تحتَ ظِلِّ المُلْكِ نَوْمَتَنَا ... وأىُّ مَلْكٍ بظل المُلْكِ لم يَنِمِ

يبكى عليه الذى قد كان يعرفه ... بأَدْمُعٍ مُزِجَتْ أَمْوَاهُهَا بِدَمِ

كذلكَ الدهرُ لم يَبْرَحْ كما زَعَمُوا ... يُشِمُّ بَوَّ الصَّغَارِ[(٢)] الأَنْفَ ذا الشَّمَمِ[(٣)]

وَصِلْ أَوَامِرَ قد كانَتْ لنا اشتبكتْ ... فالمُلْكُ بين ملوك الأرض كالرَّحِمِ

وابسُطْ لنا الخُلُقَ المرجوَّ باسطُه ... واعطِفْ ولا تنحرِفْ واعذِرْ ولا تَلُمِ

لا تَأْخُذَنَّا[(٤)] بأقوال الوُشَاةِ ولمْ ... نُذْنِبْ ولو كثرتْ أَقْوَالُ ذى الوَخَمِ

فما أطَقْنا دِفاعا للقضاء وما[(٥)] ... أرادَتَ أنفسُنا ما حلّ من نِقَمِ

ولا رُكُوباً بإزعاج لسابحة ... فى زاخرٍ بأَكُفِّ الموجِ مُلْتَطِمِ

والمرء ما لم يُعنه اللهُ أَضيعُ من ... طِفلٍ تَشَكَّى بفقد الأُمِّ فى اليُتُمِ

وكلُّ ما[(٦)] كان غيرُ اللهِ يحرُسُه[(٧)] ... فإنَّ محروسَه لَحْمٌ عَلَى وَضَمِ[(٨)]

[٣٨]

---

(١) فى ت « نما » ، وهو تحريف .

(٢) البو : جلد الحوار يحشى تبنا ونحوه لتعطف عليه أمه فتدر . والصغار : الذل .

(٣) فى ط « ذو الشمم » .

(٤) كذا فى ط ونفح الطيب طبعة أوربة . وفى ت ونفح الطيب طبعة المطبعة الأزهرية : « لا تأخذونا » .

(٥) فى ت : « ولا » .

(٦) كذا فى ط : ونفح الطيب . وفى ت : « من » .

(٧) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « ما كان غير الله يحرصه فإن محروصه » ، وهو تحريف .

(٨) الوضم : خوان القصاب ، وهو ما يقطع عليه اللحم ويهيئه .

كُنْ كالسموءل إذ سار الهمام له ... فى جَحْفَلٍ كسواد اللَّيْل مُرْتَكِمِ (١)

فلم يُبِحْ (٢) أَدْرُعَ الكِندىّ وَهْوَ يَرى ... أن ابنه البَرَّ قد أشفَى عَلَى الرَّجَمِ (٣)

أو كالمُعَلَّى (٤) مع الضِّلِّيل الأرْوَعِ إذ ... أجاره من أعاريبٍ ومِنْ عَجَمِ

وصار يشكره شكرًا يكافىء ما ... أسْدَى إليهِ من الآلاءِ وَالنِّعَمِ

ولا تعاتبْ على أشياءَ قد قُدِرَتْ ... وخُطَّ مسطورُها فى اللوح بالقلمِ

وعَدِّ عما مضى إذ لا ارتجاع لهُ ... وعُدَّ أحرارَنا فى جُملة الخَدَمِ

إيهٍ حنانَيْك يابن الأكرمين على ... ضيفٍ ألم بفاسٍ غيرِ محتشِمِ (٥)

فأنت أنت ولولا أنت ما نهضت ... بنا (٦) إليها خُطَا الوَخَّادَة الرُّسُمِ (٧)

رُحماك يا راحما يُنْمَى إلى رُحَمَا ... فى النفس والأهل والأتباع والحَشَمِ

فكم مواقفِ صِدقٍ فى الجهاد لنا ... والخيلُ عالكةُ الأشداق لِلُّجُمِ

والسيف يَخْضِبُ بالمحمرّ من عَلَقٍ ... ما ابيضّ من سَبَل واسودّ من لِمَمِ (٨)

ولا ترى صَدْرَ عَضْب غيرَ مُنْقَصِفٍ ... ولا ترى مَتْن (٩) لَدْنٍ غيرَ مُنْحَطِمِ

---

(١) الجحفل : الجيش الجرار . ومرتكم : متراكم .

(٢) فى ط : « فلا » .

(٣) الرجم : جمع رجمة ، وهى الحجارة توضع على القبر ، ويريد القبر نفسه .

(٤) المعلى : هو أحد بنى تيم ، وكان قد أجار امرأ القيس من المنذر بن ماء السماء .

(٥) إيه : أى حسبك .

(٦) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « منا » .

(٧) الوخادة : السريعة السير . والرسم : جمع رسوم ، وهى الناقة التى تؤثر فى الأرض من شدة الوطء .

(٨) يريد بالسبل : شعر اللحية . واللمم : جمع لمة ، وهى شعر الرأس الذى يلم بالمنكبين .

(٩) فى ت « مثل » .

حتى دُهينا بِدَهْيا لا اقتدارَ بها(١) سِوَى على الصَّوْن للأطفال والحُرَم

فقـال من لم يشاهدْها فرُبَّتَمَا يُخال جامحُها يُقتاد بالخُطُم

هيهاتَ لَوْ زَبَنَتْه الحرب كان بها أعيا يدا من يد جالت على زَلَم(٢)

تالله ما أضمرت غِشًّا ضمائرنا ولا طَوَتْ صِحَّةً منها على سَقَم

لكِنْ طلبنا من الأمر الذى طلبت وُلَاتُنا(٣) قبلنا فى الأعْصُر الدُّهُم

فخاننا عنده الجَدُّ الخَئُون ومَن تَقْعُدْ به نكَباتُ الدهر لم يَقُم

فاسودّ ما اخضرّ من عيش دَهَتْه عِدًا بالأسمر اللّدْن أو بالأبيض الخَذِم(٤)

وشتَّت الْبينُ شَملا كان منتظِا والبين أقطع للموصول من جَلَم(٥)

فرُبَّ مَبْنًى شـديد قد أناخ به رَكْب البَلَا فقَرَته أدمع الدِّيَم(٦)

قمنا لديه أُصَيـــلانًا نسائِله أعيا جوابا وما بالربع من أَرَم(٧)

وما ظننا بأن نبقى إلى زمن نرى به غُرَر الأحباب كالحُمَم(٨)

[٣٩] لكن رِضًا بالقضا الجارى وإن طُويت منا الضلوعُ على بَرْحٍ من الألم

---

(١) فى ت . « بدهى لا اقتدار بنا » .

(٢) كذا فى ت . والزلم (بفتحتين ، أو بضم ففتح) : سهام كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية . وفى ط و نفح الطيب طبعة المطبعة الأزهرية : « رحم » . وفى نفح الطيب طبعة أوربة « رخم » . وما أثبتناه أوضح ، فهو يريد أن يد هـذا اللائم أضعف من يد مجيل قداح الميسر .

(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى ت : « ولاته » . وفى ط : « ولاية » .

(٤) الأسمر اللدن : الرمح . والأبيض الخذم : السيف القاطع .

(٥) الجلم : المقراض .

(٦) الديم : جمع ديمة ، وهى السحابة يدوم مطرها أياما .

(٧) أصيلانا : قرب الأصيل . وما بالربع من إرم : أى من أحد .

(٨) الغرر : جمع غرة ، وهى بياض الجبين . والحمم الفحم الأسود ، الواحدة حمة (بالضم).

لَبَّيْكَ يا مَنْ دعانا نحو حَضرته ... دعاء إبراهِمَ الحُجّاج للحَرَمِ

وأَعْطِ الأَمْنَ(١) الذى رُصَّتْ(٢) قواعده ... على أسـاسِ وفاءٍ غيرِ منهدِمِ

خليفةَ الله وافاكَ العَبيدُ فـكن ... فى كل فضلٍ وطَوْلٍ عند ظَنِّهِمِ

وبين أسلافنا ما قد علمتَ به ... مِنِ اعتقادٍ بحكم الإرث مُقْتَسَمِ

وأنت منهمْ كأصلٍ مُطْلِعٍ غُصُناً ... أو كالشِّراكِ الذى قَدْ قُدَّ مِنْ أَدَمِ

وقد خَطوْتَ خُطاهم فى مآثرهم ... فلم يُذَمُّوا إذنْ فيها ولم تُذَمِ(٣)

وصِيتُ مَوْلَى الورى الشيخِ الإمامِ غدا ... فى الناس أشهرَ من نارٍ على عَلَمِ

سُـلالةِ الأمراءِ ، الجِلّةِ الـكبَرا ... ءِ ، العِلْيَـةِ الظُّهراءِ ، القادة البُهَمِ(٤)

بنو مَرِينَ لُيُوثٌ فى عرِينَ أبَوْا ... رؤيا قرِينٍ لهم فى البأس والـكرم

النازلين من البيضاء(٥) وسْطَ حِمًى ... أَحْمَى من الأَبْلَقِ السامى ومن إرَمِ

والجائسينَ بدُهْمِ الخيل كل ذَرًى ... والدَّاعسين بسُمْرِ الخط كل كَمِى(٦)

يريك فارسُهم إن هَزَّ عامله(٧) ... فى مَأْزِقٍ(٨) بلظَى الهيجاء مُضْطَرِمِ

---

(١) فى نفح الطيب : « واعط الأمان » .

(٢) فى ت : « رست » .

(٣) لم تذم : لم تعب . يقال : ذامه يذيمه : إذا عابه .

(٤) الظهراء : جمع ظهير ، وهو النصير . والبهم : جمع بهمة (بالضم) وهو البطل الشجاع .

(٥) البيضاء : فاس الجديدة .

(٦) الجائسين : الذين يترددون خلال الدور والبيوت فى الغارة . وكل ذرى : كل ناحية . والداعسين : الطاعنين . وسمر الخط : الرماح المنسوبة إلى الخط ، وهو مرفأ بالبحرين . والـكمى : البطل المتستر فى سلاحه .

(٧) عامل الرمح : صدره .

(٨) فى الأصلين ونفح الطيب : « مارق » ولعلها محرفة عما أثبتناه .

لَيثٌ على أجْدلٍ عارٍ مِنَ أجنحةٍ ... يَسْطو بأرقمَ لَدّاغ بغير فم (١)

فى اللام يُدْغِم من عسّاله ألفاً ... ولم نجد ألفاً أصلا بمدَّغَم (٢)

أهلُ الحفيظة يوم الرَّوع يحفظهم ... من عصمة الله ما يُرْبى على العِصَم (٣)

بَأْسٌ (٤) تَطير شَرارٌ منه محرقة ... لكل مَدَّرعٍ بالحزْم مُحْتَزِم

هُمُ (٥) بطائفة التثليث قد فتكوا ... كمثل ما يفتك السِّرْحان بالغَنَم (٦)

وإنْ يُلَثِّمْهُمُ يومَ الوغَى رهَجٌ ... أنْسَوْك ما ذكروه عن ذوى اللُّثُم (٧)

تضىء آراؤهم فى كل مُعضلة ... إضاءةَ السُّرْج فى داجٍ من الظُّلَم

هذا ولو من حياء ذاب محتَشِمٌ ... لذاب منهم حياءً كلُّ محتشم

طابت مدائحهمْ إذْ طابتَ أنفسهُمْ ... فاشْتَقّت النَّسَمات اسْما من النَّسَم

للهِ دَرُّهُمُ والسُّحْب باخلة ... بدَرِّهن على الأنعام والنَّعَم

بحيث الأفقُ يرى من لَوْن حُمْرَته ... كالشيب يُخْضَبُ بالحِنّاء والكَتَم (٨)

---

(١) الأجدل : الصقر ، شبه به الحصان فى سرعة انقضاضه . والأرقم : الثعبان ، شبه به الرمح .

(٢) اللام : مسهلة عن اللأم ، جمع لأمة ، وهى الدرع . والعسال : الرمح اللدن ، وقد شبهه فى استقامته بالألف . وفى البيت توريه .

(٣) العصم : ما يعتصم به الناس فى الحرب من معاقل وشبهها . يريد أنهم محوطون من عناية الله وحياطته بما لا تفى بمثله المعاقل والحصون .

(٤) فى ت ونفح الطيب : « يامن » .

(٥) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ت : « وهم » .

(٦) السرحان : الذئب .

(٧) كذا فى ت ونفح الطيب . والرهج : الغبار تثيره الحرب . وفى ط : « وهج » . وذوو اللثم : يريد الملثمين ، قبائل من البربر عرفوا بالشجاعة .

(٨) الكتم (كسبب) : نبت يستعمل فى خضاب الشعر . يصفهم فى هذا البيت والذى قبله بالجود فى أزمان القحط والشدة .

هناك تَنْهَلُّ أيديهمْ بصوبِ حَيًا ... يُحيي بالَأجداث ما فيها من الرِّمَم [١] [٤٠]

وإنَّ بَيْتَيْ زيادٍ طالما ذُكِرا ... إذا أَلَمَّتْ أحاديث بذِكْرِهِم [٢]

« أحلام عاد وأجساد مُطَهَّرَةٌ ... من المَعَقَّـــةِ والآفات والإِثَم [٣] »

يَرَوْنَ حَقا عليهمْ حفظَ جارِهِم ... فلم يُضَرْ نَازِلٌ فيهم ولم يُضَم

فَرُوعُه [٤] بالدواهى لا يُرَاعُ وَلَا ... يُغَمُّ منها بما يعرو من الغُمَم [٥]

هم البحار سَماحا غير أنّ بها ... ما قد أناف على الأطواد [٦] من هِمَم

وليس يسلم من حَتْفٍ محاربُهُمْ ... حتى يكون إليهمْ مُلْقِيَ السَّلَم

كم فيهمُ من أمير أوحَدٍ نَدُسٍ ... يُقَرْطِسُ الغَرَضَ المقصود بالفَهَم [٧]

ولا كسِبْطِ أبى حَسُّونَ مَنْ حَسُنَتْ ... أمداحه حُسْنَ ما فيه من الشِّيَم [٨]

هَذَا كُمُ ابنُ أبى زَكْرِى [٩] الهمامُ فقلْ ... فى أصله المنتقى من مجده العَمَم [١٠]

---

(١) تنهل : تفيض . وصوب الحيا : ماء المطر . والأجدات : القبور .

(٢) زياد : هو النابغة الذبيانى .

(٣) المعقة : العقوق . والإثم : جمع إثمة ، وهى الإثم . وهـذا البيت من مقطوعة للنابغة أبياتها أربعة فى مدح الغساسنة ، وقبله :

هم الملوك وأبنـــاء الملوك لهم ... فضل على الناس فى اللأواء والنعم

ولعل الناظم يعنى هذين البيتين .

(٤) كذا فى الأصلين . وفى نفح الطيب : « فروعهم » .

(٥) الروع : موضع الفزع من القلب .

(٦) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « الأطراء » .

(٧) الندس (كعضد وكتف وسهم) : الفطن الفهم . ويقرطس الغرض : يصيبه .

(٨) أبو حسون : هو أبو الحسن على بن محمد الشيخ بن أبى زكريا يحيى بن زيان الوطاسى ، يعرف بأبى حسون الباذسى ، بويع بفاس أول مرة سنة اثنتين وثلاثين وتسع مئه . (انظر بقية أخباره فى الاستقصا للسلاوى) .

(٩) زكرى : يريد زكرياء وفيه لغات ، منها زكرىّ (كعربى) بتشديد الياء وتخفيفها ، وبهذه الرواية الأخيرة جاء هنا مع إسكان الكاف ، ليستقيم الوزن .

(١٠) العمم : التام .

خليفـــةُ الله حقا فى خليقته ... كتائب ناب فى حكمٍ عَنِ الحَكَمِ
مهما تُنرْ قَسِماتٌ(١) منـه نيِّرَةٌ ... تُنِلْ بَنانٌ له ما جَلَّ مِن نِعمِ(٢)
فَوَجْهــهُ بدُجًى وَكَفُّه بجَدًا ... أبْهَى من الزَّهرِ أوْ أنْدَى من الدِّيَمِ(٣)
وفضله وله الفضل المبينُ جرى ... كجرى الأُمثال فى الأَقطار والأُمم
وجودُه المتـــوالى للبريَّة ما ... وجوده بينهـا طُرًّا بمنهدم
إذا ابتغتْ نِعَمًا منه العُفاة لهُ ... لم يسمعوا كِلْمة منه سِوَى نَعَمِ
وإنْ يُعبِّسْ زمانٌ فى وُجُوهِهِم ... لم يُبصروا غير وجه منه مُبتسم
وجهٌ تبين سِماتُ المَكْرُماتِ به ... كما تَبين سماتُ الصِّدق فى الكَلِمِ
وراحةٌ لم تزل فى كل آونةٍ ... فى(٤) نَيْلها راحة الشاكى من العُدُم
لله ما التزمتْهُ من نوافله ... أيّامَ لا فَرْضَ مفروضٌ بملتزم
أنْسَى الخلائفَ فى حلم وفى شرف ... وفى سخاء وفى علم وفى فَهَمِ
فجاز معتمِداً منهم ومُعْتضِـدا ... وامتـاز عن قائم منهم ومعتصم
وناصرَ الدين فى الإقبال فاقَ وفى ... محبَّة العلم أزْرَى بابنه الحَـكَمِ
أفعـــال أعدائه معتلة أبدا ... متى(٥) يَرُم جزمها بالحذف تَنْجزم

---

(١) رواية هذا البيت فى ط .

مهما تشم نسمات منـه نيرة ... تنـل بنازله ما جل من نعم

(٢) قسمات الوجه : ما أقبل منه ، أو محاسنه .

(٣) الجدا : العطاء . والديم : جمع ديمة ، وهى مطر يدوم أياما .

(٤) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « من » .

(٥) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « حتى » .

[٤١]

فويل أهل الفلا من حيّة ذكرٍ[(١)] [للمُثلئِبِّ[(٢)]] اللُّهام المَجْرِ مُلتقِمِ[(٣)]

رامُوا عداوة من إنْ شاء غادرهم مثل الأحاديث عن عادٍ وعنْ إرَم

فسوف يأكلهم من جيشه لَجِبٌ بكل قَرْمٍ إلى لُحْمانِهِمْ قَرِمِ[(٤)]

وإنّ الأعرابَ إذْ ساروا لغابته لسائرون إلى لَقْمٍ على لَقَمَ[(٥)]

وهم كما قاله ماض : أرى قَدَمِي بسعيه نحو حَتْفِي قد أراق دَمِي[(٦)]

فقل إذنْ للمُناوِي النّاوِي الآنَ الأذى ياغِرُّ[(٧)] غرّكَ ما أبْصَرْتَ فى الحُلُم

له صوارم لو ناجتــك ألْسُنها لبشَّرتك بعُمْر منك مُنْصَرِم

وإن رُوحَكَ عن قرب سيَقْبضه قبضَ المُسَلِّمِ ما قد حاز من سَلَمَ[(٨)]

فَهْوَ الذى ما له نِدٌّ يشابهُهُ من كلّ مُتّصف بالدّهْىِ[(٩)] مُتَسِمِ

يُدبّر الأمر تدبيراً يُخَلِّصُهُ مما عَسَى أن يُرَى فيه مِنَ الوَهَم

و يُبْصِر الغيب لحظُ الذهن منه إذا تَعْمَى عَنِ أدراكه ألحاظ كُلِّ عَمِ

---

(١) حية ذكر : شهم .

(٢) كذا فى نفح الطيب ، ويريد بالمثلئب : الجيش الممتد . وفى ت : « لمنتئب » ، وهو تحريف . وسقطت هذه الكلمة من ط .

(٣) اللهام والمجر : هما بمعنى الجيش العظيم .

(٤) اللجب الجيش الكثير ، والقرم : السيد . واللحمان . جمع لحم . وقرم (ككتف) : شديد الشهوة لأكل اللحم .

(٥) كذا فى ت ونفح الطيب . واللقم : الأكل ، ويريد به الافتراس ، واللقم (بالتحريك) وسط الطريق . وفى ط : « ... نعم على لغم » .

(٦) يشير إلى قول أبى الفتح البستى :

إلى حتفى سعى قدمى أرى قدمى أراق دمى

(٧) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « يغر » .

(٨) المسلم : المسلف ، الذى يعطى ذهبا أو فضة على سلعة معلومة إلى أجل معلوم . والسلم : البيع المبيع المؤجل قبضه .

(٩) الدهى والدهاء : الفكر وجودة الرأى .

وَيُنْعِمُ[(١)] النظرَ المُفْضِى بناظره ... لصوبِ وجهِ صوابٍ واضح اللَّقَمِ[(٢)]

ذو مَنطق لم تزل تجلو نتائجُهُ ... عن مُبْطِلٍ بخصام المبطِل الخَصِمِ[(٣)]

ومِسْمَعٍ ليس يُصْغى للوُشاة فلم ... يَنْفُق لديه الذى عنهم إليه نُمِى[(٤)]

فعَقله لا توازيه العقول وهَلْ ... يوازِنُ الطودَ ما قد طال من أَكَمِ

إِيهٍ جميعَ الورى من بدوٍ أوْ حَضَرٍ ... نِدَاءَ مُرْتَبِطٍ بالنُّصْحِ مُرْتَسِمِ

شُدُّوا وجِدُّوا ولا تَعْنُوا ولا تَهِنُوا ... قد لَفَّها الليلُ بالسَّوَّاقةِ الحُطَمِ[(٥)]

هذا الأَميرُ[(٦)] المَرِينِيُّ السعيدُ له ... سَعْدٌ يؤيِّده فى كلِّ مُصْطَدَمِ

قد أقسمَتْ أنه المنصورُ ألسنةٌ ... من نُخبة الأوْليا مَبْرورةُ القَسَمِ

فَشيِّعوه ووالُوه ترَوْا عَجَبا ... وتظفَرُوا معَـه بالأَجْرِ والغنَمِ[(٧)]

والحمد لله إذْ أبقى خلافتَـــه ... كَهْفاً لنا مَنْ يُخَيِّم فيه لَمْ يُرَمِ[(٨)]

حِرْزٌ حَرِيزٌ وعِزٌّ قائم ونَدًى ... غَمْرٌ دِرَاكٌ بلا مَنٍّ ولا سَأَمِ[(٩)]

---

(١) كذا فى نفح الطيب . وإنعام النظر : تدقيقه . وفى الأصلين : يمعن . وهو يتعدى بحرف الجر . يقال : أمعن فى الأمر ، أى أبعد فيه .

(٢) اللقم (كسبب) : وسط الطريق .

(٣) الخصم (ككتف) : الجدل الشديد الخصومة . يريد أنه يبطل حجج خصمه بقوة بيانه .

(٤) ينفق : يروج . ونمى إليه : وصل إليه .

(٥) لا تعنوا : لا تخضعوا وتذلوا . ولا تهنوا : لا تضعفوا . ولفها : جمعها ، والضمير فى الأصل للإبل ، والسواقة : السواق ، والتاء للمبالغة . والحطم : الشديد السوق ؛ وهذا مثل . يريد أن متولى أمرهم ، وهو الممدوح ، رجل قوى شديد .

(٦) فى نفح الطيب : « الإمام » .

(٧) شيعوه : ناصروه . والغنم (بالتحريك) : المغنم ، كالغنم (بالضم) .

(٨) لم يرم : أى يعز على من يطلبه .

(٩) غمر : كثير . ودراك : متتابع متلاحق .

دامت ودام لها سَـعْد يساعدُها فى كل مُبتدإ منـه[(١)] ومختَتَمِ
فالله — عزّ اسمه — قد زانها بحُلَى من غُرّ أمْداحه كالدُّر فى النُّظُمِ[(٢)]
الواهب الألفَ بعد الألف من ذهبٍ كالجَمْر يلمع فى مُستوقَد الضَّرَمِ[(٣)] [٤٢]
والفاعلُ الفعلَ لم يَهْمُمْ به أحد والقائل القولَ فيه حكمةُ الحِكَمِ
ذاكم هو الشيخ فاعجب إنه هَرِمٌ[(٤)] جُودا وحاشاه أن يُعْزَى إلى هَرَمِ[(٥)]
وحسْبُنا أنّ أيْدينا به اعْتصمتْ من حَبْله بوَثيق غيرِ مُنْفَصِمِ
فما مُخالفُه يومًا بمُضطهَـدٍ ولا مُؤالفُـه يوماً بمهتَضَمِ
ولا موافيـه فى جَهْد بمطَّرَحٍ ولا مُصافيـه فى وُدّ بمُتَّهَمِ
ولا مُحيًّا مُحيِّيـه بمنكَسِفٍ ولا رجاءُ مُرَجِّيـه بمنخَرِمِ[(٦)]
وما[(٧)] تَـكَرُّمُه سرًّا[(٨)] بمُنكَشِفٍ ولا تنكُّرُه جهراً بمُكْتَتَمِ
وليس لامِحُ مَرْآه بمكتئِبٍ وليس راضع جَدواه بمنفَطِمِ
ولا مُقَبِّلُ يُمناه الـكريمةِ فى محلِّ مُمْتَهَنٍ بل دَسْتِ مُحْتَرَمِ[(٩)]
وما وسيلتنا العُظْمى إليه سِوَى ما ليس يُنْـكَر ما فيها من العِظَمِ
وإنما هِىَ وَمَا أدراكَ ماهِىَ مِنْ وسيلةٍ ردُّها أدْهَى مِنَ الرَّضَمِ[(١٠)]

(١) فى نفح الطيب طبعة أوربة : « منها » .
(٢) النظم : جمع نظام ، وهو الخيط ينظم فيه الخرز ونحوه .
(٣) فى ط : « الظلم » .
(٤) يريد أن الممدوح مثل هرم بن سنان ، ممدوح زهير بن أبى سلمى ، المزنى .
(٥) فى نفح الطيب طبعة أوربة : « الهرم » .
(٦) بمنخرم : أى بمنقطع .
(٧) فى نفح الطيب (طبعتى أوربة ومصر) : « ولا » .
(٨) فى ط : « يوما » .
(٩) يريد بالدست : المكان الـكريم ، مأخوذ من دست البيت ، وهو صدره .
(١٠) كذا فى ط . والرضم : صخور عظام . وفى ت : « الوخم » .

نبيُّنا المصطفَى الهادى بخير هُدًى | محمــــد خَيْر خلق الله كلِّهم
داعِى الورى مِنْ أُولِى خَيْمٍ وأَهْلِ قُرًى | إلى طريق رشاد لاحِبٍ أَمَمِ (١)
عليه منّا صلاة الله ما ذُكِرَتْ | « أَمِنْ تذكر جيرانٍ بذى سَلَمِ » (٢)
وما تَشَفَّع فيهــا بالشَّفيع له | دَخيلُ حُرْمته العَلْياءِ فى الحُرَمِ (٣)

« رَبَّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفرْ لنا وترحمْنا لنكونَنَّ من الخاسرين » . « أنتَ وليُّنا فاغفرْ لنا وارحمْنا وأنت خير الراحمين » . « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » . « ذلك بأن اللهَ مولى الذين آمنُوا وأن الكافرين لا مولى لهم » . « نعم المولَى ونعم النصير » .

أما بعدَ حمد الله الذى لا يُحْمَدُ على السَّراء والضَّرَّاء سِوَاه ؛ والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد ، الذى طلع طلوع الفجر بل البدْر فَلَاح ، يَدْعو إلى سبيل كل فلاح ، أُولِى قلوب غافلة ، ونفوس سَوَاه ؛ والرِّضا عن آله وأصحابه ، وعِتْرته الأكرمين وأحزابه ، الذين تلقَّوا بالقبول ما أورده عليهم من أوامر ونواه ، وعزروه ونصروه فى حالَىْ قُرْبه ونَوَاه .

[٤٣]

فيا مولانا ، الذى أولانا من النعم ما أولانا ؛ لاحَطَّ الله تعالى لكم من العزة رِواقا (٤) ، ولا أذوى لدَوْحة (٥) دولتكم أغصانا ولا أوراقا ؛ ولا زالت مخضرة العود ، [مبتسمة (٦)] عن زهرات البشائر مُتْحِفة بثمرات السُّعود ، ممطورة

(١) أهل خيم : أى ساكنى الخيام . واللاحب : الواضح . والأمم : البين . وقد ورد الشطر الأول من هذا البيت فى ط هكذا :
« داعى الورى من أولى من أهل خيم قرى »
(٢) هذا الشطر مطلع قصيدة البردة المشهورة للبوصيرى فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم .
(٣) الدخيل : اللاجئ . والحرمة : الذمة .
(٤) الرواق : الخيمة . يدعو له بدوام ارتفاع المنزلة .
(٥) الدوحة : الشجرة الواسعة الظلال . وأذوى : أذبل وأضعف .
(٦) زيادة عن ت ونفح الطيب .

بسحائب البركات المتدارِكات دون بُرُوق [١] ولا رعود :

هذا مقام العائذ بمَقامكم ، المتعلِّق بأسباب ذِمامكم ، المترجِّى لعواطف قلوبكم ، وعوارف إنعامكم ، المقبِّل الأرضَ تحت أقدامكم ، المتلَجْلِج [٢] اللِّسان عند محاولة [٣] مفاتحة كلامكم ؛ وماذا الذى يقول مَنْ وجهُه خَجِل ، وفؤادُه وَجِل ، وقضيَّته المقضيّة عن التنصل والاعتذار تَجِلّ ؛ بيد أنى أقول لكم ما أقوله لربّى ، واجترائى عليه أكثر ، واجترامى [٤] إليه أكبر : اللهم لا بَرِئ فأعتذر ، ولا قوى فأنتصر ، لكنّى مُسْتقيل [٥] مُسْتنيل [٦] مستعتب [٧] مستغفر ؛ « وَمَا أُبَرِّئُ نفسى ، إن النفس لأمَّارَةٌ بالسُّوء » . هذا على طريق التنزّل والاتصاف ، بما تقتضيه الحال ممن يتحيز إلى حيِّز الإنصاف ؛ وأمَّا على جِهة التحقيق ، فأقول ما قالته الأُمّ ابنةُ الصديق [٨] : « واللهِ إنى لأعلمُ أنِّى إنْ أقررت بما يقوله الناس ، واللهُ يعلم أنِّى منه بريئة [٩] ، لأقولنّ [١٠] مالم يكن ، ولَئِن أنكرت ماتقولون لا تصدقوننى ، فأقول ماقاله أبو يوسف [١١] : صَبْرٌ جميلٌ ، واللهُ المُسْتَعانُ على ماتصفون » .

على أنّى لا أنكر عيوبى ، فأنا مَعْدِن العيوب ، ولا أجْحَد ذُنوبى ، فأنا

---

(١) فى ت ونفح الطيب : « برق » .
(٢) فى ط : « والمتلجلج » .
(٣) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « عند مفاتحة » .
(٤) اجترامى : ذنبى .
(٥) مستقيل : طالب الإقالة من العثرة .
(٦) مستنيل : طالب النوال .
(٧) مستعتب : طالب العتبى ، وهى الرضا .
(٨) يريد أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق .
(٩) كذا فى نفح الطيب وسيرة ابن هشام . وفى الأصلين : « برىء » .
(١٠) كذا فى سيرة ابن هشام . وفى نفح الطيب وط : « لأقول » . وفى ت : « لاأقول » .
(١١) تريد سيدنا يعقوب عليه السلام .

جَبَل الذنوب ؛ إلى الله أشكو عُجَرِى و بُجَرى[(١)] ، وسَقَطاتى وغَلَطاتى . نَعَم ، كلّ شىء ولا ما يقوله المتقوِّل ، المشنِّع المهوِّل ، الناطق بفم الشيطان المُسَوِّل . ومِن أمثالهم : « سُبَّنِى واصْدُق » ، ولا تَفْتَرِ ولا تَخْلُق ؛ فمِثْلى كان يفعل أمثالَها ، و يَحمل[(٢)] من الأوزار المضاعَفَة أحمالها ، و يُهْلِك نفسه و يُحْبِط أَعْمالها ؛ عِياذًا بالله من خُسْران الدين ، و إيثار الجاحدين والمعتدين ، قد ضَلِلْت إذَن وما أنا من المهتدين . وأيمُ الله لو علمتُ شعرةً فى فَوْدى[(٣)] تميل إلى تلك الجهة لقَلَعْتُها ، بل لقطَفْتُ[(٤)] ما تحت عِمامتى من هامتى وقطعتها ؛ غير أن الرِّعاع فى كل وقت وأوان ، المالك أعداء وعليه أحزاب وأعوان ، كان أحمقَ وأجهلَ من ابن ثَرْوان[(٥)] ، أو أعْقَلَ وأعلم من أشجِّ بَنِى مروان[(٦)] ؛ ورُبَّ مُتَّهَم بَرِى ، ومُسربَل بسربال وهو منه عَرِى[(٧)] ؛ وفى الأحاديث صحيح وسقيم ، ومن التراكيب المنطقية مُنْتِجٌ وعقيم ، ولكن ثَمَّ ميزان عقل ، تُعتبر به أوزان النقل ؛ وعلى الراجح الاعتماد[(٨)] ، ثم إشاعَة الإحماد ، المتصل المُتَماد ؛ وللمرجوح الاطِّراح ، ثم الذم الصُّراح ، بعد النفض[(٩)] من الراح ؛ وأكثر ما تسمعه الكذبُ ، وطبع جمهور الخلق إلا من

[٤٤]

(١) العجر والبجر (هنا) : العيوب والأحزان وما يبدى المرء وما يخفى . والعجر (فى الأصل) : العروق المتعقدة الناتئة . والبجر : ما تعقد منها على البطن خاصة .
(٢) فى ط ونفح الطيب : « ويحتمل » .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : من « فؤادى » .
(٤) كذا فى ط . والقطف : القطع . وفى ت : « بل لقاعت » ، وهو تحريف .
(٥) كذا فى أخبار الحمق والمغفلين لابن الجوزى ، والمضاف والمنسوب للثعالبى . وهو هبنقة القيسى يزيد بن ثروان ، المعروف بذى الودعات ، وهو مثل فى الحمق والجهل. وفى ط : « من أبى ثوران » . وفى ت : « من أبى ثروان » . وكلاهما تحريف .
(٦) أشج بنى مروان : هو عمر بن عبد العزيز ، لأنه كانت به شجة .
(٧) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « ومسربل بسربال عار وهو منه عرى » .
(٨) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « وعلى الراجح على الاعتماد » .
(٩) فى ت : « النفاض » .

عصمةُ الله(١) إليه منجذب ؛ ولقد قُذِفنا من الأباطيل بأحجار ، ورُمينا بما لايُرْمَى(٢) به الـكُفّار ، فضلا عن الفُجّار ؛ وجرى من الأمر المنقول على لسان زيد وعمرو ، ما لـكم منه حفظ الجبّار(٣) ؛ وإذا عظم الإنـكاء(٤) ، فعلى تُـكَأة التجلُّد الاُتـكاء ؛ أَكْثَر المـكثرون ، وجَهَد(٥) فى تعثيرنا المتعثِّرون ؛ ورَمَوْنا عن قوس واحده ، ونظمونا فى سلك المَلاحِده ؛ أَكُفراً أيضاً كُفرا ! غَفْراً اللّهمّ غَفْرا ؛ أَعِدْ نظراً يا عبدَ قيس ، فليس الأمر على ما خُيِّل(٦) لك لَيْس ؛ وهل زِدْنا على أن طَلَبْنا حَقّنا ، ممّن رام مَحْقه ومَحْقَنا ؟ فطاردنا فى سبيله عُداة كانوا لنا غائظين ؛ فانفتق علينا فَتْق ، لم يمكنا له رَتْق ، وما كنا للغيب حافظين .

وبعد ، فاسألْ أهل الحل والعقْد ، والتمييز والنقْد ؛ فعند جُهَيْنتهم تلقى الخبر يقينا ، وقد رضينا بحكمهم يُؤْثِمنا فيُوبِقُنا ، أو يُبْرِئُنا فيَقينا . إيهِ يا مَنِ اشْرَأَبّ إلى مَلامنا ، وقَدَح حتى فى إسلامنا ؛ رُوَيْداً رويدا ، فقد وجدتَ قوة وأَيْدًا ؛ ويحك ، إنما طال لسانك علينا ، وامتد بالسوء إلينا ؛ لأن الزمان لنا مُصْغِر ، ولك مُـكْبِر ، والأمر عليك مُقْبل ، وعَنَّا(٧) مُدْبِر ، كما قاله كاتب الحجاج المدبِّر(٨) .

(١) فى ط : « إلا من عظم الله » .
(٢) فى ت : « بما لم يرم » .
(٣) كذا فى ت . ورواية هذه العبارة فى ط : « وجرى ... وعمرو ما يريكم منه حفظ الجار» . وفى نفح الطيب : «وجرى ... وعمرو مالديكم منه حفظ الجار» ، وظاهر أنهما محرفتان عما أثبتناه .
(٤) كذا فى ت ونفح الطيب . والإنكاء : شدة النيل من العدو . وفى ط : « وإذا علم الإنكار » .
(٥) فى ط : « وجهر » .
(٦) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « ما خيلت لك » .
(٧) فى ت : « علينا » وهو تحريف .
(٨) كاتب الحجاج : هو يزيد بن أبي مسلم . يشير إلى رد يزيد على سليمان ابن =

وعلى الجملة ، فهبنا صِرْنا إلى تسليم مقالك جَدَلا ، وذَهبنا فأقررْنا بالخطأ في كل وِرْدٍ وصَدَر ، فلله دَرُّ القائل :

إن كنتُ أخطأتُ فما أخْطَا القَدَر[1]

وكأنّا[2] بمعتسِف[3] إذا وصل إلى هنا ، وعدم إنصافه يعلّمه الهنا[4] ؛ قد ازْوَرّ متجانفا[5] ، ثم افترَّ مُتَهانِفا[6] ، وجعل يتمثل بقولهم :

« إذَا عُيِّرُوا قالوا مَقاديرُ قُدِّرَتْ »

وبقولهم : « المرء يعجز لا مَحَالة[7] » ؛ فيعارض الحق بالباطل ، والحاليَ بالعاطل ، وينزِع بقول القائل : « رُبَّ[8] مُسْمِع هائل ، وليس تحته من طائل[9] » . وقد فرغنا أوّلَ أمسِ[10] من جوابه ، وتركنا الضِّغْن يُلصِق حرارة

═ عبد الملك حين دخل عليه فتنقصه سليمان وسب الحجاج : « إنك رأيتنى والأمر عنى مدبر ، ولو رأيتنى والأمر على مقبل استعظمت من أمرى ما استصغرت » . (انظر البيان والتبيين ج ١ ص ٢١٠ — ٢١١ طبعة الفتوح سنة ١٣٣٢ هـ) .

(١) هذا عجز بيت لأبى العتاهية ، وصدره :

هى المقادير فلمنى أو فذر

(٢) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « وكان » .

(٣) فى ت : « بمتعسف » .

(٤) يريد بالهنا : جمع هنة ، وهى العيب . والذى فى كتب اللغة أنها تجمع على هنات وهنوات .

(٥) ازور متجانفا : مال متباعدا .

(٦) كذا فى ط ونفح الطيب . وافتر متهانفا : أى فتح فاه ضاحكا مستهزئا . وفى ت : « متهاتفا » وهو تصحيف .

(٧) فى ط : « لا المحالة » .

(٨) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين « ذى » . وهو تحريف .

(٩) كذا فى ط . وفى ت : « وليس من تحته من طائل » . وفى نفح الطيب : « وليس تحته طائل » .

(١٠) أول أمس : أى بكرته ومبتدأه . والمسموع من العرب عند إرادة اليوم السابق لأمسك « أول من أمس » .

الجَوَى به ؛ وسَنُلِمُّ[١] الآنَ بما يُوسِعُه تسكيتا ، ويَقْطعه تَبْكِيتا . فنقول له : ناشدناكَ الله تعالى ، هل اتفق لك قَطُّ وعَرَض ، خروج أمر ما على القصد منك فيه والغرَض ؛ مع اجتهادك أثناءه فى إصدارك وإيرادك ، فى وقوعه على وَفْق اقتراحك ومُرادك ؟ أو جميع ما تزاوله بإدارتك ، لا يقع إلا مطابقاً لإرادتك ؟ [٤٥] أو كل ما تقصده وتنويه ، تُحْرِزه كما تشاء وتحويه ؟ فلا بُدَّ أن يُقِرَّ اضطرارا ، بأن مطلوبه يشِذّ عنه مِرارا ؛ بل كثيراً ما يُفلِت صيدُه من أشراكه ، ويطلبه فيعجِز عن إدراكه ؛ فنقول : ومسألتنا من هذا القبيل : أيها النبيه النَّبيل ؛ ثم نسرُد له من الأحاديث النبوية ماشِينا ، مما يُسايرنا فى غرضنا منه ويماشينا ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « كل شىء بقضاء وقدر حتى العَجْز والكَيْس » . وقوله أيضا : « لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض على أن ينفعوك بشىء ، لم يَقْضِ اللهُ لك ، لم يَقْدِرُوا عليه ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يقضِ اللهُ عليك ، لم يقدروا عليه[٢] » ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم . فأَخْلِقْ به أن يَلوذ بأكناف الإحجام ، ويَزُمّ على نَفْثة فيه كأنما أُلجم بالِجام ؛ حينئذ نقول له ، والحق قد أبان وجهَه وجَلَاه ، وقهره بحجته وعَلَاه : ليس لك من الأمر شىء قل إن الأمر كله لله . وفى محاجّة آدم موسَى[٣] مايقطع لسان الخصم ، ويَرْحضُ[٤] عن أثواب أعراضنا ما عسى أن يعلق بها من دَرَن الوَصْم ؛ وكيفما كانت الحال ، وإن أساء الرأىَ والانتحال ، ووقعنا فى أوجال وأوحال ؛ فثُلَّ عَرْشنا ، وطويت فُرُشُنا ، ونُكِّس لواؤنا ، ومُلِك مَثْوانا ، فنحن مِثْلُ من سِوانَا ؛ وفى الشر خِيار ،

(١) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « ونسلم » ، وهو تحريف .

(٢) الذى فى الأربعين النووية : « ... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك وإن اجتمعت على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك » .

(٣) راجع صحيح البخارى فى تفسير قوله تعالى « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » .

(٤) كذا فى ط ونفح الطيب . ويرحض : يغسل . وفى ت : «يدحض» ، وهو تحريف .

ويد اللطائف تكسر من صولة الأغيار[١] ؛ فحتى الآنَ لم نفقد من اللطيف تعالى لُطفاً ، ولا عَدِمنا[٢] أدوات أدعيـة تعطِف بلا مُهْـلة على جُمْلتنا المقطوعة جُمَلَ النعم الموصولة عَطْفا ؛ وإلا فتلك بغداد دار السلام ، ومتَبوَّأ الإسلام ، المحفوفُ بفُرسان السيوف والأَقلام ؛ مَثابة الخلافة العباسية ، ومقر العلماء والفُضلاء أُولى السير الاوَيْسِيّة[٣] ، والعقول الإياسية[٤] ؛ وقد نُوزِلت بالجيوش ونُزِلت ، وزُووِلت بالزّحوف[٥] وزُلْزِلَت ؛ وتَحَيَّفَ[٦] جوانبَها الحَيْف ، ودخلها كفار التَّتار [عَنْوة][٧] بالسيف ، ولا تسل إذ ذاك عن كيف ؛ أيام تجلّت عروس المنيه ، كاشفة عن ساقها مُبْديَه ، وجرت الدماء فى الشوارع والطرق [كالأنهار][٧] والأوديه ، وقِيد الأئمة والقضاة تحت ظلال السيوف المنتضاة بالعمائم فى رقابهم والأرديه ؛ وللنجيع[٨] سيول ، تخوضها الخيول ؛ فتخضبها إلى أرساغها ، وتَهُمّ ظماؤُها بوِرْدِها ، فتَنْكُل عن تجرُّعها ومَساغِها ؛ فطاح عاصمها ومستعصمها ، وراح ولم يَغْدُ ظالمُها ومتظلّمها ؛ وخَرِبت مساجدها وديارها ، واصْطُلِم[٩] بالحُسام أشرارها وخيارُها ؛ فلم يبق من جمهور أهلها عين تَطْرِف ، حسْبما عرفت أو حسبما تعرف ؛ فلا تكن مُتَشككاً متوقفا ، فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند [٤٦]

---

(١) يريد بالأغيار : تقلبات الدهر وأحداثه .
(٢) فى ت : « ولعدمنا » وهو تحريف .
(٣) الأويسية : نسبة إلى أويس بن عامر القرنى ، وهو من سادات التابعين زهدا وعبادة ، وقد قتل بصفين .
(٤) الإياسية : نسبة إلى إياس بن معاوية ، قاضى البصرة فى عهد عمر بن العزيز ، وكان معروفا بشدة زكانته ، وحسن قضائه ، وقوة جنانه ، وفصاحة لسانه .
(٥) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « بالزحاف » .
(٦) تحيفه : تنقصه .
(٧) زيادة عن ت ونفح الطيب .
(٨) النجيع : الدم الأحمر .
(٩) اصطلم : استؤصل .

المُؤَرِّخين من قِفَا[١] ؛ فأينَ تلك الحجافل ، والآراء المُدارَة فى المحافل ؛ حين أراد الله تعالى بإدالة الكفر ، لم تُجْد ولا قُلامة ظُفْر ؛ إذن فَمَنْ سَلِمتْ له نفسه التى هى رأس مالِه ، وعيالُه وأطفالُه ، اللذان هما من أعظم آماله ؛ وكلٌّ أو جُلٌّ أَوْ أَقَلُّ رياشه ، وأسباب معاشه ، الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه ؛ ثم وَجَد مع ذلك سبيلا إلى الخَلاص ، فى حال مُياسرة ومساهلة ، دون تصعب واعتياص[٢] ، بعد ما ظن كل الظن أن لا مَحيدَ ولا مناص ؛ فما أحقه حينئذ وأَوْلاه ، أن يحمد خالقه ورازقه ومولاه ؛ على ما أسداه إليه من رِفده وخيره ، ومعافاته مما ابْتُلِى به كثير من غيره ؛ ويَرْضَى بكل إيراد وإصدار ، تتصرف فيهما الأحكام الإلهية والأقدار ، فالدهر غدّار ، والدنيا دار مشحونة بالأكدار ؛ والقضاء لا يُرَدُّ ، ولا يُصَدُّ ؛ ولا يغالَب ، ولا يطالب ؛ والدائرات تدور ، ولا بد من نقص وكمال للبدور ؛ والعبد مطيعٌ لا مُطاع ، وليس يُطاع إلا المُسْتَطاع ، وللخالق القدير جلت قدرته فى خليقته علم غيب ، للأذهان عن مداه انقطاع ؛ ومالى والتكلّفَ لما لا أحتاج إليه من هذا القول ، بين يدى ذى الجَلالة والمَجَادة والفضل والطَّوْل ؛ فله من العقل الأرجح ، ومن الخُلُق الأسجح ، ما لا تَلْتَاطُ[٣] معه تهمتى بصَفَرِه[٤] ، ولا تَنفُق عنده وشاية الواشى ، لا عُدَّ من نفَره ، ولافاز قِدْحُه بظَفَرِه ؛ والمولى يعلم أن الدنيا تلعب باللاعب ، وتجرّ براحتها إلى المتاعب ؛ وقديما للأكياس من الناس خَدَعَتْ ، وانحرفت عن وِصالهم أعقل ما كانوا وقطعت ،

---

(١) يشير إلى المثل المضروب : « أشهر من قفا نبك » . وهى مطولة امرىء القيس المشهورة .

(٢) اعتاص الأمر عليه : اشتد والتاث ، فلم يهتد للصواب .

(٣) تلتاط : تلصق .

(٤) الصفر (بالتحريك) : اللب والعقل .

وفعلت بهم ما فعلتْ ، بيَسَار الـكواعب التى جَبَّتْ وجَدَعَتْ [١] ، ولئن رَهَصَت وهَصَرْت [٢] ، فقـد نبَّهت و بَصَّرَتْ ، ولئن قرَّعَتْ ومَعَّضَتْ [٣] ، لقد أرشَدَتْ ووعَظَتْ ؛ ويا وَيْلَنا مِنْ تَنَـكُّرِها لنا بمرَّه ، ورميها لنا فى غَمرة أىِّ غَمره ؛ أيامَ [٤] قَلَبَت لنا ظَهْرَ المِجَنّ ، وغَيَّم أفقها المُصْحِى وأدْجَن [٥] ؛ [٤٧] فسَرْعان ما عايَنَّا حِبالها مُنْبَتَّه ، ورأينا منها ما لم نحتسب كما تقوم الساعة بغته ؛ فمَنِ استعاذ من شىء ، فليستعذ مما صِرْنا [٦] إليه ، من الحَوْر بعد الـكَوْر [٧] ، والانحطاط من النَّجْد إلى الغوْر :

فبينا نَسُوس النَّاسَ والأمر أمرُنا   إذا نحنُ فيهمْ سُوقَةٌ نتنصَّفُ [٨]
فَأُفٍّ لدُنْيـــا لا يدوم نعيمها   تَقَلَّبُ تاراتٍ بنـا وتَصَرَّفُ

وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقا ، وجرَّعتنا من صاب [٩] الأَوْصَاب كأساً دِهاقا [١٠] ؛ ولم نفزع إلى غير بابكم المنيع الجَناب ، المنفتح حين سُدَّتِ الأبواب ، ولم نلبَس غير لباس نَعْمائكم حين خَلَعْنا ما ألبسنا المُلْك من الأثواب ؛ وإلى أُمِّه يلجأ الطفل لَجَأَ اللَّهْفَان ، وعند الشدائد تمتاز السيوف من الأجْفان [١١] ، ووجه الله تعالى

(١) الجب والجدع : القطع . يشير بهذه العبارة إلى حادثة عبد يدعى يسارا راود بنت مولاه عن نفسها ، فجبت مذا كيره (انظر كتاب المضاف والمنسوب للثعالبى) .
(٢) الرهص والهصر : العصر والأخذ الشديد .
(٣) معضت : أغضبت .
(٤) فى ط : « وإن قلبت » .
(٥) أدجن : أظلم .
(٦) فى ت : « سرنا » .
(٧) الحور : النقص . والـكور : الزيادة .
(٨) نتنصف : نطلب النصفة ، وهى الإنصاف .
(٩) كذا فى ط ونفح الطيب . والصاب : عصارة شجر مر . وفى ت : « كأس » .
(١٠) دهاقاً : مملوءة .
(١١) فى ط : « تمتاز السيوف فى الأجوان من الأجفان » . ويريد بالأجوان : جمع جون ، وهو الظلام .

يبقى ، وكلٌّ من عليها فان ، وإلى هنا ينتهى القائل ثم يقول : حسبى هذا[١] وكفان ؛ ولا ريب من اشتمال العِلْمِ الكريم ، على ما تعارفته الملوك بينها فى الحديث والقديم ؛ من الأخذ باليد عند زَلَّة القَدَم ، وقرع الأسنان وعض البنان من النَّدم ؛ دينا به تَدَيَّنت حتى مع اختلاف الأديان ، وعادة اطَّردت فيهم على تعاقب الأزمان والأحيان .

ولقد عَرَض علينا صاحب قَشْتالة مواضعَ معتبرة ، خيَّر فيها وأعطى من أمانه ، المؤكَّد فيه خَطُّه بأَيمانِه ؛ ما يقنع النفوس ويكفيها . فلم نر ، ونحن من سلالة الأحمر ، مجاورة الصُّفْر ، ولا سَوَّغ لنا الإيمان الإقامة بين ظَهْرَانَىِ الكُفر ؛ ما وجَدْنا على ذلك مَنْدُوحة ولو شاسعه ، وأَمِنَّا من المُطَالِب المُشاغِب حُمَةَ شرٍّ لنا لاسعه ؛ وادَّكَرْنا أَىّ ادِّكار ، قولَ الله تعالى المنكِرِ لذلك غاية الإنكار : « ألم تكن أرض الله واسعه » ؛ وقول الرسول عليه الصلاة والسلام ، المبالغ فى ذلك بأبلغ الكلام : « أنا برىء من مُؤْمن مع كافر لا تتراءى ناراهما[٢] » ؛ وقول الشاعر الحاثّ على حَثّ المطيه ، المتثاقلة عن السير فى طريق مَنجاتها البَطِيّه :

[٤٨]

وَمَا أنا والتلَدُّدَ نحو نجْد وقد غُصَّت تِهامة بالرِّجالِ[٣]

---

(١) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « الله » .

(٢) نص هذا الحديث فى النهاية لابن الأثير ولسان العرب (مادة رأى) : « أنا برىء من كل مسلم مع مشرك ؛ قيل : لم يارسول الله ؟ قال : لاتراءى ناراهما » . أى لا يحل للمسلم أن يسكن بلاد المشركين ، فيكون معهم بقدر مايرى كل واحد منهم نار صاحبه .

(٣) التلدد : التلفت . وفى الأصلين ونفح الطيب : « التلذذ » . وهو تصحيف .

ووصلت [أيضاً[١]] إلينا ، من الشرق[٢] كتب كريمة المقاصد لدينا ؛ تستدعى الانحياز إلى تلك الجَنَبات[٣] ، وتتضمن ما لا مَزِيد عليه من الرغبات ؛ فلم نختَرْ إلا دارنا ، التى كانت دار آبائنا من قبلنا ، ولم نرتض الانضواء إلا لمن بحبله وُصِلَ حَبْلنا ، وبريش نَبله رِيش نبلُنا ؛ إدلالا على محلّ إخاء متوارَث لا عن كلاله ، وامتثالا لوَصَاةِ أجداد لأَنظارهم وأقدارهم أصالةٌ وجَلاله ؛ إذ قد رَوَيْنا عمن سلف من أسلافنا ، فى الإيصاء لمن يخلف بعدهم من أخلافنا ؛ ألّا يَبْتغوا إذا دَهَمهم داهم بالحضرة المَرِينية بَدَلا ، ولا يجدوا عن طريقها فى التوجُّه إلى فريقها مَعْدِلا . فاخترقنا إلى الرياض الأريضة الفِجاج ، وركبنا إلى البحر الفُرات ظهر البحر الأُجَاج ؛ فلا غَرْو أن نرد منه على ما يُقِرّ العين ، ويشفى النفس الشاكية من ألم البَيْن ؛ ومن تَوَصَّل هذا التوصُّل ، وتوسل بمثل ذلك التوسّل ؛ تطارُحا على سُدَّة أمير المؤمنين ، المحارب المحاربين ، والمؤمِّن المستأمنين ؛ فهو الخليق الحقيق ، بأن يُسَوِّغ أصفى مشاربه ، ويُبَلِّغ أوفى مآربه ؛ على توالى الأيام والشهور والسنين ، ويَخْلُص من الثُّبور إلى الحُبور ، ويخرج من الظلمات إلى النور خروج الجنين ؛ ولعلّ شعاع سعادته يفيض علينا ، ونفحة قَبول إقباله تسرى إلينا ؛ فتخامِرَنا أريحيّة تحملنا على أن نبادر ، لإنشاد قول الشريف الرضىّ فى الخليفة القادر :

عَطْفًا أميرَ المؤمنين فإنَّنا ... فى دَوْحة العلياء لا نتفرقُ

ما بيننا يوم الفَخار تفاوتٌ ... أبدًا كلانا فى المعالى مُعْرِق

---

(١) زيادة عن ت ونفح الطيب .
(٢) فى ط : « المشرق » .
(٣) فى ط : « الجهات » .

إلا الخلافةَ مَيَّزَتْكَ فإننى أنا عاطل منها وأنت مَطوَّق

لا ، بل الأحرى بنا والأَحْجَى ، والأنجح لسعينا والأرجى ؛ أن نعدِل [٤٩] عن هذا المِنهاج ، ويقوم وافدنا بين يدى عُلاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف المحتاج ، وينشد ما قال فى الشِّيرازى ابن حَجَّاج(١) :

الناس يَفْدونك اضْطِرَارًا منهم وأَفْديك باخْتيارى

وبَعْضُهم فى جوار بعض وأنتَ حتى أَمُوتَ جَارِى

فعِشْ لخُبزِى وعش لمائى وعش لدارى وأهلِ دَارِى

ونستوهب من المَنَّان الوهَّاب تعالَى وجلت أسماؤه ، وتعاظمت نعماؤه ؛ رحمة تجعل فى يد الهداية أعِنَّتَنَا ، وعِصْمة تكون فى مواقف المخاوف جُنَّتَنَا ؛ وقبولا يُعَطِّف علينا نَوافر القلوب ، وصُنْعاً يُسَنِّى لنا كل مرغوب ومطلوب ؛ ونسأله ، وطالما بلَّغ السائلَ سُؤْلا ومأمولا ، مَتابا صادقا على موضوع النَّدم محمولا ، ثم عَزاء حسنا وصبرا جميلا ، عن أرض أورثها من شاء من عباده مُعْقِبا لهم ومُديلا ، وسادِلا عليهم من سُتور الإملاء(٢) الطويلة سُدولا ، « سُنَّةَ الله التى قد خَلَتْ من قبلُ ولنْ تجِدَ لسنة الله تبديلا » . فليطِرِ طائرُ الوَسْواس المُرَفرِفُ مَطِيرا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا ، ولم نستطع عن مورده صُدورا ، وكانَ أمرُ الله قَدَرًا مَقْدُورا .

---

(١) ابن حجاج : هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد الكاتب الشاعر . وهذه الأبيات من أبيات خمسة قالها فى أبى الفضل الشيرازى . (انظر يتيمة الدهر للثعالبى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان) .

(٢) الإملاء : الإمهال .

ألا ، وإن لِله سُبحانه فى مَقامكم العلىّ الذى أيّده وأعانه ، سِرًّا من النصر ، يترجم عنه لسان من النَّصْل ، وتَرجع فروع البشائر الصادقه ، بالفتوحات المتلاحقه ، من قاعدته المتأصلة إلى أَصْل ؛ فبمثله يجب اللِّياذ والعِياذ ؛ ولشبهه يحق الالتجاء والارتجاء ، ولأمر مّا آثرناه واخترناه ، بعد أن استرشدنا اللهَ تعالى واستخرناه ؛ ومنه جلّ جَلالُه نرغب أن يَخِير لنا ولجميع المسلمين ، ويُؤْوِينَا[1] من حِمايته ووقايته إلى مَعْقِل مَنيع ، وجناب[2] [رفيع][3] ، آمين ، آمين ، آمين .

[٥٠] نرجو أن يكون ربُّنا ، الذى هو فى جميع الأمور حَسْبُنا ؛ قد خارَ لنا حيثُ أرشدنا وهَدَانا ، وساقنا توفيقه وحَدَانا ؛ إلى الاستجارة بمَلِكٍ حَفِيّ ، كريمٍ وَفِيّ ؛ أعزَّ جارا من أبى دُواد[4] ، وأَحْمَى أنفا من الحارثِ بن عُباد[5] ، يشهد بذلك الدانى والقاصِى والحاضرُ والباد ؛ إن أغاث مَلهوفا فما الأسود ابن قنَان[6] يذكر ، وإن أنعش حُشاشة هالك فما كَعْب بن مَامَةَ على فِعْله وحْدَهُ[7] يُشكر ؛

(١) فى ط : « ويوردنا » . وفى نفح الطيب : « ويثوب بنا » .
(٢) هذه الكلمة « وجناب » : ساقطة فى ت .
(٣) زيادة عن نفح الطيب .
(٤) أبو دواد : هو جارية بن الحجاج ، وقيل حنظلة بن الشرقى الإيادى . كان بعض الملوك أخافه ، فصار إلى بعض ملوك اليمن فاجاره وأحسن إليه ، فضرب المثل بحسن هذا الجوار . وقيل غير ذلك . (انظر تفصيل ذلك فى الشعر والشعراء لابن قتيبة عند الكلام على ترجمة أبى دواد) .
(٥) يشير إلى حمية الحارث بن عباد البكرى فى الحرب بين بكر وتغلب حين بلغه قتل مهلهل بجيرا ابنه وقوله له : بؤ بشسع نعل كليب ، فنادى بالرحيل وقال قصيدته المعروفة :

« قربا مربط النعامة منى لقحت حرب وائل عن حيالى »

(٦) لم نجد شيئا عن الأسود بن قنان هذا فى المظان التى رجعنا إليها .
(٧) يشير إلى ما أثر عن كعب بن مامة الإيادى من أنه آثر بنصيبه من الماء رفيقه النمرى ، فمات عطشا ، وضرب به المثل فى الإيثار . (انظر الشعر والشعراء ص ١٢٠ طبعة أوربة ، والمضاف والمنسوب للثعالبى) .

جَليسه كجليس القَعْقاع بن شَور[١] ، ومُذاكره كمذاكر سُفْيان[٢] المنتسب من الرِّباب[٣] إلى ثَوْر ؛ إلى التحلّى بأمَّهات الفضائل ، التى أضدادها أمهاتُ الرذائل ؛ وهى الثلاث : الحِكمة ، والعدل ، والعفة ، التى تشملها الثَّلاث : الأقوال ، والأفعال ، والشمائل ؛ وينشأ منها ما شئت[٤] من عزْم وحزْم ، وعِلم وحِلم ، وتيقظ وتحفظ ، واتقاء وارتقاء ، وصَول وطَول ، وسَماح ونائل ؛ فبنور حلاه المُشْرِق ، يفتخر المَغْرِب على المَشْرِق ؛ وبمحتِده[٥] السامى خطره فى الأخطار ، وبيته الذى ذكره فى النّباهة والنجابة قد طار ، يُباهى جميع ملوك الجهات والأقطار ، وكيف لا وهو الرفيع المُنْتَمَى والنِّجار ، الراضع من الطَّهارة صفو ألبان[٦] ، الناشئ من السَّراوة وسْط أحْجار ؛ فى ضِئْضِىء[٧] المجد ، وبُحبوح الكَرَم ، وسَرَاوةِ أُسرة المملكة التى أكنافها حَرَم ، وذُؤابةِ الشَّرَف التى مُجاذبتها لم تُرَم ؛ مِنْ مَعْشَر أَىِّ مَعْشرٍ ، بَخِلوا إن وَهَبُوا ما دون أعمارهم ، وجَبُنوا إن لم يَحْمُوا سِوى ذِمارهم ، بنو[٨] مَرِين ، وما أدراكَ ما بنو مَرِين :

---

(١) القعقاع بن شور : تابعى يضرب به المثل فى حسن المجاورة ؛ كان إذا جالسه واحد بالقصد إليه جعل له نصيبا من ماله ، وأعانه على عدوه ، وشفع له فى حوائجه . (انظر المضاف والمنسوب ، وشرح القاموس مادة قعقع) .

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى ، تابعى من كبار رجال الحديث .

(٣) الرباب (بالراء المشددة المكسورة) : الجماعات ، وتطلق على قبائل عوف وثور وأشيب وضبة عمهم ، سموا بذلك لتفرقهم .

(٤) كذا فى ت ونفح الطيب والاستقصا للسلاوى . وفى ط : « ناشئة » .

(٥) فى نفح الطيب : « وبمحده » .

(٦) فى ت : « اللبان » .

(٧) الضئضىء : الأصل .

(٨) فى ط : « فبنو » .

سَمُّ العُـــــداةِ وآفَةُ الجُزْرِ(١)

النَّازلون بكلِّ مُعْـتَرَكٍ والطيّبون مَعَاقِـدَ الأُزْرِ

لَهُمْ مِنَ الْهَفَواتِ انْتِفَاء، وعندهم من السِّيَرِ النَّبوية اكتفاء؛ انتسبوا إلى بَرّ بن قَيْس(٢)، فخرجوا فى البِرّ عن القَيْس(٣)؛ ما لُهم القديمُ المعروف، قد نَفِدَ فى سبيل المعروف، وحديثهم الذى نقلته رجال الزُّحوف(٤)، مِن طُرُق القنا والسّيوف، على الحَسَن من المقاصد موقوف(٥)؛ تَحمَّد من صغيرهم وكبيرهم، ذابِلَهم ولَدْنَهم، فلّله آباءٌ أنجبوهم، وأُمّهاتٌ وَلَدْنَهُمْ: [٥١]

شُمُّ الأُنوف مِنَ الطِّرَازِ الْأَوّلِ(٦)

إليهم فى الشدائد الاستناد، وعليهم فى الأَزَمات المُعوَّل، ولهم فى الوفاء والصفاء والاحتفاء، والعناية(٧) والحماية والرعاية، الخطو الواسع، والباع الأَطول، كأنما عناهم بقوله جَرْول(٨):

أُولَئِكَ قَوْمٌ إنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبُنَى و إنْ عَاهَدُوا وفَوْا وَإنْ عَقَدُوا شَدُّوا

(١) هذا عجز بيت، وصدره: «لايبعدن قومى الذين هم». وهذا البيت والذى يليه من قصيدة لخرنق بنت هفان ترثى زوجها وابنها علقمة وأخويه. (راجع الأمالى ج٢ ص ١٥٨ طبعة دار الكتب).

(٢) هو بر بن قيس عيلان، وإليه ينتسب البربر. (انظر شرح القاموس مادة بر).

(٣) القيس: القياس والتقدير.

(٤) الزحوف: جمع زحف، وهم الجماعة يزحفون إلى العدو بمرة.

(٥) فى ط: «موصوف».

(٦) هذا عجز بيت لحسان بن ثابت من قصيدة يمدح بها الغساسنة، وصدره:

بيض الوجوه كريمة أحسابهم

(٧) هذه الكلمة: «العناية» ساقطة فى ت.

(٨) جرول: اسم الحطيئة الشاعر المخضرم المعروف.

وإنْ كانتِ النَّعماءُ فيهم جَزَوْا بها[(١)] وإن أنعَمُوا لا كَدَّرُوها ولا كَدُّوا

وتَعْذُلُنِي أبناء[(٢)] سَعْد عليهمُ[(٣)] وما قلتُ إلَّا بالتى علمتْ سَعْدُ

وبقوله الوثيق مبناه، البليغ معناه:

قَوْم إذا عَقَدوا عَقْداً لجارِهِم شَدُّوا العِناجَ وشدُّوا فوقه الكَرَبا[(٤)]

يُزيحون عن النزيل كل نازحٍ قاصِم، وليس له منهم عائبٌ ولا واصِم، فهم[(٥)] أحق بما قاله فى مِنْقَرٍ قيسُ بن عاصم[(٦)]:

لا يَفْطُنُونَ لعيبِ جارِهِم وهُمُ لحِفْظِ جِوَارِه فُطُنُ[(٧)]

حَلاّهم هذه الغريزةَ التى ليست باستكراه ولا جَعْل، أميرُ المؤمنين، دام نصره، قَسيمُهُمْ فيها حذوَ[(٨)] النعْلِ بالنعْل، ثم هو عليهم وعلى من سِواهم بالأوصاف المُلوكية مُشْتَعِل؛ ارفَضّ مُزْنُهُمْ منه عن غيث مُلِثّ يمحو آثار اللَّزْبه[(٩)]، وانشق غِيلُهُمْ منه عن ليث ضار مُنقبض على بَرَاثنه للوَثْبه[(١٠)]، فقُل

(١) رواية هذا الشطر فى مختارات ابن الشجرى: «وإن كانت النعمى عليهم جزوا بها».

(٢) فى مختارات ابن الشجرى: «أفناء». والأفناء: الأخلاط.

(٣) يروى: «وقد لامنى أفناء سعد عليهم».

(٤) العناج: عروة فى أسفل الغرب من باطن، تشد بوثاق إلى أعلى الكرب، وهو الحبل الذى تعلق فيه الدلو من عرقوتيها، فإذا انقطع الكرب أمسك العناج الدلو أن تقع فى البئر. يريد أنهم إذا عقدوا عقدا لجارهم أحكموه.

(٥) كذا فى ط. وفى ت ونفح الطيب والاستقصا للسلاوى: «فهو».

(٦) بنو منقر: من تميم، منهم قيس بن عاصم هذا.

(٧) هذا البيت من أبيات لقيس مطلعها:

إنى امرؤ لا يعترى حسبى دنس يفنده ولا أفن

(٨) كذا فى ت ونفح الطيب: وفى ط: «حذوك».

(٩) اللزبة: الضيق والشدة.

(١٠) يشير إلى قول النابغة:

وقلت يا قوم إن الليث منقبض على براثنه للوثبة الضارى

لسكّان الفَلا : لا تغرَّنَّكم أعدادُكم وأمدادُكم ، فلا يُبالى السِّرْحان المَواشى ، سواء مشى إليها النَّقَرَى أو الجَفَلَى[(١)] ؛ بل يصدمُهُم صَدْمَةً تحطِمُ منهم كلّ عِرْنين ، ثم يبتلع بعدُ أشلاءهم المُعَفَّرة ابتلاع التِّنِّين[(٢)] ؛ فهو هو كما عرفوه ، وعَهِدوه وألفوه ؛ أخو[(٣)] المنايا ، وابن جلا[(٤)] وطلاعُ الثَّنايا[(٥)] ، مجتمعٌ أشُدُّه ، قد احتنكتْ سِنّه[(٦)] وبان رُشْدُه ؛ جادّ مجدّ ؛ محتزم بحزام من الحَزْم ، مُشمِّر عن ساعد الجِدّ :

لا يَشْرَبُ الماءَ إلا مِنْ قَلِيب دمٍ ولا يَبيت له جارٌ على وَجَل[(٧)]

[٥٢] أَسَدِىُّ القلب آدَمِىُّ الرُّواء ، لابس جلدَ النَّمر لذوى العِناد والنَّواء[(٨)] :

وليس بشاوىّ عليه دَمامة إذا ما سعى يسعى بقوس وأسْهُمِ[(٩)]
ولكنَّهُ يسعَى عليه مُفَاضَةٌ[(١٠)] دِلاص كأعْيان الجرادِ المنظَّمِ[(١١)]

---

(١) مشى إليها النقرى أو الجفلى . أى دهمها وحده أو مع غيره .
(٢) التنين (بكسر أوله) : الحية العظيمة .
(٣) فى ط : « وأخو » .
(٤) يقال : هو ابن جلا : للسيد الشريف الذى لا يخفى مكانه .
(٥) الثنايا : جمع ثنية ، وهى العقبة ؛ وطلاع الثنايا : من يسمو لمعالى الأمور .
(٦) احتنكت سنه : قويت تجاربه .
(٧) القليب : البئر . وهذا البيت من قصيدة لأبى سعيد المخزومى . (انظر الأمالى ج ١ ص ٢٥٩ طبعة دار الكتب المصرية) .
(٨) النوء : المناوأة ، وهى المعاداة .
(٩) شاوى : صاحب شاء ، وهى الغنم . ورواية هذا البيت فى اللسان مادة (شوه) :
ولست بشاوى عليه دمامة إذا ما غدا يغدو بقوس وأسهم
وهو والذى بعده ليزيد بن عبد المدان .
(١٠) رواية هذا الشطر فى اللسان مادة (عين) : « ولكننى أغدو على مفاضة » .
(١١) المفاضة : الدرع . والدلاص : اللينة البراقة الملساء .

فالنجاءَ النجاءَ سامعين له طائعين ، والوَحاءَ الوحاءَ[1] لاحقين به خاضعين ؛ قبل أن تساقُوا إليه مُقَرَّنين فى الأَصفاد ، و يعيا الفِداء بنفائِس النفوس والأموال على الفاد[2] ؛ حينئذ يَعَضّ ذو الجهل والفَدامه[3] ، على يديه حسرة وندامه ؛ إذا رأى أبطال الجنود ، تحت خَوافق الرايات والبُنود ، قد لَفَحَتْهم نار ليست بذات خُمود ، وأخذتهم صاعقة مثل صاعقة الذين من قبلهم : عادٍ وثمود ؛ زَعَقَات سَبَطانات[4] تؤز[5] الكتائب أزّا ، وَهمزاً محققا للخيل بعد المدّ المشبع للأعنة هَمْزا ، وسَلاًّ للهندية سَلاًّ وهزا للخَطّية هَزّا ، حتى يقول النّسْر للذئب : هل تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزا[6] . ثِق خليفة الله بذاك ، فى كل من رام أَذَى رعيتك أو أذاك[7] ، فتلك عادة الله سبحانه وتعالى فى ذوى الشّقاق والنِّفاق ، الذين يَشُقّون عصا المسلمين ، و يقطعون طريق الوفاق[8] ؛ و يَنْصِبون حَبائل البَغْى والفساد فى جميع النَّواحِى والآفَاق ؛ فلَنْ يجعلهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلّ من الآمنين ، أنّى وكَيْف وقد أفسدوا وخانوا ؟ وهو سبحانه لا يصلح عمل المفسدين ، ولا يهدى كيد الخائنين .

وها نحن قد وجهنا إلى كعبة مجدكم وُجوه صلواتِ التقديس والتعظيم ، بعد ما زيّنا معاطفها باستعطافكم بدُرّ ثناء أبهى من دُرّ العِقد النظيم ؛ منتظمين

(١) كذا فى الأصلين . والوحاء : السرعة . وفى نفح الطيب : « والوجل الوجل » .
(٢) الفاد : الفادى ، وهو من يفديهم بالمال .
(٣) الفدامة : العى عن الحجة مع ثقل ورخاوة وقلة فهم .
(٤) سبطانات : جمع سبطانة ، وهى آلة يرمى بها فى الحرب ، (مولدة) .
(٥) تؤزهم : تحركهم بشدة .
(٦) ركزا : صوتا خفيا .
(٧) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « وأذاك » .
(٨) فى ت ونفح الطيب : « الرفاق » .

فى سِلك أوليائكم (١) ، متشرفين بخدمة عَليائكم ؛ ولا فَقَد عزة ولا عدمها ، مَنْ قصد مَثابتكم العزيزةَ وخَدَمها ؛ وإن المترامىَ على سنائكم ، لجدير بحرمتكم واعتنائكم ؛ وكل ملهوف تبوأ من كنفكم حِصْنا حصينا ، عاش بقية عمره محروسا من الضيم مصونا ؛ وقد قيل فى بعض الكلام : من قعدت به نِكاية الأيام ، أقامته إغاثة الكرام ؛ ومولانا أيده الله تعالى ولىّ ما يَزُفّه إلينا من مكرُمة بِكْر ، ويصنعه لنا من صنيع حافل يخلَّد فى صحائف (٢) حسنِ الذكر ، ويَرْوِى مُعنعنَ حديثِ حمدِه وشكرِه طِرْسٌ عن قَلَمٍ عن بَنَانٍ عن لسان عن فكر ؛ وغيره من ينام عن ذلك فيُوقَظ ، ويسترسل مع الغفلة حتى يذكَّر ويُوعَظ ؛ وما عُهِد مُنذ وجد إلّا سريعاً إلى داعى الندَى والتكرُّم ، بريئاً من الضَّجَر بالمطالبة والتبرّم ؛ حافظا للجار الذى أوصى النبى صلى الله عليه وسلم بحفظه ، مستفرغا وسعه فى رَعْيه المستمرّ ولحظه ، آخذا من حسن الثناء فى جميع الأوقات والآناء بحظّه :

[٥٣]

فهو من دَوْحة السَّنا فرعُ عِزّ ليس يحتاج مُجتنيه لهزِّ

كفُّه فى الإمحال أغزر وَبْل وذَراه فى الخوف أمنع حِرْزِ (٣)

حلمه يُسْفِر اسمه لك عنـــهُ فتفهَّم يا مدعى الفهمِ لُغْزِى (٤)

لا تسله شيئا ولا تستنِلْه نَظْرة منه فيك تُغْنِى وتُجْزِى

فنَداه هو الفُرات الذى قـــد عام فيه الأنام عَوْم الإوَزِّ

وحِمــــاه هو المَنيعُ الذى تر جع عنه الخطوب مَرْجِع عَجْز

(١) فى ط : « ومنتظمين فى سلك أولائكم » .
(٢) فى ت : « الصحائف » .
(٣) ذراه : كنفه .
(٤) لعله يريد أن الحلم يلحظ فى اسمه (الشيخ) ، لأن مع الشيخوخة الرزانة والهدوء .

فَدَعُوا ذهنه يزاول قَوْلِي فهو أدرى بما تضمن رمزى
دام يُحْيِي بكل صُنْع ومَنٍّ ويعافِي من كل بؤس ورِجْزِ

وكأنا به قد عَمِل على شاكلة جلالِه، مِن مدّ ظلاله، وتمهيد خِلاله، وتلقّي ورودنا بحسن تهلّله واستهلاله، وتأنيسنا بجميل قَبوله وإقباله، وإيرادنا على حوْض كَوْثره المُتْرَع بزُلاله. والله [سبحانه] (١) يُسْعد مَقامه العَلِيّ، ويُسعِدُنا به فى حَلّه وارتحاله، ومآله وحاله؛ ويؤيد جنده المظفّر، ويؤيدنا بتأييده على نزال عدوّه واستنزاله، وهَزّ الذوابل(٢) لإطفاء ذُباله؛ وهو سبحانه وتعالى المسئول أن يُرِيه قُرّة العين فى نفسه وأهله وخُدّامه وأمواله، وأنظاره(٣) وأعماله، وكافة [٥٤] شئونه وأحواله. وأحق ما نصل بالسّلام وأولى، على المقام الجليل مَقام الخليفة المَوْلَى: أزكى الصلاة والسلام على خاتمة(٤) أنبياء الله وأَرْسَالِه(٥)، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع أصحابه وآله، صلاةً وسلاما دائمين أبدا، موصولين بدوام الأبد واتصاله، ضامِنَيْنِ لِمُجَدِّدِهما ومردِّدِهما صلاح فاسد أعماله، وبلوغ غاية آماله، وذلك بمشيئة الله تعالى وإذنه وفضله وإفضاله.

انتهى الكتاب؛ وأوردته بطوله لما فيه من ذكرى واعتبار، بما فعلته الدنيا مع الملوك الأعاظم الكبار، ولأن الكلام جر إليه، والله تعالى الكفيل بخلاص من توكل عليه.

---

(١) زيادة عن نفح الطيب.
(٢) الذوابل: الرماح، جمع ذابل.
(٣) كذا فى ط ونفح الطيب. والأنظار: جمع نظر، وهو مصدر، يراد به مايتولى النظر عليه من الأعمال. وفى ت: «أقطاره».
(٤) كذا فى ط ونفح الطيب. وفى ت: «خاتم».
(٥) يريد رسله، والأرسال: غير مسموع فى هذا المعنى.

أبو عبد الله العربى وشىء من نظمه

وصاحب هـذا الإنشاء وصفه الإمام ابن داود بقوله : « الفقيه الخطيب الفاضل ، خاتمة الأدباء بالأندلس[١] ، أبو عبد الله محمد بن الفقيه الصالح أبى محمد عبد الله العقيلى المعروف بالعربى .

ومن بديع نظمه هذه الأبيات[٢] :

جُزْ بالبساتين والرياض فما ... أبهج مَرْئيَّها[٣] وأجْلاهُ[٤]

واعْجَبْ بها لِلنَّبات ولْتَكُ فِي ... أَسفلِهِ ناظرا وأعلاه

وقدِّسِ اللهَ عند ذاك وقُلْ ... سبحانه لا إلهَ إلا هُو

ورأيت بخط ابن داود المذكور أنه وقع بينه ، أعنى ابن داود ، وبين الفقيه المدرس أبى عبد الله محمد بن أبى الفضل بن إبراهيم البَسطى ، نزاع فى مسألة نحوية ، قال : وطال فيها الكلام[٥] بما تقيَّد عنى فى غير هذا ، فقال الفقيه الخطيب الأديب العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله العربى يُوَرِّى بالقضية ، ويشير إلى قصة نبى الله سليمانَ بن داود عليهما السلام :

نَدَّدَ البَسْطِىّ فى مسألة ... لابن داودَ وقد أحْكَمَها

وقديما وقعت مُعْضِلَةٌ ... وابن داود الذى فُهِّمَها[٦]

[٥٥] انتهى .

قصيدة الدقون فى ندب الجزيرة

ومن نظم الشيخ الفقيه ، الأستاذ المُقْرِئ الخطيب ، الفذّ الأوحد ، سيدى

(١) فى ت : « أدباء الأندلس » .
(٢) فى ت : « ومن بديع نظمه قوله » .
(٣) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « مرآها » .
(٤) فى نفح الطيب : « وأحلاه » .
(٥) فى ت : « القيام » .
(٦) يشير إلى قوله تعالى فى قصة الغنم والحرث : « ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما » .

أبى العباس أحمد الدقون[١] رحمه الله ، قصيدة فى نَدْب[٢] الجزيرة ، تذكر النفوس بشجوها ، فترسل العيون دموعها الغزيرة ، افتتحها بنثر نصه :

الحمد لله على كل حال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله خير آل . أما بعد فيقول خديم[٣] أهل الله تعالى ، عُبيد الله أحمد بن محمد الأندلسى ، الشهير بالدقون ، لطف الله به بمنه وكرمه :

إنه لما غابت شمس الجزيرة الخضراء ، بأخذ الحمراء ؛ قَرَعْتُ باب النُّدْبه ، لما تقدم من الصحبه ؛ فقلت أبياتا صَدَرَتْ من قلب كئيب ، مُبْكِية كل[٤] لبيب أريب ؛ وسميتها بالموعظة الغراء ، بأخذ الحمراء ، مبيحا لمن رغب فيها ، ولم يرغب عنها ، أو استحسن شيئا منها ، أن يحدِّث بها عنى ؛ وذلك بعد إتقان لفظها وحفظها ، وفهم وعظها ولحظها ؛ وإن كنت لا أحسن أن أقول ، وربما أُعْزَى بها إلى الفُضُول ؛ لكنّى لا أعْدَم المثيل ، وفى مثل هذا قيل :

ومَنْ ذا الذى ترضى سجاياه كلُّها كَفَى المرءَ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ معايبهْ

والله حسبى وعُدَّتى ، وهو مُقيلُ عَثْرتى . وهذا مطلع صباحها ، ومنبع افتتاحها :

أَمِنتَ من عكس آمال وأحوال وعشْتَ ما بين أعمام وأخوالِ
ولا ابتُليتَ بما فى القلب من نكدٍ فالجسمُ مشتغل من غير أشغال
وكيف لا وبِقاع الدين خالية من أرض أندلس من أجْل أهوال

(١) هو أحمد بن محمد بن يوسف الصنهاجى المشهور بالدقون ، توفى مستهل شعبان سنة إحدى وعشرين وتسع مئة . (انظر كتاب نيل الابتهاج ، بتطريز الديباج ، لأحمد بابا التنبكتى) .
(٢) فى ت : « ندبة » .
(٣) انظر حاشية رقم ٣ صفحة ٣٩ من هذا الجزء .
(٤) فى ت : « لكل » .

عمَّت فغمَّتْ قلوب المسلمين فيا لَلْمسلمين مِنَ أعـداء وأنـكالِ
جاشت بها من جيوش الكفر ما دَرَسَتْ بهم معالمُ أخيـار وأقيال[(١)]
أهل الشجاعة أهل العلم أهل تقًى أهل النفاسـة فى قول وأفعال
عنهم وفيهم أحاديث النبىّ بدت وهم معـاقلُ قول الله للتالى
رُهبان ليلٍ وفُرْسان النهار فمَنْ يُلْمِمْ بساحتهم يظفرْ بآمال
لا عيب فيهم سوى أن المضاف لهم يسلو عنَ أهل وأوطان وأموال
فهل ترى بعد هـذا النفسَ سائلة وكيف تَسأل عن وصف وعن حال [٥٦]
تالله لا زال ما فى القلب من أسف ولو أكون حليفَ المنزل الخالى
أو يفتحَ الله فى نصر يَمُنّ به فالله باق يقى من كل مُختال
قد رام إطفاءَ نور الله مجتهدا وباذلا كل ما قد حاز من مال
سطا بجيش كموج البحر فى عُدَدٍ نعم ، وفى عَـدَدٍ من رَهْط أبطال
مُؤَيَّدا باجتماع المصر يتبعه شر الخلائق مسرورا بإقبال
يَسْبى المسامعَ بالأنفاض[(٢)] مُشْبِهَةً وقْعَ الصّواعق فى هَـدٍّ وزلزال
يَبْنى ليهدم ما الإسلام شـيَّدَه والوصف يُعْجِز مَنْ يُدْعَى بقَلْقال[(٣)]
فهو المقاتِلُ فى الأبراج مُنْتَقِلٌ إلْفَ النُّحوسِ وتغيير[(٤)] وترْحال
فاستوطن المرْجَ لا ينوى الرحيلَ ولا يَخْشَى المُغيثَ بسَهْل أو بأجبال
والمسلمون من الأضغان قد مُلِئت قُلُوبُهُمْ وأبَوْا تَشْديد أخلال[(٥)]

---

(١) الأقيال : جمع قيل ، وهو الملك دون الملك الأعظم .
(٢) كذا فى الأصلين : ولعلها محرفة عن الأنفاط (بالطاء) ، يريد بها الآلات التى ترمى بها الحصون والأسوار كالمدافع . (انظر تكملة المعاجم العربية لدوزى) .
(٣) يريد بالقلقال (هنا) : الفصيح اللسن ، كما هو شائع على ألسنة المغاربة حتى اليوم .
(٤) فى ط : « النجوس » .
(٥) الأخلال : جمع خال ، وهى الثغرة فى الصفوف ونحوها .

والحقّ مختلِف والحمقُ مؤتلِف والكل منصرف عن نصر أبطالِ
وهم لديه كطير وهو ينتفه والطير يرجو البقا مع كَيْد قتّال
إذا تجرّدَ [١] من ريش يطير به أضحى يدافع عن رُوح بأوصال [٢]
سَدُّوا مسالك أرزاق ومنفعة كدودة القز فى نَسْجٍ لسِرْبال
ثم استغاثوا : ألَا فُرْسانَ عاديةٌ قال الصدى : لستَ ذا رمح ونَبَّال
والضيفَ ضيعتَ ما أمّلتَ من ابنٍ ففارقِ الجَبْحَ من تدخين نحّال [٣]
وارْحَل بنحْلك [٤] نحو الغرْب فى كرم من قبل وضعك فى قَيْد وأغلال
فاستمكنَ [٥] الرُّعبُ فى الأكباد واتفقت بعد اختلاف على تأمين أرذال
واحتل غرناطةَ الغرّاءَ قد [٦] عَدِمت حَبَّ الحصيد ونصرَ الله والآل
كأنها الشمس فى أُفْق العُلى كُسِفتْ فهل على طَلَلٍ ترمى بأبطال ؟ [٧]
وهل تعود ليالٍ قد سَلَفْنَ بها ونحن لا نشتكِى تنكيدَ ضُلّال ؟
وهل يعود لها الدين الذى أنِسَتْ به وقد أيِستْ من فتح أبدال ؟ [٨]
فأصبحوا لا تُرَى إلا مساكِنُهم كمثل عادٍ وما عادٌ بأشكال
قد فُرِّقوا كَسَبًا فى كل منزلة وقد سبا عدّه من أيد أو عال [٩]

(١) كذا فى ط . وفى ت : « تجدد » وهو تحريف .
(٢) الأوصال : مجتمع العظام . يريد الأطراف .
(٣) الجبح : خلية النحل . والنحال : القائم على خلايا النحل .
(٤) فى ت : « بنجلك » .
(٥) فى ت : « واستمكن » .
(٦) فى ط : «مذ» .
(٧) كذا فى ط . وفى ت : « تومى بأطلال » ولا معنى له .
(٨) يشير إلى ما هو معروف فى الغرب من الاستنصار بالأولياء ، وهم الأبدال ، عند اشتداد الأزمات والخطوب .
(٩) كذا ورد هذا الشطر فى الأصلين .

فلا المساجدُ بالتوحيـــد عامرةٌ إذ عَمَّروها بناقوس وتِمثالِ
ولا المنــابرُ للوعّاظ بارزة الأمر والنهى أو تذكير آجال
ولا المكاتب بالصبيان آنسة تتلو القُرآن بأسحار وآصال
آهٍ على الدين والدنيا وما نفعت آهٍ إذا صدرت من قلب بَطّال(١)
[٥٧] إنّا إلى الله والرُّجْعَى له وبه تعلّق القلب فى تصحيح إعلال
وكان ما كان والألطاف شاملة لا حتْ بنُقْلة نِسوان وأطفال
فلنكرم(٢) الآن مَنْ ينزِلْ بمنزلنا فالدهرُ ذو دُول فاسمع لأمثال
وإذ ولا قدرة تدنى المنى فلهم حقّ الجِوار ولا تُوصف(٣) بإهمال
نلقاهم ولنا بِشْر ومَعــذِرة ورحمـــة يا حُماةَ العَمّ والخال
ولا نذدْ عن وُرود الحوض وارِدَه ولا ندعْ قولَ ذى نُصْح وإجمال
إخوانكم رفعوا أيدى الضراعة مع كسر القلوب فلا يُلْقَوْا بإخمال
وقل لوالٍ تلطفْ فى مغارمهم يَلْطفْ بك الله إذ تدعى لأعمال
هــذا النَّذير جِهارا جاء يُنْذِرنا والاذن فى صمم عن قيلٍ أوْ قال
ونحن فى غفـــلة عما يُراد بنا نمشى على مُهْلة من طول إمهال
يأهل فاسَ أما فى الغير موعظة إن السعيد لموعوظ بأمثال
فقل تعالَوْا إلى نصح وتذكرة فالأَمْر جِدٌّ فلا تصحبْ لِمكسال
كيف الحَياة إذِ الحَيّات قد نَفَحَت على السواحل أو همّت بإرسال
ولا سبيل إلى التِّرياق غيرُ تُقًى والحزم فى سَعَةٍ من قبل إعجال
والأَخذ بالجِدّ فى جمع القلوب على بذل النصيحة أو إبراء أَدْخال

(١) فى ط : « آها على الدين ... * إلا إذا صدرت ... الخ » .
(٢) فى ت : « فنكرم » .
(٣) فى ت : « فلا يوصف » .

والزُّهد فى هذه الدنيا وزُخرفها — والأمر بالعرف مع تحسين مِقوالِ
ولا تَرُمْ فى أمان الروم منزلةً — خوفا على الدين أو بعدا مِنَ أُنْذَال
فمن يَبتْ فى أمان الكلب منتصبا — لسخط مَوْلًى ولا عذرٌ بأثقال
وار بأْ بنفسك عن أَرْض تهان بها — فحيثما كنت لا تخشى مِنِ أُقْلال
فالموت عندىَ خير من حياة فتًى — قد اكتسى بعد عز ثوبَ إذلال
والهجرة الآن قد عادت كما سبقتْ — فافهم تفاصيل أقوالٍ وإجمال
واحتلْ بذهنك ولتسمع نصائحَ مَنْ — قدطَبَّ مَنْ حَبَّ(١) لمْ يُوصَفْ بمُحْتال
فى صدر سبع على التسعين زائدة — شمسُ الجزيرة غابت بعد إكمال
وبُلِّغَ الكلبُ ما قد شاء من أَرَبٍ — إذْ لم يجد ذائدا عن ديننا العالى
ليقضىَ الله أمرا كان قدَّره — والأمرُ لله فى قول وأَفعال
وقد وعظتُ ولو أَسمعتُ لانتشرتْ — سحائب الدمع لم تقلع عنِ انزال
فليشتغل كل مسكين بمهجته — والله يحفظنا من كل مهْوال
ثم الصلاة على المختار سيدنا — محمد والرضا عن آلٍ أوْ تالى [٥٨]

مما كتبه بعض أهل الجزيرة إلى بايزيد

ومما كتبه بعض أهل الجزيرة بعد استيلاء الكفر على جميعها للسلطان أبى يزيدَ(٢) خان العُثمانى ، رحمه الله ، ما نصه بعد سطر الافتتاح :

الحضرة العلية ، وصلَ الله سعادتها ، وأعلى كلمتها ؛ ومهَّد أقطارها ، وأعزّ أنصارها ، وأذل عُداتها ، حضرة مولانا ، وعمدة ديننا ودنيانا ، السلطان الملك الناصر ؛ ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، قامع أعداء الله

(١) من أمثال العرب فى التنوق فى الحاجة وتحسينها : اصنعه صنعة من طب لمن حب . . . أى صنعة حاذق لمن يحبه .
(٢) فى ط : « بايزيد » .

الكافرين ؛ كهف الإسلام ، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام ؛ محيي العدل ، ومنصف المظلوم ممن ظلم[(١)] ، ملك العرب والعجم ، والترك والدَّيْلم ؛ ظِل الله فى أرضه ، القائم بسنته وفرضه ؛ ملك البَرَّيْن ، وسُلْطان البحرين ؛ حامى الذِّمار ، وقامع الكُفَّار ؛ مولانا وعُمدتنا ، وكهفُنا وغياثنا[(٢)] ، مولانا أبو يزيد ، لا زال ملكه موفور الأنصار ، مقروناً بالانتصار ، مُخَلَّد المآثِر والآثار ، مشهور المعالى والفَخار ؛ مستأثِرا من الحسنات بما يضاعف الله به الأجر الجزيل ، فى الدار الآخرة والثناء الجميل ، والنصر فى هذه الدار . ولا بَرِحت عَزَماته العلية مختصة بفضائل الجهاد ، مُجَرِّدةً على أعداء الدين من بأسها ، ما يُرْوِى صدور السُّمر والصِّفاح[(٣)] ، وألْسِنة السِّلاح ، باذلة نفائس الذخائر فى المواطن التى تألف فيها الأخيار مفارقة الأرواح للأجساد[(٤)] ، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد :

سـلام كريم دائم متجدّد ... أخص به مولاىَ خيرَ خليفةِ
سلام على مولاى ذى المجد والعُلا ... ومَنْ ألبس الكفارَ ثوبَ المَذَلَّة
سلام على من وسّع الله ملكه ... وأيّده بالنصر فى كل وِجهة
سلام على مولاى من دار ملكه ... قُسُنْطِينةٍ أكرمْ بها من مدينة
سلام على من زيَّن الله ملكه ... بجند وأتراك مِنَ أهل الرِّعاية
سلامٌ عليكُمْ شَرَّف الله قدركُمْ ... وزادكُمُ ملكا على كل مِلَّة[(٥)]

---

(١) فى ط : « من الظالم » .
(٢) فى ط : « غوثنا » .
(٣) الصفاح : جوانب السيوف ، الواحد : صفح .
(٤) هذه العبارة ، من قوله : «باذلة نفائس» إلى قوله : «للأجساد» : ساقطة فى ت .
(٥) رواية هذا الشطر فى ط : « وزادكم ملكا فى كل ملكة » وهو محرف .

سلام على القاضى ومَنْ كان مثلَه ... مِنَ العلماء الأَكْرمِينَ الأجلّةِ
سلام على أهل الدِّيانة والتّقَى ... ومن كان ذا رأى مِنَ أهل المشورة
ســـلام عليكم من عَبيد تخلَّفُوا ... بأندلس بالغَرْب[1] فى أرض غُرْبة
أحاط بهم بحر من الرُّوم زاخرٌ ... وبحر عميقٌ ذو ظلام ولُجَّة
سلام عليكم من عَبيد أصابهم ... مُصاب عظيم يالَها مِنْ مُصيبة
سلام عليكم من شُيوخ تمزقت ... شُيُوبهم بالنَّتف من بعد عِزّة
سلام عليكم من وجوه تكشّفت ... على جملة الأعلاج من بعد سَتْرة
سلام عليكم من بناتٍ عواتقٍ ... يسوقهم اللّبّـــاط قهراً لخَلْوة[2]
سلام عليكم من عجائزَ أُكْرِهَتْ ... على أكل خِنزير ولحمٍ لِجِيفة
نقبل نحن الكلُّ أرْض بِسَاطكم ... وندعو لكم بالخير فى كل ساعة
أدام الإله[3] ملككم وحياتكم ... وعافاكم من كل سُوء ومِحْنة
وأيَّدَكُمْ بالنصر والظَّفْر بالعِدا ... وأسكنكم دار الرضا والكرامة
شكونا لكم مولاىَ ما قد أصابنا ... من الضُّر والبَلْوى وعظم الرّزية
غُــدِرْنا ونُصِّرنا وبُدِّل ديننا ... ظُلِمنا وعُوملنا بكلِّ قبيحة
وكنا على دين النبى محمدٍ ... نقاتل عُمَّال[4] الصليب بنيــة
ونلقى أُموراً فى الجهاد عظيمةً ... بقتلٍ وأسْرٍ ثم جُوع وقِلّة
فجاءت علينا الروم من كلّ جانب ... بسيل عظيم جملةً بعد جُمْلة

(١) فى ط : « فى الغرب » .
(٢) اللبــاط : من رجال الدين بالكنيسة ، كما فى معجم دوزى . يشــير إلى ما فعله نصارى الأسبان من إكراه المسلمين على ترك دينهم .
(٣) فى ط : « إلهى » .
(٤) كذا فى ت . وفى ط : « أعمال » . وفى رواية : « عباد » .

ومالوا علينا كالجراد بجمعهم ... بجد وعزم من خيول وعُدّةِ

فكنا بطول الدهر نَلْقَى جموعهم ... فنقتلُ فيها فرقةً بعــد فرقة

وفُرسانُهم تزداد فى كل ساعة ... وفُرْساننا فى حال(١) نقصٍ وقلة

فلمـــا ضَعُفنا خَيَّموا فى بلادنا ... ومالوا علينـا بَلدةً بعد بلدة

وجاءوا بأنفاط(٢) عظام كثيرة ... تهدم أسوار البــلاد المنيعة

وشدوا عليها فى الحِصار بقوة ... شهوراً وأياماً بجِــدّ وعَزْمَة

فلمـــا تفانت خيلُنا ورجالنا ... ولم نر من إخواننا من إغاثة

وقَلّت لنا الأقوات واشتدّ حالنا ... أطعناهمُ بالـكَرْه خوف الفضيحة

وخوفاً على أبنائنـا وبَناتنـا ... مِنَ أن يؤسَرُوا أَوْ يقتلوا شر قِتلْة

على أنْ نكون مثلَ من كان قَبْلَنَا ... من الدَّجن من أهل البلاد القديمة

ونُبْقِى على آذاننا وصـــلاتنا ... ولا نتركَنْ شيئاً مِنَ أمر الشريعة

ومن شاء منا البحرَ جاز مُؤَمَّناً ... بما شاء من مال إلى أرض عُدْوة

إلى غير ذاكَ من شروط كثيرة ... تزيد على الخمسين شرطاً بخمسة

فقال لنا سُلْطانهم وكبيرُهم ... لـكم ما شرطتم كاملا بالزيادة

وأَبْدى لنا كُتْباً بعهد وموثق ... وقال لنا هذا أمانِى وذِمَّتى

فكونوا على أموالِـكمْ ودِيارِكم ... كما كُنتمُ من قبلُ دُونَ أَذِيَّة

فلما دخلنا تحت عَقْد ذِمامهم ... بدا غَدْرُهُمْ فينا بنقض العزيمة

وخان عهوداً كان قد غرّنا بها ... ونَصَّرَنَا كَرْها(٣) بعُنْفٍ وسَطْوة

---

(١) فى ط : « فى كل » .

(٢) كذا فى ط . ويريد بالأنفاط : الآلات التى ترمى بها الحصون والأسوار كالمدافع . وفى ت : « بأنفاض » وهو تحريف . (انظر الحاشية رقم ٢ صفحة ١٠٥ من هذا الجزء) .

(٣) فى ط : « قهرا » .

وأَحرقَ ما كانتْ لنا من مَصاحفٍ ... وخالَطها بالزِّبل أو بالنجاسةِ
وكل كتاب كان فى أمر ديننا ... ففى النار أَلْقَوْهُ بهزْءٍ وحَقْرة
ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم ... ولا مُصْحَفاً يُخْلَى به للقراءة
ومن صام أو صلى ويُعلم حالُه ... ففى النار يُلْقُوه على كل حالة
ومَنْ لم يَجِئْ منّا لموضع كُفْرِهمْ ... يعاقبُه اللَّباط شَرَّ العقوبة
ويَلْطِم خَدَّيه ويأخذ ماله ... ويجعلُه فى السجن فى سُوء حالة
وفى رَمضانٍ يُفْسدون صيامنا ... بأكل وشُرْب مرة بعد مرة
وقد أَمرونا أن نَسُبَّ نبينا ... ولا نذكرنْه فى رَخاء وشدة
وقد سمعُوا قوماً يُغَنُّون باسمه ... فأدركهمْ منهمْ أَليمُ المَضَرَّة
وعاقَبَهُمْ حُكَّامُهُمْ وَوُلاتُهم ... بضرب وتغريم وسَجْنٍ وذِلَّة
ومن جاءه الموتُ ولم يَحْضرِ الذى ... يُذَكِّرُهُمْ لم يدفِنوه بحيلة
ويُتْرَكَ فى زِبْلٍ طريحاً مُجَدَّلا ... كمثل حِمارٍ ميّت أو بَهِيمة
إلى غير هذا من أمور كثيرة ... قِباحٍ وأَفْعَالٍ غِزَارٍ رَدِيّة
وقد بُدِّلتْ أسماؤنا وتحولتْ ... بغير رِضاً منا وغير إرادة
فآهاً على تبديل دين محمد ... بدين كلاب الروم شَرِّ البرية
وآهاً على أسمائنا حين بُدِّلَتْ ... بأسماء أعلاج مِنَ أُهل الغَباوة
وآهاً على أبنائنا وبَناتنا ... يَرُوحون لِلَّباط فى كل غُدْوة
يُعَلِّمهم كفراً وزُوراً وفِرْية ... ولا يقدِروا أن يمنعوهم بحيلة
وآهاً على تلك المساجد سُوِّرَتْ ... مَزابلَ للكفّار بعد الطّهارة
وآهاً على تلك الصوامع عُلِّقَتْ ... نَوَاقِيسُهُمْ فيها نَظيرَ الشّهادة
وآهاً على تلك البلاد وحُسْنها ... لقد أَظلمتْ بالكفر أَعظم ظُلْمة

وصارت لعُبَّاد الصَّليب مَعاقِلا وقد أمِنوا فيها وقوع الإغارةِ
وصِرْنا عبيداً لا أُسَارَى فنُفْتَدَى ولا مسلمينَ نطقُهُمْ بالشّهادة
فلَوْ أبصرت عيناك ما صارَ حالُنا إليه لجادتْ بالدُّموع الغزيرة
فيا ويلَنا ، يا بُؤْسَ ما قد أصابنا من الضُّرّ والبَلْوَى وثوبِ المَذَلَّة
سَأَلناك يا مولاىَ باللهِ ربِّنا وبالمصطفَى المختارِ خيرِ البَرِيَة
وبالسَّادة الأخيار آل محمد وأصحابه أكرِمْ بهم مِنْ صَحَابة
وبالسَّيد العبَّاس عَمّ نبيّنا وشَيْبته البيضاءِ أفضلِ شيْبة
وبالصالحين العارفينَ بربّهمْ وكلّ ولى فاضل ذى كرامة
عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا لعل إلٰهَ العرش يأتى برحمة
فقولُكَ مسموع وأمرك نافذ وما قلت من شىء يكون بسرعة
ودينُ النصارى أصلُه تحتَ حكْمكمْ ومن ثَمَّ يأتيهم إلى كل كُورَة
فباللهِ يا مولاىَ مُنُّوا بفضلكم علينا برأى أو كلام بحُجَّة
فأنتمْ أولو الإفضال والمجدِ والعلا وغوثُ عباد الله فى كل آفة
فسلْ بابَهُمْ (١) أعنى المقيم برومةٍ بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة ؟
وما لَهُمُ مالوا علينا بغدرهمْ بغير أذًى منا وغير جريمة
وجنسهمُ المغلوبُ فى حفظ ديننا وأَمنِ ملوكٍ ذى وفاء أجِلَّة
ولم يُخْرَجوا من دينهم وديارهم ولا نالهم غَدْر ولا هَتْكُ حُرْمة
ومَنْ يُعْطِ عهداً ثم يَغْدِر بعهدِه (٢) فذاك حرامُ الفِعل فى كُلّ مِلَّة
ولا سِيَما عندَ الملوك فإنه قبيح شنيع لا يجوز بوجهة

(١) يريد البابا رئيس الدين المسيحى .

(٢) فى ط : « ثم يغدر بعده » .

وقد بَلَغَ المكتوب منكمْ إليهم فلم يَعملوا منه جميعاً بكلمة
وما زادهم إلا اعتداءً وجُرْأةً علينا وإقداماً بكل مَساءة
وقَدْ بلَغَتْ أرْسَالُ[(١)] مصرَ إليهم وما نالَهم غدر ولا هتك حُرمة
وقالوا لتلك الرُّسْل عنا بأننا رضينا بدين الكفر من غير قَهْرة
وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم ووالله ما نرْضَى بتلك الشهادة
لقد كَذَبوا فى قولهم وكلامهم علينا بهذا القول أكْبر فِرْية [٦٢]
ولكنّ خوفَ القتل والحَرْق رَدَّنا نقول كما قالوه من غير نِية
ودينُ رسول الله ما زال عندنا وتوحيدُنا لله فى كلّ لحظة
ووالله ما نرضى بتبديل ديننا ولا بالذى قالوا مِنَ أمر الثلاثة
وإن زعموا أنّا رضينا بدينهم بغير أذى منهم لنا ومساءة
فسلْ وَحَرا[(٢)] عن أهلها كيف أصبحوا أُسارَى وقتلى تحت ذل ومِهْنة
وسَلْ بلِفِيقا عن قضية أمرها لقد مُزِّقوا بالسَّيْف من بعد حَسْرة
ومنيافة[(٢)] بالسيف مزق أهلها كذا فعلوا أيضاً بأهل البُشُرَّة[(٣)]
وأندَرَش[(٤)] بالنار أحرق أهلها بجامعهم صاروا جميعاً كفحمة
فها نحن يا مولاى نشكو إليكم فهذا الذى نلناه من شَرّ فُرْقة
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
وإلا فيُجْلُونا جميعاً مِنَ أرضهم بأموالنا للغَرْب دار الأحبة
فإجلاؤنا خير لنا من مُقامنا على الكفر فى عز على غير مِلّة
فهذا الذى نرجوه من عِزّ جاهكم ومِنْ عندكم تُقْضَى لنا كلُّ حاجة

(١) يريد بالأرسال (هنا) : جمع الرسول .
(٢) وحرا ، ومنيافة : اسما بلدين ، ولم نعثر عليهما فى المعاجم .
(٣) البشرة : جهة تنتظم قرى كثيرة نزهة قرب غرناطة .
(٤) أندرش (أندراش) : بلدة بالأندلس من كورة ألبيرة .

ومِنْ عندكم نرجو زوال كُرو بنا وما نالنا من ســـوء حال وذِلّة
فأنتم بحمد الله خـــير مُلوكنا وعزتُكمُ تعلو على كلّ عِزة
فنسأل مولانا دوامَ حياتـكم بمُلك وعِز فى سرور ونعْمـــة
وتهدين(١) أوطان ونصر على العِدا وكثرة أجنـــاد ومال وثرْوة
وثمّ ســـلام الله تتلوه رحمة عليكمُ مدى الأيّام فى كل ساعة

انتهت الرسالة بحمد الله ، وكتبتها وإن كانت ألفاظها غير بليغة ، تكميلا للفائدة ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

بلاغـة أهل الأندلس

وكان أهل الأندلس فى عُنْفوان أمْرهم فى غاية البلاغة ، حتى قال الرئيس ابن الجيّاب يفتخر(٢) بذلك :

أبى الله إلا أن تـكون اليدُ العُلْيا لأندَلُس من غير شرط ولا ثُنْيا(٣)
وإنْ هى عَضّتها نيوب نوائب فَصَيَّرت الشّهْد المَشُور بها شَرْيا(٤)
فما عَدِمت أهلَ البلاغة والحِجا يقيمون فيها الرسْم للدين والدُّنيا
إذا خَطَبُوا قاموا بكل بليغةٍ تُجَلِّى القلوبَ(٥) الغُلْفَ والأعين العُمْيا
وإن شَعَرُوا جاءوا بكل غريبة تخال النُّجُومَ النيِّراتِ لها حَلْيا
فنسألُ فى الدنيا من الله سَتْرةً علينا ، وفى الأخرى إذا حانت اللُّقْيا

[٦٣]

ولعمرى ، لقد صدق قائل هذه الأبيات ، فإن البلاغة لم تزَل شمسُها بالأندلس باهرة الإياة(٦) ، ظاهرة الآيات ، إلى أن استولى عليها العدو ، وعطّل

(١) كذا فى ت . والتهدين : التسكين وفى ط : « وتهذيب » .
(٢) فى ط : « مفتخرا » .
(٣) ولا ثنيا : ولا استثناء .
(٤) الشرى : الحنظل .
(٥) فى ت : « تحلى قلوب القلب » وهو تحريف .
(٦) إياة الشمس : ضوءها .

من أهل الإسلام الرَّواح إليها والغُدُوّ ، وفى أهلها بقية لسان ويراعة[١] ، وتصرف فى فنون الإجادة وبراعة ، وقد قصصنا عليك آنفاً الرسالة التى كتبها الملك[٢] المخلوع لصاحب المغرب فيما سردناه ، واطلعت منها على ما يؤيد ما [قلناه[٣]] ، من الغرض الذى انتحيناه وأوردناه : وقد كان ذلك الكاتب وطبقته تلقفوا كُرَة البلاغة من يد طبقة أخرى حازت[٤] مُعَلَّى القِداح ، وتبرجت لها من الفصاحة كل خَوْد رَداح[٥] ، كالفقيه الكاتب أبى عبد الله الشّران ، المبرز فى أدواته على الأنداد والأقران ، وكالأديب الشهير [الفقيه عمر ، الذى لم تزل أخباره إلى الآن سَمَر ، وكفارس تلك الحلبة . الكاتب القاضى الرئيس ، الوزير[٦]] الفقيه ، أبى يحيى بن عاصم ، الذى حَلِيَتْ بعلومه اللَّبَّات والمعاصم ، وغيرهم من الجهابذة النُّقَّاد ، والأعلام الذين تخضع لهم المحاسن وتنقاد ، إن جَدُّوا وصلوا مقطوع الأسباب ، وإن هَزَلوا ، على عادة الأفاضل فى مثل هذا الباب ، ملكوا النفوس ، وسحروا الألباب ؛ وقد سبق من كلام ابن عاصم ما يصحّح ما ادعيناه ، ولْنورد زيادةً إذا أبصرها المنصف المستفيد تَقَر عيناه ، فنقول :

مقامة الفقيه عمر : تسريح النصال إلى مقاتل الفصال

أما الفقيه عمر فهو أشهر من نار على عَلَم ، وأزجاله ومنظوماته ومقاماته عند العامة محفوظة ، وعند الخاصّة مرفوضة ، إلا القليل الذى يُسمح فى مثله لصاحب القلم ، كمقامته[٧] التى سماها بتسريح النِّصال ، إلى مقاتل الفَصَّال ، ونصها :

(١) اليراعة : قصبة القلم . والمراد أنهم أهل فصاحة إذا تكلموا أو كتبوا .
(٢) فى ط : « كتب ملكها » .
(٣) زيادة عن ت .
(٤) فى ط : « جازت » .
(٥) الخود : الحسنة الخلق الشابة أو الناعمة ؛ والرداح : الثقيلة الأوراك والمآكم .
(٦) زيادة عن ت .
(٨) فى ط : « مقاماته » .

[٦٤] ياعماد السالكين ، ومحط رحال[1] المستفيدين والمتبركين ، وثمال الضعفاء والمساكين والمتروكين ، فى طريقتك يتنافس المتنافس ، وعلى أعطافك تُزْهَى العباءات وتروق الدَّلافس[2] ؛ وبكتابك تحيا جوامد الأفهام ، وبمِذَبَّتك تُشَرِّد ذُباب الأوهام ؛ وفى زِنبيلك[3] يُدَسّ التالد والطارف ، وبعصاك يُهَشّ على بدائع المعارف ، اللهَ اللهَ فى سالك ، ضاقت عليه المسالك ؛ وشاد ، رُمِى بالبعاد[4] ، أدركته متاعب الحرْفة[5] ، وأقيم من صَفّ أهل الصُّفَّة[6] ؛ فلا يجد نشاطاً على ما يتعاطى ، ولا يَلْقَى اغتباطا ، وإن حل زاوية أوْ نَزَل رِباطاً ؛ أُقْصِى عن أهل القرب والتخصيص ، وابتُلِى بمثل حالة بَرْصِيص[7] ؛ فأُحيل عليك ، وتوقفت إقالته على توبة بين يديك ؛ فكاتبك استدعاء ، واستوهب منك هداية ودعاء ؛ ليسير على ما سَوّيت ، ويتحمل عنك أشتات مارَوَيت ؛ فيلقى الأكفاء الظُّرفاء عزيزاً ، ويباهى بك كل من خاطبك مستجيزاً ، فاصرف إلى مُحَيَّا الرِّضا ، وأعِدْ من إيناسك العهد الذى مَضَى ، ولا تلقنى مُعْرِضاً ولا مُعَرِّضا ، وأصغ إلىّ سمعك كما قدر الله وقضى :

تعالَ نجددْها طريقة ساسانِ[8] وعَضَّ عليها ما توالى الجديدانِ

---

(١) هذه الكلمة « رحال » : ساقطة فى ت .

(٢) الدلافس : جمع دلفاس (ويقال فيه دفاس أيضا) : نوع من اللباس خشن كالعباءة إلا أنه قصير ، يلبسه الصوفية والفقراء (انظر تكملة المعاجم العربية لدوزى) .

(٣) فى ط : « زبيلك » وهى لغة فى الزنبيل .

(٤) فى ت : « بإبعاد » .

(٥) الحرفة (بالضم والكسر) : الحرمان .

(٦) أهل الصفة : فقراء صحابة رسول الله كانوا يبيتون فى صفة مسجده صلى الله عليه وسلم ، وهى موضع مظلل منه .

(٧) برصيص ، ويقال فيه برصيصا : كان من عباد بنى إسرائيل ، ثم فتنه الشيطان ، وقصته مشهورة تذكر عند تفسير قوله تعالى : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر) .

(٨) يريد بطريقة ساسان علم الحيل الساسانية . قال حاجى خليفة فى كشف الظنون : =

ونصرفْ إليها من مُثَار عَزَائِمٍ ونَحلف عليها من مُؤَكَّد أيْمان
ونعقدْ على حكم الوفاء هواءنا لنأمَنَ مِنْ أقوال زُور وبُهْتان
ونقسمْ على ألّا نصدّقَ واشياً يروح ويغدو بين إثمٍ وعُدْوان
يطوف حوالينا ليفسد بيننا بمنطق إنسان وخُدْعة شيطان
على أننا من عالم كلما بدا تعوّذ منه عالمَ الإنس والجان
وحاشاك أن تُلْغَى عن الصلح مُعْرِضا[١] إلى الصلح آلتْ حرب عبس وذبيان
وإنِّى أَهَمَّتْنِى شئونٌ كثيرة وصُلْحُك أَوْلَى ما أُقَدِّم مِنْ شانى
فأنتَ إمامى إنْ كَلِفتُ بِمَذْهَب وأَنت دليلى إنْ صَدَعْتُ ببرهان
سأرعاك فى أهل العباءات كلَّما[٢] رأيتك فى أهل الطَّيالس ترعانى
ويا لابسى تلك العباءات إنها لباس إمام فى الطريقة دِهْقان
تفرقتِ الألوانُ منها إشارة بأنك[٣] تأتى من حِلاك بألوان
ويا بأبى الفَصَّالُ شيخ طريقة خَلُوبٌ لألبابٍ لعوبٌ بأذهان
إذا جاء فى الثوب المحبَّر خِلتَه زُنَيْبِرةً[٤] قدْ مُدَّ منها جَناحان
فما تأمنُ الأبدان آفة لَسْعِها وإن أقبلت فى سابغاتٍ وأبدان[٥]

[٦٥]

= « ذكره أبو الخير من فروع علم السحر وقال : علم يعرف به طريق الاحتيال فى جلب المنافع وتحصيل الأموال ، والذى باشرها يتزيا فى كل بلدة بزى يناسب تلك البلدة ، بأن يعتقد أهلها فى أصحاب ذلك الزى ، فتارة يختارون زى الفقهاء ، وتارة يختارون زى الوعاظ ، وتارة يختارون زى الأشراف ، إلى غير ذلك . ثم إنهم يحتالون فى خداع العوام بأمور تعجز العقول عن ضبطها » .

(١) كذا فى ط . وفى ت : « على النصح » .
(٢) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « كلها » .
(٣) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « فانك » .
(٤) زنيبرة : تصغير زنبورة ، وأصله زنيبيرة ، وهى من الذباب اللساع .
(٥) السابغات والأبدان : الدروع .

سأدعوك فى حالات كَيْدى وَكديتى[١] بشيخىَ ساسانٍ وعمىَ هامان
وإن كان فى الأنساب منا تباينٌ فما تنكرِ الآداب أنا نَسيبان
ألا فادع لى فى جنح ليلك دعوة لتنجح آمالى ويرجح ميزانى
لك الطائر الميمون فى كل وجهة سريت إليها غير نِكْسٍ ولا وانى[٢]
فكَم من فقير بائس قد[٣] عرفته فرفَّت عليه نِعْمة ذات أفنان
وكم من رفيع الجاه واليتَ أنسه فعاش قرير العين مرتفع الشان
فلو كنت للفتح بن خاقان صاحبا لما خانه المقدار فى ليلة الخان[٤]
ولو كنتَ للصابى صديقاً ملاطِفاً لما قُبلت فيه مَقالة بُهتان[٥]
ولو كنتَ من عبد الحميد مُقرَّباً لما هَزَم السفاحُ أشياعَ مَرْوان[٦]
ولو كنتَ قد أرسلتها دعوة على أبى مسلم ما حاز أرض خراسان
ولو كنتَ فى يوم الغبيط مراسلا لبِسطامَ لم تهزم به آل شيبان[٧]

---

(١) كذا فى نفح الطيب . والكدية : شدة الدهر . وفى ت : « كيد وكيدة » . وفى ط : « كيدى وكيدتى » .
(٢) النكس : الضعيف الجبان . والوانى : المقصر .
(٣) فى ت : « مذ » .
(٤) يشير إلى مقتل الفتح بن خاقان القيسى الأندلسى صاحب قلائد العقيان ومطمح الأنفس فى الفندق الذى نزل به بمدينة مراكش سنة تسع وثلاثين وخمس مئة (انظر وفيات الأعيان) .
(٥) الصابى : هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال كاتب ديوان الإنشاء فى دولة بنى بويه . ويشير الشاعر إلى مانال الصابى من اضطهاد وإبعاد من عضد الدولة بن بويه ، لمقالة نقلت إليه عنه فأغضبته . (انظر وفيات الأعيان) .
(٦) يشير إلى ما نال مروان بن محمد وعبد الحميد بن يحيى كاتبه من الهزيمة على يد السفاح
(٧) الغبيط : مكان بين الكوفة وفيد ، وبه كان يوم بنى تميم وشيبان ، غلبت فيه تميم شيبان ، وفيه أسر عتيبة بن الحارث بن شهاب بسطام بن قيس ، ففدى نفسه بأربع مئة ناقة . (انظر العقد الفريد وشرح القاموس) . ومراسلا (هنا) : معاونا ، من المراسلة بمعنى المتابعة .

ولو كنتَ فى حرب الأمين لطاهرٍ لما هان فى يوم اللقاء ابن ماهان [١]

ولو كنتَ فى مَغْزى أبى يُوسُفٍ لَمَا رماه بغدر عبدُه فى تِلِمسان [٢]

ولو أنّ كسرى يَزْدَجِرْدَ عرفته لما طاح مَقْتولا على يد طحّان [٣]

ولو أنّ لُذْرِيقاً وطِئْتَ بساطَه لما أثّرت فيه مَكيدة أُلْيان [٤]

وفيما مَضَى فى فاسَ أوضحُ شاهد غنيٌّ لدينا عن بيَانٍ وتبْيان

ولَمَّا اغتنى منك السعيدُ بكاتب رأى ما ابتغى من عِزّ ملك وسُلْطان

فلا تنسنى من أهل وُدِّك إننى أخاف الليالى أن تطول فتنسانى

ولا خير أن تجعل كِفاءَ قصيدتى كِفاء ابنَ درّاج على مدح خَيْران [٥]

فجُد بدنانيرٍ ولا تكن التى ألمّ بها الكندىُّ فى شِعْب بوَّان [٦]

---

(١) يشير إلى الوقعة التى كانت بين طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون ، وعلى بن عيسى ابن ماهان قائد جيش الأمين ، وقد انتهت بانتصار طاهر وقتل ابن ماهان .

(٢) لعله يريد السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المرينى فى غزوه تلمسان ، وإقامته على حصارها مئة شهر . وقد قتله عبده « سعادة » فى أثناء ذلك الحصار المشهور ، فى حديث فصله السلاوى فى كتاب « الاستقصا ج ٢ ص ٤١ » .

(٣) يشير إلى هرب يزدجرد آخر ملوك الفرس من أعدائه ، والتجائه إلى طاحونة لم يحسن الطحان ستره فيها ، حتى أدركه طالبوه وقتلوه (انظر غرر أخبار ملوك الفرس للثعالبى صفحتى ٧٤٦ — ٧٤٧) .

(٤) يشير إلى تمكين أليان : (يليان ، جليان ، أمير المغرب من قبل لذريق ملك القوط بالأندلس) العرب من دخول الأندلس انتقاما لشرفه من لذريق ، فى حديث مفصل فى كتب التاريخ (انظر نفح الطيب وغيره) .

(٥) هو خيران الصقلى أمير المرية ، وهو من موالى المنصور بن أبى عامر ، وقد مدحه ابن دراج القسطلى بقصيدة نونية مطلعها :
« لك الخير قد أوفى بعهدك خيران » ولعل خيران لم يحسن جائزة الشاعر كما يفهم من السياق هنا .

(٦) الكندى : هو أحمد بن الحسين المتنبى الشاعر المعروف ، ونسب إلى محلة كندة بالكوفة . وشعب بوان : متنزه بفارس . يشير الشاعر إلى قول المتنبى فى القصيدة التى مدح فيها عضد الدولة ووصف شعب بوان :

وألقى الشرق منها فى ثيابى دنانيرا تفر من البنان

=

فجودك فينا الغيث فى رَمْلِ عالجٍ وفضلُك فينا الخبزُ فى دار عُثمان(١)

وما زِلتَ من قبل السؤال مقابلا مُرادى بإحْساب وقصدى بإحسان(٢)

ولا تنس أياماً تقضَّت كريمة بزاوية المحروق أو دار هَمْدان(٣)

وتأليفنا فيهـــا لقبض إتاوة وإغرام مسنون وقِسمة حُلْوان

[٦٦]

وقد جلس الطَّرقون بالبعد مُطْرِقا يقول نصيبى أو أبوح بكِتمان(٤)

عَريفىَ يَلْحانى إذا ما أتيتُه ولم أنصرف عنكم بواجب ألْحان

وقد جمعت تلك الطريقة عندنا أئِمةَ حُسَّاب(٥) وأعلام كُهّان

إذا استنزلوا الأرواحَ باسم تبادرت طوائف ميمون وأشياع برقان(٦)

وإن بخَّروا عند الحُلول تأرجت مجامرهم عن زَعفران ولُوبان(٧)

وإن فتحوا الدارات فى رد آبق ثنت عزمه أوهام خوف وخِذْلان(٨)

= يصف ضوء الشمس النافذ إليه من بين أوراق الأشجار ، فيرسم على ثيابه أشباه الدنانير صفرة واستدارة ، إلا أن اليد لا تقدر عليها .

(١) عالج : موضع بالبادية يصل إلى الدهناء ، والدهناء فيما بين اليمامة والبصرة . يقول : نحن متعطشون إلى جودك كتعطش رمال عالج إلى الغيث ، محتاجون إلى فضلك احتياج المحصورين فى دار عثمان بن عفان إلى الطعام والشراب وقد حرموها .

(٢) بإحساب : أى بما يكفينى ويرضينى .

(٣) زاوية المحروق : متعبد بفاس . ودار همدان بفاس أيضاً .

(٤) الطرقون (كلمة مغربية مولدة) : من بيده قبالة اللهو وقبض ضرائب الأعراس ونحوها ، مما تستعمل فيه الدفوف وآلات الملاهى (انظر تكملة المعجمات لدوزى) .

(٥) كذا فى ت ونفح الطيب . ويريد بالحساب : المشتغلين بحساب الطوالع للناس . وفى ط : « أحساب » .

(٦) ميمون وبرقان : من أسماء ملوك الجن التى تدور على ألسنة المشعبذين . (انظر كتاب الجواهر اللماعة ، فى استحضار ملوك الجن فى الوقت والساعة) .

(٧) لوبان : لفظة مغربية محرفة عن «اللبان» وهو الكندر المعروف . (عن دوزى)

(٨) الدارات : حلقات يعقدها شيوخ المشعبذين ومريدوهم عند استطلاع أمر خفى كإظهار مسروق ، وإرجاع آبق ، ونحو ذلك ، يقولون إذا سرق شىء : هلم نفتح الدارة .

فيحسب أن الأرض حيث ارتمت به ركائبه سَرْعَانَ رَجْل ورُكْبان

وقد عاشرتنا أسرة كيموية[١] أقامت لدينا فى مكان وإمكان

فلله من أعيان قوم تآلفوا على عَقْد سِحْر أو على قلب أعيان

ونحن على ما يغفر الله إنما نروح ونغدو من رباط إلى حان[٢]

مع الصُّبح نُضْفيها عباءة صُفَّة وبالليـــل نُدْليها زنانيرَ رُهْبان[٣]

أتذكر فى سفح العُقاب مَبيتكم ثمانين شخصاً من إناث وذُكْران[٤]

لديكم من الألوان ما لم يجئ به طُهُورُ ابن ذنُّون ولا عُرْسُ بُورَان[٥]

ثم ذكر خمسة أبيات أقذع فيها ، فلذا تركتها[٦] ، ثم قال :

فأقسم بالأيمان لولا تعففى عن السوء لانحلت عقيدة إيمانى

فعدْ للذى كنا عليه فإنّ لى على الغير إن صاحبتَه حقدَ غَيْرانِ

فمن يوم إذ صيرت ودى جانباً وأعرضت عنى ما تناطح عنزان

ولا روت الكُتّابُ بعْدَ نِفارنا محاورةً من ثعلُبان لسِرحان

(١) كذا فى نفح الطيب : وفى ط : « كموية » وكلاهما يراد به النسب إلى الكيمياء ، وفى ت : « كهوية » ، وهو تحريف .

(٢) كذا فى ت . وفى ط ونفح الطيب : « خان » .

(٣) كذا فى ت عباءة صفة : يريد بها زى الفقراء النساك . انظر الحاشية رقم ٦ صفحة ١١٧ من هذا الجزء . والزنانير جمع زنار ، وهو ما يشد به الراهب وسطه ؛ يريد أنه يعمل فى الليل ما لا يعمل فى النهار . وفى ط : « نلويها زنانير ... الخ »

(٤) العقاب : موضع بالأندلس ، كانت به وقعة مشهورة محص الله فيها المسلمين .

(٥) ابن ذنون (ابن ذنون) : هو المأمون أحد ملوك الطوائف فى طليطلة ، من بنى ذى النون ، وقد بلغوا فى البذخ والترف إلى الغاية ، ولهم الإعذار المشهور الذى يقال له : « الإعذار الذنونى » ، وبه يضرب المثل عند أهل المغرب ، وهو عندهم بمثابة عرس بوران عند أهل المشرق ، والمأمون هو صاحب ذلك . وبوران هى بنت الحسن بن سهل ، وقد زفت إلى الخليفة المأمون بن هارون الرشيد فى إعراس مشهور فى كتب التاريخ .

(٦) ذكر المؤلف القصيدة كاملة من غير حذف فى نفح الطيب (ج ٣ ص ٢٣ طبعة الأزهرية بمصر) .

وما هو قصدى منك إلا إجازةٌ ... تخولنى التفضـيل ما بين خُلانى
وإنك إن سَخّرتَ لى وأجزتنى ... لنعم وَلِيًّا صان ودى وجازانى
ولمْ لا ترَوِّينى وأنت أجل من ... سقانى من قبل الرحيق فروّانى
ألا فأجْزنى يا إمامى بكل ما ... رويت لمَدْغَلِّيسَ أو لابن قُزمان[1]
ولا تنْس للدبَّاغ نظما عرفته ... فإنكما فى ذلك النظم سِـــيَّان
ومزدَوَجات ينسبون نظامهـا ... إلى ابن شُجاع فى مديح ابن بطّان
وألم بشىء من خرافات عنتر ... وألمع ببعض من حكايات سُوسان
وإن كنتَ طالعت اليتيمة واسِنى ... بلاميّة فى الفحش من نظم واسانى[2]
أجِزْنى بكشف الدّك[3] أرضى وسيلةٍ ... وخيرِ جليس فى بساط ودكان
وناوِلْنىَ المِصباحَ[4] فهو لغُربتى ... مُيسِّرُ أغراضى ورائدُ سلوانى
وألحقْ به شمسَ المعارف[5] إننى ... أسائل عن إسناده كل إنسان
وقد كنتَ قبل اليوم عرفْتَنى به ... ولـكننى أُنسيته بعد عرفان

[٦٧]

(١) أبو بكر بن قزمان ومدغليس من أوائل الزجالين بالأندلس .

(٢) هو أبو القاسم الحسين بن الحسين بن واسانه بن محمد المعروف بالواسانى . ويشير الشاعر إلى قصيدته اللامية التى هجا بها أبا الفضل يوسف بن على ، وعرض فيه بابن القزاز ، ومطلعها :

يأهل جيرون هل لسامركم ... إذا استقلت كواكب الحمل

(انظر يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٦١ — ٢٧٤ طبعة دمشق) .

(٣) كذا فى نفح الطيب . يريد كتاب : « كشف الدك ، وإيضاح الشك » لأبى عامر أحمد بن عبد الملك الأندلسى ، وهو كتاب مشهور فى الحيل والشعبذة . وفى الأصلين : « بكشف الديك » وهو تحريف .

(٤) فى الفهارس كتب كثيرة فى علوم مختلفة كل منها اسمه « المصباح » ، ولا ندرى أيها يريد . ولعله فى الروحانيات ، كما يفهم من السياق .

(٥) يريد كتاب : «شمس المعارف ، ولطائف العوارف» للشيخ أحمد بن على البونى ، المتوفى سنة ٦٢٢ ، وهو كتاب مشهور فى التعاويذ ونحوها من الروحانيات .

ولا بُدّ يا أستاذُ من أن تُجيزَنى ببدْء ابن سبعينٍ وفصل ابن رضوانِ[1]
وكُتْبِ ابن أخلى كيف كانت فإنها لوزن رقيق القول[2] أكرمُ ميزان
ولا تنس ديوان الصَّبابة[3] والصفا لإخوان صِدْق فى الصفاخير إخوان
وزهرَ رياض[4] فى صنوف أضاحك وجبذ كساء فى مكايد نسوان
كذاك فناولنى كتاب حُباحب وزدنى تعريفاً بها وببرجان
ولى أمل فى أن أروَّى رسالة مضمنة أخبار حىّ بن يقظان[5]
وحبِّس على الكاسَ والكوزَ والعصا فإنك مُثْرٍ من عصىٍّ وكيزان
وصيِّر لىَ الدَّلفاسَ[6] أرفعَ لِبْسةٍ فقد جلَّ قَدْرى عن حرير وكَتَّان
وقد رقَّ طبعى واعترتنىَ خشية يكاد بها رُوحى يفارق جُثمانى
وخلِّ مفاتيح الطريقة فى يدى وسوِّغ لهم فيها[7] مزيدى ونقصانى
فإنى لم أخدمك إلاّ بنيــــة وإنى لم أتبعك إلا بإحسان
فكن لى بالأسرار أفصح مُعْلن فإنىَ قد أخلصْتُ سرِّى وإعلانى

انتهت المقامة . وأثبتها لأنها أخف ما رأيت من هزليّات الفقيه عمرَ المالَقىّ ، رحمه الله وسامحه ، ومثل هذا الهزل قد وقع لكثير من الأئمة على سبيل

---

(١) يريد ببدء ابن سبعين كتاب « بدء العارف » لأبى محمد عبد الحق بن إبراهيم الشهير بابن سبعين المرسى الأندلسىّ . وابن رضوان : هو عبد الله بن يوسف بن رضوان النجارى من أهل ماهة .
(٢) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « دقيق القوم » .
(٣) يريد ديوان الصبابة لابن أبى حجلة أحمد بن يحيى التلمسانى الحنفى المتوفى سنة ٧٧٦ هـ .
(٤) فى الفهارس كتب كثيرة بهذا الاسم .
(٥) يريد كتاب : «أسرار الحكمة المشرقية» لأبى بكر محمد بن عبد الملك بن الطفيل ، وهو قصة خيالية فلسفية ، جمع فيها بين الفلسفة والشريعة .
(٦) الدلفاس (انظر الحاشية رقم ٢ ص ١١٧ من هذا الجزء) .
(٧) فى نفح الطيب : « حكمى » .

الإحماض[1] ، ولم يَعْنُوا بها غالباً إلا إظهارَ البلاغة والاقتدار ، كما فعل الحريري وغير واحد ، والأعمال بالنِّيات .

شيء من نظ

ومن نظم الفقيه عمرَ المذكور قوله عفا الله عنه :

إلى الله ربي أشتكي سوء حالتي عسى فرجٌ يأتي بأفضل حالي
وما أسفي إلا لمالي أبيعه وخائن مالي يشتريه بمالي

مقامة في أمر الوبا

ومن أبدع ما صدر عنه رحمه الله مقامة في أمر الوباء ، رأيت أن أثبتها لغرابة مَنزِعها ، وإن كان بعض فصولها لا يجري على المشهور من مذاهب العلماء ، ونصها :

[٦٨] إلى حمراء الملك وقلعته ، ومَقَر العز ومَنعته ، ومطْلَع كل قمر نصْرِيّ يُخجل الأقمار بطلعته ، أبقاها الله على تعاقب الزمان ، منزل أمان ودار إيمان ، وأمتعها بحياة المَلِك الخَزْرجي اليمان ، من مُوجبة إجلالها كما يجب ، المعترفة بفضلها وشرفها وأنوار الشمس لا تحتجب ، والواقفة عند إشارتها وطاعتها ، فإن تأْمُرْ أَمْتَثِلْ وإن تَدْعُ أَسْتَجِبْ ، مالَقة ، المستمسكة بذمتها الوثيقة ، المتشوِّفة إلى أخبارها تشوف المُحبَّة الشفيقة ، إلى رَيحانة قلبها في الحقيقة ، وإلى هذا يا سيدتي ويا عُدَّتي ، ويا ذخيرتي ويا عُمْدتي ، أمتعنا الله وإياك بحياة مَنْ استنقذَنا من الوَرَطات ، وردّنا إلى الصواب مما كانَ منا من الغَلَطات ، مولانا الغالب بالله[2] وحدَه ، الموعود بعزيز النصر وقريب الفتح والله ميسِّر وعده .

سلام عليك يتعطَّر بذكر مولانا أمير المسلمين فَوْحُه[3] ، وينشق

---

(١) الإحماض : الانتقال من حال إلى حال ؛ مأخوذ من إحماض الإبل ، وهو نقلها من رعي الخلة إذا سئمتها إلى رعي الحمض والحمض : ما ملح وأمر من النبات ، وهي كفاكهة الإبل ، والخلة : ما حلا ، وهي كخبزها . (عن القاموس) .
(٢) في ت : « الغالب بأمر الله » .
(٣) في ط : « بوجه » .

كالمسك[١] الفتيت روحه ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد ، فإنى أحمد إليك الله الذى إذا اسْتُكْفِى بعزّته كَفَى ، وإذا استُشْفِى بكلمته شفى ، وإذا سئل بواسع رحمته عفا ؛ وأُصلّى على رسوله محمد الكريم المصطفى ، وعلى آله وأصحابه ، أكرم من نصح له وأخْلَص ووفَى .

كتبته إليكِ يا سيدتى عن نفس قلقة ، ساهرة أرقة ، حاذرة مشفقة ، مُلهَبة بل محترقة ؛ وإنى أُقسم عليك بالرب الذى كرمك بالعز وشرفك ، وعرّفك من لطائف الفرج بعد الشدة ما عرفك ، أن تسعدينى على تسكين لوعتى ، وتأمين روعتى ، وتراجُع رقادى [بعد سُهادى ، وقضاء حاجة جلّت فى فؤادى ، وتفهّمى مراد إشارتى وإشارة مرادى][٢] ، وتتركى هوى النفس الذى هو للحق معاند وللرشد معادى .

ومبنى هذه الرسالة إليك على قولهم : « الشفيق مولع بسوء الظن » ، ومن مِنَن الله على عبده الوقاية من المتالف جل الله العظيم المن ؛ وعلى قول المتنبى :

ربما ضر عاشق معشوقا ومن البر ما يكون عقوقا[٣]

والمثل الأول لى ، والآخر لك . والله يُيَسِّر فى حفظ مولانا أملى وأملك . [٦٩]

وإنى أتعجب من مساعدتك على إقامة مولانا بمنزل ، هذا المرض به فاش ، وهذا الهواء الفاسد بين دياره جاء وماش ، وسمعتُ أن حديث السفر لمالَقة أثقل عليك من حديث رقيب وعاذل وواش ؛ وأنّ الآراء فى ذلك اختلفت ، ولم يُرجع فيها إلى سُنن تقدمت وعوائد سلفت ؛ والأوائل من المؤمنين رحمهم الله ماتركوا شيئاً سُدى ، بل نصبوا على كل طريق إلى النجاة علم هُدى ؛ وسمعت

(١) فى ت : « وينتشق المسك » .

(٢) زيادة عن ت .

(٣) لم نجد هذا البيت فى نسخ ديوان المتنبى .

يا سيدتى أن القضية عُوِّل فيها على المُقام والاستسلام ، وخولفَ فيها رأى الخليفة الرشيد لما تحول فى مثلها عن سكنى دار السلام ، بمحضر أركان الدين وأعلام الإسلام ؛ وقد سمعتُ فى الأجوبة الظريفة ، ما صدر من قوله : أخشى أن أكون أول خليفة ؛ وقد كنتُ يا سيدتى أرتجى أن يكون لهذا المرض ارتفاع ، أو يحصل بدخول فَصْل[1] البرد انتفاع ؛ فتركت الكُتْب منتظرة لذلك ، إلى أن تزايدت الحال وأنت على حالك ، لا يمر الترحال بخاطرك ولا ببالك ؛ وأنا أقول : أما واجب التسليم ، لتقدير العزيز العليم ؛ فمتأكد شرعاً ، لا يضيق به المؤمن ذرعًا ؛ لكن ما يفعل المستسلم بالروح والجسد ، إذا قيل له اهرب من الأسد ؛ وقد أبصره مقبلا إليه ، أو مُنقضًا عليه ؛ أيأخذ فى تحفظه واحتراسه ، أم يصبر لافتراسه ؟ ومن قيل له فى ظلم الليل : ارتفع عن هذا المكان تنج من السيل ؛ أينام فى مكانه ، أم يبادر إلى السلامة بجهد إمكانه ؟ ومن نودى : هذه الخيل قد طلعت مغيرة ، والرعاة بالجبال مستجيرة ؛ فارفع غنمك قبل الاكتساح ، فالوقت فى انفساح ؛ أيتركها تسرح ، ولا يبرح ؛ أم يرفعها لتسلم ، ممَّا تدرب وتعلم[2] ؟ وكذلك إذا قامت الرماة صفوفًا ، وأصابت سهامهم[3] من الخلق ألوفا ؛ أيرجِّح الحقُّ تباعداً أم وقوفًا ؟ وكذلك أيضاً المنازل ، التى تدوم بها الزلازل ؛ فأرضها [٧٠] فى كل يوم تميد ، ودَهَش القلوب بها حاضر عتيد ، والخسف بها فى يوم ينقص وفى يوم يزيد ؛ لا تسمع فيها إلا سقوط جدار ، على ركن دار ؛ وانفكاك الأركان ، على السكان ؛ وإخراج ميت ، من تحت بيت ؛ وسقوط سارية ، على جارية ؛ أيُعزم على السكنى والاستيطان ، تحت هذه الحيطان ؛ أم يؤخذ فى الاحتيال ،

(١) فى ت : « وقت » .
(٢) فى ت : « مما تدرى وتعلم » .
(٣) فى ت : « بسهامهم » .

بالخروج بالأطفال والعيال ؟ يا سيدتى الحمراء ، سألتك فأخبرينى ، وإن تحيَّر فَهْمِى فاعذرينى ، ووصل إلىَّ الكتابُ الشريف ، من جِنان[1] العريف ؛ يذكر أن السلامة كانت [به][2] مستصحبة لمولانا ولناسه ، وأن العافية كانت بهم منتَشقة مع أنفاس رَنده وآسه ، ما عرضتْ به إلى طبيب حاجه ، ولا استدعى فيه المُعاوِر[3] للنظر فى زجاجه ؛ ولا لقول ولا عمل ، ولا بلغ من الجساوة والقساوة أقل أمل ؛ ولم ينتقص من الساكنين بهذا البستان ، من عبيد مولانا السلطان ، غير فتى من الخُصيان ، لا يساوى عشرة دراهم فى سوق الفتيان ، والجميع بحمد الله استمرت عافيتهم على استقامه ، بطول أيام الإقامه ؛ وعرفنى أيضاً جِنان العريف فى وافد كتابه ، ووارد خطابه ، أن رغبته كانت فى انتقال مولانا نصره الله من صحيح هوائه ، وسلسبيل مائه ؛ ونفحة جنابه ، وتلاعب النسيم العاطر بين قبابه . إلى مالَقة حيث الجو الصقيل ، والروض الذى يطيب به المَقيل ، والراحة التى تمتزج بالأرواح كما قيل ؛ حيث العَرْف الأرِج ، والوادى المنعرِج ، والساحل الذى ينشرح به الصدر الحرِج ، حيث البنفسَج يدير كئوس البَهار ، والياسَمين نجوم طالعة بالنهار ؛ حيث يتمازج طيب الزهَر ، بعَرْف الأترجّ ونفحات السَّحَر ، حيث يشبه أنين السوانى ، حنينَ المتعشّقات من الغوانى ، إذا حُمِدَ الصباح ، وانفلق الإصباح ؛ وعمرت صغار القوارب ، ونادت بحْرية الشباك :

---

(١) جنان العريف ، أو جنة العريف : بستان فى خارج غرناطة ، ذكره لسان الدين فى الإحاطة ، صفحة ٢٥ ج ١ .

(٢) زيادة عن ت .

(٣) كذا فى ط . ولعله يريد بالمعاور ، كما يظهر من السياق الذى يفحص عن قوارير بول المرضى ليقدر وزنه ونوعه ، وهو من عاور الشىء إذا قدره ، كما يؤخذ من اللسان مادة « عير » . وفى ت « المغاور » .

[٧١] إلى المضارب[1] ، وسالت أنوار المشارق على جوانب المغارب ، ونادى محرك الجيش : ظهورَ الخيل ، وصباح الخير ، واستقبلوا الوادى الكبير لمصيد الأرنب والحوت والطير ؛ شكر الله جِنان العزيف على ما قصد ونوى ، وعلى ما أظهر من اتباع حق ومخالفة هوى ، اعتماداً من أخبار الدول القديمة على ما حفِظ ورَوَى . وقال لى يا سيدتى إنك وقفت مع الحديث المنصوص[2] ، الوارد فى مثل هذا المرض على الخصوص ؛ وفيه النهى عن الخروج من منازل هذا المرض ومواضعه ، وعن القدوم على معتركاته ومصارعه ؛ والحديث صحيح ، والرشدُ فيه قول صريح ؛ ولكن للعلماء فيه أقوال طويلة التفصيل ، وقد لخصها وبينها الإمام ابن رشد فى كتابه الجامع من البيان والتحصيل[3] ؛ والاتفاقُ من الجميع أن النهى فى هذا الحديث ليس بنهى تحريم ، وإنما هو على سبيل إرشاد وأدب وتعليم ؛ فلا إثم ولا حَرَج ، على من أقام ولا على من خرج . وقال عمرو بن العاص : الأفضل الخروج لأهل الفِطنه ، اتقاء من اعتقاد يؤدى إلى فتنه ؛ وكفى بعمرو بن العاص حُجَّة لمن أراد انتصارا ، والكلام كثير ، ولكنى اختصرته اختصارا ؛ وإنَّ نظراً قدّمه كثير من الصحابة ورجّحه ، لخليق بأن يقال فيه ما أسعده وما أنجحه ! ياليت تفقهى كله يكون من هذا القبيل ، وجاريا على هذا السبيل ، مستنداً إلى قولِ صحابىٍّ جليل ، ومستدلًّا بأرشَد عِلْمٍ ودليل ، ولو كان على خلاف المشهور من قول

(١) المضارب(هنا) : الخيام تضرب على ساحل البحار ، ليباع فيها مايصاد من السمك .

(٢) ورد الحديث المشار إليه فى صحيح مسلم ، ونصه فى رواية أسامة : « الطاعون رجز أو عذاب أرسل على بنى إسرائيل ، أو على من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به بأرض ، فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » . وفيه روايات أخر تختلف ألفاظها ، وتتفق معانيها ؛ وقد علق عليه النووى ، ونقل كلام القاضى عياض وغيره ، فلينظر ثمة (ج ١٤ ص ٢٠٤) .

(٣) اسم الكتاب : جامع البيان والتحصيل ، لما فى المستخرجة من التوجيه والتعليل .

خليل[(١)] . وهنا يقال : ما فى هذه القُلّة غير هذا الإغريل[(٢)] . يا سيدتى الحمراء ؛ أراكِ فى هذه القضية تفقّهتِ وتوقفت فيما بيّنــه عالم وذو عِلْم ، ومنَعْت مما ليس فيه حَرَج ولا إثم ؛ ولو كنت حاضرة لكان لى مَعَك حديث طويل ، واحتجاج ينصره نَص وتأويل . وسمعتُ أنكِ أشفقتِ من عظيم النَّفقَه ، وليس هذا موضَع الشفقه ؛ فالأمن ليس بغال ، ولو يُشترى بكل ذخيرة وكل مال ؛ والأولى بالملامه ، مَن[(٣)] يفضِّل شيئا على السلامه . القمح يأكله السُّوس ، والذهب تغنى عنه الفُلوس[(٤)] ، فكيف يُستعظَمان فيما تُؤمَّن به النفوس . وبلغنى أنكِ [٧٢] قلت : مالَقَة ليس بها زرع ، وبقليل المُقام يضيق لها صَدْر وذَرع[(٥)] ، وفلاحتها وحرثها ليس لهما أصل ولا فرع ؛ وعزّ علىّ هــذا الكلام ، ولكننى سلّمت والسَّلام[(٦)] ؛ فإن سِعرى عن سعر[(٧)] غرناطة منحطّ ، وفى لمحة بصر يضيق منى بالطعام فى كثير من الأيام ساحل وشَطّ ، ولا يُعلم أنه دامت لى شدة قطّ . لى فى الاعتصام بالتوكل على الله ما يزيد على سبع مئة العام[(٨)] ، ما أشغلت فيها فكراً ولا قلباً بادخار قوت ولا باحتكار طعام ؛ أثق فى اليوم والغد ، بالرزق الرَّغَد ؛ تأتى به الرياح على الأعناق ، ويَفيض سيله على جوانب الدواوين وأكناف الأسواق ، وتجلبه الأحباب والأعداء بإذن اللطيف الخبير الوهّاب الرزاق .

---

(١) هو خليل بن إسحاق المالكى ، صاحب المختصر فى فقه المالكية .

(٢) كذا وردت هذه العبارة فى ط . وفى ت : « مافى هذه الغلة . . . الخ » . والعبارة على الروايتين ظاهرة التحريف .

(٣) فى ت : « نص » . وهو تحريف .

(٤) فى ط : « النفوس » .

(٥) فى ت : « وضرع » .

(٦) فى ت : « والإسلام » .

(٧) فى ت : « أسعار » .

(٨) فى الأصلين : « السبع مئة عام » .

قالت النملة : افتخارى ، بادخارى ؛ قالت العصفورة : توسلى ، بتوكلى ؛ قالت النملة : أعتمد على الحَبّ ؛ قالت العصفورة : أتوكل على الرّب . فلما جَنّ الليل ، أقبل السيل ؛ فخرجت النملة بالعَوم ، و بقيت الحبوب بين الدّوم ؛ فنزلت العصفورة وسجدت ، [والتقطت] [١] من مدّخر النملة كل ما وجدت ؛ وقالت : خسِر المحتكِر ، وربح طالب الرزق المبتكِر ، الكريم لا يفتخر بما يدّخر .

وصح عندى أن الوزير أعزه الله ليس عنده فى هذا كله كلام ولا قول ، وأن الأمر عنده مفوّض إلى الرب الذى له القوة والحول . وسمعتُ يا سيدتى أنّ هذا السقم ، أعظمُ تأثيره إنّما هو فى قطع الأكباد ، من صغار الأولاد : الذين من فوق السبع ودون العشر ، وهم فى هذه السنين رياحين القلوب العاطرة النَّشْر ؛ وهذا إلى كَتْبى لك أعظم داع ، فإن الأولاد سوائم والوالد راع ؛ والراعى لا يترك غنمه فى طريق سَبُع ضار ، ولا قريباً من حريق نار ؛ ونحن نشاهد الطير ينقل أفراخه من وكْر إلى وكْر ، و يسترها بملتف الشجر إذا خاف عليها عادية جارح [٢] أو صاحب مَكْر ؛ فكيف لا نقتدى فى تأمين رَوعتنا بمن تقدّم من الأكابر ، [٧٣] ونقف فى حامل السيل [٣] بأولادنا الأصاغر ؛ فما عندكِ فى هذا كله من القول ومن الجواب ؟ وما يظهر لك من وجه الرأى والصواب ؟ اكتبى بذلك كتاباً أعتمد عليه ، وأستند إليـه ؛ وقبّلى عنّى يدَ مولانا تقبيلا ، و يا ليتنى وجدت إلى ذلك سبيلا ؛ وأخبريه أنى [فى] [١] خدمتـه على نيتى الأولى ، عاكفةً على شكر مِنّته الطُّولَى ؛ أدام الله حِياطة البلاد والنفوس بحفظه وحِياطته ، وأسمعنى البشارةَ

(١) زيادة عن ت .

(٢) فى ت : « جائح » .

(٣) حامل السيل : السيل الجارف .

بقدومه على مُحْدَث مالَقة من حمراء غَرناطتــه ؛ ويحفظه فى النفس والأولاد ، والملك والبلاد ، بمنّه وفضله .

وكُتب بتاريخ ربيع الآخر عام أربعة وأربعين وثمان مئة . انتهت المقامة .

وكلام المذكور كثير ، ومحلّه من عذوبة المنطق أثير ؛ ونظمه أعلى طبقة من نثره طريقةً مَعَرّيّه ، حسبما يظهر ذلك بالتأمل لنفوس بالإنصاف حريّه ؛ وله [عدة] [1] تآليف أكثرها هزليّه ، ولذلك لم أجلب شيئاً منهـا سوى ما تقدم ، مما يقتضى ما أصّلناه من المزيه ، والفضيلة للبلاد الأندلسيه [2] .

بعض مقطوعاته

ومن أحسن مقطوعاته [3] التى تَطارَح بها على باب الـكريم ، وتطفّل بها تطفّل من لا يبرح عن باب سيده ولا يَريم ؛ ويُرجى له بها كل جميل ، والله لا يخيّب ما أمّله من تأميل ؛ قوله رحمه الله :

عقيدة دينِ الحقّ أنّ محمدا ... له الفضل إطلاقاً [4] على كل مخلوقِ
وإن سبقتْ رُسْلٌ بكتْبٍ وبَعثة ... فما هو فى مجد وفضل بمسبوق
فهذا إذا ما عشتُ أُولى عقيدتى ... وهذا إذا ما متُّ آخر منطوق

[وقوله :

جئتك يا ربّ ولا عذر لى ... وهل لعبد السوء من معذرهْ ؟
أرجوك فيما أنت أهلٌ له ... فأنتَ أهلُ العفْو والمَغفره

وقوله فى مرضه :

يا سامعينَ الكلامَ مُختلطا ... نظماً ونثراً قلائداً ودُرَرْ
صلّوا على المصطفى وَسيلتِنا ... محمدٍ وارحموا الفقيــه عُمر] [5]

(١) زيادة عن ت .
(٢) فى ط : « من المزية للبلاد الأندلسية والفضلية » .
(٣) فى ط : « منظوماته » .
(٤) فى ط : « إجماعاً » .
(٥) ما بين القوسين المربعين زيادة عن ت .

تعريف بالشران

وأما الكاتب الرئيس أبو عبد الله الشّران[1]، فهو الشيخ الفقيه الرئيس الصدر، العلامة العِمَاد، الذخر الأرفع، العلم الأوحد، الأمجد الأسرى، الذى لا يجارى فى الإنشاء والاختراع كلاماً جزلاً، وقولاً فصلا، رئيس الكتبة بالحضرة العلية، أبو عبد الله، ابن الشيخ الفاضل الماجد الأعز الأرفع الأوجه أبى إسحاق، كان حيّا سنة سبع وثلاثين وثمان مئة. هذا كلام بعض الأندلسيين فيه. [٧٤]

وقال القَلَصَادى فى حقه: هو الفقيه الوجيه اللبيب اليقظ الأدرى، الأديب الأحظى، الرئيس النبيل الأرق؛ وحيد عصره وأوانه، وفريد دهره وأقرانه، أبو عبد الله محمد الشران الغرناطى، تغمده الله برحمته.

شىء من نظمه

وذكر هذا الشيخ القلصادى فى طالعة شرحه لأرجوزة أبى عبد الله الشران المذكور، التى أولها:

بحمد خير الوارثين أبتدى وبالسراج النبوىِّ أهتدى

وهى أرجوزة عذبة النظم، سهلة المأخذ مختصرة فى علم الفرائض.

ومن بديع نظم الكاتب أبى عبد الله الشران رحمه الله تعالى قوله:

[فلا تمنع العين انهِمالاً فإنه غرام شَجٍ إسنادُه غير مُهْمَلِ

أحاديث تَرْويها الجفون عن الحشا ويثبت منها مُرسَلٌ بمسَلْسَلِ

وقوله يخاطب الفقيه الصالح سيدى أحمد بن حرشون، وقد أهدى له قُرص زعفران:

أهلاً بقُرصة زعفران أطلعت من حسنها للقلب باعث أنسهِ

حَيّا الخُلوصَ به وغير عجيبة للبدر أن حَيّا بقرصة شمسه

يا نيّرا للمجد أهدى نيرا كل امرئٍ إهداؤه من جنسه

وقوله][2]:

---

(١) هو محمد بن ابراهيم. (انظر نيل الابتهاج بتطريز الديباج).

(٢) ما بين القوسين زيادة عن ت.

لما اختفت شمسك عن ناظرى   أرسلتُ منـــه مطر الدمعِ
وأقبلت ظُلمـة ليل النوى   فما ترى فى رُخصة الجمع

طريقة لابن جماعة وقد تولى الشران مكانه

وحكى الحافظ أبو عبد الله التَّنَسى رحمه الله، أنه لما صُرِف الفقيه أبو الفضل ابن جَماعة عن رياسة الـكتابة بغرناطة، إلى قضاء الجماعة، وولى مكانه صاحب الترجمة أبو عبد الله الشَّران، لقى بعضُ رؤساء الدولة ابنَ جماعة يوماً، فقال له: يا سيدى، إن السر الذى عهدناه فى الحضرة غاب عنهـا بغيبتك. فقال له: وكيف لا وقد تركتم الفضل المجموع(١) وأخذتم الشَّر المـكرّر(٢)!

شـعر للشران يعاتب ابن جماعة على إهمال دعوته إلى إعذار

ثم إن ابن جماعة كان عنده إعذار(٣)، فدعا أعيان البلد إليه ولم يدع الشَّران، فـكتب إليه الشران:

ماذا أعد المجدُ من أعذاره   فى ترك دعوتنـــا إلى إعذارهِ(٣)
إن كان رسم دون محضرنا اكتفى   لا بد أن يبقى على إعذاره(٤)

ثم قال الشيخ التَّنَسي: والشران هذا ممن له باع مديد فى الشعر، وتصرف حسن. انتهى.

قصيدته اللامية

ومن بديع نظم الشرّان المذكور قوله رحمه الله:

دوام حال من قضايا المحالْ   واللطف موجود على كل حالْ
والنصر بالصـــبر مُحلَّى الظُّبى   والجَد بالجِدّ مَريش النِّبال
وعادة الأيام معهـــودة   حرب وسَلم والليـــالى سِجال
وما على الدهر انتقاد على   حال فإن لحال ذات انتقال

[٧٥]

(١) يشير إلى اسمه: «أبى الفضل بن جماعة».
(٢) يشير إلى لقب أبى عبد الله: «الشران». فكأنه تثنية: «شر».
(٣) الإعذار: طعام الختان.
(٤) الإعذار (هنا): التقصير.

مَن لليالى بائتلاف وكم من اعتبار باختلاف[1] الليالْ

أخذٌ عطاء ، مِحنــةٌ مِنحةٌ تفرُّقٌ جَمْعٌ ، جَلال جمـــال

حَالُ[2] انتظامٍ وانتثارٍ معاً كأنما هَذِى اللّيــالى لآل

وهلْ سَنى الصبحِ وجُنحُ الدُّجى لخلقة الأضـــداد إلاّ مِثال

والظُّلَمُ الحُلْكُ على نورها تدلّ والعُسر بيسر يُدَال

والسيف قد يصدأ فى غِمده ثم يُجَلِّى صفحتيه الصِّقال

والشمس بعد الغيم تُجْلَى كما للغيث من بعد القنوط انهمال

والفرَج الموهوب تجرى[3] به لطائف لم تجر يوما ببـــال

فصابرِ الدهر بحاليه مِن حلو ومر واعتِـــدا واعتدال

فما له صـــبر على حالة وإنما الصـــبر حُلِيُّ الرجال

ولا يضق صـــدرك من أزْمة ضاقت فصنع الله رحبُ المجال

إلى هنا توجد هذه القصيدة بأيدى الناس ؛ ورأيت بخط بعض الأخيار بعد هذا البيت زيادة كثيرة على ذلك ، منسوبة لصاحب القصيدة ، وهى لا تبعد من نفسه ، على أنّ فيها إيطاء[4] . وها أنا أيضاً أثبتها بجملتها لغرابتها وجزالتها ، ولاشتمالها على مديح المصطفى المجتبى ، صلى الله عليه وسلم ، ونصها بعد قوله : « رحب المجال » :

وانظر بلطف العقل كم كُرْبة فرّجها لُطْفٌ كحَلّ[5] العِقـال

وكِلْ إليه كلّ حاجٍ فمـــا [لذى][6] حِجًا إلا عليه اتـكال

(١) فى نيل الابتهاج : « فى اختلاف » .

(٢) فى ت : « حلى » .

(٣) زيد فى ط فوق هذه الكلمة : « تأتى به » .

(٤) كذا فى ط . والإيطاء : تكرير القافية لفظا ومعنى . وفى ت : «على أنه فيها وها أنا» .

(٥) فى ط : « لحل » .

(٦) زيادة عن ت .

وكل بَدْء فله غاية وغاية الخَطْب الشديدِ انحلالْ
وكلّ عَوْد فله آية وآية العَقْل اعتبار المآل
وفى مآل الصَّبْر عُقْبى الرِّضَا من فَرَج يُدنِى وأَجْر يُنَال
عجبت للعبد الضعيف القُوَى يُغرُّ(١) بالرب الشديد المِحال
يَهْوِى مع الآمال مسترسِلاً طوع الهوى حيث أمالته مال
تخدعه النفس بتخييلها وهل خيال النفس إلا خَبال [٧٦]
يخال أن الأمر جارٍ عَلَى تدبيره هيهاتَ مما يَخال
الخَلْق والأمر لمن لم يزل فى مُلْكه المَلْك وما إن يَزَال
والفعل والترك دليل عَلَى مراده والكلُّ طوعُ انفعال
يعطِى فلا مَنْع ويقضِى فلا دَفْع ويُمضِى حكمه لا يُبال
يُدَبِّر الأمر فعن أمره تقدير ما فى الكون سُفْلٍ وعال
يُضِل يَهْدى حكمة أنْفذت فضلاً وعدلاً فى هُدًى أو ضَلال
وحكمة البارئ فى حكمه ما لمجال العقل فيها مجال
والرب لا يُسألُ عن فعله قد قُضِىَ الأمر ففيم السؤال
فيا أخا الفكر اشتغالاً بما فى غيره للفكر حَقّ اشتغال
سلِّم ففى التسليم من كل ما ينفذ تسليم وتنعيم بال
وارض بما فاتك أو نلتَه فعكسه ما لك فيه مجال
وفوِّض الأمر إلى الحق لا تركن من الدنيا لحال مُحال
فذو الحِجا فيما اتقى وارتجى بالعَدْل حالٍ ومن العَذْل خال
يرضى بقسْم الرب كل الرضا فى كل حالٍ ما عن العهد حال

(١) ذكرت هذه العبارة أمام هذا البيت فى هامش ط : « يعترض الرب بدل يغر » .

يرى خلال الشكر والصبر فى … ما سر أو ساء أبرَّ الخلالْ

فهْو على الحالَيْن قد نال من … مُناه فى الدارين أقصى مَنال

ما أقصر الدنيـــا على مَرِّها … كالظل ما أقصر مَدّ الظلال !

فافطَن لهــا حزما ففى ظلها … ما قال يوما حازم حيث قال

ما يَقَظات العيش إلا كَرًى … ولا مَرَائى العين إلا خيال(١)

يا ليت شعرى والمُنَى عِبرة(٢) … والشعر قول قد ينافى الفِعال

هل يستحيل العهد مِن صَبْوتى … فقد مضى عهد الصِّبا واستحال

والشّيب هل يوقظنى صبحُه … فالنّوم فى ليلٍ من(٣) اللهو طال

وكِسرتى من عُسْرتى هل تقى … وعَثْرتى من(٤) عِبرتى هل تُقَال

هــذا زمانى فى تولٍّ وفى … عزمى توانٍ والهوى فى توال

حالُ من احتل بدار البَلا … ولم يحــدِّث نفسه بارتحال

يا رَبِّ ما المَخلَصُ من زَلَّتى … لا عملٌ لا حجــةٌ لا احتيال

[٧٧] يا رَبِّ ما يلقاك مثلى به … عن طاعة لم ألقهــا بامتثال

يا رَبِّ لا أحملُ حَرّ الصّبا … فكيف بالنار لضعفى احتمال

أم كيف عذرى وقد أعذرتَ لى(٥) … بأخذ حِذرى من دواعى النكال

رحمتَك اللهــم فهى التى … لهــا على العاصين مثلى انثيال

ولا تعاملنـــا بأعمالنـا … لكن رَجا آمالنا صِلْ ووال

---

(١) يشير إلى قول أبى الحسن التهامى فى مرثيته ابنه :

فالعيش نوم والمنيــة يقظة … والمرء بينهما خيال سارى

(٢) فى ت : « عدة » .

(٣) فى ط : « وفى » .

(٤) فى ت : « فى » .

(٥) فى ت : « بى » .

وبامتداح المصطفى هَبْ لنا ما آثم الفِعل لبِرّ المَقال[1]
فما سوى حبىَ للمصطفى وسيلةٌ لى بعُراها اتصال
ذلك تَجْرى[2] وعلى فضله طمعت فى الفضل بلا رأس مال
فإن يفُز قِدْحى بمدحى له فقد يُجلِ النُّورُ قَدْرَ الذُّبال
ورائدُ الغُرّ الغوالى[3] على مَوْثقة مما نوى من نَوال
أعظِم بأمداح نبى الهدى حبلَ اعتلاق أو شفاءَ اعتلال
خير الورى من بادٍ أو حاضرٍ أكرمهمْ من حافٍ أو ذى انتعال
فادِيهمُ من فتكات الرّدى هاديهم فى هلكات الضّلال
حاميهمُ بالعَضْب إذ لا حمى كاليهم[4] فى الخطب إذ ليس كال
مُنيلهم إذ لا جَدًى يُرْتجى مُقيلهم إذ لا عِثارٌ يُقال
قَريعهم فى طبقات العُلا شفيعهم فى عرَصاتِ السؤال
مُؤْويهمُ من حوضه من صَدًى مُؤْويهمُ من جاهه فى ظِلال
أطْول من صال بسَيْب النَّدى أصْول من فى الحق بالسيف صال
من خَصَّه الله بخَصْل المَدَى فى كل ما عم الهدى من خِصال[5]
من باهِر الحسن وفضلِ التقى وحكمةِ النطق ومجدِ الفعال
حالٍ من العلم بأسنى حِلًى واف من الحلم بأزكى خِلال
نور مبين صادق فارق مبشّر هادٍ ختام كمال
أَبيضُ يُستسقَى الحيا باسمه كَهْف الأيامَى ، لليتامى ثِمال

(١) فى ط : « الفعال » .
(٢) تجرى : تجارتى .
(٣) فى ت : « الغوادى » .
(٤) كاليهم : كالئهم ، أى حافظهم .
(٥) خصل المدى : إصابة الغاية .

الرحمة المُهْداة ضِمن احْتفًا والنعمة المُسْداة خَلْف احتفالْ
كم آية جَلَّى لنا أو تلا وغاية جَلَّى بها دون تال[(١)]
ذو العرش أسْمَى قدرَهُ فاسْمُه في العرش مقرون مع اسم الجلال
وذكره رَفّع في ذكره حمداً ليتلو مدحَه كلُّ تال
[٧٨] أعطاه دون الرُّسْل خمساً كفتْ يدَ امتنانٍ في العطايا الجِزال
لم يبعث الرُّسْلَ اشتمالا وفي بَعْثته للثَّقَلين اشتمال
وقسمةَ الأنفال حِلًّا وما مِن قبلُ كانت لنبيٍّ حَلال
والأرضَ طُهْراً ومصلًّى لِأن كان له كونٌ بها واحتلال
والنصرَ بالرعب لشهرٍ مَدًى يُنَازِل الأعداءَ قبل النزال
والنعمةُ الكبرى التي نالها شفاعة الأخرى ونعم المنال
وليلةَ المعراج أسرى فما أسْرَى وأسْنَى شرفًا في الليال
جالَ وجِبْرِيل أنيسٌ له من السماوات العُلَى حيث جال
حتى انتهى من سِدْرة المنتهى إلى مَقام لم يَنَلْه مقال
قال له الرُّوح مَقامي هُنا وأنتَ فاصعد لمَقام الوِصال
فقال : يا أُنْسِيَ أفردْتَني حيث دَهَتْني[(٢)] مُدْهشات الجلال
فقال : كلاَّ إنما الأُنْسُ ما أنْتَ مُوالٍ ولك اللهُ وال
طَأ حضرةَ القُدْس اتصالًا فما أُبيح منها لِسواك اتصال
فزَجَّه في النُّور زَجًّا رَأى وراءه للحق نورَ الجمال
شاهدَ ما شاهدَ مما ارتقى عن مَبلغ العقل وَوَهْم الخيال
فقال قوم بفؤادٍ رأى وعالِمٌ بالعين والقلب قال

(١) جلى بها : أتى فيها سابقا .
(٢) في ط : « وهتني » .

وليس ذا وهو مُحال على	حَال مَقام الحب مما يُحالْ
حيث تدلّى قابَ قَوْسَيْن أوْ	أدْنى نجيًّا فى ظِلال الدّلال
وبعد ما فى النجم يُتلَى عَلاَ	ثم أتى والنجمُ فى الأُفق عال
وباحتمال الجسم والروح فى	مَسْراه صحّ القولُ دون احتمال
وبانشقاق الصدر طِفلا فَقِس	له انشقاقَ البدر عند اكتمال
لنسبة بينهما فى الهدى	والحسنِ والقرب وبُعد المنال
فنور هذا كَمْ جلا من دُجًى	ونورُ هذا كَمْ هَدَى من ضلال
كلا بل الأنوار حيثُ انجلَتْ	حِسًّا ومعنى منه كُلاًّ تُنال
ولِانشقاق البدر من نوره	أبْدَى انشقاقاً وهْو تغيير حال
شُقَّ هلالين على صفحتى	ظلمائه فى كل شِقٍّ هلال
والشَّطْر منه لاستلام الثرى	بين يديه بالسلام استمال
بل أَخجَلَ البدرَ لنقصانه	فانحط مُنشقا لبدر الكمال
هم سألوها آية أعْرضوا	عنها وقد جاءت وِفاق السؤال
قالوا وقد جالوا[1] بسحرٍ أتى	فقلتُ هذا السحر سِحْر حلال
بل عجبوا من نُكْتَة الكونِ أَنْ	أعطاه رَبُّ الكون ما منه سَال
وهِجْرة بل وُصْلة للرضا	وربما نِيل[2] بهجرٍ وِصال
ضفا لُحجْب السَّتر دُونَ العِدا	فى الدار والغار عليه انسدال
إذ غار بالحكمة نورُ الهدى	فى الغار من غارة حزب الضلال
وما اختفى من خيفة بل لأن	تظهر أسرارُ معانى المعال[3]

[٧٩]

(١) كذا فى ت وفى ط « حالوا » . ولعل كليهما مصحف عن : « خالوا » .

(٢) فى ت : « يبلى » .

(٣) المعال : أى المعالى .

حيث ثَنَى بعدُ عِنانَ الرَّدَى سُرَاقَةٌ عما سَرَى واستقال[١]
هِيلَ كثيبُ الطَّرْف خَسْفاً به عن كَثَب والصنع للطرْف هال[٢]
أهوى كما أهوت بميلاده من قصر كسرى الشُّرفات العَوال[٣]
نِسبة حالٍ كان من سِرِّها أنْ بِسِوارَيْه غَدا وهْوَ حال[٤]
هنالك هامتْ بالحِمام العِدا فحام حوليه حَمام فحال[٥]
فاطّرد الكَسْر على جمعهم واطّرد الفتحُ له صدقَ فال
والعنكبوت اعتمدوا حُجَّة خالوا بها الغِيلَ من الليث خال
فاعجب لهم بالواهن استوثقوا ظَنًّا وللبرهان هُمْ فى جدال
ما أصدقَ الصِّديقَ فى قوله عدلٌ لنا فِى حُجج الصدق قال
أشْفَق لا حرصاً على نفسه بل غار من عِلْقٍ نَفيسٍ يُذَال
يأيها الصديق بشراك لا تحزن[٦] وشِمْ للنصر أمضى النصال
لحكمة العِصْمة إحرازُها ما بين أظفار الظُّبى والعوال
لله ما أشرفها عِزَّةً . ليس لغير الله منها ابتهال
نُبُوَّةٌ لاحتْ براهينها قطعيّةً تُرْغم أنْفَ الجِدال

(١) سراقة : هو سراقة بن مالك الكنانى الذى تبع النبي صلى الله عليه وسلم عند الهجرة ، ليرده إلى قريش . (انظر خبره فى كتب السيرة) .
(٢) يشير بهذا البيت والذى قبله إلى ما روى فى كتب السير من أن سراقة لما أراد اللحاق بالرسول ، وكاد يدركه ، غاصت قوائم فرسه فى الرمال ، وأفزعه ما رأى من عجزه عن إدراك النبي أو إصابته بسوء ، حتى اضطر أن يعود من حيث أتى .
(٣) يريد أن فرس سراقة خر على الأرض كما سقطت شرفات قصر كسرى عند مولد النبي إرهاصا لنبوته .
(٤) يشير إلى لبس سراقة لسوارى كسرى أيام عمر تصديقا لقول النبي لسراقة لما خرج فى طلبه فى الهجرة : « كيف بك إذا لبست سوارى كسرى ! » . (انظر شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٤٨) .
(٥) يريد : أن أعداء النبي يوم الغار أرادوا قتله ، فحال الحمام دون غرضهم بتعشيشه فوقه .
(٦) فى ت : « تجزع » .

وهل جدال فى عُلَى أَوْجَبَتْ ... وآدم فى طِينه ذو انجدالْ
وإذ بدت فى وجهه غُرَّة ... خرت له الأملاكُ طوع امتثال
ونوحٌ أذ نُجِّىَ فى فُلْكه ... كان على أنوار هذا اشتمال
كذا خليل الله فى ناره ... من نوره أُهْدِىَ هَدْىَ الخلال
إذ قال جبريل له سَلْ تَنَلْ ... فقال علمُ الحال حَسْبَ السؤال
ونال إسماعيلُ منه الفِدا ... بالذِّبح أو إسحاقُ إن صحّ نال [٨٠]
وهودٌ أستجلى لديه الهُدى ... ويوسفٌ منها تحلَّى الجمال
وخِلْعَةَ الإشراق منها اكتسى ... بالطُّور مُوسى عند خلعِ النعال
والرُّوحُ روحُ الله لاقى بها ... بُشْرَى تلقتها صدور الرجال
فيا له نورَ انتقاء بدا ... فى غرر الآباء منه انتقال
والشمسُ والبدر معاً والضُّحى ... والشُّهْبُ منه أشرقت والهلال
ونوره أجْلَى ، وبرهانه ... أعلى ، وكم من دونها من مَعال
تفجرتْ أَنْمُلُه بالنَّدى ... معنًى وبالحسّ جرت بالزُّلال[1]
وأُنْطِق الطيرُ بتصديقه ... وأفصح الذئْب به والغزال
وسبَّحت فى راحتيه الحصى ... وانهزم الجمع لحثْو الرمال
والجِذع إذ عُوِّض مِن وَصْلِه ... بفصله حَنَّ حنين الفِصال
وهل إلى آياته مُنْتهى ... وعن عُلَى غاياته النجمُ آل[2]
فما بليغ بالغاً وصفه ... يقصُرُ عن ذاك المقام المقال
وبعد مبدا (نونَ) أو منتهى ... (براءةٍ) ماذا عسى أن يُقال[3]

(١) فى ط : « لا محال » . بدل : « بالزلال » .
(٢) آل : رجع عاجزا .
(٣) يشير إلى ثناء الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم فى مفتتح سورة (نون) ومختتم سورة (براءة) .

يا سيدَ الكونين فضلا به قد ساد فى الأولى ويومَ المآلْ
يا سابقَ الرسل اصطفاءً ويا خاتِمَهُم جمعاً لمعنى الكمال
يا ملجأ الخلق ومَنجاهمُ إذا بهم ضاق انفساحُ المجال
يا من به نال المحبُّ الرضا ويا شفيعاً فى الذنوب الثقال
رُحماك فينا يا نبيَّ الهدى فلم تزل رحماكَ ذاتَ انهمال
رحماكَ فى أوطاننا راعِها مِن لحظك الأحمى بعين ابتهال
رُحماكَ فى سلطاننا وَالِهِ من نصرك الأمضى بأرضى نوال
رحماكَ فى غربتنا كن لها أُنْسًا فإن العهد بالأُنس طال
رحماكَ فى كُربتنا حُلَّها منك بسرٍّ فهى رَهنُ اعتقال
رحماكَ فى عَيلتنا أغْنها إنا على رِفدكَ طُرًّا عِيال
رحماكَ فى قِلتنا زكِّها زكاة تكثير لجاه ومال
صالت علينا بالوُفور العدا وهل على راجيك غوثاً يُصال
صالت بعَدٍّ واعتداد معاً وما على ذاكَ الحمى يُستطال
[٨١] خَالَتْ بأنا لا غِياثٌ لنا حاشى غياثَ الخلق مما يُخال
وبالغِنَى اختالتْ وما إنْ لنا فى غير أفياء غِناكَ اختيال
فأنت للخلق مَلاذ الوَرَى والوَزَرُ الأحْمَى لَدَى ذِى الجلال
صلى عليك الله نورَ الهُدَى أزكى صلاةٍ قُرِنَتْ[1] باتصال

بعض شعر له

انتهت القصيدة . ومن ذلك قوله رحمه الله :

لكَ يافقيهُ وَضَعْتُ خَدّى فى الثَّرى طمعاً بوصلٍ منكَ غيرِ مؤجَّلِ
فأجاب ذلك لا يجوز لأنه عندى رِبًا من باب ضَعْ وتعجَّل

(١) فى ط : « قورنت » .

وقوله :

لى سـيِّدٌ زار وما زرتهُ فمنِّىَ النقصُ ومنه التَّمامْ
إن يحتملْ سَهوِى ففقهٌ مضى لأننى المأمومُ وهْو الإمامْ
[وطالما زار الغمامُ الثَّرى ولم يزرْ قطُّ الثرى للغمام](١)

وقوله رحمه الله ، وهو غاية فى بابه :

بعثتُ بها ذِكْرَى على ثقة إلى مؤمَّلٍ وعد من لقائك(٢) مرقوبِ
فما زلتَ فَذًّا فى رءوس ذوى العُلى وما وعد رأس مثل مَوْعد عُرْقوب

[وقوله :

عاب منى العُداة شـعراً وثغراً رُمِيا فى الصِّبا بشَيْب وشَيْنِ
قلت : لا عيب فِىَّ ما دام فضل فى النُّهى واللسانِ والشفتين](١)

وقوله :

قلت لما جَبَرْتُ بالعاج ثغراً(٣) ولقد رُمتُ بالمُحال احتجاجا
صاحِ لا بأس أن يعُوج شَبابى بالتلاقى(٤) أمَا ترى الثغر عاجا

وقوله :

رأتنى أحُوطُ الثغر رَبْطاً فأُضحكت وتاهت بثغر بالجفون يُحاطُ
فقلت لخوف الحَل منه(٥) ربطته أيُنكَر فى الثغر المَخُوف رِباط

وقوله :

إلهى لك الشكوى وحَسْبِىَ رحمةً نداؤك فى شكوى الخطوب إلهى

(١) زيادة عن ت .
(٢) فى ط : « وفائك » .
(٣) فى ط : « ثغرى » .
(٤) فى ط : « بالتلافى » .
(٥) فى ت : « منك » .

وحقك ما للهو أبدعتَ خلقتى   وها أنا فى غَىّ البطالة[١] لاهِى
بنفسى وشيطانى ودنياى والهوى   فُتِنْتُ ولكن أنت حَسْبِىَ لاهى[٢]

ولنختم ما أردنا جلبه من نظمه الذى هو بحر لا ساحل له بقوله :

يا ربِّ قلتَ وقولُك الحق الذى   أحكمتَ : إنك تستجيب لمن دعا
فاختم لعبدك بالرضَا واحكم له   بالستر فى الدنيا وفى الأخرى معا

* * *

تعريف بالرئيس ابن عاصم

[٨٢] وأما الرئيس أبو يحيى بن عاصم فهو الإمام العلامة ، الوزير الرئيس ، الكاتب البليغ الجليل الخطيب الجامع الكامل ، الشاعر المفلق الناثر ، الحجة ، خاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق ، القاضى محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم القيسى الأندلسى الغَرناطى ، قاضى الجماعة بها ، كان رحمه الله تعالى من أكابر[٣] فقهائها وعلمائها ، أخذ عن الإمام المحقق أبى الحسن بن سمعة[٤] ، والإمام القاضى أبى القاسم بن سراج ، والشيخ الراوية أبى عبد الله المَنتورى ، والإمام أبى عبد الله البَيانى وغيرهم ، وذكر فى شرحه تحفة والده أنه وُلّىَ القضاء عام ثمان وثمانين وثمان مئة ، وله عدة تآليف منها شرحه العجيب على تحفة والده فى الأحكام ، وهو كتاب نافع ، فيه فقه متين ، ونقل صحيح ، وكانت بينه وبين عَصْرِيّه الإمام مفتى غرناطة أبى عبد الله السَّرَقُسْطِىّ ، مراجعات ومنازعات فى مسائل فقهية . ومن تآليفه رحمه الله : كتاب جنة الرّضى ، فى التسليم لما قدر الله وقَضَى ؛ وكتاب الرّوض الأريض ، كأنه ذيّل به إحاطة ابن الخطيب ،

(١) فى ت : « البلاغة » .
(٢) لاهى : أى يا إلهى .
(٣) فى ط : « أكارم » .
(٤) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « سمعت » وهو تحريف .

وله غير ذلك ، وسنذكر شيئاً من كلامه بعد هذا إن شاء الله تعالى .

قصيدة له تلد بنتين موشحتين فى مدح السلطان أبى الحجاج

ومن أغرب ما صدر عنه ، رضى الله عنه ، قصيدة ، تنفك منها قصيدتان أخريان بديعتان ، إحداها من المكتوب بالأحمر ، والأخرى من المكتوب بالأخضر ، وكل واحدة من هاتين البنتين تلد موشحة ، كما ستراه ، وقد ألفيتُها بخط بعض أعلام سبته ، وهو الفقيه أبو عبد الله محمد بن على بن محمد بن فرج ، وجده محمد بن فرج هو الذى نأتى بجملة من نظمه فى النعْل النبوية ، عند ما نتعرض لذلك إن شاء الله تعالى ، فى محل هو أنسب من هذا الموضع ، وقد سقط من هذه القصيدة نحو ثلاثة أبيات ، فعوضتها بغيرها على ذلك السَّنَن[(١)] ، على أن بعض كلماتها لم تسقط إلى طرف[(٢)] .

ونص ما كتبه السبتى المذكور من نظم السيد الأستاذ العَلَم الصَّدْر المفتى القاضى رئيس الكُتّاب ، ومَعدِن السماحة ، ومنبع الآداب ، سيدى أبى يحيى [٨٣] ابن عاصم رحمه الله ، ورضى عنه ، يمدح السلطان العادل المقدَّس المنعم المرحوم المجاهد ، أبا الحجاج يوسف بن نصر ، قدَّس الله روحه ، ونضّر ضريحه ، قال : ونقلتها من خط ناظمها رحمه الله . انتهى . وهذه هى القصيدة[(٣)] :

أَمَاوالهوى[(٤)] «ما كنتُ» مذ بان عهدُهُ ... أهيم بلُقيـــا من (تناثر[(٥)]) وُدّهُ

رعى اللهمن «لوأنصف» الصبّفى الهوى ... لما فاض منه (الدمعُ) مُذ[(٦)] بانَ صدّه

---

(١) فى ط : « النسق » .

(٢) يريد أن الأبيات الثلاثة الساقطة قد ظهر منها بعض كلمات .

(٣) وضعنا ما كتب بالمداد الأحمر فى الأصل بين هذين القوسين « » ، وما كتب بالأخضر بين هذين الهلالين ( ) اقتداء بما فى نسخة ت .

(٤) فى ت : « إمام الهدى » .

(٥) فى ط : « تأثر » .

(٦) فى ط : « إذ » .

ولو جاد من « بعد المِطال » بزَوْرة | لما شَبَّ أشواقِي وقلبيَ زَنْدُه
كما خان صبري يوم أصبح وَ « اصلى | لظًى » زاد ماءَ (من جُفُونِيَ) وَقْدُه
لذاك أسالَ الدمعَ (كالدرّ) مَدْمَعِي | من « الوَجْد » فاستولى على الجفن سُهْدُه
حكى لؤلؤاً (من سلكه) متناثرا | و « إلا إيمّ » قد تتـابع مدُّه
ذخرتُ (الثمينَ) القدرَ منه بمقلتي | ومازلت من خوف « النَّكال » أُعِدُّه
ولاعجبٌ (مُذْ أعوز) القربُ أن غدا | و « كالقمر الزاهي » سَناه و بُعده
أيُلْحق باللُّقيا أو (الوصل) من يغو | رُ « فى نوره » بَدر السماء وجندُه
وصيَّر جسمي للصَّبابة (والتَّلا | ق) يُتيِّم قلبي إذ تمكن وَجدُه[(١)]
أُقَطِّع أنفاسي « عليه كـ » آبة | ولله (من بدر) لغيريَ[(٢)] سَعْدُه
فمن شَعره « الليل البهيمُ » ومن سَنَى | مُقَبَّله لـ (حُسْن) نُورُ يُمِدُّه
(بـ)حكم « الدَّلال » الجَوْرحكَم جَوْره | ومن شـأنه أ (لا قرين) يرُدُّه
له مَعْطِفٌ « مستحسن القَدّ » ناعم | به (عَلِقَتْ في الحب) بالرَّغم أُسْدُه
رمى في فؤادي جمرًا أ « ذكى » هيبةً | به (ظبي أُنس) قد تلهّبَ خدُّه
فيَعْبَق من نار الحيا عاطر « الشذا | كـ » أني بذاكَ الخالِ قد نمَّ نَدُّه
ويبـدو بآفاق الـ (جمال هـ) لاله | له « الليل فرعاو » الـكواكب عقده
كَأن الظَّبيَ فى (مرتع) الطَّرف لحظه | كأن « القَنا فى » اللين والفعل قَدُّه
يروق (العيونَ) العِطفُ منه فشُبِّهتْ | به قُضُبُ البان « اعتدالـ » ـا وَمَلْدُه
ويانِعُ « مَوَرْدُ الخد » لو جاز[(٣)] قطفه | وطيبُ رحيق الثغر لـ (وحل) وِرْدُه

(١) كذا فى ط . والشطر الثانى من هذا البيت غير مستقيم وزناً . وروايته فى ت :
وصير جسمي للصبابة وابتلي | يتيم قلبي إذ تمكن وجده
ولا تتفق ألفاظ هذه الرواية مع ألفاظ الموشحة التى تخرج من هذه القصيدة .
(٢) فى ت : « لعمرى » .
(٣) فى ت : « حان » .

يجول به ريق « شَهِىٌّ » يحيلنى إليه لظًى (فى القَلْب) قد شَبَّ وَقْدُه
ويَحْمِى المُحَيَّا و « اللَّمَى » بلواحظ (عن) الدَّنِفِ المُغْرَى به[1] فتصُدُّه
فلله من رِيمٍ ضُلوعى (كِناس) ه وروض يُسَقِّيه من الدمع عَهْدُه
ويُمْنَع منه المُسْتَهام (فما له) و « فى لثمه » لو جادَ باللثم قصدُه [٨٤]
وبالحسن منه (يَستبيح) حِمَى النُّهَى و « كل المُنَى » واليُمْنِ يحويه بُرْدُه
ويُلْوِى بـ (دَيْنِى) فى الهوى وهو موسر له دُرُّ ثَغْرٍ « لو يُنَالُ » وعِقْدُه
أفى العدل أَنْ (يَحْكُمْ) بتحريم ريقه لأَن « كانَ للشَّهْد » المعلَّلِ وِرْدُه
تَخَيَّلتُه لو نيلَ (بالنَّهْب فى) السكَرى « وما ذقتُه » يشفِى منَ السُّقْمِ شَهْدُه
فأَجْنِى كما شاء الوِصال « رُضَابه » ويجنى على قلبى هواهُ وصَدُّه
ويشفِى بذاك المبسِم « العَذْب » ريقُه (فؤادِىَ إذ) يشفِى بلثمِىَ خَدُّه
وحُلْو « الجنى » مُرُّ الجَفَا باهرُ السـ (نى له نهب هـ)ذا القلب قَسْرا[2] وردُّه
بدا « فى المِثال » كالغزال محاسناً وتخشاه أبطالُ (العرين) وأسده[3]
وللحب بدء « و لحظه الأوطف » الورى (أ) لا (هكذا) قلبُ المشوق أَقُدُّه
تملَّك رِقّى طَرْفُه « معَ سُقْمِه » و بـ (الشرْع) فى حكم الغرام يَرُدُّه
وأظهر مكنون الهوى منذ جار (فى الْـ مُعَنَّى ا) لذى قد طال فى الحب جَهْدُه[4]
وقد كان تحت الكَتم (عُذرى و)وَجده فـ « أسهر منه » ما اختفى قبل صده
ويحسبه فى (الحكم) بالجور « كـ » الورى وهل با « لسليم » القلب يُحسب ضده
إذا (بالظنون) الكاذبات يناله ينام فكم عم « الليالـ » ى سُهْده

(١) فى ط : « بها » .
(٢) فى ت : « سرا » .
(٣) هذا البيت ساقط فى ت .
(٤) فى ط : « جحده » .

يد « وح سن» ا «ه» للمَشُوق وقربه — عليه حرام إذ (يحلل) بعْدُه
وفى مجتلاه «الباهر» الحُسْن والرُّوا — حياتى ، وشبه (القتل) للنفس فقده
وأُنعش بالإنصاف «مهما بدا» و إن — أرى (منه ظلماً) عاود القلب وَجْده
و يبديه نور الحسن وَهْناً « لمقلتى » — و يخفيه فرعٌ فاحم الوصف جَعْده
يميل على المشتاق (بالهجر) حكمة — ف « منه » استعار الميلَ عنىَ قدّه
فيا هاجرى (والصدّ) للصب قاتل — وروض «نعيم» ى فى رضاك وخُلْدُه
أما (والفتونِ) البابلى وسحرِه — لَيُقنعنى هزل « الوِصال » وجِدّه
ويا مِقولى (مالى سوا) لك مؤازرٌ — ف «خلّ الهوى وامدح» لمن حَقّ حمده
فصغ لؤلؤا من (مدحِيَ ابْنَ) ملوكنا — «إمامَ الورى» الباهى على الخلق رِفْده(١)
مَنَ أُورثه الملك المؤصَّل (نصر) ه — وأكسبه المجـــدَ المؤثَّلَ سعده
لُبابُ العلى « قطب المعالى و » تاجُها — و(بدرالهدى ا)وضَّاحُ فى الدّهر(٢) سعدُه
به قد غدا ثغر « الهدى » وهو باسم — منير سناه (مشرق) الأفق سعدُه
«و»أضحى «الكمال طود»ه فإن اعتدى — على البدر نقص ف (الجبين) يُمِدّه
ومهما عفا عاد « الحجا » وهو قائل — ك(ذا الحلم والصفح) الذى أستعدّه
و بالشّمّ يُزْرى عقله «الأرجحُ» الذى — لنحـ(و(٣) المعالى والمَجادة قصده
فمعنى الحُلى تهديه للقلب ذاته — و « سر العُلى » يبديه للعين مجده
ومن كفه (غيث الندى) وغمامه — و « معنى السماح » المستماحِ ورَغده
إذا انهل منه (الواكف ا)ثرٌ للورى — فصغْ«و الندى و» الجود قد لذ وِرْده(٤)

[٨٥]

(١) فى ط : « الباهى على الخلق قده » .
(٢) فى ت : « فى البحر » .
(٣) فى ت : « له والمعالى » .
(٤) هذا البيت ساقط فى ط .

تخال (هَتُون) البذل منهن زائلا ... يُكَيِّفه برق « الجلال » ورعدُه[(1)]

وكل « نوال ه » امل من بنانه ... فأقصى صفات الجود (قد جاز) جوده

وفيض نداه « يشرح » الحال إنه ... يمد الحيا (فى السمح) إذ يستمده

(و)فى غيثه الثَّجاج «المعتفى» الغنى ... إذا ب (الأيادى) منه يبدأ رِفده

وللفضل والإحسان والبأس (سبقة) ه ... والملك والإســلام والعلم عَضْدُه

وأفعاله عند استباق (المدا) شأتْ ... و « فعل ظُباه با » لكُماة وجُرده

له مشرفىّ (دائم ا) قطع للطُّلا ... فكل كمىٍّ ل « لعدا فيه » ه فقده

و بين (سكون) فى الندىِّ من الحِجا ... (و) بين مَضاء ب « القتال » يعُده

وزيّنه من (قصده الجمع) للعُلا ... كما زيَّن ا «لسيفَ» الصقيلَ فِرنده

وحزم وعَزْم (بين بِكْر) وثيب ... ب « ه المرهف » الماضى يُفَلَّل حدُّه

فيوم الندى الإسلام يَسعد دهره ... و«يوم الوغَى» الإشراك يتعس جَدُّه

ومن بأسه « أضحى الحما مُ » تمَنُّعاً ... و (للفخر) منه صارم يستعده

وتُمْسى عداه « كالحميم » شرابهم ... وما شـيدوا (فى دهره) فيهده[(2)]

و يغدو«الموال»ى«فى»سرور وغبطة ... من البشر أبكار (وعُون) تودُّه

قد اعتاد « ترك الكافر» ين وشأنهم ... لهيب (وشأن ه)ا مل الدمع وِرْده

فأبطالهم « رهن الفنا » ء « و » مالهم ... إلى (البذل) عقباه و بالسيف ردُّه

ولم يبق إلا من حَمَى الحسنَ (للعطا) ... وشفّع فى أح(يا)ئه[(3)] منه خدّه

وأصبح فى العلياء (كالبحر) كفه ... كما « قد غدا مثل ال » جواهر رفده

فصَوْب الحيا (فى جوده) برقه الظُّبَى ... يريك « هشيم » الكفر مما يقدُّه

(١) هذا البيت ساقط فى ط .

(٢) فى ت : « لم يهده » .

(٣) فى ط : « أحبابه » .

نَداه (المَعين) الثَّر قد نعم الهدى ... و يشقى به حزب « الضلال » وجندهُ

وأحكم « رفع » الملك إذ نصب العدا ... على حال ذل (نال من) ضل[1] جهدُه

أيا سامى « القدر » الذى جل ذكره ... و يا محرز (المجد) الذى عز نده

صفاتك فى العليا « عزيز » منالها ... لها (كل طبع) أحرز الفضل فرده

فما شئته من عزة الجار و « الحمى » ... « وقد » ر سما فوق السما كين مجده

[٨٦] وأبعدت فى (وصف العلى)عن مسابق ... لها و « تدانى » من نوالك رغدُه

وجودك (فيه ذو) الرجا مغرم فإن ... حمى « جوده » ذم المهلَّبَ أزدُه

وكم من (فنون) يستمد بها الضحى ... إذا ما تناءى « للمنـــال » ممدّه

وكم بات يتلو (و سور) ة الفتح عزمه ... و يحكم « مثل الأمر و » النهى وجدّه

وأصبح باستحقاقه (الحمد من) أولى الـ ... عدالة فى « الأحكام قد » بان رشده

بعدل و إحسان قد اخت كليهما ... (حلاه) كما آخى المهنـــدَ غمدُه

و بأس و بطش يحميان «حمى الهدى» ... فحتى (اقد تـ) لقى مع السَّرح أُسْدُه

وحلم « وجودها » تـ « ن » ومكارم ... ء (لاهن كل) الوصف عنها وجهده

وكيف « ينال » المدح أوصاف ماجد ... يود العـلا (حينـ) ـا وحينا تَوَدُّه

يعم بعفـ « و خص بالـ » ذنب نطقه ... و (تهدى إلى الرشد) المبينَ ألَدَّه

وللسيف نصر يا بن «نصر على» العدا ... فساعة (إذ يجلى) جلى الـكفرَ حدُّه

وللمُلْك عز أكسب الذل «مَنْ بغى» ... فحاقت به من مؤلم القهر نُـكْدُه

ففى ذمة العلياء (تلك الحلا) العُلى ... و « لما بدت » للدين أنجز وَعدُه

أنَرْت بها من (فاحم الـ) ظلم ما دَجا ... فجلَّت « سعودُ ه » نّ الملك عَضْده

فزالت(دجون)الجور عن مطلع الهدى ... فنور سَناه « فى اقتبال » وسَعْدُه

هو « المَلْك » لم تَغبطه إلا نزارهُ ... بما ليس فى إم (كانهـا) وَمَعَدُّه

---

(١) فى ط : « كل » .

وفى منتهاك «الأشرف» الأصل للورى دليل يَحُوز (الشفعَ) فى المجد فردُه
ويُمناك يوم الجود «ترْب الحيا» اغتدت ألا (فهى) أقسامُ السماح وحدُه
لك المرهَفُ السفاح بالفتح (مُثنَّى) مع العـلَم الموعود بالنصر جُندُه
وجمّعت شتى الجود (فى وتر) راحة ف«غيث الندى» منها قد انهل عَهْده
فكم كاملِ (الأوصاف وا) ذات ماجدٍ إلى ذلك « الهامى العميم » مَرَدُّه
علىّ (يمين قل) تهـا غير حانث لجودك تنظيم « النوال » ونَضْدُه
فقد عز فى الدنيا (له المِثْل) فى العلى فما «يوسف ا» لاّ الحيا طاب وِرْدُه
وأينَ المُسامى (والمُضاهى) مَجادة « لناصر دين » الله والمجدُ مجدُه
كريم المساعى حافظ الدِّين و« الهُدى ذو » الأنعام والفضلِ المبجّل عَقْدُه
ففى الفخر أضحى «الفضل والمجد» طبعَه و (فى الدهر) أمسى ليس يُوجد نِدّه
ومحتده السامى « الـكريم » نِجاره يماثله (فى رفعة) القــدر بَنده
فشتى « الخلال » الغرّ جُمِّعْنَ عنده بمـا حاز من علم (ودين) يُمِدُّه
ودونَك يا مولاى حسناءَ غادةً مهذبةً كالدر نُظِّم عِقْــده
مُرنَّحةَ الأعْطاف تلعب بالنُّهى فتَسْبى الحِجا طوْرا وطورا ترُدُّه [٨٧]
هديةَ عبـــد مخلصٍ لك قلبُه وفى تلـكُمُ الذاتِ الـكريمةِ وُدُّه
فألفاظها تحكى جُمـان دُموعِه وقرْطاسها يحكيه فى اللّون خَدُّه

قال جامع هذا التصنيف : أشار الرئيس أبو يحيى بهذا الشطر الأخير إلى الـكاغَد الأصفر الذى كانت فيه هذه القصيدة مكتتبة ، ثم قال :

وأنفاسها من كل لون غريبها وترتيبها من ذاته يســـتعده
فأكْحَلُها من مقلتى أستميحهُ وأحمرها من أدْمعى أســتمدّه

وأخضرها من طيب عيشي الذي مَضى ... لديك وأرجو بالرضـا تستردُّه[1]
وأعجب شيء أنها بِكْر فِكْرتي ... وما بَلَغتْ مِعشار شهر نعدُّه
وقد ولدت بِنْتين ثِنتين مِثلها ... يروقك من معناها ما تَوَدُّه
وكلتاهما قد جُرِّدت من نظامها ... موشحة كالسَّيف راق فِرِنْدُه
نخذها ففيها للتواظر مَسْرح ... ومن مدحك[2] الحسنُ الذى تَسْتَمِدُّه
بقيت كما تهواه ما هَبَّتِ الصَّبا ... فمالت بها بان العُذَيب ورَنْدُه

انتهت القصيدة الفريدة ، وهأنا أذكر البنتين اللتين وَلَدت ، ثم أذكر ما ولدت كل واحدة منهما بحول الله وقوته .

البنت الأولى

فأما القصيدة الخارجة من المكتوب بالأخضر [فهذا نصها ، وتوشيحها ينتظم من المكتوب فيها بالأخضر][3] وهى هذه :

(تَناثر الدّمعُ) مِن جُفونى ... (كالدُّر) من سِلْكه الثّمينِ
(مُذْ أعوزَ الوصلُ) والتلاقى ... (من بدر) حسن بلا قرين
(عَلِقْتُ فى الحب) ظَبْيَ أُنْس ... (جماله) مَرتَعُ العُيون
(وحلّ فى القلب) عن كِناسٍ ... (فماله) يَستبيح دينى
(يحْكُم بالنّهب) فى فؤادى ... (إذ ناله) نَهْبَه العرين
(أهكذا الشرع) فى المُعَنَّى (العذرىّ) والحكْمُ بالظنون
(يُحلّل القتلَ) منه ظلما ... (بالهجْر) والصَّدِّ والفتون
(مالى سوى مَدْحِيَ) ابنَ نصر ... (بدْرَ الهدى) المشرقَ الجبين
(ذا الحلم والصفح) والمعالى ... (غيثَ النّدى) الواكف الهتون

(١) فى ت : « نستمده » .
(٢) فى ط : « مدحها » .
(٣) زيادة عن ت .

(قد جاز فى السمح) وَالأيادى (سبق المدى) دائم السكونِ
(وقصده الجمع) بين بِكر (للفخر) فى دهره وعُون [٨٨]
(وشأنه البذلُ) للعطايا (كالبحر) فى جوده المعين
(نالَ من المجد) كل طبع (وصف العلا) فيه ذو فنون
(وسُوَرَ الحمدِ) من حلاه (لقد تلا) هُنَّ كلَّ حين
(تهدى إلى الرُّشد) إذ تَجَلِّى (تلك الحِلَى) فاحمَ الدُّجون
(كأنها الشفع) فهىَ مَثْنَى (فى وِتر) الأوصاف واليمين
(قلَّ له المِثلُ) والمُضَاهِى (فى الدهر) فى رِفعة ودِين

الموشحة الأولى

انتهت البنت الخضراء ، وهذا نص بنتها الموشحة ، المستخرجة من الأخضر :

تناثَرَ الدَّمعُ ، كالدُّرِّ مُذْ أَعْوَزَ الْوَصْلُ ، مِنْ بَدْرِ
عَلِقْتُ فى الحُبِّ جَمَالَهْ
وحل فى القَلْبِ فمالَهْ
يحكم بالنَّهْبِ إذ نالَهْ
أهكذا الشرْع ، العُذْرِى يُحَلِّل القَتْلَ ، بالهجْر
ما لى سِوَى مَدْحِى بَدْرَ الهُدَى
ذا الحلمِ والصَّفْحِ غيثَ الندى
قد جاز فى السَّمْحِ سَبْقَ المَدَى
وقصده الجمعُ ، للفخرِ وشَأْنُهُ البَذْلُ ، كالبحرِ
نال من المجد وصف العلا
وسُوَرَ الحمدِ لقدْ تَلا
تَهدى إلى الرُّشْدِ تلكَ الحِلَى
كأنها الشفعُ ، فى وِترِ قَلَّ لها المِثْل ، فى الدَّهْرِ

[انتهت .

ويمكن أن تستخرج باختصار هكذا] [١] :

تنـــاثر الدمعُ ، مُذْ أعوزَ الوصلُ

عَلِقت فى الحبِّ ، وحَــلَّ بالقلبِ ، يحــكم بالنهبِ

أهـــكذا الشرعُ ، يُحَلِّل القتـــل؟

مالى سوى مدحِى ، ذا الحلمِ والصفحِ ، قد حاز فى السَّمح

وقصـــده الجمعُ ، وشــأنه البــذلُ

له من المجـــدِ ، وسُـــورِ الحمدِ ، تهدى إلى الرشدِ

[٨٩] كأنهـــا الشــفعُ ، قلَّ لهـا المِثـــلُ

انتهت .

البنت الثانية

وأما البنت الحمراء فهى الخارجة من المكتوب بالأحمر، وتوشيحها ينتظم من المكتوب فيها بالأحمر، وهذا نصها :

« ما كنتُ لَوْ أنصف » بعد المطالْ	« أصْلَى لَظَى الوجدِ الأَلِيم » النكالْ
« كالقمـــــر الزاهى » فى نُوره	« عليه كالليـل البهيم » الدّلال
« مستحسن القَد » ذَكىُّ الشّذا	« كالليل فَرْعا والقَنا » فى اعتدال
« مُورّدُ الخـد » شهىُّ اللّمى	« فى لَثْمِهِ كلّ المُنَى » لَوْ يُنَال
« كأنّ للشهـــــــــــد » وما ذقتُه	« رضابَه العذبَ الجَنَى » فى المثال
« ولحظه الأوطفُ » مع سُقْمه	« أشهرُ منـــه كالسَّليم » الليال
« وحُسْـــنه الباهرُ » مهما بدا	« لمقلتى منـــه نعيمُ » الوصال
« خَلِّ الهَوى وامدح » إمام الوَرَى	« قطب المعالى والهُدَى » والكمال

(١) ما بين القوسين زيادة عن ت .

« طودَ الحِجا الأرجحَ » سرَّ العلى « مَعْنى السَّماحِ والنّدى » والجَلالْ
« نوالُه يَشرح » للمعتـــــفِى « فعلَ ظُباه بالعِدا » فى القتال
« لســـيفه المرهَفِ » يوم الوغى « أضحى الحِمام كالحميم » المُوال
« فيتركُ الكافر » رَهْن الفَنا « وقد غدا مثلَ الهَشيم » الضَّلال
« مُرَفَّعِ القَـــدر » عزيز الحِمَى « وقد تدانَى جُودُه » للمنَال
« مُمَثِّلُ الأمْر » والاحكام قد « حَمَى الهُدَى وجُودُه » أَنْ يُنال
« وخُصَّ بالنصْر » على من بَغَى « لَمَّا بدت سُعوده » فى اقتبال
« الملكُ الأشرفُ » ترْبُ الحَيا «غيثُ النَّدى الهامى العميم» النَّوال
« يوسفُ الناصرُ » دينَ الهُدَى « ذوالفضل والمجد الكريمُ» الخِلال

انتهت البنت الحمراء .

الموشحة الثانية

وهذا نص مُوَشَّحتِها ، وهى بنتها ، الخارجة منها من المكتوب بالأحمر :

مَا كُنْتُ لَوْ أَنْصَفْ أصْلَى لَظَى الوجدِ الأَليمْ
كالقَمَـــرِ الزاهى عليهِ كاللَّيلِ البَهِيمْ

* * *

مُسْتَحسن القـــدِّ كالليل فَرْعًا والقَنا
مُوَرَّدُ الخَـــــدِّ فى لثمه كلّ المُنى
كأنّ للشهـــــدِ رضابَه العـذبَ الجَنى

* * *

ولحظَـــه الأوطفْ أشهرُ منـــه كالسَّليمْ
وحســـــنهُ الباهرْ لمقلتى منـــــه نعيمْ

* * *

[٩٠]

خَلِّ الهوى وامدحْ　　قطب المعالى والهدَى
طودَ الحِجا الأرجحْ　　معنى السماحِ والنَّدى
نوالُه يشرحْ　　فعلَ ظُباه بالعدا

＊＊＊

لسيفه المرهفْ　　أضحى الحِمام كالحميمْ
فيترك الكافرْ　　وقد غدا مثل الهشيمْ

＊＊＊

مُرَفَّعُ القدرِ　　وقد تدانى جودُهُ
مُمَثَّلُ الأمْرِ　　حَمَى الهُدَى وُجودُهُ
وخُصّ بالنصر　　لمّا بدتْ سعودُهُ

＊＊＊

الملكُ الأَشرفْ　　غيث الندى الهامى العميمْ
يُوسفُ النّاصرْ　　ذو الفضل والمجد الكريمْ

ويمكن اختصارها أيضاً هكذا :

ما كنتُ لو أنصفْ ، كالقمر الزاهرْ
مستحسَنُ القدّ ، مورد الخد ، كأن للشّهد
ولحظه الأوطف ، وحسنه الباهرْ
خل الهوى وامدحْ ، طودَ الحِجا الأرجحْ ، نواله يشرحْ
لسيفه المرهف ، فيترك الكافرْ
مُرَفَّع القدر ، مُمَثَّل الأَمر ، وخُصّ بالنصر
الملكُ الأَشرفْ ، يُوسف الناصرْ

قلت : وإنما لم أجزم بهذه المختصَرة لأَجل أن الناظم صرّح بأن كل واحدة من البنتين الحمراء والخضراء لم تلد إلا موشحة واحدة من البنتين ، ولو ولدت موشحتين لصرّح بذلك ، ولا شك أن الموشحة غيرَ المختصرة أتم معنى ، وأكمل مَساقا ، فالأصوب الاقتصار عليها ، وإن كان يمكن استخراج أكثر منها لمن تأمل حق التأمل ، والله تعالى أعلم .

موازنة بين ابن عاصم وصاحب عنوان الشرف الشامى

وعلى كل حال فقد أبدع هذا الرئيس فى هذه القصيدة ، وإن كان فيها بعض تكلّف ، وقصده أبدع من قصد صاحب عنوان الشرف الشامى[١] ، لأن هذا أخرج من الخارج شيئين[٢] على ما لا يخفى ، غير أن صاحب عنوان الشرف أطال ، واستخرج أربعة علوم متباينة ، من أول وهلة ، وكلاهما قد أبدع رحمهما الله ؛ ولم أتحقق : هل وقف ابن عاصم على كتاب عُنوان الشرف ، فاهتدى بأضوائه أم لا ؟ والله تعالى أعلم . |٩١|

مختار من كتابه جنة الرضى

ومن كتاب جنة الرضى له رحمه الله ما نصه[٣] :

« الحمد لله الذى عوّض من الخلاف وِفاقاً ، وأعقب من الافتراق اجتماعا واتفاقا ، وهيّأ لأسواق الائتلاف برفع الخلاف[٤] نفَاقا ، ويسّر لوطن الجهاد[٥] من توثير المِهاد أرفاقا ، وزيّن بأنجم السُّعود من النصر الموعود آفاقاً ، وعقد على جمع الكلمة من الأمة المسلمة إجماعا وإصفاقاً . نحمدُه سبحانه وهو المحمود بجميع اللغات ،

---

(١) كذا فى الأصلين . واسم الكتاب : « عنوان الشرف الوافى ، فى الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافى » ، وهو لشرف الدين بن المقرى إسماعيل بن أبى بكر اليمنى ، المتوفى سنة ٨٣٧ هـ . (انظر كشف الظنون) .

(٢) فى ط : « أشياء أخر » .

(٣) العبارة « له رحمه الله ما نصه » : ساقطة فى ت .

(٤) فى ت : « الاختلاف » .

(٥) فى ت : « الاجتهاد » .

ونشكره على ما سَنَّى من آمال على وَفْقِ الأمنية مُبلَّغات ، ونُثْنى عليه بما أسْدَى من عوارفَ مُخَوَّلات ، ومواهبَ مُسَوَّغات ؛ حمدا نستكثر من دُرره النفيسة إنفاقاً ، وأمانته العظيمة فلا نأبى من حَمْلها إشفاقاً ؛ ونشهد أنه الله[1] لا إله إلا هو الواحد الأحد ، الفرد الصَّمَد ، الذى لم يلد ولم يُولَد ولم يكن له كُفْوًا أحد ؛ شهادةً نرفع لواءها المرنَّح[2] العَذَبات خَفَّاقا ، فلا لاقى بعد هذه الشهادة لمقاصد السعادة إخفاقا[3] ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله ، ونبيه المصطفى وخليله ؛ نبى الرحمة ، ونور الظُّلْمه ، وشفيع الأمّه ، والمبعوث بالكتاب والحِكمه ، والمجموع له بيْن مزية السبق ومزية التتمه ؛ شهادة تستحفظ بقاع [٩٢] الأرض أرفاقا ، فلا تخشى معها القلوب ، وقد حصل منها الغرض المطلوب ، شكاًّ ولا نِفاقا ؛ ونصلى على النبى الكريم ، المبعوث بالخلق العظيم ؛ صلاة نَحُل بها من عُقْلة الذكر وَثاقا ، ونؤكد بها القَبول إذا عارض العمل المقبول ميثاقا ؛ ونَرْضَى عن آل محمد وصحبه ، وعشيرته وحزبه ، المختصين بقربه ، الفائزين بالرضا من ربه ؛ أكرم الناس أعراقا ، وأعظمهم من خشية الله إطراقا ، وأبهرهم فى مقامات الهداية إشراقا ؛ ونستوهب منه التأييد والنصر ، والفتح الذى تفوت عجائبه الحصْر ، والمَنْح الذى لا تعرف صَلاةُ صِلاتِه القَصْر ؛ لهذه الخلافة الغالبية ، التى أطبقت على الإغضاء أحداقا ، وأظهرت من الحلم لما كان من مكنون العلم صْداقا ؛ ونبتهل إلى الله فى دوام أيامها ، وإعلاء أعلامها ، وإمضاء ذابلها المرهوب وحُسامها ؛ حتى يتنفس الإسلام خِناقا ، وتسير بها الرِّفاق ، وقد تهادتها الآفاق ، وَخْداً وإعناقا ، وتخضع لها الجبابرة ، والملوك القياصرة ، رقابا وأعناقا ؛ ونمد إليه

(١) فى ط : « الذى » .
(٢) فى ط : « المترنح » .
(٣) هذه العبارة ، من قوله : « فلا لاقى » إلى قوله : « إخفاقا » ساقطة فى ت .

يَدَ الافتقار ، ونبسط كف الضراعة والاضطرار ؛ فى كفّ الفتن ، عن هذا الوطن ؛ وكف الكفار ، عن هذه الديار ؛ وتيسير الفرج القريب ، لهذا القطر الغريب ؛ وتسهيل الصعب العسير ، لهذا الصقع النائى عن الولى والنصير ؛ فيجمع بين[1] القلوب النافره ، والنفوس المتنافره ، افتراقا ؛ ويجعل دم العُداة بسيوف الحُماة الكماة مُرَاقا ؛ ويُتحف بأنبائه المعجبه ، وأخباره المغربة المطربة ، شاما وعراقا .

أما بعد ، فإن الله على كل شىء قدير ، وإنه بعباده لخبير بصير ، وهو لمن أهَلّ نيته ، وأخلص طويَّتــه ، نعم المولى ونعم النصير ؛ بيده الرفع والخفض ، والبسط والقبض ؛ والرشْدُ والغى ، والنشر والطىّ ؛ والمنح والمنع ، والضر والنفع ؛ والبطء والعَجَل ، والرزق والأجَل ؛ والمَسَرَّة والمَساءه ، والإحسان والإساءه ؛ [٩٣] والإدراك والفَوْت ، والحياة والموت ؛ فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، فهو الفاعل فى[2] الحقيقة ، وتعالى الله عما يقول الآفكون ، وهو الكفيل بأن يُظْهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون ؛ وإن فى أحوال الوقت الداهية ، لذِكرَى لمن كان له قلب أو ألْقى السمع وهو شهيد ، وعِبْرةً لمن تفهم قوله تعالى : إن الله يفعل ما يشاء ، وإن الله يحكم ما يريد ؛ فبينما الدُّسُوت عامره ، والوُلاة آمره ؛ والفئة مجموعه ، والدعوة مسموعه ؛ والإمرة مُطاعه ، والأجوبة سمعا وطاعه ؛ إذا بالنعمة قد كُفِرت ، والذِّمة قد خُفِرَت » .

ثم قال رحمه الله :

« والسعيد من اتعظ بغيره ، ولا يزيد المؤمنَ عمرُه إلاَّ خيراً ، جعلنا الله ممن قضى بخيره ؛ وبينما الفُرْقة حاصله ، والقطيعة فاصله ، والمَضرّة واصله ؛ والحبل

(١) فى ت : « به من » .
(٢) فى ط : « على » .

فى انبتات ، والوطن فى شَتَات ، والخلاف يمنع رَعْى مَتَات[١] ، والقلوب شتّى من قوم أشتات ؛ والطاغية يتمطّى لقصْم الوَطن وقَضْمه ، ويلْحَظه لَحْظَ الخائف على هَضْمه والأخْذ بكَظْمه ، ويتوقع الحسرة[٢] إن يأذنِ اللهُ بجمع شمله ونَظْمه ، على رَغْم الشـيطان ورغمه ؛ إذا بالقلوب قد ائتلفت ، والمتنافرة قد اجتمعت بعدما اختلفت ، والأفئدة بالألفة قد اقتربت إلى الله وازدلفت ، والمتضرّعة إلى الله قد ابتهلت ، فى إصلاح الحالة التى سلفت ؛ فألقت الحربُ أوزارها ، وأَذْنت الفِرْقة النافرة مَزَارها ، وجَلت الألفة الدينية أنوارَها ، وأوضحت العِصمة الشرعية آثارها ، ورَفَعَت الوحشة الناشبةُ أظفارُها أعذارَها ، وأرضت الخِلافة الفُلانية[٣] أنصارَها ، وغَضَّت الفِئَةُ المتعرِّضة[٤] أبصارها ، وأصلح الله أسرارها ؛ فتجمّعت الأوطان بالطاعه ، والتَزَمتْ نصيحةَ الدين بأقصى الأُستطاعه ، وتسابقت إلى لزوم السنة والجماعه ، وألقت إلى الإمامة[٥] الفُلانية يدَ التسليم والضراعه ؛ فتقبُّلَتْ فَيْئاتُهم ، وأُحْمِدَت جَيْئاتهم ؛ وأُسْعِدَت آمالُهم ، وارتُضِيَت أعمالهم ؛ وكُمِّلَت[٦] [٩٤] مَطالبهم ، وتُمِّمَتْ مآربهم ؛ وقُضِيت حاجاتهم ، واسْتُمِعت مناجاتهم ؛ وألْسِنَتُهُمْ بالدعاء قد انطلقت ، ووِجهتهم فى الخُلوص قد صَدَقت ، وقلوبهم على جَمْع الكلمة قد اتَّفقت ، وأَكُفُّهُمْ بهذه الإمامة الفلانيـة قد اعتلقت ، وكانت الإدالةُ فى الوقت على عدوِّ الدين قد ظهرت وبَرَقت » .

(١) المتات (بفتح الميم) : ما يتوسل به من حرمة أو قرابة أو نحو ذلك .
(٢) فى ت : « المسرة » .
(٣) يريد خلافة الغالب بالله صاحب غرناطة ، وقد سبق التصريح بذلك .
(٤) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « المعترضة » .
(٥) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « الأمانة » .
(٦) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « وقلت » .

إلى أن قال رحمه الله تعالى :

[وكفَّتْ(١) ، بقدرة ربه ، القدرةُ القاهره(٢) ، والعِزة الباهِره ، من عدوان الطاغية غوائل ، بإعزاز دين الله الموعود بظهوره على الدين كله فواتح وأوائل . ومعلوم بالضرورة أن الله لطيف بعباده حسبما شَهِد بذلك برهان الوجود ، وإن تَعُدّوا نعمة الله لا تحصوها دليل على ما سَوَّغَ الكرمُ والجود ؛ وإن من أعظم نعمه التى يُعْجَزُ عن أداء شكرها ، وإن طالت آماد الأعمار ، ويُتناغَى فى الثناء عليه فى أمرها ، فلا يبلغون من ذلك مِعشار المِعشار ، وتتجارى الألسنة والأقلام فى تقرير وصفها ، فلا تصل من ذلك إلى حد يُقْنع ولا إلى مِقدار ؛ وفى مثلها قال الله تعالى](٣) : « واذكروا نِعْمة الله عليكم إذْ كنتم أعداء فألّفَ بين قلوبكم فأصْبحتم بنعمته إخوانا وكُنتم على شَفَا حُفْرة من النار » . وما ذلك إلا مِنّةٌ قدرُها عظيم ، وخطرُها جسيم ، وصِراط العدل بها مستقيم ، وبها أُمتنّ الله فى قوله : « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله » إلى : « حكيم » . فهل يُستطاع شكرُ النعمة التى لا يكون إنفاق الأرض جميعا لها قيمه ، أو يختلف اثنان بوجه أو حال فى كون هذه النعمة عظيمه ، أو يتمارى أحدٌ فى كون جمع الكلمة فى هذا الوطن الغريب مِنَّة كبيرة ومنحة كريمه !

ومن استقرأ التواريخ المنصوصه ، وأخبار الملوك المقصوصه ؛ علم أن النصارى دمرهم الله لم يدركوا فى المسلمين ثارا ، ولم يرفعوا(٤) عن أنفسهم عارا » .

---

(١) كفت : صرفت ومنعت .

(٢) فى نفح الطيب : « وكفت القدرة القاهرة » .

(٣) ما بين القوسين زيادة عن ت .

(٤) فيما مر من هذا الجزء (ص ٥٠) : « ولم يرحضوا » .

قال جامع الموضوع وفقه الله :

قد قدَّمتُ هذا من كلام الرئيس ابن عاصم ، وهو قوله : «ومن استقرأ التواريخ المنصوصة » فراجعه فيما سبق ، إلى قوله هناك : « وروِيّة وارتجال » .

ثم قال هنا بإثره ما نصه :

« إلى أن استقلَّتْ هذه الدولة الفلانية على قواعدها ، واستقرت بأحلامها الراجحه ، وأعلامها الشامخه ؛ واستمرت على قوانين من السياسة كانت ضابطةً نَشْر المملكة عن الافتراق ، واستظهرت أبناؤها الغرُّ من الوفاء بشِيَمٍ اعتلقت بها أتم الاعتلاق ؛ فحفظ الله الدولة الفلانية إلا فى النُّدْره ، ووقاها من ذلك الأمر الصعب بوقاية من الاِكتساب ووقاية من القدره ؛ وتطاولت الأيام ما بين مهادنة ومقاطعة » . [٩٥]

وقال جامع الموضوع وفقه الله : راجع تمام هذا الكلام فيما قدمناه إلى قوله هنالك : « اللهم احفظ علينا العقل والدين ، واسلك بنا سبيل المهتدين » .

وقال هنا بإثره ما نصه :

« وإنما النعمة التى لا يُقْدَر قَدْرُها ، ولا يُوَفَّى شُكرها ؛ هى التى تكفّلَتْ بتَبْيينها تكييفات [الأقدار ، وانجلت عن بَيانها تدبيرات الفاعل المختار ؛ فجمع الله بها القلوب ، وهيّأ] [1] الغرض المطلوب ؛ وتتابعت بيعاتُ البلاد ، وتوافقت أهواء العباد ؛ وانتظم الملك جسما واحدا له روح طاهر ، واستقل الإسلام رَسْما ثابتا حكْمُه نصّ وعدْلُه ظاهر ؛ وهدى الله المسلمين مع جمع الكلمة إلى القصد الشرعىّ ، ووفّقهم إلى القيام بحكمه المحتوم وحقّه المرعىّ ؛ فاتّخاذُ السلطان فى [مثل] [1]

(١) زيادة عن ت .

هذه الأوطان واجب قياسا وسماعا ، وتعذُّر الخلافة فى مثل هذه المسافة غير جائز إجماعا .

أيها الملأ المشتمل على الشرفاء الذين بتقديمهم [يُسْتَنْجَز من البركة موعودُها ، والعلماء الذين هم حَفَظة الشريعة الحنيفيّة(١) أن تُتَعَدَّى حدودُها ؛ والأشياخ الذين بجهادهم استقرّ واجبها(٢) ، واستقام واجبها ، واستند عمودها ، والقواد الذين بحمايتهم](٣) تقام أحكامها ، وتُحاط أعلامُها ، وتُوَفَّى عهودُها ؛ والفُرسان الذين هم حُماتُها وأنجادُها ، وأنصارُها وجنودها ؛ والخاصّة الذين بهم يرجح عملها ، وينجَح أمَلُها ، ويتم مقصودُها :

تعلمون حقّا أن هذا الوطن الفلانىّ كان قد تعَيَّن(٤) للهلاك ، بسبب هذا الخلاف ، وتوقّعت القلوب المُشْفِقة حُدوثَ الفاقِرة بسبب هذا الاختلاف ؛ وأن الشارع صلواتُ الله وسلامه عليه يَمْنع من كل ما يؤدّى إلى الفُرْقة بأتمّ الوجوه ، ويؤكّد الترغيب والترهيب بكل ما يخافُه المؤمن ويرجوه ؛ وأن الفقه(٥) المذهبى ، إذا [٩٦] حصلت البيعة فى الأعناق ، وتحلت بها تَحَلِّىَ الحَمام بالأطواق ، معروف ومعلوم ؛ وأن اشتداده فى سدّ باب الافتراق ، على العموم والإطلاق ، لازم محتوم ؛ والأقدار الإلهية قد هيّأت قصد الألْفه ، بلا كُلْفه ؛ ويسّرت سبب الاتفاق ، بحكم الوِفاق ؛ فاُقبلوها نعمة مُسْداه ، وتُحفة مُهداه ؛ وشُدُّوا عليها أيدى الضِّنَّه ، واعلموا ما فيها لله عليكم من المنّه ؛ وتعاقدوا على ألّا تُبْقوا من الخلاف أثرا ، واتفقوا على القصد الذى يخلّصكم عند الله سمعاً ونظرا ؛ وفى هذا التيسير الذى ساعدَتْ به الألطافُ الخفيّه ، وساعفت به من قبل الربّ الصنائعُ الحفيه ؛ ما يتأكّد

(١) فى ت : « حفظ الشريعة الحنفية » . وظاهر أنه محرف عما أثبتناه .
(٢) استقر واجبها : سكن روعها بعد اضطراب .
(٣) زيادة عن ت .
(٤) تعين ، أى تهلهل وتمزق ؛ مأخوذ من تعين السقاء ، وذلك إذا بلى ورقت منه مواضع .
(٥) فى ط : « العقد » .

به الاعتبار ، ويرشد إلى أنه أراد الله نفوذه[١] ، وربك يخلق ما يشاء ويختار .
ومما يستكمل هذا القصد الذى أشرنا إليه ويستوفيه ، قول تاج الدين رحمة الله عليه : ما ترك من الجهل شيئاً مَنْ أراد أن يُظْهِرَ فى الوجود غير ما أراد الله أن يُظْهِر فيه .

وفَرْض على كل إنسان فى نفسه ما طلبه [به][٢] الشارع ، وعَذُبت فيه بالتفويض لحكم الله[٣] المَشارع . فالواجب علينا أن نجتمع ونأتلف ، ونتفق ولا نختلف ؛ ونعتمد صريح الفقه أخذاً وتركا ، ونتبع صحيح النقل الذى لا يدع رَيْباً ولا شكا ؛ ونسأل من الله الهداية إلى سبيل السلف الذين سَبَقوا ، ونعزم العزم على أمر الله فى قوله : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا » .

وإن أولى الناس فى ذلك بإرهاف العزيمه ، وتوخّى السبل المستقيمه ؛ والقيام بمَضْمون هذا الرسم المستقلّ ، والوفاء بتكميل قَصْد الكاتب فيه والمُمْل ؛ لَخَواصّ الدولة الفلانية الذين لحقهم التمحيصُ والاختبار ، وتخوّلتهم بأبلغ الموعظة الأَقْضيةُ والأقدار ؛ وهم الذين ربحت منهم فى هذه السوق التجاره ، والمقصودون بالخطاب من باب إياكِ أعنى واسمعى يا جاره ؛ وهم الممنونُ عليهم باسترجاع المَغصوب المُستَحَقّ ، والواقفون من انكسار القلوب ، والتنصّل من الذنوب ، موقفَ الأَوْلى به والأحق ؛ والمَعْنِيّون بقوله : « ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نَزَل من الحق » . ويختص منهم عماد الدوله ، وعميد الجُمله ، بالحظ الأوفر ، مما يتضمّنه هذا التأنيب ؛ ويستمنح من الله عَقِب التذكره ، بهذه الموعظه : « وما يتذكر إلاّ من يُنيب » . [٩٧]

(١) فى ت : « إنفاذ نفوذه » .
(٢) زيادة عن ت .
(٣) فى ت : « لحكمه » .

فإنا إذا نظرنا إلى ما كان قد طَرَق من الابتلاء ، وشاهدنا ما كان مُعَرَّضا للوقوع من البلاء ؛ وراجعنا البصيرة فى النعم التى كنا عنها مَسْلو بين [١] ، والتُّربة [٢] التى كنّا عليها مغلو بين ، والأبواب التى كنا عنها مَحْجو بين ، والشِّرْذمة التى كنا بها مَرْبو بين ، [والأنفال] [٣] التى كنّا فى عَدد مَنْ يُحيي رسومَها مَحْسو بين ؛ وقد سلّط الله علينا كثيرا من الظَّلَمة الذين أعنّاهم ، فعنــد ذلك لَعنَّاهم ، وأهاننا الذين كُنا أكرمناهم ، جزاء لمـا احترمناهم ؛ فنَسُونا ، أحوج ما كنا إلى أن يذكرونا ، وخذلونا ، أفقرَ ما كنا إلى أن ينصرونا ، وأسلمونا ، أشد ما كنا فاقة إلى أن يُنجدونا ، وتركونا ، أعظَم ما كنّا حاجةً إلى أن يُسْعِدونا ؛ وخانونا ، أظهر ما كنا اضطرارا إلى وفائهم ، وظاهروا علينا ، أتم ما كنا افتقارا إلى غَنائهم ؛ فلا شك أن المؤاخذة كانت بسبب تلك الذنوب ، وأن الجناية هى التى أوجبت ما طَرَقَنا من الخطوب ؛ فأزف العذابُ ، وعاد من أعدى الأعادى الأحباب ، وتبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا وتقطعت بهم الأسباب ؛ وكادت العقوبة العظيمة أن تَلْحَق ، والأخذةُ الربانية أن تَمْحَق ؛ لولا أن الله تداركَنا بالعفو ، وتجاوز عن الهَفْو ؛ وأنالكم من الإدالة ما كنتم تؤمِّلون ، واستخلفكم فى الأرض لينظر كيف تعملون . فلنجعل ما وعظنا الله به من تلك الأزمات نُصْب الأعين ، ولنتخذ حمده على ما منحنا من الإنالة [٤] هِجِّير الألسُن [٥] ؛ ولنعلم أن ذلك التمحيص إنما كان تنبيهاً من الله على ما عَطّلْنا من حُدوده ، وإيقاظاً من الغفلة عن القيام بحقوقه ، والوفاء بعهوده ؛ ولنتحقق أن ما مَنّ الله به من جَبْر الأحوال ، وخَلْف

[٩٨]

(١) فى ط : « مسئولين » .
(٢) فى ط : « الرتبة » .
(٣) زيادة عن ت :
(٤) فى ط : « الإقالة » .
(٥) هجير الألسن ، أى دأبها وشأنها .

الأموال ؛ واستقبال العز غَضًّا جديدا ، وصرف الهُون وقد كان عذاباً شديدا ؛ إنما هو إبلاغ فى الحجة علينا ، وإعذار بالموعظة إلينا ؛ وربما عاهَدْنا الله لئن آتانا من فضله لنصَّدَّقَنّ ولنكوننّ من الصالحين ، ولننزعن عما ارتكبناه من جرائر العاصين وجرائم الطالحين ؛ فالوفاءَ الوفاءَ حتما [إن أردنا] [١] أن نكون من المفلحين . وقلّما[٢] أزِف العذاب فرُفع إلا عمن كان من المصلحين ، « فلولا كانت قرية آمنت » إلى قوله : « إلى حين » ؛ فلنَقْدُر [قدر] [١] هذا التدارك ، الذى أخذ بأيدينا من مَهاوِى الانتقام ، ولنتأمّل موقع هذا البَلاء الذى أحلّنا من تجديد النعمة بأسنى مَقام ؛ ولنحذر نسيان ما ذُكِّرنا به ، فلم نذكر تلك الشدائد بل نسيناها ، ولا نفرح بما أوتينا [فرح] [١] المغرور الذى لايتراجع ولا يتناهى ؛ فإن فى ذلك أمَلَ الشيطان وسؤله ، ولَعْنَ الله ومَقْتَه ، قال الله تعالى : « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء » إلى قوله : « بغتة » .

اللهم هل بلّغت ، وبالغت فى النصح وأبلغت ، اللهم فاشهد ، اللهم فاشهد .

[٩٩] و« يا قومِ إن كان كَبُر عليكم مَقامى وتذكيرى بآيات اللهِ فعلى الله توكلت » ، وإليه أبرأ من حولى وتقصيرى عما فيه قصَّرت ، وعما عنه نَكَلْت » .

ثم قال رحمه الله :

« وإن مولانا السلطان الملك الفاضل التالى الذاكر ، العفيف الطاهر ، المسترجع الصابر ، المجاهد المصابر ، المرابط المُشاغر[٣] ؛ أمير المسلمين ابن نصر الخزرجىّ نسبا ، السَّعْدى[٤] منشأ ، النصْرىّ جدا وأبا ؛ أيده الله على أعداء الدين ، وجعله

(١) زيادة عن ت .
(٢) فى ط : « وربما » .
(٣) المشاغر ، من الشغار ، وهو (هنا) : المعاونة فى الحرب .
(٤) السعدى : نسبة إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وإليه ينتهى نسب بنى الأحمر ملوك غرناطة .

من الأئِمة المهتدين ؛ ممن إذا جُنِى عليه غَفر ، لعِلْمنا به أنه حليم والله آخذ بيده كلما عَثَر ؛ فأرشدَنا بذلك إلى أنه كريم ؛ وممّن تطرُقه الخطوب ، وهو بالألطاف مصحوب ، وتُحَدِّق إليه النوائب وهو من نظرها الشَّزْر محجوب ؛ وممن جمع له الناس على أن يخشاهم فزاده إيمانا ، وقال : حسبى الله ونعم الوكيل ، فانقلب بفضل من الله ونعمه ، وممن صبر واسترجع فى نقص الأموال والأنفس والثمرات ، [فبُشِّر] (١) بصلوات من ربه ورحمه ؛ فتمالأت على أذيّته أصناف من الناس فى مرّات متعدده ، وآناء من الدهر متجدده ؛ فأتعس الله جدودهم ، وأضرع إليه خدودهم ، وأرغم بحَوْله وقوّته أنوفهم ، وردّ عنه بسيف (٢) من الأقدار رماحَهم وسيوفهم ، وأدنَى لهم بأسباب مختلفة الأنواع حُتُوفهم : فمِنْ آمنٍ أُخِذ من مَأمنه الذى كان يستند إليه ، ومِنْ خائف قد أدهشه الرَّوْع فهو يحسب كل صيحة عليه ؛ فكأنّ ألسنة الأقدار تَنْهاهم عن منازعة الإراده ، وكأنّ واعظ الاعتبار يحذّرهم من شقائهم الكفيل له بالسعاده ؛ وكأن شاهد الحال يقول هذه إرادة الله قضاها ، وسنّته السابقة أنفذها وأمضاها ؛ فَمَنِ المنازعُ فيما حكم الله به وقضى ، [١٠٠] ومَنِ الساخط فى المحل الذى يطلب فيه من الله الرضا ؟ ولو كان استيلاؤه على المُلْك بقوة عصبيّه ، و إهلاك مناوئه عن طبيعة غضبيه ؛ لارتاب فى ذلك الناظر ، ووجد السبيلَ إلى الاحتجاج المُناظِر ؛ ولكنه طالما عُورض فى المُلْك فكَبَا معارضه لِفيه ، وأُتيحت له النُّصْرة من محلّ لم يحسبها فيه ؛ وشَدَّ ما احتال على نصرته غير واحد ، فانعكست عليه حيلته ؛ وتوسَّل إلى مكروهه ، فطاحت فى قَليب الانقلاب عليه وسيلته ؛ وبُغِى عليه غيرَ ما مَرّة فنصره الله على من بَغى عليه ،

---

(١) زيادة عن ت .

(٢) فى ط : « بدفاع » .

وابتغى بالسوء فردّه الله على من سَعَى[1] به إليه ؛ ولعل ذلك لغيب عن العِيان مكتوم ، وحُكم من الحكيم العليم محتوم ؛ أو لأثر من الاختصاص قد علمه الله وليس لنا بمعلوم ، أو لِأمر قد تقاصرت عنه مدارك العقول ، وكَلَّت دونه رواجح الحُلوم ؛ ولهذه المعانى المقرّره ، والمقاصد المحرّره ، والمذاهب المفسّره ، والفوائد المسطّره ، وغرائب أحاديثها المشتهره ، خصّ الملأُ المقصود فيه بالتذكره ، المعتمد منه بالإيقاظ والتبصره ؛ من أعضاد الدوله ، وسيوف الصّوله ؛ وأولياء الخُلوص الزكى الشيمه ، ومَوالى النعمة الفُلانية ، وهم الذين خولتهم موعظتُه الحسنه ، وأعجبتهم أغراضه المتعدده ، ومقاصده المستحسنه ؛ وعلموا أنه الحق ، فسألوا من الله التوفيق إليه ، والإرشاد إلى الاتصاف به والعمل عليه ، والهِداية إلى التماس رضا الله لديه ؛ ووقفوا على ما هو لهم فى هذا الكتاب منصوص ، وأن سلطانهم بمزية الدفاع عنه مخصوص ، وأنه قد تطابقت على إيثاره نصوص ، واستوى[2] فى تسليم الطاعة له عموم وخُصوص ؛ فجدّدوا له البيعةَ الوثيقة ، على ما أوجب فى ذلك الحكم المشروع ، [١٠١] وأعطوْه على ذلك العهدَ الأكيد حسْبما اتفقت عليه أصولٌ وفروع ؛ وعقدوا له مضمونها عقدا صحيحا ، وعُهدوا[3] على ما تقتضيه السُّنة صريحا ؛ وشَهدوا له فيه على أنفسهم أنهم بالوفاء بها قائمون ، ولشروطها المرعية حافظون ، وعلى أحكامها الشرعية محافظون ؛ وعلى ما بُويع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من السمع والطاعه ، ولزوم السنة والجماعه ، وإمحاض النصيحة جُهْد الاستطاعه ؛ فأيديهم فى السّلم والحرب مصروفة[4] فى مرضاته ، ونيتهم صادقة فى مسنونات الوفاء ومفترضاته ؛ ولقد شاهدوا الفرقة وما جَنَتْه ، والفتنة وما فتنته ، والألفة وما سنَّته ، والهدنة

(١) فى ت : « وسعى » .

(٢) فى ت : « واستولى فى تسليم » . وفى ط : « واستو فى تسليم » . وظاهر أن كليهما محرف عما أثبتناه .

(٣) فى ط : « وعهدا » .

(٤) فى ت : « معروفة » .

وما قرّبت من إصلاح وأدْنته ؛ فليغتبطوا بها عهدا كريما ، وعقدا قد تضمّن فضلا [عظيما بل] (١) عميما ، واستلزم إنعاما جسيما ، وليوفوا بها الوفاء الذى يُولِيهم بها نعيما مقيما ، ويدفع عنهم عذابا أليما ، فإنه عز وجل يقول : « فمن نكث » إلى قوله : «عظيما» . وقد بسطوا أكُفَّهم إلى الله ضارعين ، وفى رحمته طامعين ، ولعظمته خاضعين ، ومن هيبته خاشعين ، ولخليفته طائعين ، وفى الخيرات مسارعين ؛ يَدْعونه رَغَبا وَرهَبا مستنزلين لرحمته بالإخلاص والإنابه ، واقفين على قدم الرجاء بباب الذى أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابه ؛ ويسألونه خير ماقدَّره وقضاه ، والسلوك على ما فيه رضاه .

اللّهم بابَك قَصَدْنا ، وقَبولَك أردنا ، وعلى فضلك اعتمدنا ، وإلى عِزّتك استندنا ، وفى مَرْضاتك اجتهدنا ، وبهدايتك استرشدنا ؛ فلا تَكِلْنا إلى أنفسنا طَرْفة عين ، وأصلح لنا شأننا كلّه ؛ اللهم إنّا بك مستنصرون ، وبعزّتك مستظهرون ، ولغناك مفتقرون ، ومن تقصيرنا مستعيذون ، ومن ذنوبنا مستغفرون ، ولشامل (٢) عَفْوك منتظرون ، وفى خفىّ ألطافك مستبصرون ، ولعظيم انتقامك مستحضرون ، ولعميم صَفْحك مستشعرون ؛ فآتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. [١٠٢]

اللهم انصر من بايعناه سلطانا ، ومهّد به بلاداً وأوطانا ، وأرغِم بتوخّيه للحق طاغيةً وشيطانا ، وآتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رَشَداً . اللهم اعْمُر بالمسَرّة ناديه ، وكافِ (٣) عنّا أياديه ، واكبِت اللهم أعاديه ؛ وكن لنا وليّا ونصيرا ، فأنت نعم المولى ونعم النصير . وصلّ اللهم على سيدنا ومولانا محمد النبى الأمى ، القرشى الهاشمى ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ، فأنت اللطيف وأنت الخبير » .

(١) زيادة عن ت .
(٢) فى ت : « لشمول » .
(٣) الأصل : كافئ . سهل الهمزة ، ثم عامل الفعل معاملة الناقص .

انتهى ما أردت نقله من جنة الرِّضَا للرئيس أبى يحيى بن عاصم رحمة الله عليه .

شىء من كلا
ابن عاصم عن
ابن فتوح

ورأيت بخط الوادى آشى ناقلا من كتابه المسمى «بالروض الأريض» مانصه :

ابن فتوح إبراهيم بن أحمد بن فتوح العقيلى ، يكنى أبا إسحاق ، العالم المتفنّن ، صاحبنا ، محقِّقٌ نَظَّار ، وأستاذٌ فوائدُ تدريسِه لُجَيْن ونُضار ؛ كلا بل جواهر ويواقيت ، ومَناسك هُدًى لها من السعادة مواقيت ؛ فحسب الطالب الموثوق بفهمه ، المصروف للتحصيل مطالع مواقع سهمه [(١)] ، أن يلازم حَلْقَة تعليمه ، وأن يشُدَّ يد الضِّنة بما يلقى من محصول تفهيمه ؛ فإ كسير الإفادة ، إنما حصّله الوافدون ، من جابر [(٢)] صنعته ؛ وكيمياء السعادة ، إنما يلقاها [(٣)] الظافرون فى نَضْرة روضه المُخْضَلّ ونَبْعته ؛ وقرض الشعر مما يمكن دخوله تحت فرعه ، ويندرج تحت قُدْرة تصرفه بجنسه ونوعه ؛ إلا أنه لِمَا يَصْدُرُ منه عن قريحته كاتم ، وسالك من البخل به على طرف النقيض مما سلكه حاتم .

فمما عَلِق بحفظى منه خُطبةُ أرجوزةٍ صنَّفها فى النجوم :

[١٠٣]
سبحان رافع السماء سَقْفا ناصبها دلالةً لا تخفَى
مُبدعها فلا ترى فُروجا مُودعها الأفلاكَ والبروجا

انتهى . وإنما ذكرته لتعلم اصطلاحه فى كتاب الروض الأريض . وقد نقلت كلاماً آخر منه فيما سبق فراجعه ؛ ولو تتبعتُ ما حصل لدىّ من نظمه ونثره لطال الكتاب جدا .

---

(١) كذا وردت هذه العبارة فى ط . وفى ت : « المصروف للتحصيل مطامع...الخ » . وكلتاهما غامضة .

(٢) يورى باسم جابر بن حيان الصوفى من كبار الكيميائيين وتلميذ خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان .

(٣) فى ط : « يتلقفها » .

منشور سلطانى ولى ابن عاصم القضاء

وقد وقفت بتلمسان المحروسة(١) على ظهير منشور سلطانى أصدر للرئيس أبى يحيى بن عاصم المذكور، بتقديمه للنظر فى أمور القضاء وغيره، ونصه :

هذا ظهير كريم إليه أُنهيت(٢) الظهائر، شرفاً عليّا؛ وبه تقررت المآثر، برهاناً جليّا؛ وراقت المفاخر، قلائدَ وحُليّا؛ وتميّزت الأكابر، الذين افتخرت بهم الأقلام والمحابر، اختصاصاً مولويّا(٣). فهو وإن تكاثرت المرسومات وتعددت، وتوالت المنشورات وتجددت، أكبرُ مرسوم تَمّم فى الاعتقاد نظراً خطيرا، وأحكم فى التفويض أمراً كبيرا، وأبرم فى الأُستخلاص(٤) عزماً أبيّا؛ اعتمد بمسطوره العزيز، واختص بمنشوره الذى تلقاه اليمين بالتعزيز، مَنْ لم يزل بالتعظيم حقيقا، وبالإكبار خَليقا، وبالإجلال حريّا؛ فهو شهير لم يزل فى الشهرة سابقا، هادٍ لم يزل بالهدى ناطقا، بليغ لم يزل بالبلاغة دريّا؛ عظيم لم يزل فى النفوس معظّما، عَلَم(٥) لم يزل فى الأعلام مقدما، كريم لم يزل فى الكرام سنيّا؛ اشتملت منه محافل الملك على [العِقد](٦) الثمين، وحلّت به المشورة فى الكَنَف المحوط والحَرَم الأمين، فكان فى مِشكاة الأمور هاديا، وفى ميدان المآثر(٧) جَرِيّا؛ فإلى مقاماته تبلغ مقامات الإخلاص، وإلى مرتبته تنتهى مراتب الاختصاص؛ فيمن حاز فضلا، وزين فعْلا(٨)، وشرّف نديّا؛ واستكمل هِمما، واستعمل قلما، واستخدم مَشْرفيّا؛ فلله! ما أعلى قدرَ هذا الشرف، الجامع بين المُتْلَد والمُطْرَف، السابق فى الفضل أمداً قصيّا؛ الحالّ من [١٠٤]

(١) الكلام من ابتداء هذه الكلمة إلى آخر نص الظهير ساقط من ت .
(٢) فى نفح الطيب (ج ٣ ص ٤٨٩ طبعة الأزهرية) : « انتهت » .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « قوليا » .
(٤) فى نفح الطيب : « الاختصاص » .
(٥) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « عالم » .
(٦) زيادة عن نفح الطيب .
(٧) فى نفح الطيب : « المراشد » .
(٨) فى نفح الطيب : « حاز خصلا ، وزين حفلا » .

الاصطفاء مظهرا ، الفارع من العَلاء مِنبرا ، الصاعد من العزّ كرسيّا ؛ حاز الفضل إرثاً وتعصيبا ، واستوفى الكمال حظا ونصيبا ؛ ثناء أَرَجُه كالروض لو لم يكن الروض ذابلا ، وهدياً نوره كالبدر لو لم يكن البدر آفلا ، ومجداً علوه كالسُّها لو لم يكن السُّها خفيا ؛ فما أشرفَ الملك الذى اصطفاه ، وكمّل له حق التقريب ووفّاه ، وأحلّه قرارة التمكين ، ومَنَّ باختصاصه بالمكان المكين ، فسبق فى ميدان التفويض وسَما ، ورأى من الأنظار الحميدة ما رأى ، صادعاً بالحق إماماً عَلَما ، موضحاً من الدين نَهْجاً أمَمًا ، هادياً من الواجب صراطاً سويّا ؛ بانياً للمجد صرحاً مُشيَّدا ، مشهِراً للعدل قولا مؤيَّدا ، مُبرماً للخير سبباً قويّا ؛ فالله تعالى يصل لمقام هذا[1] الملك الذى أطلع فى سمائه بدراً دونه البدور ، وصدراً تلوذ به الصدور ، سعداً لا تماطله[2] الأيام فى تقاضيه ، ونصراً يَمْضى به نَصْل الجهاد فلا يزال ماضيه ، على الفتح مَبْنيّا ؛ ويُوالى له عزّا يذود عن حرم الدين ، ويَمنحه تأييداً يُصبح فى أعناق الكفر حديث سيفه قَطْعيّا ؛ أمر به مرسوماً عزيزاً لا تبلغ المرسومات إلى مداه ، ولا تُبدى بآثار الاختصاص مثل ما أبداه ، عبدُ الله أمير المسلمين محمد الغالب بالله ، ابن الأمير المقدس فلان أيّدالله تعالى مقامه ، ونصر أعلامه ، وشكر إنعامه ، وبسّر مَرامه ؛ لإمام الأئمة ، وعلم الأعلام ، وعماد ذوى العقول والأحلام ، وبَرَكة حملة السيوف والأقلام ، وقُدوة رجال الدين وعلماء الإسلام ؛ الشيخ الفقيه أبى يحيى ابن كبير العلماء ، شهير العظماء ؛ حجة الأكابر والأعيان ، مصباح البلاغة والبيان ؛ قاضى القضاة وإمامهم ، أوحد الجِلّة وطَوْد شَمامهم ، الشيخ الفقيه أبى بكر بن عاصم ، أبقاه الله تعالى ؛ ومناطق الشكر له فصيحة اللسان ، ومواهب الملك به معهودة الإحسان ،

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « يصل لهذا » .
(٢) فى نفح الطيب : « لا تملّه » .

وقلائد الأيادى منه مُقلَّدة(١) بجيد كل إنسان ؛ قد تقرر والمفاخر لا تنسب إلا لبنيها ، والفضائل لا تعتبر إلا بمن يشيّد أركانها ويبنيها : والكمال لا يصفّى [١٠٥] شِربه ، إلا لمن يُؤَمَّن سِرْبه ؛ وإن هذا العلَم الكبير . الذى لا يفى بوصفه التعبير ؛ علَم بآثاره يقتدى ، وبأنظاره يهتدى ؛ وبإشارته يُستشهد ، وبإرادته يسترشد ؛ إذ لا أمَد علوّ إلا وقد تخطاه ، ولا مَرْكب فضل إلا وقد تمطّاه ؛ ولا شارقة هَدْى إلا وقد جَلّاها ، ولا لَبّة نحر إلا وقد حَلّاها ؛ ولا نعمة إلا وقد أسداها ، ولا سُومة(٢) إلا وقد أبداها ؛ لما له فى دار الملك من الخصوصية العظمى ، والمكانة التى تسوغ النعمى ؛ والرتب التى تسمو العيون إلى مرتقاها ، وتستقبلها النفوس بالتعظيم وتتلقاها ؛ حيث سر الملك مكتوم ، وقِرطاسه مختوم ، وأمره محتوم ؛ والأقلام قد روّضت الطروسَ وهى ذاويه ، وقسّمت الأرزاق وهى طاويه ؛ شُقت ألسنتها فنطقت ، وقُطّت أرجلها فسبقت ؛ ويبست فأثمرت إنعاما ، ونُكِّست فأظهرت قواما ؛ وخَطّت فأعطت ، وكتبت فوهبت ، ومُشقت فدَفَقت(٣) ، وأَبْرَمت فأنعمت ؛ فكم يسَّرت الجبر ، وعقرت الهزبر ؛ وشنّفت المسامع ، وكيّفت المطامع ؛ وأقلّت فيما ارتفع من المواضع ، وأحلّت لما امتنع من المراضع ؛ فهى تنجز النعم ، وتحجُز النقم ؛ وتبث المذاهب ، وتحث المواهب ؛ وتروض المُرّاد ، وتُنْهض المُوادّ(٤) ؛ وتحرس الأكناف ، وتغرس الأشراف ؛ مُصيخة لنداء هذا العماد الأعلى ، طامحة لمكانه الذى سما واستعلى ؛ فيما يملى عليها من البيان ، الذى يقر له بالتفضيل ، الملك الضِّليل(٥) ؛ ويشهد له بالإحسان ،

(١) فى نفح الطيب : « متقلدة » .

(٢) كذا فى نفح الطيب . والسومة (فى الأصل) : العلامة . وفى الأصلين : « حرفة » .

(٣) فى نفح الطيب : « فرفقت » .

(٤) فى ط ونفح الطيب : « المراد » . ولعلها محرفة عما أثبتناه .

(٥) الملك الضليل : لقب امرئ القيس بن حجر الكندى الشاعر المعروف .

لسان حسّان ؛ و يحكم له ببَرْى القوس ، حبيب بن أَوْس ؛ و يهيم بما مِنَ الأساليب عنده ، شاعر كنده[١] ؛ و يستمطر سحبه الثرّه ، فصيح المعره[٢] ؛ إلى منثور تزيل الفَقْر فِقَره ، وتَدِرّ الرّزق دِرَرُه ؛ لو انْهِى إلى قُسّ إياد لشكر فى الصنيعة أياديَه ، واستمطر سُحبه وغواديَه ؛ أو بلغ إلى سَحْبان لسَحَره ، وما فارقه عشيّته ولا سَحَرَه ؛ ولو رآه الصابى لأبدَى إليه من صَبْوته ما أبدى ؛ أو سمعه ابنُ عبّاد ، [١٠٦] لكان له عبدا ؛ أو بلغ بديعَ الزمان لهجر بدائعه ، واستنزر بضائعه ؛ أو أُتحِف به البُسْتِىُّ لاتخذه بستاناً ، أو عُرِض على عبد الحميد لأحمد من صَوْبه هَتّانا ؛ فأعظِمْ به من عالٍ لا تُرْقَى ثنيَّته ، ولا تُحاز مزيّته ؛ ولا يُرْجَم أفقه ، ولا يُكْتَم حقّه ؛ ولا يَنام له عن[٣] اكتساب الحمد ناظر ، ولا ينقاس به فى الفضل مناظر ؛ وهل تقاس الأجادل بالبُغاث ، أو الحقائق بالأَضْغاث ؛ ألا و إنَّ بيْته هو البيت الذى طلع فى أفقه كلّ كوكب وقّاد ، ممّن رَسَخ[٤] به للعلوم اتقاء واتقاد ، وتراءى[٥] به للمدارك ذكاء وانتقاد ؛ فأعظِمْ بهم أعلاما وصدورا ، وأهلّة وبدورا ؛ خلّدت ذكرَهم الدواوين المسَطَّره ، وسرت فى محامدهم الأنفاسُ المعطره ، إلى أن نشأ فى سمائهم هذا الأَوْحد ، الذى شُهرة فضله لا تُجْحد ؛ فكان قمرَهم الأزهر ، ونيِّرَهم الأظهر ؛ ووسيطةَ عِقْدهم الأنفس ، ونتيجةَ مَجْدهم الأقعس ؛ فأبعد فى المناقب آمادَه ، ورفع الفخر وأقام عِماده ؛ و بنى[٦] على تلك الآساس المَشِيده ، وجرى لإدراك تلك الغايات البعيده ؛ فسبق وجَلّى ، وشَنّف بذكره المسامع وحَلّى ؛ ورفع

(١) شاعر كنده : أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي لأنه ولد بمحلة كندة بالكوفة .
(٢) فصيح المعرة : أبو العلاء المعرى .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « على » .
(٤) فى نفح الطيب : « وشج » .
(٥) فى نفح الطيب : « وترامى » .
(٦) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « وبناه » .

المشكل ببيانه ، وحَرّر الملتبس ببرهانه ؛ إلى أن أحلّه قضاءُ الجماعة ذروةَ أفقه الأصعد ، وبوأه عزيز ذلك المقعد ؛ فشرّف الخُطّه ، وأخذ على الأيدى المشتطه ؛ لا يراقب إلا ربه ، ولا يضمر إلا العدل وحبه ؛ والمجلس السلطانى أعلاه[1] الله تعالى يختصّه بنفسه ، ويفرغ عليه من حُلل الاصطفاء ولِبْسه ؛ ويستمطر فوائده ، ويجرى[2] بأنظاره حقوق الملك وعوائده ؛ فكان بين يديه حكَما مُقْسِطا ، ومقسّما لحظوظ الإنعام مقسِّطا ، إلى أن خصّه بالكتابة المَوْلَويّه ، ورأى له فى ذلك حق الأَولَوِيّه ؛ إذ كان والدُه المقدّس نَعّم الله ثَراه ، ومنحه السعادة فى أُخراه ؛ مُشرِّف ذلك الديوان ، ومُعْلِى ذلك الإيوان ؛ يُحبِّر رقاع[3] المُلْك فتروق ، وتلوح كالشمس عند الشروق ؛ فحلّ ابنُه هذا الكبيرُ شرفا ، الشهير سلَفا ؛ مرتبته التى سَمَت ، وافترّت به عن السعد وابتسمت ؛ فسَحبت به للشرف مَطارف ، [١٠٧] وأحرزت به من الفخر التالد والطارف ؛ فهو اليوم فى وجهها غُرّه ، وفى عَيْنها قُرّه ؛ ولله هو فى مُلاحظة الحقائق ورَعْيها ، وسَمْع الحُجج ووَعْيها ؛ فلقد فضل بذلك أهلَ الاختصاص ، وسَبقهم فى تَبْيين ما يُشكل منه وما يَعتاص ؛ إذ المشكلة معه جليّةُ الأغراض ، والآراء لديه آمنة من مآخذ الاعتراض ؛ فكم رُتبة عمَرها بذويها ، فأكسبها تشريفاً وتَنْويها[4] ؛ وعلى ذلك فأعلام قُضاة الوطن ، ومن عَبَر منهم وقَطن ؛ مع أقدارهم الساميه ، ومعاليهم التى هى للزُّهر مُساميه ؛ إنما رقّتهم[5] وساطتُه التى أحسَنت ، وزيّنت بهم المجالسَ وحَسّنت ؛ فبه أمْضَوْا

(١) فى نفح الطيب : « أسماه » .
(٢) فى نفح الطيب : « يجرب » .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « وقائع » .
(٤) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « تنزيها » .
(٥) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « راقتهم » .

أحكامَهُم ، وأعملوا فى الأباطيل احتكامهم ؛ وكتبوا الرسوم ، وكَبتوا الخصوم ؛ وحلّوا دَسْت القضاء ، وسلّوا سيف المَضاء ؛ وفى زمانه تخرّجوا ، وفى بُستانه تأرّجوا ؛ ومن خُلُقه اكتسبوا ، وإلى طُرقه انتسبوا ؛ وعلى مَوارده حامُوا ، وحول فرائده[1] قاموا ؛ وبتَعْريفه عُرِفوا ، وبتَشْريفه شَرُفوا[2] ؛ وبصِفَاته كَلِفوا ، وبعِرْفانه وقَفوا ؛ فأمِنوا مع انسكاب سُحُب إفادته من الجَدْب ، وقاموا بذلك الغرض بسبب ذلك النَّدْب ؛ وهل العلماء وإن عمّت فوائدهم ، وانتظمت بجياد الأذهان فرائدهم ؛ إلا من أنواره مُستمِدّون ، وإلى الاستفادة من أنظاره ممتدّون ، وببركاته معتدّون ، وبأسبابه مشتدّون ؛ فبه اجتُنِيت من أفنان المنابر ثمراتُهم ، وتأرّجت فى روضات المعارف زَهَراتهم ؛ وبه عَمَرُوا الحِلَق ، وَأئتلق من أنوارهم ما ائتلق ؛ إذ كلٌّ من اصطناعه محسوب ، وإلى بركته منسوب ؛ فهو بَدْرهم الأهدى ، وغَيْثهم الأجدى ؛ وعِقْدهم المُقتنى ، ورَوْضهم المُجتنى ؛ وبدر منازلهم ، وصَدْر محافلهم ؛ وعلى ما أعلى المقام الْمَولوىّ من مكانه ، وقضى به من استمكانه ؛ واعتمد من إبرامه ، وأَبْرم من اعتماده ، ومهّد من إكرامه ، وأكْرم من مهاده ؛ واختصّ من عُلاه ، وأعلى من اختصاصه ، واستخلص من حُلاه ، وحَلّى من استخلاصه ؛ ووفّى من تكرّمه ، وكرّم من وَفائه ، واصطفى من مَجْده ، ومجّد [١٠٨] من اصطفائه ؛ وقدّم من براعته ، وحكّم من يراعته[3] ؛ وشقّق[4] من كتابته ، وأنطق من خطابته ؛ وسجّل من أنظاره ، وعدّل[5] من اختياره ؛ فذكا ذكْرُه ،

(١) فى نفح الطيب : « فوائده » .
(٢) فى ط : « ألفوا » .
(٣) فى ط : « بداعته » .
(٤) شقق ، يريد : افتن . مأخوذ من شقق الرجل الكلام ، وذلك إذا أخرجه أحسن مخرج .
(٥) فى ط : « عجل » .

وسطا سَطْرُه ؛ وأمعن مَعْناه ، وأغنى مَغْناه . أشار أيّده الله تعالى باستئناف خُصوصيَّته وتجديدها ، وإثبات مقاماته وتحديدها ؛ لتُعْرَفَ تلك الحدود فلا تُتَخطّى ، وتُكْبَرتلك المراتب فلا تُستعطَى؛ فأصدر له — شكر الله تعالى إصداره ، وعَمَر بالنصر دارَه — هذا المنشورَ الذى تأرّج بمحامده نشْرُه ، وتضمّن من مناقبه البديعَ فَرَاق طيّه ونَشره ؛ وغدَا وفرائدُ المآثر لديه مُوجدة مكوّنه ، وأصبح للمفاخر مالكا لما أتى به مُدَوّنه ؛ وخصّه فيه بالنظر المُطلق الشروط ، الملازم للتفويض ملازَمةَ الشرط للمشروط ؛ المستكمل الفروع والأصول ، المُستوفى الأجناس والفصول ؛ فى الأمور التى تختصّ بأعلام القُضاة الأكابر ، وكتّاب القضاة ذوى الأقلام والمحابر ، وشيوخ العلم وخطباء المنابر ، وسائر أرباب الأقلام القاطن منهم والغابر ؛ بالحضرة العليّه ، وجميع البلاد النصْريه ؛ تولّى الله جميعَ ذلك بمعهود سَتْره ، ووَصل له[(١)] ماتعوّد من شَفْع اللطف ووِتره ؛ يحوط مراتبَهم التى قُطفت من روضاتها ثمراتُ الحكم وجُنيت ، ويُراعى أمورهم التى أقيمت على القواعد[(٢)] وبُنيت ، وحقوقهم التى حُفظت لهم فى المجالس السلطانيـة ورُعيت ؛ ويُحلّ كل واحد منهم فى منزلته التى تليق ، ومَرتبته التى هو بها خليق ؛ على مُقْتَضَى ما يعلم من أدواتهم ، ويَخْبُر من تباين ذواتهم ؛ ويُرشّح كلّ واحد إلى ما استحقّه ، ويُؤتى كل ذى حق حقّه ، اعتمادا على أغراضه التى عدَلت ، وصَدَحت على أفنانها من الأفواه طيورُ الشكر وهَدلت ؛ واستناداً فى ذلك إلى آرائه ، وتفويضاً له فى هـذا الشأن بين خُلَصاء الملك وظُهرائه ؛ وذلك لمُقتضَى ما كان عليه أعلامُ الرياسة الذين سبقوا ، وانتهضوا بهِمَمهم واستبقوا ؛ كالشيخ

---

(١) فى نفح الطيب : «لديه» .

(٢) فى نفح الطيب : « العوائد » .

الرئيس الصالح أبي الحسن بن الجيّاب ، والشيخ ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الخطيب ، رحمهما الله تعالى .

[١٠٩] فليقم — أبقاه الله تعالى — بهذه الأعمال التي سَمَتْ واعتزّت ، ومالت بها أعطاف العدل واهتزت ؛ وسار بها الخبر حيث سرى [١] ، وصار بها الحقّ مَشْدودَ العُرَى : وعلى جميع القُضاة الأَصْفِياء ، والعُلماء الأَرْضِياء ، والخطباء الأولياء ، والمُقرئين الأذكياء ، وحَمَلة الأقلام الأَحْظِياء : أن يعتمدوا على هذا الوليّ العِمَاد في كل ما يرجع إلى عوائدهم ، ويختصّ في دار الملك من مَرتباتهم وفوائدهم : وما يتعلّق بولاياتهم [وأمنياتهم] [٢] ، ويليق بمقاصدهم ونيّاتهم [٣] ؛ فهو الذى يُسوّغهم المَشارب ، ويُبلّغهم المآرب ؛ ويستقبل العَليّ بالعَليّ ، والعاطل بالحُليّ ، والمُشْكِل بالجَليّ ؛ والمَفْرِق بالتاج ، والمقدّمة بالإنتاج ؛ وعلى ذلك فهذا المنشور الكريم قد أقرهم على ولايتهم [٤] وأبقاهم ، ولَقّاهم من حفظ المراتب ما رقّاهم : فليجرُوا على ما هم بسبيله ، وليهتدوا برُشد [٥] هذا الاعتناء ودليله .

وكُتِب في صفر عام سبعة وخمسين وثمان مئة » . انتهى .

وإنما كتبته برُمته لتعلم به مِصداقَ ما قدمناه من تمكّن ابن عاصم المذكور من مراتب الاصطفاء والاحتفاء [٦] .

تخميس لابن عاصم

ولنختم ترجمته ، رحمه الله ، بتخميس عجيب من نظمه :

سُبحانَ مَنْ أظهر الأنوارَ واحتجبَا ··· وكلّ حَمْـــد وتَمْجيد له وَجَبَا

---

(١) في نفح الطيب : « ... الخبر حثيث السرى » .
(٢) زيادة عن نفح الطيب .
(٣) كذا في نفح الطيب . وفي ط : « وأقضياتهم » .
(٤) في نفح الطيب : « ولاياتهم » .
(٥) في نفح الطيب : « بمرشد » .
(٦) إلى هنا ينتهي الساقط من نسخة ت .

إذا ابتغَى العقلُ فى إدراكه سَببًا جاء الحجابُ فألقى دونه الحُجُبَا
حتى إذا ما تَلاشَى عنـدها ظَهَرا

سُبحان مَنْ كان والأكوانُ لم تكُنِ فى غير أيْنٍ ولا وَقْتٍ ولا زَمَنِ(٢)
حتى أتى الجودُ بالإيجاد والِمـنَنِ وكان ما(١) قد رَسَمْناه بما ومَنِ(٣)
وأظهر الشمسَ ذاتَ النُّورِ والقَمَرَا

سُبحانَ من حَجَبَ الأبصارَ فاحتجبتْ وكم أراد مُرِيدٌ نَيْلهـا فأَبتْ
مَنْ حَدَّثته أمانيه فقـد كَذَبتْ حَقيقة ذاتِها عن ذاتها وَجَبَتْ
لا يُدْرِكُ العقلُ من أخبارها خَبَرَا

سُبحان مَنْ شأنه فى شأنه عجبُ يَخْفَى فيظهرُ أو يبدو فيحتجبُ [١١٠]
يأيها العاكفون السادةُ النجُبُ هل فيكم مَنْ سعى سَعْيا كما يجبُ
ففـاز بالغرض المَطْلوب أو ظفرَا

سُبحانَ مَنْ لم يزل بالعلم مُنْفردَا ومن تعالَى عن الأشباه فاتَّحدَا
سبحانه وتعالى واحـداً صَمَدَا تبـارك الله لم يولد ولم يلدَا(٤)
تَنزّه اللهُ عمّا يلْحَق البَشَرَا

سبحان من أخرج المَوْجودَ من عَدَمِ رَسْماً يرَى كَوْنَه فى غير مُرْتسمِ
فلا مَحَلّ سِوى كُنْهٍ من الـكَلِمِ ولم يَزَلْ هو فى دَيْمومة القِـدمِ
مُؤثِّرا يخلُق التـأثيرَ والأثرَا

سبحانَ من خلق الأشياء أجمعَهَا فمنْ رآها رأى أفعالَه معهَا

(١) الأبن : الإعياء .
(٢) فى ط : « من » .
(٣) بما ومن : يريد ماخلق الله مما لا يعقل ومن يعقل .
(٤) فى ط : « وما ولدا » .

وكان أتقنَها صُنْعا وأبْدعَها نَفْسٌ إلى العالَم العُلْوىّ رَفَّعها
وخصّها من معاليه بما بَهَرَا

سُبحان من عَمَّ بالإنعام ما خَلقا وشفّع العدلَ بالإحسان فاتّفقا
وزاد بالذّكر فى قلب التّقىّ تُقَى فاستكمل الدينَ والإيمان والخُلُقا
وكان مدركُه الصديقَ أو عُمَرَا

سُبحان من سبَّحتْه كلُّ سابحةِ وكلُّ عائمة فى الماء سائحةِ
وكلُّ غادية تَغدو ورائحةِ وسبَّحتْه خَفايا كلُّ جانحةِ
لم تعرف السرّ حتى جاورت صُوَرَا

سبحان من حمدته ألْسُن البَشَرِ فى السرّ والجَهْر والآصال والبُكَرِ
وفى دُجًى تَشْدُو نصفَ الليل والسَّحَرِ بالشُّكر والذّكْر والآيات والسُّورِ
تُولِيه حَمْدا وتتلو بعده سُوَرَا

سُبحان من نَزّهَتْه ألْسُن عَرَفَتْ عَنْ كُلِّ مايُوهِمُ التَّشْبيه إذ وَصَفتْ
صَفا لها مَوْرِد التحقيق حين صَفَت فلم تُفَارقه حتى أَثْبتت ونَفَتْ
ولم تَدَع شُبهةً تُؤْذِى ولا ضَرَرَا

سُبحان مَنْ شُكْره فى الدين مُفْتَرَضُ وليس يُشْبهه جِسْم ولا عَرَضُ
يَنْهى ويأمُر ما فِى ذا وذا غَرَضُ فاذكُر لُنُعْماهُ ذِكْراً ليس يَنقرِضُ
فمن تحدَّث بالنُّعْمى فقد شكرَا

[١١١] سُبحان من خضع السَّبعُ الطِّباق لهُ وأَعْظَمَتْه قلوبٌ حَشْوُها وَلَهُ
تريد أن تعلَمَ الأَبْقَى وتَعْقِلهُ طُوبى لمن أمّل الأَبْقَى وأَمَّ لَهُ[١]
واستكثر الزاد لمّا آنسَ السَّفرا

---

(١) ورد هذا البيت محرفا هكذا فى ت :
تريد تعلم ما تق وتعمله طوبى لمن أمل الأتقا وأم له

سُبحان من زيّن الأفلاكَ بالشُّهُبِ وبَيَّن الدِّين بالآيات[١] والـكُتبِ
ولم يَدَعْنا لدَى لَهْوٍ وفى لَعِبِ[٢] لـكن نهانا وآتانا عَلِى الرُّتب
حتى انتهينا وأذعنَّا لِما أَمَرَا

سُبحان مَنْ جعل الأشياء تختلِفُ فتارةً تتنـــاءى ثم تأتلفُ
هذا الظلام بنور[٣] الصُّبح يَنْصرفُ كما الضلالُ لنُورِ العلْمِ لا يَقِفُ
فسَلْه نُورًا يُنير السمعَ والبَصرَا

سُبحان مَنْ خلق الأخلاق والخِلَقا والشمسَ والبَدْرَ والظَّلْماء والغَسَقا
يَروقك الكُلُّ مجموعًا ومُفْتَرِقَا وانظرُ لنَفْسك واسلُكْ نحوَه طُرُقَا
فأَسْعدُ النـاس مَنْ فى نفسه نَظَرا

سبحان مُنزِلِ ماء المُزْن فى المَطرِ يُرْوِى النباتَ ويَسْقى يانِع الثَّمَرِ
كأنمـا الزُّهْرُ تُهْديه إلى الزَّهَرِ إذا رأيتَ تلاقِيهـا على قَدَرِ
رأيتَ صُنع قَدِير أَحْـكَمَ القَدَرَا

سُبحان مَنْ قَدّر الأقواتَ والأجَلاَ وتابعَ الوَحْى واستَتْلى به الرُّسُلاَ
فمن تَعدَّى حدودَ الفَوْق قيل غَلاَ ومن تَجوَّز مُنْحطًّا فقد سَـفَلاَ
ومن تخطَّى خُطوط المُنْتهى كَفَرَا

سُبحان مَنْ فجَّر الأنهـارَ فانفجرتْ وقدَّر الخيرَ فى إجْرائهـا فَجَرتْ
فزينةُ الأرض بالأزْهار قد ظَهَرتْ وللبَصيرة عينٌ كُلَّمـا نظرتْ[٤]
رأتْ جَمالا وإجمالا ومُعْتَبرَا

---

(١) فى ط : « فى الآيات » .
(٢) فى ت : « ولا لعب » .
(٣) فى ت : « بضوء » .
(٤) فى ت : « بصرت » .

سبحانَ من خَلَقَ الإنسانَ من عَلَقٍ وأعْقَبَ الليلةَ الليلاءَ بالغَسقِ

يابهجةَ الشمس[١] دونى عُذْتُ[٢] من فَلَقٍ ويا سناَ البَدْرِ عارِضْ حُمْرةَ الشَّفَقِ

حتى تُعِيد لنا من لَيْلِنا سَحَرَا

سُبحان من علَّم الإنسانَ بالقَلمِ وسلَّط الهمّ والبَلْوى على الهِمَمِ

فقاوَمَتْها جُنودُ الصَّبْر والكَرَمِ ثُم ابتلى قلبَ غيرِ العارف الفَهِمِ

فما أطاق ولا أوفى ولا صَبَرَا

[١١٢] سبحان مَنْ خلق الإنسان من عَجَلٍ فليس يَمْشى إلى شىء على مَهَلِ

ولا يقول سِوى هذا وذلك لِى مُقَسِّم الحال بين الحِرْص والحِيَلِ

فليس تَلْقاه إلا ضارعاً حَذِرَا

سبحان مَنْ زانه بالعِلْم والأدبِ وبالفضائل والإيمان والطَّلَب

فلا يَزال حَليفَ الفِكْرِ والتَّعبِ رامَ الكَمال فلم يَبْلُغ ولم يَخِب

ولم يَرِد بعدُ فى رِىٍّ ولا صَدَرَا

سبحان مَنْ شانَهُ بالكِبْر والأشَرِ يُمْسى ويُصبح فى غَىٍّ وفى بَطَرِ

مُردَّد العَزْم بين الجُبْن والخَوَرِ لا يَسْتفيق من الشَّكْوى إلى البَشَرِ

ولا يُزَحْزَح عن ظُلْم إذا قَدَرَا

سبحان مُحْرِقِه فى وَقْدةِ الحسَدِ فلا يزال أخا غَيْظ وفى نَكَدِ

كالبحر يَرْمى إلى العينين بالزَّبَدِ إذا رأى أثرَ النُّعْمى على أَحدِ

يَودّ لو كان أعمى لا يَرى ضَجَرَا

---

(١) فى ت : « النفس » .

(٢) فى ت : « عدت » بالدال المهملة .

سُبحان من أَمر الأرواح فأتمرتْ ثم استُديمت فلم تَنهض بما أُمرتْ
وكلُّ نَفْس إذا سـامحتَها فجرتْ فلا تَصِلْها إذا خانتْك أو غَدرتْ
واقطعْ علائقَ مَنْ قد خان أو غَدَرَا

سبحان من بَسط التعليمَ ثم طَوَى فأعْقب القلبَ وَجْدًا دائما وهوَى
وذابَ(١) فى مُلْتظى أشواقه وذَوَى وكان أَزْمع واستوفَى المُنى ونوَى
حَجًّا فلما أتى ميقاتَه حُصِرَا

سبحان مَنْ فى بِساط العَدْل أجلسنَا وباغتفار عَظِيم الذَّنْب آنسنَا
وزان بالعِلْم والإيمانِ أنفُسَنَا فكان أعظَمنا قدراً وأنفَسَنَا
من انتهى أو نُهِى أو خاف فازدَجرَا

سُبحان من خَصّ بالإيمـان أنفُسَنَا وخافَه من عذاب النـار أَنْفَسُنَا
لولاه لم نعرف المعروف(٢) والحَسنَا ولا استَفَدنا لساناً ناطقاً لَسِنَا
ولا درَيْنا : أباحَ الشرعُ أو حَظرَا

سبحان مَنْ جعل الإيمـان بالقَدَرِ والحشْرَ والنَّشْرَ مَنْجاةً من الضَّرَرِ
فلا خُلود مع الإيمـان فى سَقَرِ ولا وُصـول إلى أمْن بلا حَذَرِ
حتى تكونَ لأمْرِ الله مؤتمِرَا

سبحان من إن يشأ أعطاك أو مَنعَا ومَنْ إذا شاء أمراً حادِثاً وَقعَا [١١٣]
وتارةً يَخْفِض الأمرَ الذى رفعَا يوما يفرّق للإنسانِ ما جَمعَا
ولا يبالى بمَن أثرى ومَنْ خَسِرَا

سبحان من هو يومَ الفصل يَجْمعُنَا وللنَّعيم بِفَضْل منـــه يَرْفعُنَا

---

(١) فى ط : « وزاد » .

(٢) فى ت : « المسنون » .

مِن بعـــد رُؤْية أَهْوال تُرَوِّعنا   يُرَى لهـــا وَالهاً هَيْمانَ أورعُنا
حَيرانَ عُرْيان يُبْدِى كلَّ مَا سُتِرَا

سُبحان مَنْ شاء فى الدنيا سعادتَنا   بطاعةٍ أحسنت منّا إرادتَنا
ويَبْتلينا ويَسْـــتحلِى عِبادتَنا   حتى إذا شاء فى الأُخْرى إعادتَنا
أعادنا مثـــلَ ما كنّا كما ذكَرَا

سبحان من يَحْشُرُ الإنسان مُكْتَئِباً   خوفَ الجزاء ويَجْزيه بما كَسَباَ
ويحكم الحُكْمَ يُمضيه كما وَجباَ   فالقاسِطون إلى نِيرانه عُصَبا[1]
والمُقْسِطون إلى جنّاته زُمَرَا

سُبْحان من فضّل الإسلامَ فى الأُمَمِ   بالطَّيِّب الطاهر المَبْعوث فى الحَرَمِ
مُحمَّـدٍ خيرِ مَنْ يَمْشى على قَدَمِ   إذا عدَدْتَ بيوتَ المجد والكرمِ
فمنــه حتى إلى عَدْنانَ أو مُضَرَا

سُبحان مَنْ خَتم الأديانَ فى الأَزَلِ   بالمِلّة السَّمْحة البَيْضاء فى المِلَلِ
أَتَى بهـــا خيرُ مأمور ومُمْتثِلِ   محمـــدٌ خاتَمُ الساداتِ والرُّسلِ
وخيرُ من حجّ بيتَ الله واعتمرَا

إذا وَصَـــفْنَا فبالتقصير نَعْترفُ   فكلُّ لفظٍ بليغ دونَه يَقِفُ
هو النبىّ الذى فى ذكره شَرَفُ   فإن طلبتَ رضاهُ بالذى تَصِفُ
فكُنْ على وَصْفه فى الذِّكْر مقتصرَا

صَـــلَّى الإلهُ عليه ما بدا قمـــرُ   وما سَرَت فى الدياجى أنجمٌ زُهُرُ
وما تباينَتِ الأشكالُ والصُّورُ   وما تُدُورِسَتِ الآيات والسُّوَرُ
وما قضى مُؤْمن من حاجة وطَرَا

(١) فى ت : « حطبا » .

وبالجملة فابنُ عاصم أبو يحيى كان يسمّيه أهْلُ زمانه ابنَ الخطيب الثانى ، حَسْبما قاله الوادى آشى وغيرُه .

تعريف بابن الخطيب

[١١٤] ولا بد أن نلِمَّ بنبذة من أخبار ابن الخطيب [السَّلْمانى الوزير][١] : إذ هو لسان الدين ، ونخر الإسلام بالأندلس فى عصره ، فنقول : هو محمد بن عبد الله ابن سعيد [بن عبد الله بن سَعيد][١] بن على بن أحمد السَّلْمانى ، قُرْطبى الأصل ، ثم لَوْشِيَّه[٢] ، يُكْنى أبا عبد الله ، ويلقّب من الألقاب المشرّفة بلسان الدين ، الوزير الشهير ، الطائر الصيت ، المَثَل المَضْروب فى الكتابة والشعر والمعرفة بالعلوم على اختلاف أنواعها ، رحمه الله .

أوليته ونسبه

أوليته :

قال ابن الأحمر[٣] فى نثير فرائد الجُمان فى حقه ما نصه : « ذو الوزارتين الفقيه الكاتب ، أبو عبد الله محمد ، ابن الرئيس الفقيه الكاتب المُفْتى[٤] ببلدة لَوْشة ، عبد الله ، ابن الفقيه القائد الكاتب سعيد بن عبد الله ، ابن الفقيه الصالح ولى الله الخطيب سَعِيدٍ السَّلْمانى اللَّوْشِيّ ، المعروف بابن الخطيب » . انتهى .

وقال غيره : إن بيتَهم يُعْرَف فى القديم ببنى الوزير[٥] ، ثم فى الحديث

(١) زيادة عن ت ونفح الطيب .

(٢) لوشيه : نسبة إلى لوشة (بفتح فسكون) : مدينة بالأندلس غربى ألبيرة قبل قرطبة ، منحرفة يسيرا ، بينها وبين قرطبة عشرون فرسخا ، وبينها وبين غرناطة عشرة فراسخ . (عن معجم البلدان) .

(٣) ابن الأحمر : هو أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن السلطان القائم بأمر الله محمد ابن الأحمر .

(٤) كذا فى ط . وفى ت : « المعتزى » . يريد المنتسب إلى بلدة لوشة . إلا أن هذا الفعل يتعدى بإلى . وفى نفح الطيب المطبوع والمخطوط : « المنتزى » .

(٥) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « وزير » . وفى ت : « وزيد » .

بنى الخطيب . وسعيدٌ جَدُّه الأعلى أول من تلقَّب بالخطيب ، وكان من أهل العلم والدين والخير ، وكذلك سعيد جده الأقرب كان على خلال حميدة ، من خَطٍّ ، وتلاوة ، وفقه ، وحساب ، وأدب ، خيِّرا ، صَـدْرا ، تُوُفِّى عام ثلاثة وثمانين وست مِئَة ؛ وأبوه عبدُ الله كان من أهل العلم بالأدب والطب ، وقرأ عَلَى أبى الحسن البَلُّوطى ، وأبى جعفر بن الوزير[١] ، وغيرهما[٢] ، وأجازه طائفة من أهل المشرق ، وتُوُفِّى بطريف عام واحد وأربعين وسبع مئة شهيداً يومِ الاثنين السابع من جمادى الأولى من العام مفقودا[٣] ثابت الجأش ، شكر الله فعلَه .

قال ابنه لسان الدين صاحب الترجمة : أنشدتُ والدى أبياتاً من شعرى ، فسُرَّ وتهلَّل ، وارتجل رحمه الله تعالى :

الطبُّ والشِّعْر والكِتَابهْ   سِماتُنا فى بَنِى النَّجابهْ
هى[٤] ثلاثٌ مُبَلِّغـات   مراتباً بعضُها الحِجَابه

انتهى .

[١١٥]

نشأته :

نشأته وشيوخه

ونشأ لسان الدين على حالة حسنة سالكا سنَن أسلافه ، فقرأ القرآن على المكتِّب ، الأستاذ الصالح أبى عبد الله بن عبد الولى العَوّاد ، تَكتُّبا ، ثم حفظا ، ثم تجويدا ؛ ثم قرأ القرآن أيضاً على أستاذ الجماعة أبى الحسن القِيجاطى ، وقرأ عليه العربية ، وهو أول من انتفع به ؛ وقرأ على الخطيب أبى القاسم بن جُزَىّ ؛

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « زبير » .
(٢) كذا فى ت ونفح الطيب . والذى فى ط : « وقرأ على أبى الحسن البلوطى ، وأبى إسحاق بن زروال ، « وغيرهما » .
(٣) كذا فى الأصلين ونفح الطيب .
(٤) فى نفح الطيب : « هن » .

ولازم قراءة العربية والفقهِ والتفسير على الشـيخ الإمام أبى عبد الله بن الفَخَّار البِيرى ، شيخ النحويين لعهده ؛ وقرأ على قاضى الجماعة أبى عبد الله بن بكر ؛ وتأدب بالرئيس أبى الحسن بن الجَيَّاب ؛ وروى عن كثير من الأعيان ، كالمحدِّث شمس الدين بن جابر ، وأخيـه أبى جعفر ، والقاضى أبى البركات بن الحاجّ ، والشيخ أبى محمد بن سَلْمون ، وأخيه أبى القاسم بن سَلْمون ، وأبى عمرو بن الأستاذ أبى جعفر بن الزُّبَير ، وله رواية عالية ، والأستاذ اللغوى أبى عبد الله بن بيبش[1] ؛ والمحدّث الكاتب أبى الحسن التِّلِمْسانى المُسِنّ ، والقائد الكاتب أبى بكر بن ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الحكيم ، والقاضى المحدّث أبى بكر ابن شيرين[2] ، والشيخ أبى عبدالله ابن الفقيه القاضى أبى عبدالله بن عبد الملك ، والخطيب أبى جعفر الطّنجالى ، والقاضى أبى بكر بن مَنْظور ، والراوية أبى عبد الله بن حزب الله ، وعن أشهر أسلافنا المتأخّرين القاضى أبى عبد الله محمد المقَّرِى القُرَشى ، التِّلِمْسانى المولد والمنشأ والمقبر ، قاضى الجماعة بفاس ، وعن [١١٦] الشريف أبى على حسن بن يوسف ، وعن الخطيب الرئيس الراوية أبى عبد الله ابن مرزوق ، وعن المحدّث الفاضل الحسيب أبى العبّاس بن يَرْبوع السَّبتى ، والرئيس الكاتب أبى محمد بن عبد المُهيمن الحَضْرمى السَّبتى ، والشيخ المقرئ أبى محمد بن أيوبَ المالَقى ، آخر الرواة عن[3] ابن أبى الأحوص ، وعن أبى عثمان ابن ليون من أهل المريّة ، وعن القاضى أبى الحجّاج المُنْتشافرى[4] ، من أهل رُنْدة ، إلى غيرهم ممن يطول ذكره من أهل الأندلس ، والعُدْوة الغربية ،

(١) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « بيس » .
(٢) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « بشرين » .
(٣) فى ت : « على » .
(٤) كذا فى نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٢٣ ، ٣٩٥ طبعة بلاق) . وفى ط : «المشتافرى» . وفى ت : « المنشافرى » .

والمشرِق وإفريقية بالإجازة ؛ وأخذ الطب والتعاليم وصناعة التعديل عن الإمام أبى زكريا يحيى بن هُذَيل ، ولازمه .

مؤلفاته

تآليفه :

قال ابن الأحمر رحمه الله : « [لابن الخطيب(١)] الأوضاع المصنفات ، التى آذانُ إحسانها هى المُقَرّطات المشَنَّفات ، منها فى التصوف الذى أكثر أهل الحقائق إليه نظر التشوّف : روضة التعريف بالحب الشريف » . انتهى .

ثم سرد غيرها من كتبه ، ومنها : الإحاطة ، فى تاريخ غرناطة ، فى خمسة عشر سِفْرا ؛ واللَّمحة البدرية فى الدولة النَّصْرية ؛ والحُلَل المَرْقُومة ؛ ومُثْلى الطريقة ، فى ذم الوثيقة ؛ والسحر والشعر(٢) ؛ وريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب ، فى أسفار ؛ والصَّيِّب والجهام ، والماضى والكهام ، فى مجموع شعره ؛ ومِعْيار الاختيار(٣) ؛ ومفاضلَة مالَقة وسلا ؛ ورسالة الطاعون ؛ والمسائل الطبية ، فى سِفْر ؛ والرَّجَز فى عمل التِّرياق ؛ واليُوسُفِى فى الطب ، فى سفرين ؛ والتاجُ المحلَّى فى مساجلة القِدْح المُعَلَّى ؛ والكتيبة الكامنة ، فى أدباء(٤) المئة الثامنة ؛ ونُفاضة الجِراب ، فى أربعة أسفار ، وهى من أحسن تآليفه ، ولم أزل أكثر البحث فى هذا التاريخ عنها ، فلم أقف منها على عين ولا أثر ، إلا عدة أوراق متفرقة ، وقد كنت قبل هذا التاريخ رأيت بعضها . والبَيْزرة ، فى سِفْر ؛ والبَيْطرة ، فى سفر جامع ، لما يرجع إليه من محاسن الخيل وغيره ؛ ورسالة تكَوُّن الجنين ؛ والوُصول لحفظ الصحة فى الفصول ؛ ورجز الطب ؛ ورجز الأغذية ؛ ورجز السياسة ؛

(١) زيادة عن نفح الطيب (ج ٤ ص ٦٥٢) .
(٢) كذا فى ط ونفح الطيب (ج ٤ ص ٦٥٤) . وفى ت : « والشحر » .
(٣) فى نفح الطيب : « الأخبار » .
(٤) كذا فى نفح الطيب . وفى ت : « فى شعراء » . وفى ط : « فى آداب » .

وكتاب الوزارة ؛ ومقامة السياسة ؛ والغيرة على أهل الحَيْرة ؛ وحمل الجمهور على السَّنَن المشهور ؛ والزُّبدة الممخوضة ؛ والرد على أهل الإباحة ؛ وسد الذريعة ؛ فى تفضيل الشريعة ؛ وخَطْرة الطيف ؛ ورحلة الشتاء والصيف ؛ وطُرْفة العصر فى دولة بنى نصْر ، فى ثلاثة أسفار ؛ وتقرير الشّبه ؛ وتحرير الشُّبه ؛ واستنزال اللطف الموجود فى سر الوجود ؛ و بستان الدول ، وهو غريب فى معناه ، فى فنون السياسة ، فى ثلاثين جزءاً ، ولم يكمل ؛ وأبيات الأبيات ، فيما اختاره رحمه الله من مطالع ما له من الشعر ؛ ورَقْم الحُلَل فى نظم الدول ، فى غاية من الحلاوة والعذوبة والجزالة ؛ وفُتات الخِوان ، ولَقط الصوان ، فى سفر يتضمن المقطوعات ؛ وعائد[١] الصِّلة ، فى سفرين ، وصل به صلة الأستاذ أبى جعفر بن الزُّبير ؛ وتخليص[٢] الذهب فى اختيار عيون الكُتب الأدبيات ؛ وجيش التوشيح ؛ ورجز فى أصول الفقه ، شرحه ولىّ الدين بن خَلدون ، صاحب التاريخ المشهور ؛ والإكليل الزاهر[٣] ؛ وكُناسة الدُّكان بعد انتقال السُّكان ؛ وعمل مَنْ طب لمن حَبّ ؛ والدرر[٤] الفاخره ، واللُّجَج الزاخره ، جمع فيه نظم بن صفوان ؛ والمباخر الطّيبيه فى المفاخر الخطيبيه ؛ وخلع الرَّسَن فى أمر القاضى ابن الحسن ؛ وأعمال الأعلام ، فيمن[٥] بويع من ملوك الإسلام ، قبل الاحتلام[٦] . وألَّف أيضاً فى الموسيقى ، ومصنفاته زادت على الخمسين ، وقد ذكرنا نحو الخمسين[٧] .

[١١٧]

---

(١) فى ط : « غاية » .
(٢) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « تلخيص الذهب ... الخ » .
(٣) اسم الكتاب كاملا كما فى نفح الطيب : « الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر » .
(٤) كذا فى نفح الطيب (ج ٤ ص ٦٥٥) . وفى الأصلين : « والدرة » .
(٥) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « بمن » .
(٦) اسم الكتاب كما فى نفح الطيب : « إعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، وما يجر ذلك من شجون الكلام » .
(٧) تختلف مؤلفات ابن الخطيب المذكورة فى نفح الطيب (ج ٤ ص ٦٥٣ — ٦٥٥) عنها هاهنا زيادة ونقصانا .

رأى ابن الأحمر فيـه

حاله :

قال ابن الأحمر :

« هو شاعر الدنيا ، وعلم المُفْرد والثُّنْيا ؛ وكاتب الأرض ، إلى يوم العرض ؛ لا يدافع مَدْحه فى الكُتب ، ولا يُجْنَحُ فيه إلى العَتْب ؛ آخر من تقدّم فى الماضى ، وسيف مَقُولة ليس بالكَهام إذ هو الماضى ؛ و إلا فانظر [١١٨] كلام الكُتّاب الأول من العُصْبه ، كيف كان فيهم بالإفادة صاحبَ القصبه ؛ للبراعه ، باليراعه ؛ و به أسْكِتَ صائلُهم ، وما حُمدت بُكَرهم وأصائلهم : المشو بة[١] بالحلاوه ، المُمكنة من مفاصل الطّلاوه ؛ وهو نفيس العُدوتين ، ورئيس الدولتين ؛ بالاطلاع على العلوم العقليه ، والإمتاع بالفهوم النقليه ؛ لَكنَّ صِلَّ لِسانه فى الهجاء لَسَع ، ونجاد نِطاقه فى ذلك اتسع ؛ حتى صَدَمنى ، وعلى القول فيه أقدمنى ؛ بسبب هجوه فى ابن عمى ملك الصّقع الأندلسى ، سلطان ذلك الوطن فى النفر الجنسى ، المعظم فى الملوك بالقول الجنِّى والإنسى ؛ ثم صفحت عنه صفحة القادر ، الوارد من مياه الظفر غير الصادر ؛ لأن مثلى لا يليق به إظهار العورات ، ولا يجمل به تتبع العثرات ؛ اتباعاً للشرع فى تحريم الغِيبه ، وضرباً عن الكريهة ، و إثباتاً لحظوظ النقيبة الرّغيبه ؛ فما ضرّه لو اشتغل بذنو به ، وتأسف على ما شرب من ماء الهجو بذَنو به . وقد قال بعض الناس : من تعرض للأعراض ، أرسى عِرْضه هدفاً لسهام الأغراض » . انتهى كلام ابن الأحمر .

توليه الكتابة

وقال غيره :

تقلد[٢] الكتابة أيام السلطان أبى الحجَّاج ، فى أُخريات دولته ، بعد

(١) فى ت : « المشربة » .
(٢) أبو الحجاج : هو يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر الأنصارى الخزرجى ، من أمراء المسلمين بالأندلس .

شيخه ابن الجَيّاب .

كلام لابن الصباغ عنه وعن قوة بديهته

قال ابن الصباغ العقيلى : « كان أبو الحسن بن الجياب رئيسَ كتاب الأندلس ، وهم رؤساء غيرهم ، واختص به ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب اختصاصاً تاما ، وأورثه رتبته من بعده ، وعَهِد بها إليه ، مشيراً بذلك على من استشاره من أعلام الحجَّاب عنـد حضور[1] عمره . وتدَرَّب بذكائه ، حتى استحق أزمَّته ، فأنسى بحسن سياسته شيخَه المذكور ، ونال التى لا فوقها من الحُظْوة ، و بُعد الصيت ، وسعادة البخت .

[١١٩] اتفق له يوماً بعد ما عزم النصرانى على ورود البلاد[2] ، وضاقت به الصدور ، فأنشد ابن الجياب بديهاً بمحضر الكتاب :

هـذا العدوّ قد طغى وقد تعـدَّى وَبَغَى

[وقال لابن الخطيب : أجز أبا عبد الله ، فأنشده بديهاً][3] :

وأظهر السِّلم وقد أسَرَّ حَسْوًا فى ارْتِغَا

فبلَّغ الرحمنُ سيْـفَ النصْر فيه ما ابتغى[4]

وردَّه ردَّ ثمودَ والفصيلُ قد رَغا

حتى يُرى وليمـةً لكلِّ مَرْهوب الثُّغا[5]

---

(١) فى ت : « ظهور » .
(٢) فى ت : « البلد » .
(٣) زيادة عن ت .
(٤) رواية هذا البيت فى ت :
فأبلغ الرمح بسيـف النصر فيه ما ابتغى
(٥) الثغاء (ممدودا وقصر للشعر) : صوت الشاء والمعز وما شاكلها ، ويريد به صوت المفترس من الحيوان ، أو صوت الرماح والسيوف .

فقال ابن الجيّاب : هكذا و إلا فلا ، وعجب الحاضرون من هذه البديهة » .

انتهى كلام ابن الصباغ .

أيام ابن الخطيب مع السلطان أبى عبد الله

ولما توفى أبو الحجاج ازدادت[١] منزلة ابن الخطيب عند ابنه أبى عبد الله ، إلى أن كانت عليه الدائرة ، فقُبض على ابن الخطيب وعلى أملاكه ، ثم تخلّص منها نَكْبةً مُصْحفيةً[٢] بشفاعة السلطان المستعين بالله أبى سالم إبراهيم ابن السلطان الشهير الكبير أبى الحسن المَرينى ، صاحب المغرب ، وكان[٣] تحريك عزائم السلطان أبى سالم للشفاعة فيه بسعاية الغالب على دولته الحاجب الرئيس الخطيب الرّحّال أبى عبد الله بن مرزوق . ولما تخلص ابن الخطيب من هذه الأنشوطة لحق بسلطانه أبى عبد الله ، كما نذكره قريبا ، وورد صُحْبَته المغربَ ، واستقرّ أبو عبد الله بن الخطيب بسَلَا تحت الجِرَاية التامة ، متكلّفا خدمة ضريح الملوك من بنى مَرِين ، لِيَمُتّ بذلك إلى صاحب المُلْك من بينهم ، كيما يقضى له ما بقى من مآربه[٤] بالأندلس ، بشفاعة غير مردودة ؛ وفى أثناء هذه المدة كان يتطوف ببلاد المغرب مثل مراكش وأنظارها[٥] . ثم لما رجع مخدومه لغَرناطة عاد هو فى صُحبة أولاده ، فألقى إليه مقاليد رياسته ، وأزمة سياسته ، ورقّاه إلى الذّروة

(١) فى ت : « زادت » .

(٢) مصحفية : نسبة إلى المصحفى جعفر بن عثمان الحاجب . ويشير إلى نكبته على يد ابن أبى عامر التى انتهت بسجنه فى المطبق ثم موته . وإلى هذه النكبة يشير ابن الخطيب ببيته :

تخلصت منها نكبة مصحفية لفقدانى المنصور من آل عامر

(انظر نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩ — ٦٤ طبعة أوربا ، ج ٣ ص ٤٢ طبعة بلاق)

(٣) نص هذه العبارة فى ت : « وكان من تحريك السلطان أبى سالم للشفاعة فيه بسعاية الغالب على دولة أبى سالم الحاجب .. الخ » .

(٤) فى ط : « أغراضه » .

(٥) هذه العبارة من قوله « وفى أثناء » إلى قوله « وأنظارها » ساقطة فى ت .

التى لا فوقها ؛ ثم سَئِم الخدمة ، وتسخّط النِّعمة ، وأضمر الفرار عند ما سمع بأن الْمُلْكَ استوثق للسلطان أبى فارس بن أبى الحسن المَرِينى ، وأنه مَلَكَ تِلِمْسان ، فأظهر الذهاب إلى تفقّد أحوال بعض الثغور ، فكان آخرَ عهد الأندلس به ، وخرج بتِلِمْسان ، واهتزّت دولة السلطان أبى فارس لقُدومه ، ثم كان من أمره ما سنذكره . [١٢٠]

تفصيل لنكبة السلطان أبى عبد الله وذهابه إلى فاس

ولنُورد بعض تفصيل لما سبق الإلمام به ، وما لم يسبق ، فنقول :

قال فى كتابه المسمى باللَّمحة البدرية ، فى الدولة النصرية ، عند ذكره خلع السلطان أبى عبد الله ، وقيام الأمير إسماعيل عليه ، وذلك فى شهر رمضان المعظّم من عام ستين وسبع مئة ، ما نصه :

« وكان السلطان أبو عبد الله عند تَصيُّر الأمر إليه قد ألزم أخاه إسماعيلَ قصْراً من قصور أبيه بجوار داره ، مُرفّها(١) عليه ، متمّمةً وظائفه له ، وأسكن معه أمّه وأخواته منها ، وقد أستأثرت يومَ وفاة والده بمال جمّ من خزائنه الكائنة فى بيتها ، فوجدت السبيلَ إلى السعى لولدها ، فجعلت تُواصل زيارة ابنتها التى عقد لها الوالد مع ابن عمّه الرئيس أبى عبد الله ابن الرئيس أبى(٢) الوليد ، ابن الرئيس أبى عبد الله المبايع له بأندَرَش ، ابن الرئيس أبى السعيد جدّهم الذى تجمعهم جُرثومته ، وشَمّر الصِّهْرُ المذكور عن ساعد عَزْمه وجِدّه ، وهو [على](٣) ما هو من الإقدام ومُداخلة ذُؤبان الرجال ، وأستعان بمن آسفته(٤) الدولة ، وهَفَت به الأطماع ، فتألّف منهم زُهاء مئة قَصَدوا جهة

(١) كذا فى ط ونفح الطيب (ج ٣ ص ٤٥) . وفى ت : « صرفها » .
(٢) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « ابن » .
(٣) زيادة عن نفح الطيب .
(٤) آسفته : أغضبته .

من جهات القلعة مُتَسَنِّمين شَفًا صَعْبَ المُرتقى ، واتخذوا آلة تُدْرك ذروته لصعود[١] [بِنْية][٢] كانت به عن التمام ، وكبسوا حَرَسِيًّا بأعلاه بما اقتضى صُماته[٣] ، فاستَوَوْا به ، ونزلوا إلى القلعة سَحَر[٤] الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان عام ستين وسبع مئة ، فاستظهروا بالمشاعل والصُّرَاخ ، وعالجوا دار الحاجب رِضوان ، ففَضُّوا أغلاقها ودخلوها ، فقتلوه بين أهله وولده ، وانتهبوا [١٢١] ما اشتملت عليه داره ، وأسرعت طائفة مع الرئيس ، فاستخرجت الأمير المعتقَل إسماعيل وأركبته ، وقُرِعت الطبول ، ونُودى بدعوته ، وقد كان أخوه السلطان مُتحوِّلا بولده إلى سُكْنى الجنّـه المنسوبة للعَريف ، لِصْق داره ، وهى المَثل المضروب فى الظلّ الممدود ، والماء المسكوب ، والنسيم البَليل ، يفصل بينها وبين مَعْقل الملك السُّور المنيع ، والخَندق المصنوع ؛ فما راعه إلا النداء والعجيج ، وأصوات الطبول ، وهَبَّ[٥] إلى الدخول إلى القلعة . فألفاها قد أُخذت دونه شِعابُها كلّها ونقابها . وقذفته الحِراب ، ورشقته السِّهام ، فرجَع أدراجَه ، وسدّده الله فى محل الحَيْرة ، ودسّ له عِرْق الفحول من قومه ، فامتطى صَهوة فرس كان مرتبطاً عنده ، وصار لوجهه فأعيا المتّبع ، وصَبَّح مدينة وادى آش ، ولم يشعر حافظ قصبتها إلا به ، وقد تَوَلَّجَ عليها ، فالتفّ به أهلها ، وأعطوه صَفْقتهم بالذّبّ عنه ، فكان أَملكَ بها ؛ وتجهّزت الحشود إلى منازلته ، وقد جدّد

(١) كذا فى النسخة الخطية من نفح الطيب (المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٣٦٠ تاريخ) . وفى ط والنسخة المطبوعة فى بلاق من نفح الطيب : « لقعود » . وفى ت : « لعقود » .

(٢) زيادة عن ت ونفح الطيب .

(٣) الصمات (بالضم) : الصمت والسكوت . ولعله يريد : موته .

(٤) فى الأصلين ونفح الطيب : « سحور » .

(٥) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « وذهب » .

أخوه المتغلِّب على ملكه عقد السلم مع طاغية قَشتالة ، باحتياجه إلى سلم المسلمين ، لجرّاء فتنة بينه و بين البَرْجَلُونيين من أمّته ؛ واغتبط به أهل المدينة ، فذبّوا عنه ، ورضوا بهلاك نعمتهم دونه ، واستمرت الحال إلى يوم عيد النحر من عام التاريخ ، ووصله رسول صاحب المغرب(١) [مستنزلا منها(٢) ، ومستدعياً إلى حضرته لما عجز عن إمساكها . وراسل(٣) ملك الروم](٤) فلم يجد عنده من مُعَوّل ، فانصرف ثانى يوم عيد النحر المذكور ، وتبعه الجمعُ الوافر من أهل المدينة خَيْلا ورَجْلا إلى مَرْبلة من ساحل إجازته . وكان وصوله إلى مدينة فاس ، مُصْحَبا من البِرِّ والكرامة بما لا مزيد عليه ، فى السادس من شهر محرم ، فاتح عام واحد وستين وسبع مِئَة ، وركب السلطان للقائه ، ونزل إليه عند ما سلّم عليه ، وبالغ فى الحِفَاية به . [١٢٢]

قصيدة ابن الخطيب بين يدى السلطان أبى سالم يستصرخه لمولاه

وكنت قد لحقت به مُفْلِتاً من شَرَك النكْبة التى استأصلت المال ، وأوهمت سوء الحال ، بشفاعة السلطان أبى سالم قدّس الله روحه ، فقمت بين يديه فى المَحْفِل المشهود حينئذ ، وأنشدته :

سَلَا هل لَدَيْها من مُخَبِّرة ذِكْرُ ... وهل أعشب الوادى ونَمَّ به الزَّهرُ
وهل باكرَ الوسمىُّ داراً على اللِّوَى ... عَفتْ آيُها إلا التَّوهُّمُ والذكْر
بلادى التى عاطيتُ مشمولةَ الهوى ... بأكنافها والعيشُ فينانُ مُخْضَرُّ
وجَوِّى الذى رَبَّى جَناحِىَ وكْرُه ... فها أنا ذا مالى جَناح ولا وَكْر

(١) هو السلطان المولى أبو سالم ، كما سيأتى قريبا .
(٢) كذا فى النسخة الخطية من نفح الطيب . وفى ت والنسخة المطبوعة : « عنها » . يريد : من وادى آش ، أو عن وادى آش .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى ت : « وأرسل » .
(٤) ما بين القوسين زيادة عن ت ونفح الطيب .

نَبتْ بِىَ لا عن جَفوة ومَلالة ... ولا نَسَخَ الوصلَ الهنىّ بها هَجْرُ
ولكنّها الدنيا قليلٌ متاعُها ... ولَذّاتُها دَأْبا تزور وتَزْوَرّ
فمن لى بقُرب العَهْد منها ودُوننا ... مَدًى طال حتى يومُه عندنا شهر
ولله عَيْنا من رآنا وللأسى ... ضِرام له فى كل جارحة جَمْر
وقد بدّدَتْ دُرَّ الدموع يَدُ النوى[(١)] ... ولِلشوق أشجان يضيق لها الصَّدْر
بَكَيْنا على النَّهر الشَّروب عشيّةً ... فعاد أجاجًا بعدَنا ذلك النَّهر
أقول لأظعانى وقد غالَها السُّرَى ... وآنسها الحادِى وأَوْحشها الزَّجْر
رويدَكِ بعد العُسْرِ يُسْر أَنَ ابْشِرى ... بإنجاز وَعْد الله قد ذَهب العُسْر
ولله فينا سِرُّ غَيْب ورُبما ... أتى النّفعُ من حال أُريد بها الضُّرّ
وإن تَخُنِ الأيامُ لم تَخُنِ النُّهَى ... وإن يخذُلِ الأقوامُ لم يخذُلِ الصبر
وإن عَرَكَتْ منّى الخطوبُ مجرّبا ... نِقابا تَساوَى عنده الحُلْوُ والمُرّ[(٢)]
فقد عَجَمَتْ عوداً صَليباً على الردى[(٣)] ... وعَزْماً[(٤)] كما تَمضى المهنّدة البُتْر
إذا أنتَ بالبيضاء قَرّرت[(٥)] مَنْزِلى ... فلا اللحْم حِلٌّ ما حييتُ ولا الظَّهْر
زَجَرْنَا بإبراهيمَ بُرْءَ[(٦)] همومنا ... فلما رأينا وَجْهه صدَق الزَّجر
بمُنتَخَب من آل يعقوبَ كلّما ... دجا الخَطبُ لم يَكْذِب لعَزْمته فَجْر
تناقلت الرُّكبانُ طِيبَ حَديثه ... فلما رأته صَدّق الخبرَ الخُبْر
ندًى لو حواه البحر لَذّ مَذَاقُه ... ولم يَتَعَقَّبْ مَدَّه أبدا جَزْر

(١) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « الهوى » .
(٢) النقاب : الفطن العالم بالأشياء .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « النوى » . وفى ت : « الندى » .
(٤) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « وعرفا » .
(٥) كذا فى النسخة الخطية والمطبوعة من نفح الطيب . وفى الأصلين : « قدرت » .
(٦) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « جل » .

وبأسٌ غدا يرتاع من خَوْفه الرَّدَى ... وترفُل فى أثوابه الفَتْكة البِكْرُ

أطاعته حتى العُصْم فى قُنَن الرُّبا ... وهَشَّتْ إلى تأميله الأنجُم الزُّهْر [١٢٣]

قَصَدناك يا خيرَ المُلوك على النَّوَى ... لتُنصِفنا مما جَنَى عبدُك الدَّهر

كَفَفْنا بك الأيامَ عن غُلَوائها ... وقد رَابَنا منها التعسُّفُ والكِبْر

وعُذْنا بذاك المَجْد فانصرَم الرَّدَى ... ولُذْنا بذاك العِزّ [فانهزم الذُّعر

ولما أتينا البحرَ يُرْهَبُ مَوْجُه ... ذكرنا نَداك الغَمْرَ[١]] فاحتُقِر البَحر

خِلافتُك العُظْمى ومَنْ لم يَدِن بها ... فإيمانُه لَغْوٌ وعِرْفانه نُكْر

ووَصْفك يَهْدِى المدحَ قَصْدَ صوابه ... إذا ضَلّ فى أوصافِ مَنْ دُونَك الشِّعر

دَعتك قلوبُ المؤْمنين وأخلصتْ ... وقد طاب منها السرُّ لله والجَهر

ومُدَّت إلى الله الأكُفّ ضَراعةً ... فقال لهُنَّ اللهُ قَدْ قُضِىَ الأمر

وألْبَسها النُّعْمى ببَيْعَتِك التى ... لها الطائرُ المَيْمُونُ والمَحتِد الحرّ

فأصبح ثغرُ الثَّغر يَبْسِم ضاحكا ... [وقد كان مما نابَه ليس يَفْترّ

وأمَّنتَ بالسِّلم البلادَ وأهلَها ... فلا ظُبة تَعْرَى ولا رَوْعة تَعرو

وقد كان مولانا أبوك مُصَرِّحا[٢]] ... بأنك فى أبنائه الوَلد البَرّ

وكُنتَ خَليقاً بالإمارة بعده ... على الفَوْر لكنْ كلُّ شىء له قَدْر

وأوْحشتَ من دار الخِلافة هَالةً ... أقامتْ زماناً لا يلوحُ بها[٣] البَدْر

فرَدّ عليك اللهُ حقّك إذ قَضَى ... بأن تَشْمل النُّعمَى ويَنْسدل السِّتر

وقاد إليك المُلْكَ رِفقاً بخَلْقه ... وقد عَدِموا رُكنَ الإمامة واضطُرّوا

(١) ما بين القوسين ساقط فى ط .

(٢) ما بين القوسين ساقط فى ط .

(٣) كذا فى ط ونفح الطيب (ج ٣ ص٤٧ طبعة بلاق) . وفى ت : « لها » .

وزادك بالتَّمْحيص عِزًّا ورفعـــةً ... وأجْراً ولولا السَّبْكُ ماعُرف[1] التِّبْر
وأنت الذى تُدْعى إذا دَهِم الرَّدَى ... وأنت الذى تُرْجَى إذا أَخْلَف القَطْر
وأنتَ إذا جار الزمانُ مُحَكَّمٌ ... لك النقضُ والإبرامُ والنهْىُ والأمر
وهـذا ابنُ نصْرٍ قد أَتَى وجَناحُه ... مَهِيضٌ ومِنْ عُلْياك يُلْتَمَس الجَبْر
غريب يُرَجِّى منك ما أنتَ أهلُه ... فإن كنتَ تبغِى الفخرَ قدجاءك الفَخْر
ففُزْ يا أمير المسلمين[2] ببَيْعة[3] ... مُوَثَّقة قد حلَّ عُرْوَتها الغـــدر
ومثلك مَنْ يَرْعَى الدَّخيلَ ومن دَعا ... بَيا لَمَرِينٍ جاءه العِـــزّ والنَّصْر
وخُذ يا إمامَ الحقّ[4] بالحق ثأرَه ... ففى ضِمْن ما تأتى به العِزُّ والأجر
وأنت لهـــا ياناصرَ الحق فلتقمْ ... بحقٍّ فما زيدٌ يُرجَّى ولا عَمْرو
فإن قِيل مالٌ مالُك الدهرَ وافرٌ ... وإن قيل جيشٌ عندك العَسْكَر المَجْر
يُكَفُّ بك العادِى ويَحْيا بك الهُدى ... ويَبنِى بك الإسلامُ ما هدَم الـكُفر
أَعِـــدْه إلى أوطانه عنك راضياً ... وطَوِّقه نُعماك التى مالهـــا حَصْر
[١٢٤] وعاجل قلوبَ الناس فيــه بجَبْرها ... فقد صدّهم عنـه التغلّبُ والقَهْر
وهم يرقبون الفِعْل منك وصَفقةً ... تُحاولها يُمناك ما بعـدها خُسْر
مَرامُك سَهْل لا تَؤُودُك كُلْفة ... سِوَى عَرَض ما إنْ له فى العُلا خَطْر
وما العُمْر إلا زينـــة مُستعارة ... تُرَدّ ولـكنّ الثنــــاءَ هو العُمْر
ومَنْ باع ما يَفْنَى بباقٍ مخـــلّد ... فقد أنجح المَسْعَى وقد رَبِح التَّجْر

(١) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « لم يعرف » .
(٢) فى ط : « المؤمنين » .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « لبيعه » .
(٤) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « الخلق » .

ومِنْ دون ما تَبغيه يا مَلِكَ الهُدى جيادُ المَذاكى والمُحجَّلَةُ الغرُّ
ورَادٌ وشُقْر واضحات شِياتهــا فأجســامُها تِبْر وأرْجلها دُرّ
وشُهبٌ إذا ما ضُمِّرتْ يومَ غارةٍ مَطهَّمَةٌ غارتْ بها الأنجمُ الزُّهْر
وأُشْـدُ رجالٍ من مَرِين مُخيفةٌ عمائمها بيضٌ وآســالها سُمْر
عليها من الماذىّ كلّ مُفاضَـة تدافعُ فى أعطافها اللججُ الخُضْر
هُمُ القومُ إن هَبُّوا لـكَشْف مُلمَّة فلا المُلتقى صَعْبٌ ولا المُرْتقى وَعْر
إذا سُئلوا أَعْطَوْا وإن نوزعوا سَطَوْا وإن واعدُوا وفَّوْا وإن عاهدوا بَرُّوا
وإن مُدِحوا اهتزّوا ارتياحاً كأنَّهم نَشاوَى تَمشَّتْ فى مَعاطفِهم خمْر
وإن سَمِعوا العَوراءَ فرُّوا بأنفُس حرامٌ على هِمَّاتها فى الوَغَى الفرّ (١)
وتبسِمُ ما بين الوَشيج ثغورُهم وما بين قُضْب الدَّوْح يبتسِم الزَّهْر (٢)
أمَولاىَ غاضت فِكرتى وتبلَّدت طِباعى فلا طَبْعٌ يُعين ولا فِكر
ولولا حَنانٌ مِنْك داركْتَنى به وأحيَيْتنى لم تبقَ عينٌ ولا أَثْر
فأوجَدْتَ منّى فائتًا أىَّ فائت وأَنْشرتَ مَيْتًا ضَمَّ أشلاءَه قَبْر
بدأْتَ بفضل لم أَكُن لعَظيمه بأهل فجَلَّ اللُّطْف وانفرج الصَّدْر
وطَوَّقْتنى النُّعمى المضاعَفةَ التى يَقِلّ عليها مِنِّىَ الحمدُ والشُّكر
وأنت بتَتْميم الصَّنائع كافلٌ إلى أن يعودَ الجاه والعِزّ والوَفْر
جَزاك الذى أسنَى مَقامَك عِصْمةً يُفَكُّ بهـا عانٍ ويُنْعش مُضْطَرّ
إذا نحن أثنينا عليـك بِمدْحة فهَيْهات يُحصَى الرَّمل أو يُحصَرُ القَطْر
ولـكنَّنا نأتِى بمـا نَسْتطيعه ومَنْ بذلَ المجهود حَقّ له العُذْر

---

(١) العوراء : الـكلمة القبيحة .
(٢) الوشيج : الرماح .

فلا تسأل عن امتعاض وانتقاض[١]، وسَداد أنحاء فى التأثر لنا وأغراض، والله غالب على أمْره .

انصراف السلطان أبى عبد الله إلى الأندلس

وفى صَبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوّال عام اثنين وستين وسَبع مِئَة كان انصرافه إلى الأندلس ، وقد ألح صاحب قَشتالة فى طلبه ، وترجّح الرأى على قصده ، فقعد السلطان بقُبّة العَرْض من جنة المصارة ، وبرز الناس وقد أسمعهم البُريح[٢]، واستُحْضِرت البُنود ، والطبول والآلة ، وألبس خِلعة الملك ، وقِيدت له مَراكبه فاستقلّ ، وقد التف عليه كل من جلا عن الأندلس من لَدُنِ الكائنة فى جملة كثيفة ، ورُئى من رقة الناس وإجهاشهم وعلوّ أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد ، إذ كان مَظِنة ذلك سكوناً وعطافاً[٣] وقربا ، قد ظلله الله برواق الرحمة ، وعطف عليه وشائج المحبة ، إلى كونه مظلوم العَقد ، منتزع الحق ، فتبعته الخواطر ، وحَمِيت عليه الأنفس ، وانصرف لوجهته ؛ وهو الآن برُندةَ مستقل بها وبجهاتها ، ومقتنع برسم [سلطنتها[٤]] وقد قام له برسْم الوزارة الشيخ القائد أبو الحسن على بن يوسف بن كَمَّاشة الحضْرمى ، وبكتابته الفقيه أبو عبد الله بن زَمْرك ، وقد استفاض عنه من الحزم والتدرّب والتيقظ للأمور والمعرفة بوجوه المصالح ما لا يُنكر ، كان الله له ولنا بفضله » .

[١٢٥]

انتهى كلام ابن الخطيب فى اللمحة البدرية .

---

(١) كذا فى نفح الطيب المطبوع والمخطوط . وفى الأصلين : « وانتفاض » .

(٢) البريح (كلمة دخيلة وهى كما فى دوزى) : بمعنى الصريخ ، أو إعلان الحرب ، أو الهتاف بالتعبئة .

(٣) كذا فى النسخة الخطية من نفح الطيب . وفى المطبوعة والأصلين : « وعفافا » .

(٤) زيادة عن نفح الطيب . ومكان هذه الكلمة فى ط : « الوزارة » .

وقد عرفت أنه فى ذلك التاريخ لم يكن دخل السلطان غرناطة ، ولم يلحق به ابن الخطيب حتى دخلها .

خبر هذه القصة كما رواها ابن خلدون

وقد ذكر ولى الدين بن خَلْدون هذه الواقعة فى تاريخه الكبير ، وأحسن سَرْدها ، فقال فى ترجمة أيام السلطان أبى سالم ما نصه :

الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غَرناطة
ومقتل رضوان ومَقْدَمه على السلطان

لما هلك السلطان أبو الحجّاج سنة خمس وخمسين [وسبع مئة[١]] ونصب ابنه محمد الأمر ، واستبدَّ عليه رضوان مولى أبيه ، وكان قد رشح ابنه الأصغر إسماعيل بما ألقى عليه وعلى أمه من محَبته ، فلما عدلوا بالأمر عنه حجَبوه ببعض قصورهم ، وكان له صِهْر من ابن عمه محمد بن إسماعيل بن الرئيس أبى سعيد ، فكان يدعوه سرًّا إلى القيام بأمره ، حتى أمكنته فرصةٌ فى الدولة بخروج السلطان [١٢٦] إلى بعض مُتنزَّهاته برياضه ، فصعِد سورَ الحمراء ليلة سبع وعشرين لرمضان من سنة ستين فى [بعض][٢] أوشاب جمعهم من الطَّغام لثورته ، وعَمَد إلى دار الحاجب رضوان ، فاقتحم عليه الدار ، وقتله بين حرَمه و بناته ، وقرّبوا إلى إسماعيلَ فرسَه فركب ، فأدخلوه القصر ، وأعلنوا ببيعته ، وقرعوا طُبولهَم بسور الحمراء ، وفرّ السلطانُ من مكانه بمتنزّهه ، فلحق بوادى آش ، وغدا[٣] الخاصة والعامة على إسماعيل فبايعوه ، واستبدّ عليه هذا الرئيس ابن عمه ، فخلعه لأشهر[٤] من بيعته ، واستقل

(١) زيادة عن نفح الطيب .
(٢) زيادة عن تاريخ ابن خلدون (ج ٧ ص ٣٠٦ طبعة بلاق) .
(٣) الكلام من قوله «وغدا» إلى قوله « بوادى آش » ساقط فى تاريخ ابن خلدون .
(٤) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « فخلعه لشهرين » .

بسلطان الأندلس . ولما لحق السلطان أبو عبد الله محمد بوادى آش ، بعد مَقتل حاجبه رضوان ، واتّصل الخبرُ بالسلطان المولى أبى سالم ، امتعض لمهلِك رضوان ، وخلْع السلطان رَعْيا لما سلف له فى جِوارهم ، وأَزعج لحِينه أبا القاسم الشريف من أهل مجالسه لاستقدامه ، فوصل إلى الأندلس ، وعقد مع أهل الدولة على إجازة المخْلُوع من وادى آش إلى المغرب ، وأطلق مِن اعتقالهم الوزيرَ الكاتب أبا عبدالله ابن الخطيب ، كانوا اعتقلوه لأول أمرهم ، لما كان رَديفا للحاجب رضوان ، ورُكْنا لدولة المخلوع ، فأوصى المولَى أبو سالم إليهم بإطلاقه فأطلقوه ؛ ولحق مع الرسول أبى القاسم الشريف بسلطانه المخلوع بوادى آش للإجازة إلى المغرب ، وأجازَ لِذى القَعدة من سَنته ، وقَدِم على السلطان بفاس ، وأجَلّ قدومَه ، وركب للقائه ، ودخل به إلى مجلس ملكه ، وقد احتفل ترتيبه وغُصّ بالمشيخة والعِلْية ، ووقف وزيره ابن الخطيب ، فأنشد السلطان قصيدته الرائية يَستصْرِخُه لسلطانه ، ويستحِثُّه لمظاهرته على أمره ، واستعطف واسترحم بما أبكى الناس ، شفقة له ورحمة .

ثم سَرَد ولىّ الدين بن خلدون القصيدة التى قدمنا ذكرها إلى آخرها ، [١٢٧] قال(١) : ثم انفض المجلس ، وانصرف ابن الأحمر إلى نزله(٢) وقد فُرِشت له القصور ، وقُرِّبت الجياد بالمراكب الذهبية ، وبُعِث إليه بالكُسى الفاخرة ، ورُتبت الجرايات له ولمواليه من المعْلوجى(٣) ، وبطانته من الصنائع ، وحفظ عليه رسم سلطانه فى الراكب والراجل ، ولم يفقد من ألقاب ملكه إلا الآلة(٤) ،

(١) فى ت : « ثم قام ثم انقضى ... الخ » .
(٢) كذا فى ت ونفح الطيب وتاريخ ابن خلدون . وفى ط : « منزله » .
(٣) يريد العلوجيين ، أى الموالى من النصارى . (عن تكملة المعجمات لدوزى) .
(٤) فى تاريخ ابن خلدون : « الأداة » .

أدبا مع السلطان ، واستقر فى جُمْلته إلى أن كان من لَحاقه بالأندلس . وارتجاع مُلْكه سنة ثلاث وستين ، ما نحن نذكره .

انتهى كلام ابن خلدون ، وفيه بعض مخالفة يسيرة لكلام ابن الخطيب فى اللمحة البدرية .

شىء عن أحوال ابن الخطيب كما رواها ابن خلدون

ولا بد أن نسرد كلام ابن خلدون فى شأن ابن الخطيب ، إذ ذكره فى ترجمة السلطان أبى فارس ابن السلطان أبى الحسن المَرينى بما نصه :

الخبر عن قدوم الوزير ابن الخطيب على السلطان بتلمسان
نازعا إليه عن سلطانه ابن الأحمر صاحب الأندلس

أصل هذا الرجل من لَوْشة ، على مرحلة من غَرناطة ، فى الشمال من البسيط الذى فيه ساحتها ، المسمى بالمَرْج ، على وادى شَنْجيل ، ويقال شنبيل[1] ، المخترق[2] فى ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال ، كان له بها سلفٌ معدود فى وزرائها ، وانتقل أبوه عبدُ الله إلى غَرناطة ، [واستُخْدِم لملوك بنى الأحمر ، واستعمل على مخازن الطعام ، ونشأ ابنه محمد بغَرناطة[3]] وقرأ وتأدّب على مشيختها ، واختُصّ بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هُذَيل ، وأخذ عنه العلوم الفَلسفية ، وبرّز فى الطبّ ، وانتحل الأدب ، وأخذ عن أشياخه ، وامتلأ حوض[4] السلطان من نظمه

(١) كذا فى الأصلين وابن خلدون . وظاهر أن الكلمتين محرفتان عن « شنيل » وهو اسم نهر غرناطة الشهير ، وقد ولع الشعراء بوصف هذا الوادى وتفضيله على النيل بزيادة الشين ، وهى ألف من العدد ، أى أنه يفضل النيل بألف ضعف . (راجع نفح الطيب ج ١ ص ٩٤ طبعة أوربا والإحاطة ج ١ ص ٢٦) .

(٢) فى تاريخ ابن خلدون : « المنحرف » .

(٣) هذه العبارة ساقطة فى ط .

(٤) كذا فى تاريخ ابن خلدون . وفى الأصلين ونفح الطيب : « وامتلأ من حول السلطان نظمه » .

ونثرُه ، مع انتقاء الجيد منه ، ونبغ فى الشعر والترسيل ، بحيث لا يجارى فيهما ، وامتدح السلطان أبا الحجّاج من ملوك بنى الأحمر لعصره[١] ، وملأ الدنيا بمدائحه ، وانتشرت فى الآفاق ، فرقّاه السلطان إلى خدمته ، وأثبته فى ديوان الكُتّاب ببابه ، مرءوسا بأبى الحسن بن الجَيّاب ، شيخ العُدْوتين فى النظم والنثر ، وسائر العلوم الأدبية ، وكاتب السلطان بغرناطة من لدن أيام محمد المخلوع من سلفه ، [١٢٨] عند ما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبدّ عليه ، كما مرّ فى أخبارهم . فاستبد [ابن الجياب برياسة الكتاب من يومئذ إلى أن هلك فى الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبع مئة ، فولّى السلطان أبو الحجاج يومئذ محمد][٢] ابن الخطيب رياسة الكتاب[٣] ببابه ، مُثَنّاة بالوزارة ، ولقّبه بها ، فاستقل بذلك ، وصدرت عنه غرائب من الترسيل فى مكاتبات جيرانهم من ملوك العُدوة ، ثم داخله السلطان فى تولية العُمّال على يده بالمشارطات ، فجمع له بها أموالا ، وبلغ به فى المخالطة[٤] إلى حيث لم يبلغ بأحد ممن قبله ؛ وسَفَر عنه إلى السلطان أبى عِنانٍ ملك بنى مَرِين بالعُدْوة ، معزّيا بأبيه السلطان أبى الحسن ، فجلّى فى أغراض سفارته . ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين ، عدا عليه بعض الزعانف [يوم الفطر بالمسجد][٢] فى سجوده للصلاة ، وطعنه فأشواه ، وفاظ لوقته[٥] وتعاورتْ سيوف الموالى المعلوجيّ[٦] هذا القاتل ، فمزّقوه أشلاء ،

(١) هذه الكلمة : « لعصره » . ساقطة فى ت وتاريخ ابن خلدون .
(٢) زيادة عن تاريخ ابن خلدون .
(٣) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « الكتابة » .
(٤) كذا فى ت والنسخة الخطية من نفح الطيب . وفى ط وابن خلدون والنسخة المطبوعة من نفح الطيب : « فى المخالصة » .
(٥) هذه العبارة : « وفاظ لوقته » ساقطة فى ت . وفاظ : مات .
(٦) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٢٠٣ من هذا الجزء .

وبويع ابنه محمد [بالأمر] (١) لوقته ، وقام بأمره مولاهم رِضوان ، الراسخ القدم فى قيادة عساكرهم ، وكفالة الأصاغر من ملوكهم . واستبد بالدولة ، وأفرد ابن الخطيب بوزارته . كما كان لأبيه . [واتخذ لكتابته غيره] (١) وجعل ابن الخطيب رَدِيفا له فى أمره (٢) ، ومشاركا فى استبداده معه ، فجرت الدولة على أحسن حال ، وأقوم طريقة ، ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيرا إلى السلطان أبى عنان ، مستَمِدِّين له على عدوهم الطاغية ، على عادتهم مع سلفه ، فلما قدم على السلطان ومَثَل بين يديه ، تقدم الوفدَ الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها ، واستأذنه فى إنشاد شعر (٣) قدَّمه بين يدى نَجْواه ، فأذن له ، وأنشد وهو قائم :

خَليفةَ الله ساعَــــدَ القدرُ ... عُلاك ما لاح فى الدجى قمرُ

ودافعَتْ عنك كَفُّ قُدْرته ... ماليس يَستطيع دفعه البَشَر

وجهك فى النائبات بَدْر دُجًى ... لنــــا وفى المَحْل كَفُّك المطَر [١٢٩]

والناسُ طُرًّا بأرض أندلس ... لولاك ما أوطنوا ولا عَمَروا

وجمــــلةُ الأمر أنه وَطَن ... فى غير عُلياك ما له وَطَر (٤)

ومن به مذ (٥) وصلْتَ حبلَهم ... ما جَحدوا نعمةً ولا كفروا

وقــــد أهمَّتْهُم بأنفسِهِمْ ... فوجَّهونى إليك وانتظروا

فاهتز السلطان لهذه الأبيات ، وأذن له فى الجلوس ، وقال له قبل أن يجلس :

---

(١) زيادة عن تاريخ ابن خلدون .

(٢) كذا فى ط وتاريخ ابن خلدون . وفى ت ونفح الطيب : « رديفا لرضـوان فى أمره » .

(٣) فى تاريخ ابن خلدون : « شىء من الشعر » .

(٤) هذا البيت ساقط فى تاريخ ابن خلدون .

(٥) كذا فى نفح الطيب وتاريخ ابن خلدون . وفى الأصلين : « قد » .

ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم ، ثم أثقل كاهلهم بالإحسان ، وردّهم بجميع ما طلبوه . وقال شيخُنا القاضى أبو القاسم الشريف ، وكان معه فى ذلك الوفد : لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا .

ومكثَتْ دولتهم هذه بالأندلس خمْسَ سنين ، ثم ثار بهم محمدٌ الرئيس ابن عم السلطان ، شَرِكه فى جَدّه الرئيس أبى سعيد ، وتحيَّن خروج السلطان إلى متنزهه خارجَ الحمراء ، وتسوروا دار المُلْك المعروفة بالحمراء ، وكَبس رضوان فى بيته ، فقتله ونصَب المُلْك إسماعيل بن السلطان أبى الحجاج ، بما كان صِهْرَه على شقيقته ، وكان معتَقَلا بالحمراء ، فأخرجه ، وبايع له ، وقام بأمره مستبدا عليه ، وأحسّ السلطان محمد بقرع الطبول وهو بالبستان ، فركب ناجياً إلى وادى آش ، وضبَطها ، و بعث بالخبر إلى السلطان أبى سالم إثْر ما استولى على مُلْك آبائه بالمغرب ، وقد كان مَثْواه أيام أخيه أبى عِنان عندهم بالأندلس ، واعتقل الرئيسُ القائم بالدولة هذا الوزيرَ ابن الخطيب ، وضيَّق عليه فى محبسه ، وكانت بينه و بين الخطيب ابن مرزوق مودة استحكمت أيام مُقامه بالأندلس ، وكان غالباً على هوى السلطان أبى سالم ، فزيّن له استدعاء هذا السلطان المخلوع من وادى آش ، يعُدّه زَبوناً[1] [١٣٠] على أهل الأندلس ، ويكُفّ به عادية القرابة المرشحين هنالك ، متى[2] طمحوا إلى ملك المغرب ، فقبل ذلك منه ، وخاطب أهل الأندلس فى تسهيل طريقه من وادى آش إليه ، و بعَثَ مِنْ أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التِّلِمْسانى ، وحمله مع ذلك الشفاعة فى ابن الخطيب ، وحلِّ مُعْتَقَله ، فأُطْلِق ؛ وصحب الشريف أبا القاسم إلى وادى آش ، وسار فى ركاب سلطانه ، وقدِموا على

(١) زبونا ، أى حربا وقوة . (انظر تكملة المعجمات لدوزى مادة زبن) .
(٢) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « كما » . وفى ت : « ممن » .

السلطان أبى سالم ، فاهتزَّ لقدوم ابن الأحمر ، وركب فى الموكب لتلقّيه ، وأجلسه إزاءَ كُرسيّه ، وأنشد ابنُ الخطيب قصيدَته كما مر ، يَستصرخ السلطان لنصره ، فوعده ، وكان يوماً مشهوداً ، وقد مر ذكره ، ثم أكرم مثواه ، وأرغد نُزُلَه ، ووفّر أرزاق القادمين فى ركابه ، وأرغد عيشَ ابن الخطيب فى الجِراية والإقطاع . ثم استأنس[1] واستأذن السلطان فى التَّجوال بجهات[2] مَرّاكُش ، والوقوف على آثار المَلِك بها ، فأَذن له وكتب إلى العُمَّال بإتحافه ، فتبارَوْا[3] فى ذلك ، وحَصَلَ منه على حظ . وعند ما مر بسَلا إثْر قُفوله من سفره ، دخل مَقْبرة الملوك بشالة ، ووقف على قبر السلطان أبى الحسن ، وأنشد قصيدة على روى الراء [الموصولة][4] ، يرثيه ويستجير به فى استرجاع ضياعه بغرناطة ، مطلعها :

إنْ بان منزله وشَطَّت دارُهُ قامت مَقامَ عِيانه أَخبارُهُ
قَسِّم زمانك عِبْرَةً أَوْ عَبْرَةً هذا ثَراه وهـذه آثاره

فكتب السلطانُ أبو سالم فى ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة ، فَشَفَّعوه ، واستقر هو بسلا ، مُنْتَبَذا عن سُلْطانه طول مُقامه بالعُدْوة . ثم عاد السلطانُ محمد المخلوعُ إلى مُلْكه بالأندلس سنة ثلاث وستين ، وبعث عن مُخَلَّفه بفاس من الأَهْل والولد ، والقائم بالدَّولة يومئذ عمرُ بن عبد الله بن علىّ ، فاستقدم ابن الخطيب من سَلَا ، وبعثهم لنظره ، فسُرَّ السلطان بقدومه ، وردَّه إلى منزلته ، كما كان مَعَ رضوان كافله ، وكان عثمان بن يحيى بن عمر شيخ الغُزاة وابن أشياخهم قد لحق بالطاغية فى ركاب أبيـه ، عندما أحسّ بالشرّ من الرئيس

---

(١) فى ط ونفح الطيب : « استيأس » .
(٢) فى تاريخ ابن خلدون : « فى التحول إلى جهات . . . الخ » .
(٣) فى تاريخ ابن خلدون : « فتبادروا » .
(٤) زيادة عن تاريخ ابن خلدون .

صاحب غَرْناطة ، وأجاز يحيي من هنالك إلى العُدْوَة ، وأقام عثمانُ بدار الحَرْب ، فصَحِبَ السلطانَ [فى مَثْوى اغترابه هنالك ، وتقلَّب فى [مذاهب] [١] خِدمته ، وانحرفوا عن الطاغية بعد[٢] ما يَئِسوا من الفتح على يده ، فتحوَّلوا عنه إلى ثُغور بلادهم ، وخاطبوا [الوزير] [١] عمر بن عبد الله فى أن يمكِّنهم من بعض الثغور الغربية[٣] التى لطاغيتهم[٤] بالأنداس ، يرتقبون منها الفتح ، وخاطبنى السلطانُ المخلوع فى ذلك ؛ وكانت بينى و بين عمر بن عبد الله أَذِمَّة مَرْعِيَّة ، وخاصَّة متأكِّدة ، فوفَّيت] [٥] للسلطان بذلك من عُمَرَ بن عبد الله ، وحَملته على أن يَرد عليه مدينةَ رُنْدة ، إذ هى من تُراث سَلَفه ، فقَبِل إشارتى فى ذلك ، وتَسَوَّغَها السلطانُ المخلوع ، ونزل بها وعثمانُ بن يحيي فى جُمْلَته ، وهو المقدّم فى بطانته ، ثم غزوا منها مالَقة ، فكانت ركابا للفتح ، وملكها السُّلطانُ ، واستولى بعدها على دار ملكه بغَرْناطة ؛ وعثمان بن يحيي متقدم القوم فى الدولة ، عريق فى المخالصة ، وله على السّلطان دَالّة ، واستبداد على هواه . فلما وصل ابن الخطيب بأهل السلطان وولده ، وأعاده إلى مكانه فى الدولة ، من عُلُوِّ يده ، وقبول إشارته ، أدركته الغَيْرة من عثمان ، ونَكِر على السلطان الاستكفاء به ، و [أراه] [١] التخوف من هؤلاء الأعياض[٦] على ملكه ، فحذَرَه السلطان ، وأخذ فى التدبير عليه ، حتى نكبه وأباه و إخوته فى رمضان سنة أربع وستين ، وأودعهم[٧] المُطْبِق ، ثم غَرَّبهم بعد ذلك ، وخلا لابن الخطيب

(١) زيادة عن نفح الطيب .
(٢) كذا فى تاريخ ابن خلدون . وفى الأصلين : « عند » .
(٣) كذا فى نفح الطيب وابن خلدون . وفى الأصلين : « القريبة » .
(٤) فى تاريخ ابن خلدون . « أطاعتهم » .
(٥) زيادة عن ت ونفح الطيب .
(٦) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « الأعياس » .
(٧) فى ط : « وأوعدهم » .

الجو ، وغلب على هوى السلطان ، ودفع إليه تدبير الدولة ، وخلط بَنِيه بنُدَمائه وأهل خَلْوته ، وانفرد ابن الخطيب بالحلّ والعقد ، وانصرفت إليـه الوجوه ، [١٣٢] وعلِقَتْ به الآمال ، وغَشِى بابَه الخاصة والكافَّة ، وغَصَّتْ به بِطانة السلطان وحاشيته ، فتفننوا[1] فى السِّعايات فيه ، وقد صُمّ السلطان عن قَبولها ؛ ونمى الخبر بذلك إلى ابن الخطيب ، فشمّر عن ساعده فى التفويض ، واسْتُخْدم للسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبى الحسن ، ملك العُدوة يومئذ ، فى القبض على ابن عمّه عبد الرحمن بن أبى يَفْلُوسن ابن السلطان أبى علىّ ، كانوا قد نَصَّبوه شيخاً على الغُزاة بالأندلس ، لما أجاز من العُدوة بعد ما جاسَ خِلالها ، لطلَب الملك ، وأَضْرم بها نار الفتنة فى كل ناحية ، وأحسن دفاعه الوزير عمر بن عبد الله ، القائم حينئذ بدولة بنى مرين ، فاضطُرّ إلى الإجازة إلى الأندلس ، فأجاز هو ووزيره مسعود بن ماساى ، ونزلوا على السلطان المخلوع عام سبعة وستين ، فأكرم نُزُلَهُمْ ، وتُوُفِّى علىّ بن بدر الدين شيخ الغزاة ، فقدم عبد الرحمن مكانه. وكان السلطان عبد العزيز قد استبد بملكه بعد مقتل الوزير عمر بن عبد الله ، فغصّ بما فعله السلطان المخلوع من ذلك ، وتوقع انتقاض أمره منهم ، ووقف على مخاطبات من عبد الرحمن يسرّ بها فى بنى مَرين ، فجزع لذلك ، وداخله ابن الخطيب فى اعتقال ابن يفلُوسَن وابن ماساى ، وإراحة نفسه من شغبهم ، على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه ، فأجابه إلى ذلك ، وكتب له العهد بخطه ، على يد سفيره إلى الأندلس وكاتبه أبى يحيى بن أبى مدين[2] ؛ وأغرَى ابنُ الخطيب سُلْطانه بالقبض على ابن يفلوسن وابن ماساى ، فقبض عليهم [١٣٣] واعتقلهم ، وفى خلال ذلك استحكمت نُفْرة ابن الخطيب لِما بلغه عن البطانة ،

---

(١) فى تاريخ ابن خلدون : « فتوافقوا على ... الخ » .

(٢) العبارة من قوله : « فجزع » إلى هنا ساقطة فى تاريخ ابن خلدون .

من القدح فيه والسعاية ، وربما تخيل أن السلطان مال إلى قَبولها ، وأنهم قد أحفظوه عليه ، فأجمع التحول عن الأندلس إلى المغرب ، واستأذن السلطان فى تفقّد الثغور [الغربية] (١) ، وسار إليها فى لُمَّة من فُرسانه ، ومعه ابنه علىّ الذى كان خالصة للسلطان ، وذهب لِطِيَّته ، فلما حاذى جبلَ الفتح ، فرضةَ المجاز إلى العدوة ، مال إليه ، وسرح إذنه بين يديه ، فخرج قائد الجبل لتلقيه . [وقد كان السلطان عبد العزيز أوعز إليه بذلك ، وجهز له الأسطول من حينه ، فأجاز إلى سَبتة ، وتلقاه ولاتها بأنواع التكرمة ، وامتثال المراسم ، ثم سار لقصد السلطان ، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين ، بمُقامه بتِلمسان ، فاهتزت له الدولة ، وأركبَ السلطانُ خاصّته لتلقيه] (٢) ، وأحلّه من مجلسه بمحلّ الأمن والغبطة ، ومن دولته بمكان التنويه والعزة ، وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبى مدين سفيراً إلى صاحب الأندلس فى أهله وولده ، فجاء بهم على أكمل حالات الأمن والتكرمة ، ثم أكثر (٣) المنافسون له فى شأنه ، وأغروا سلطانه بتتبع عَثَراته ، وإبداء ما كان كامناً فى نفسه من سقطاته ، وإحصاء معايبه ، وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزَّندقة ، أحصوها عليه ونسبوها [إليه] (٢) ، ورُفِعت إلى قاضى الحضرة أبى الحسن بن الحسن فاسترعاها ، وسَجَّل عليه بالزَّندقة ، وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه ، وبعث القاضى ابن الحسن إلى السلطان عبد العزيز فى الانتقام منه بتلك السِّجِلّات ، وإمضاء حكم الله فيه ، فصَمّ عن ذلك ، وأَنِفَ لذمّته أَنْ تُخْفَر ، ولجواره أن يُرَدّ ، وقال لهم : هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ! وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان فى جوارى ؛ ثم وفَّر

(١) زيادة عن تاريخ ابن خلدون .
(٢) زيادة عن ت وابن خلدون ونفح الطيب .
(٣) فى ابن خلدون : « لغط » .

الجِراية والإقطاع له ولبنيه ، ولمن جاء من أهل الأندلس فى جملته . فلما هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين ، ورجع بنو مرين إلى المغرب ، وتركوا [١٣٤] تِلِمْسان ، سار هو فى ركاب الوزير أبى بكر بن غازى ، القائم بالدولة ، فنزل بفاس ، واستكثر من شراء الضياع ، وتأنّق فى بناء المساكن ، واغتراس الجنات ، وحفظ عليه القائم بالدولة الرسوم التى رسمها له السلطان المتوفَّى ، واتصلت حاله على ذلك ، إلى أن كان ما نذكره .

انتهى كلام ابن خلدون وأكثره بلفظه .

كتاب القاضى أبى الحسن إلى ابن الخطيب

قلت : وقد وقفت على كتاب للقاضى أبى الحسن بن الحسن المذكور يخاطب به ابن الخطيب ويعظه ، ويشير إلى ما اشتغل به من البنيان ، وفيه ما بين كلام ابن خلدون السابق وزيادة ، وما يدل على ما ذكره ابن خلدون من أنه سَجَّل عليه بأمور منكرة ، وعند الله تجتمع الخصوم ، وقد أسقطت بعضه اختصارا ، ونص ما تعلق به الغرض قوله يخاطب الوزير ابن الخطيب :

فشرعتم فى الشراء ، وتشييد البناء ؛ وتركتم الاستعداد لهادم اللذات ، هيهات هيهات ؛ تبنون مالا تسكنون ، وتدخرون مالا تأكلون ، وتؤملون مالا تدركون ؛ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مُشَيَّدة ، فأين المهرب مما هو كائن ! ونحن إنما نتقلّب فى قدرة الطالب ، شَرَّقتم أو غرّبتم ، [والأيام تتقاضى الدَّين ، وتنادى بالنفس الفرّارة إلى أين إلى أين ! ونترك الكلام مع الناقد] (١) فيما ارتكبه من تزكيته نفسه ، وعَدِّ ما جلبه من مناقبه ، ما عدا ما هدَّد به من حديد لسانه ، خشيةَ اندراجه فى نَمَط من قال فيه رسول الله صلى الله عليه

(١) ما بين القوسين زيادة عن ت ونفح الطيب .

وسلم : « إن من شر الناس من تركه الناس اتقاء فُحْشه »[1] . ولا غِيبة فيمن ألقى جلباب الحَياء عن وجهه ؛ ونرجمه على ما أبداه وأهداه من العيوب التى نَسبها لأخيه ، واستراح على قوله بها فيه ، ونذكّره على طريقة نصيحة الدين ، بالحديث الثابت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله : [١٣٥] « أتدرون مَنِ المُفْلِس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ! فقال : إن المُفْلِس مِن أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيُعْطَى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم ، فطُرِحت عليه ، ثم طرح فى النار » . ويعلم الله أن معنى هذا الحديث الثابت عن النذير الصادق ، هو الذى حملنى على نُصحكم ومُراجعتكم فى كثير من الأمور ، منها الإشارة عليكم بإذهاب عين ما كتبتم به فى التاريخ وأمثاله ، فإنكم نفعتم بما وقعتم فيه من الغِيبة المحرّمة أحياءً وأمواتاً ، لغير شىء حصل بيدكم ، وضررتم نفسكم بما رتّبتم لهم من المطالبات بنصّ الكتاب والسنة قِبَلكم ، والرضا بهذه الصفقة الخاسرة أمر بعيد من الدين والعقل . وقد قلت لكم غير ما مرّة عن أطْراسكم المسودّة ، بما دعوتم إليه من البِدْعة ، والتلاعب بالشريعة : إن حقها التخريق والتحريق ، وإنّ من أطراها لكم فقد خدع نفسه وخدَعكم ، والله الشهيد بأنى نصحتكم وما غششتكم ، وليس هذا القول وإن كان ثقيلا عليكم ، بمُخالف كلّ المخالفة لما ذنبتم[2] به من تقدم المواجهة بالملاطفة ، والمعاملة بالمكارمة ، فليست المداراة بقادحة فى الدين ، بل هى محمودة

(١) الحديث كما فى الجامع الصغير للسيوطى (ج ١ ص ٢٢٨) : « إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه » .

(٢) كذا فى الأصلين ونفح الطيب . ولعلها محرفة عن « زننتم به » ، أى ظننتم به .

فى بعض الأحوال ، مستحسنة على ما بيّنه العلماء ، إذ هى مقاربة[١] فى الكلام ، أو مجاملة بأسباب الدنيا ، لصلاحها أو صلاح الدين ، وإنما المذموم المداهنة ، وهى بذل الدين لمجرد الدنيا ، والمصانعة به لتحصيلها ؛ ومن خالط للضرورة مثلكم وزايله بأخلاقه ، ونصحه مخاطبة ومكاتبة ، واستدل له بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على صحة مقالته ، فقد سَلِم والحمد لله من مداهنته ، وقام لله [١٣٦] بما يجب عليه فى حقكم من التحذير والإنكار ، مع الإشفاق والوجل . وأكثرتم فى كتابكم من المنّ بما ذكرتم أنكم صنعتم ، وعلى تقدير الموافقة لكم ، ليتكم فعلتم فسلمنا من المعرّة وسلمتم ، وجلّ القائل سبحانه : « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم » . وقلما شاركتم أنتم فى شىء إلا بأعراض حاصلة فى يدكم ، أو لأغراض دنيوية خاصة بكم ، فالملام إذاً فى الحقيقة إنما هو متوجّه إليكم . وأما ما أظهرتم بمقتضى حركاتكم وكلامكم ، من التندم[٢] على فراق محلّكم ، والتعلل بأخبار قُطْركم وأهلكم ، فتناقضٌ منكم ، وإن كنتم فيه بغدركم[٣] :

أتبكى على لبنى وأنتَ تركتَها ... فكنتَ كآتٍ حَتْفه[٤] وهو طائعُ

وما كل ما منّتك نفسُك خاليا[٥] ... تُلاقِى ولا كلّ الهوى أنت تابع

فلا تبكينْ فى إثر شىء ندامةً ... إذا نزعتْه من يديك النوازع[٦]

(١) فى النسخة الخطية من نفح الطيب . « متقاربة » .

(٢) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « الشؤم » .

(٣) كذا فى نفح الطيب المطبوع والخطى . وفى الأصلين : « بعذركم .

(٤) كذا فى الأغانى (ج ٩ ص ٢١٧ طبعة دار الكتب) . وفى الأصلين ونفح الطيب : « غيه » .

(٥) كذا فى الأغانى . وفى الأصلين ونفح الطيب : « مخليا » .

(٦) البيت كما فى الأغانى :

فلا تبكين فى إثر لبنى ندامة ... وقد نزعتها من يديك النوازع

وهذه الأبيات من شعر لقيس بن ذريح فى زوجته لبنى بنت الحباب الكعبية .

وعلى أن تأسفكم[1] لما وقعتم فيه من الغدر لسلطانكم ، والخروج لا لضرورة غالبة عن أوطانكم ، من الواجب بكل اعتبار عليكم ، سيما وقد مددتم إلى التمتع لغيرها عينيكم . ولو لم يكن لهذه الجزيرة الفريدة من الفضيلة إلا ما خصت به من بركة الرباط ، ورحمة الجِهاد ، لكفاها فخراً على ما يجاورها من سائر البلاد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه » ، وقال عليه السلام : « الرَّوْحة يروحها العبد فى سبيل الله والغدوة خير من الدنيا وما فيها » .

وعلى كل تقدير فإذا لم يكن يا أخى فراركم من الأندلس إلى الله وحده بالتوبة المكمّلة والاستغفار ، مع الانقطاع فى أحد المواطن المكرمة المعظمة بالإجماع ، وهى طِيبة أو مكة أو بيت المقدس ، فقد خَسِرتم صَفقة رحلتكم ، وتبين أنّ لغير وجه الله العظيم كانت نية هِجْرتكم ؛ اللهم إلا إن كنتم قد [١٣٧] لاحظتم مسألة الرجل الذى قتل مَئة نفس ، وسأل أعلم أهل الأرض ، فأشار عليه بعد إزماع التوبة بمفارقة المواطن التى ارتكب فيها الذنوب ، واكتسب بها العيوب ؛ فأمرٌ آخر ، مع أن كلام العلماء فى هذا الحديث معروف[2] ؛ ويقال لكم من الجواب الخاص بكم : فعليكم إذاً بترك القيل والقال ، وكسر حربة الجدال والقتال ، وقصر ما بقى من مدة العمر على الاشتغال بصالح الأعمال . ووقعت فى مكتوبكم كلمات أوردها النقد فى قالب الاستهزاء والازدراء ، والجهالة بمقادير الأشياء ، منها : ريح صرصر ، وهو لغة القرآن ، وقاع قرقرٍ ، وهو لفظ سيد العرب والعجم محمد صلى الله عليه وسلم . ثبت فى الصحيح فى باب التغليظ فيمن لا يؤدى زكاة ماله ، « قيل : يا رسول الله ، والبقر والغنم ؟ قال : ولا صاحب بقر ولا غنم

(١) فى ت : « أسفكم » .
(٢) انظر القرطبي (ج ٦ ص ١٥٣ طبعة دار الكتب) عند تفسير قوله تعالى : « أو ينفوا من الأرض » .

لايؤدى منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة بُطِحَ لها بقاع قرقر لايفقد منها شيئاً، تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها(١). الحديث الشهير. قال صاحب المعلم(٢): بُطِح لها بقاع قَرْقر، أى ألقى على وجهه، والقاع: المستوى من الأرض، والقرقر: كذلك؛ هذا ما حضر من الجواب. وبقى فى مكتوبكم حَشْو كثير من كلام الإقذاع، وفُحْش بعيد من الحِشمة والحياء، رأيت أن من الصواب الإضراب عن ذكره، وصَوْن اليد عن الاستعمال فيه، والظاهر أنه إنما صدر عنكم وأنتم بحال مَرَض، فلا حرج فيه عليكم إن شاء الله، أجلّكم، ومكّن أمنكم، وسكن وَجَلكم، ومنه جلّ اسمه(٣) نسأل لى ولكم حسن الخاتمة، والفوز بالسعادة الدائمة، والسلام الأتم يعتمدكم، والرحمات والبركات من كاتبه على بن عبد الله بن الحسن، وفقه الله.

وذلك بتاريخ أخريات جمادى الأولى من عام ثلاثة وسبعين وسبع مئة.

وقيد رحمه الله فى مُدْرَج طى هذا الكتاب ما نصه:

[١٣٨] يا أخى، أصلحنى الله وإياكم، بقى من الحديث شىء، الصواب الخروج عنه لكم، إذ هذا أوانه، وتأخير البيان عن وقت الحاجة فيه ما فيه، وليكن البناء بعد أن كان على أصل صحيح بحول الله، وحاصله:

أنكم عددتم ما شاركتكم فيه بحسب الأوقات، وقطعتم بنسبة الأمور كلها لنفسكم(٤)، وأنها إنما صدرت عن أمركم وبإذنكم، من غير مشاركة فى شىء منها لكم، ثم مننتم بها المنّ القبيح، المبطل لعمل بركم، على تقدير

(١) ارجع إلى مسلم والبخارى فى باب الزكاة ففى لفظ الحديث روايات.
(٢) لعله يريد: المعلم بفوائد مسلم، وهو شرح على صحيح مسلم للإمام أبى عبد الله محمد التميمى.
(٣) فى النسخة الخطية من نفح الطيب: «ومنه سبحانه نسأل... الخ».
(٤) فى نفح الطيب: «إلى أنفسكم».

التسليم فى فعله لكم ، ورميتم غيركم بالتقصير فى حاله كله ، طريقة من يبصر القذى فى عين أخيه ويدع الجِذْع فى عينه ، وأقصى ما تسنّى للمحب أيام كونكم بالأندلس ، تقلّد كلفة قضاء الجماعة ، وما كان إلا أن وُليتها بقضاء الله وقدره ، فقد تبين لكل ذى عقل سليم أنه لا موجد إلا الله ، وإذا كان كذلك كان الخير والشر والطاعة والمعصية حاصلا بإيجاده سبحانه وتخليقه وتكوينه ، من غير عاضد له على تحصيل مراده ولا معين ، ولكنه ، جلت قدرته ، وعد فاعل الخير بالثواب فضلا منه ، وأوعد فاعل الشر بالعقاب عدلا منه ، وكأنى بكم تضحكون من تقرير هذه المقدمة ، وما أحوجكم إلى تأملها بعين اليقين ، فكابدت أيام تلك الولاية النكدة[1] من النكاية ، باستحقاركم للقضايا الشرعية ، وتهاونكم بالأمور الدينية ، ما يعظم الله به الأجر ، وذلك فى جملة مسائل ، منهـا مسألة ابن الزُّبير المقتول على الزندقة بعد تقصّى موجباته ، على كره منكم ؛ ومنهـا مسألة ابن أبى العيش المثقف[2] فى السجن على آرائه المضلة ، التى كان منها دخوله على زوجه إثر تطليقه إياها بالثلاث ، وزعمه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره مشافهة بالاستمتاع بها ، فحملتم أحد ناسكم تناول إخراجه من الثقاف[3] ، من غير مُبالاة بأحد ؛ ومنهـا أن أحد الفتيان المتعلقين بكم توجهت عليه مطالبة بدم قتيل ، وسيق المدعى عليه للذبح[4] بغير سكين ، فما وسعنى بمقتضى الدين إلا حبسه على ما أحكمته السـنة ، فأنفتم لذلك ، وسجنتم الطالب[5] ولىّ الدم ، وسرحتم الفتى المطلوب على الفور ، إلى غير ذلك مما لا يسع الوقت شرحه ، ولا يجمل بى ولا بكم [١٣٩]

(١) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « المنكرة » .
(٢) المثقف : المسجون . (عن تكملة المعجمات لدوزى) .
(٣) الثقاف : الحبس والسجن . (عن دوزى) .
(٤) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « الذبيح » .
(٥) فى النسخة الخطية من نفح الطيب : « المطالب » .

ذكره . والمسألة الأخرى أنتم توليتم كِبْرها ، حتى جرى فيها القدر بما جرى من الانفصال ، والحمد لله على كل حال . وأما الرمى بكذا وكذا مما لا علم لنا بسببه ، ولا عذر لكم من الحق فى التكلم به ، فشىء قلما يقع مثله من البهتان ، ممن كان يرجو لقاء ربه ، وكلامكم فى المدح والهجو هو عندى من قبيل اللغو الذى نمر به كراما ، والحمد لله فكثّروا[1] أو أقلوا من أى نوع شئتم ، أنتم وما ترضونه لنفسكم[2] ، وما فُهْت لكم بما فُهْت من الكلام ، إلا على جهة الإعلام ، لا على جهة الانفعال ، لما صدر أو يصدر عنكم من الأقوال والأفعال ، فمذهبى غير مذهبكم ، وعندى ما ليس عندكم .

وكذلك رأيتكم تكثرون فى مخاطبتكم من لفظ الرُّقية فى مَعرِض الإنكار لوجود نفعها ، والرمى بالمنقصة والحمق لمستعملها ، ولو كنتم قد نظرتم فى شىء من كتب السنة ، وسير الأمة المسلمة ، نظر مصدّق ، لما وَسِعكم إنكارُ ما أنكرتم ، وكَتْبه بخط يدكم ، فهو قادح كبير فى عقيدة دينكم ، فقد ثبت بالإجماع فى سورة الفَلقَ أنه خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأن المراد بها هو وآحاد أمته ؛ وفى أمهات الإسلام الخمس أن رسول صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى رقاه جبريل ، فقال : بسم الله يُبريك[3] ، ومن كل داء يشفيك ، ومن شرّ حاسد إذا حسد ، [١٤٠] ومن شر كل ذى عين . وفى الصحيح أيضاً أن أناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا فى سَفَر ، فمروا بحىّ من أحياء العرب ، فاستضافوهم فلم يضيفوهم ، فقالوا : هل فيكم راق ؟ فإن سيد الحىّ لديغ أو مصاب ؛ فقال رجل من القوم : نعم ، فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب ، فبرئ الرجل ، فأُعْطى قطيعا من

(١) فى النسخة الخطية من نفح الطيب : « أكثروا أو قللوا » .
(٢) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « لأنفسكم » .
(٣) يريد : « يبرئك » فسهل .

غنم ، الحديث الشهير . قال أهل العلم : فيه دليل على جواز أخذ الأجرة على الرُّقية والطب وتعليم القرآن ، وهو قول مالك والشافعى وأحمد وأبى ثور وجماعة من السلف ، وفيه جواز المقارضة ، وإن كان ضد ذلك أحسن ، وفى هذا القدر كفاية . وما رَقَيت قط أحداً على الوجه الذى ذكرتم ، ولا استرقيت ، والحمد لله ، وما حَمَلَنى على تبيين ما بينته الآن لكم فى المسأله ، إلا إرادة الخير التام لجهتكم ، والطمع فى إصلاح باطنكم وظاهركم ، فإنى أخاف عليكم من الإفصاح بالطعن فى الشريعة ، ورمى علمائها بالمَنْقصة ، على عادتكم وعادة المستخف ابن هُذَيْل شيخكم ، منكر علم الجزئيات ، القائل بعدم قدرة الرب على جميع الممكنات ؛ وأنتم قد انتقلتم إلى جوار أناس أعلام ، قلما تجوز عليهم ، حَفِظَهُمُ الله ، المغالطات ، فتأسركم شهادة العدول التى لا مدفع لكم فيها ، وتقع الفضيحة ، والدين النصيحة ، أعاذنا الله من دَرْك الشقاء ، وشماتة الأعداء ، وجَهْد البلاء .

وكذلك أحذركم من الوقوع بما لا ينبغى فى الجناب الرفيع ، جناب سيد المرسلين ، وقائد الغُرّ المحجَّلين ، صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه نقل عنكم فى هذا الباب أشياء منكرة ، يكبر فى النفوس التكلم بها ، أنتم تعلمونها ، وهى التى زرعت فى القلوب ما زَرَعت من بغضكم ، وإيثار بعدكم ، مع استشعار الشفقة والوجل من وجه آخر عليكم ، ولولا أنكم سافرتم قبل تقلص ظل السلطنة عنكم ، لكانت الأمة المسلمة ، امتعاضاً لدينها ودنياها ، قد برزت بهذه الجهات ، لطلب الحق منكم ، فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم من خُدّام الدول ماصدر عنكم ، من العبث فى الأبشار والأموال ، وهتك الأعراض ، وإفشاء الأسرار ، وكشف الأستار ، واستعمال المكر والحيل والغدر فى غالب[1] الأحوال ، للشريف والمشروف ، والخديم والمخدوم ، ولو لم يكن فى الوجود من الدلائل على صحة ما رضيتم به لنفسكم ، من [١٤١]

(١) فى ط : « فى سائر » .

الاتسام بسوء العهد ، والتجاوز المحض ، وكفران النعم ، والركون إلى ما تحصل من الحطام الزائل[(١)] ، إلا عملكم مع سلطانكم مولاكم وابن مولاكم ، أيده الله بنصره ، وما ثبت من مقالاتكم السيئة فيه ، وفى الكثير من أهل قطره ، لكفاكم وَصْمة لايغْسل دَنَسها البحر ، ولا يَنسى عارَها الدهر ، فإنكم تركتموه أولا بالمغرب عند تلوّن الزمان ، وذهبتم للكديه[(٢)] ، والأخذ بمقتضى المقامة الساسانية ، إلى أن استدعاه المَلك ، وتخلصت له بعد الجهد الأندلس ، فسقطتم عليه سقوط الذُّباب على الحَلواء ، وضربتم وجوه رجاله بعضاً ببعض ، حتى خلا لكم الجو ، وتمكن الأمر والنهى ، فهمزتم ولَمَزْتم ، وجمعتم من المال ما جمعتم ، ثم وَرَّيتم بتفقد ثغر الجزيرة الخضراء ، مكراً منكم ، فلما بلغتم أرض الجبل انحرفتم عن الجادة ، وهربتم بأثقالكم الهروب الذى أنكره عليكم كل من بلغه حديثكم أو يبلغه إلى آخر الدهر فى العُدوتين ، من مؤمن وكافر ، وبَر وفاجر ، فكيف يستقيم لكم بعد المعرفة بتصرّفاتكم حازم ، أو يثق بكم فى قول أو فعل صالح أو طالح . ولو كان قد بقى لكم من العقل [١٤٢] ما تتفكرون به فى الكيفية التى ختمتم بها عملكم بالأندلس ، من الزيادة فى المغرم وغير ذلك ، مما لكم وِزْره ووِزْر من عمل به بعدكم إلى يوم القيامة ، حسبما ثبت فى الصحيح لحملكم على مواصلة الحزن ، وملازمة الأسف والندم على ما أوقعتم فيه نفسكم الأمّارة ، من التورط والتنشّب فى أشطان الآمال ، ودسائس الشيطان ، ونعوذ بالله من شرور الأنفس ، وسيئات الأعمال .

وأما قولكم عن فلان : إنه كان حشرة فى قشور[(٣)] اللّوز ، و إن فلاناً كان

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « الحطام باليد » .

(٢) كذا فى نفح الطيب المطبوع . وفى النسخة الخطية : « للكذبة » . وفى الأصلين : « للكيدة » .

(٣) فى نفح الطيب : « فى قلوب » .

بُرْغوثاً فى تراب الخمول ، فكلام سَفْسَاف ، يقال لكم من الجواب عليه : وأنتم يا هذا ، أين كنتم منذ خمسين سنة مثلا ؟ خلق الله الخلق لا استظهاراً بهم ولا استكثاراً ، وأنشأهم كما قدر أحوالا وأطواراً ، واستخلفهم فى الأرض بعد أمة أمماً ، و بعد عصر أعصاراً ، وكَلَّفهم شرائعه وأحكامه ، ولم يتركهم هَمَلا ، وأمرهم ونهاهم ، ليبلوهم أيُّهم أحسن عملا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، و بكل اعتبار فلا نعلم فى نَمَط الطلبة تدريجا كان أسمح فى تدريجكم ، ونبدأ من كذا ، فإنه كان كذا وكذا ، وأكثر أهل زمانه تحملا وتقللا فى نفسه بالنسبة إلى منصبه ، كان الشيخ أبو الحسن بن الجياب ، ولكنه حين علم رحمه الله من نشأتكم ؛ وحالتكم ما علم ، نبذ مصاهرتكم ، وصرف عليكم صداقكم وكذلك فعلت بنت جُزَىّ زوج الرهيصى معكم ، حسبما هو مشهور فى بلدكم ، وذكرتم أنكم ما زلتم من أهل الغِنى حيث نقرتم بذكر العَرَض [وهو بفتح العين والراء : حُطام الدنيا ، على ما حكى أبو عبيد ، قال أبو زيد : هو بسكون الراء : المال الذى [١٤٣] لا ذهب فيه ولا فضة] ، وأى مال خالص يعلم لكم أو لأبيكم بعد الخروج من الثقاف[1] ، على ما كان قد تبقى عنده من مجبى قرية مترايل ، ثم من العدد الذى برز قبلكم ، أيام كانت أشغال الطعام بيدكم ، على ما شهد به الجمهور من أصحابكم ؛ وأما الفلاحة التى أشرتم إليها ، فلا حق لكم فيها ، إذ هى فى الحقيقة لبيت مال المسلمين ، مع ما بيدكم ، على ما تقرر فى الفقهيات ، والمعدوم شرعا كالمعدوم حِسًّا ، ولو قبل من أهل المعرفة بكم بعض ما لديهم من سَقَطاتكم فى القال والقيل ، ولم يُصْرف إلى دفع معرتها عنكم وجهُ التأويل ، لكانت مسألتكم ثانية لمسألة أبى الخير بل أبى الشر ، الحادثة أيام خلافة الحكم ، المسطورة فى نوازل

(١) يريد : الحبس والسجن . (انظر تكملة المعجمات لدوزى) .

أبى الأصبغ بن سهل ، فاعلموا ذلك ، ولا تهملوا إشارتى عليكم قديماً وحديثاً بلزوم الصلوات ، وحضور الجماعات ، وفعل الخيرات والعمل على التخلص من التَّبِعات ، إنَّ وعد الله حَقٌّ ، فلا تغرَّنَّـكم الحياةُ الدنيا ، ولا يَغُرَّنَّـكم بالله الغَرور .

وقلتم فى كتابكم : أين الخُطط المتوارثة عن الآباء والأجداد ؟ وقد أذهب الله عنا ببركة الملة المحمدية غيبة الجاهلية ، فى التفاخر بالآباء ، ولـكننى أقول لكم على جهة المقابلة لكلامكم : إن كانت الإشارة إلى المجيب بهذا ، فمن المعلوم المتحقق عند أفاضل الناس أنه من حيث الأصالة أحد أماثل قطره . قال القاضى أبو عبد الله ابن عسكر : وقد ذكر فى كتابه من سَلَفى فلان بن فلان ما نصه : وبيته بيت قضاء وعلم وجلالة ، لم يزالوا يرثون ذلك كابراً عن كابر ، استقضى جده المنصور ابن أبى عامر . وقال غيره وغيره ، وبيدى من عهود الخلفاء ، وصُـكوك الأمراء المكتتبة بخطوط أيديهم ، من لدن فتح جزيرة الأندلس إلى هذا العهد القريب ، [١٤٤] ما تقوم به الحجة القاطعة للسان الحاسد والجاحد ، والمنة لله وحده . وإن كانت الإشارة إلى الغير[١] من الأصحاب فى الوقت ، حفظهم الله ، فكل واحـد منهم إذا نُظِر إليه بعين الحق ، وُجِد أقرب منكم نسباً للخطط المعتبرة ، وأولى بميراثها بالفرض والتعصيب ، أو مساوياً على فرض المسامحة لـكم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، حرام دمه وماله وعرضه .

ونرجع إلى طريقة أخرى فنقول : من كان يافلان من قومكم فى عمود نسبكم فقيهاً مشهوراً ، أو كاتباً قبلـكم معروفاً ، أو شاعراً مطبوعاً ، أو رجلا نبيهاً مذكوراً ، ولو كان يالَوْشِيّ وكان ، لـكان من الواجب الرجوع إلى التناصف

(١) فى النسخة المطبوعة من نفح الطيب : « للغير » .

والتواصل والتواضع ، وترك التحاسد والتباغض والتفاطع ، إن الله لا ينظر إلى صُوَركم وأبدانكم ، ولـكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالـكم .

وكذلك العَجَب كل العجب من تسميتكم الخَرِبات التى شرعتم فى بنائها بدار السلامة ، وهيهات هيهات ، المعروف من الدنيا أنها دار بلاء وجَلاء ، وعَناء وفناء ، ولو لم يكن من الموعظة الواقعة بتلك الدار فى الوقت إلا موت سعيدكم عند دخولها ، لأغناكم عن العلم اليقينى بمآلها ، وأظهرتم سروراً كثيراً بما قلتم إنكم نلتم حيث أنتم من الشهوات التى ذكرتم أن منها الإكثار من الأكل والخرق ، والقعود بإزاء جارية المـاء على نِطْع الجلد ، والإمساك أولى بالجواب على هذا الفصل ، فلا خفاء بما فيـه من الخِسة والخبائث والخبث ، وبالجملة ، فسرور العاقل إنما ينبغى أن يكون بما يجمل تقديمه من زاد التقوى للدار الباقية ، فما العيش كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا عيش الآخرة ، فقدموا إن قبلتم وَصاة الحبيب أو البغيض [١٤٥] بَعْضاً ، عسى أن يكون لكم ، ولا تخلفوا كيلا[١] يكون عليكم ، هذا الذى قلته لكم وإن كان لدى من يقف عليه من نمط[٢] الـكثير ، فهو فى اعتبار المكان ، وما مر من الزمان فى حيز اليسير ، وهو فى نفسـه قول حق وصدق ، ومُستَنَدُ أكثره كتاب الله وسنة محمد رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبيائه ، فاحمدوا الله العلى العظيم على تذكيركم به ، إذ هو مجرى النصيحة الصريحة ، يسّرنى الله وإياكم لليُسْرَى ، وجعلنا ممن ذُكِّر فانتفع بالذكرى ، والسلام .

انتهى كلام القاضى ابن الحسن النَّباهى رحمه الله .

قلت : ولعل هذا الـكلام وأشباهه هو الحامل لابن الخطيب على هجو القاضى

---

(١) كذا فى ط . وفى ت ونفح الطيب : « كلا » .

(٢) فى النسخة الخطية من نفح الطيب : « وغط » .

ابن الحسن المذكور فى الـكتيبة الكامنة ، حيث ذكره ولقبه بجُعْسوس[(١)] ، ووصفه بما لا يليق ذكره ، ثم ألف فى ذلك تأليفاً مستقلا ، سماه بخلع الرَّسَن ، فى وصف القاضى ابن الحسن ، حسبما ألفيت ذلك بخط شيخ شيخنا القاضى سيدى عبد الواحد الونشريسى رحمه الله ، ولا يخلو كلام كل واحد منهما من تحامل على صاحبه ، والله يسمح لنا ولهما بجاه النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال ولى الدين بن خلدون فى تاريخه ، فى موضع آخر ما نصه :

كان محمد بن الأحمر المخلوع قد رجع من رُندة إلى ملـكه بغرناطة ، فى جمادى من سنة ثلاث وستين ، وقتل له الطاغية عدوه الرئيس المنتزى على ملـكهم ، حين هرب من غَرناطة إليـه ، وفاءً بعهد المخلوع ، واستوى على كرسيه ، واستقل بملـكه ، ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمد بن الخطيب ، فاستخلصه ، وعقد له على وزارته ، وفوض إليه فى القيام بملـكه ، فاستولى عليه ، [١٤٦] وملك هواه ، وكانت عينه ممتدة إلى المغرب وسكناه إلى إن نزلت به آفة فى رياسته ، فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه ، وكان لأبناء السلطان أبى الحسن كلهم غيرةٌ من[(٢)] ولد عمهم السلطان أبى على ، ويخشونهم على أمرهم ، ولما لحق الأمير عبد الرحمن بن أبى يفلوسن بالأندلس ، اصطفاه ابن الخطيب ، واستخلصه لنجواه ، ورفع فى الدولة رتبته ، وأعلى منزلته ، وحمل السلطان على أن عقد له على الغُزاة المجاهدين من زناتة ، مكان بنى عمه من الأعياض[(٣)] ، فكانت له آثار فى الاضطلاع بها ، ولما استبد السلطان عبد العزيز بأمره ، واستقل بملـكه ، وكان ابن الخطيب ساعياً فى مرضاته عند سلطانه ، فدس[(٤)] إليه باعتقال عبد الرحمن

(١) الجعسوس : القصير الدميم .

(٢) فى تاريخ ابن خلدون (ج ٧ ص ٣٣٧ طبعة بلاق) : « على » .

(٣) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « الأعياص » .

(٤) كذا فى ط وتاريخ ابن خلدون ونفح الطيب . وفى ت : « فأسر » .

ابن أبي يفلوسن ، ووزيره [المطارد به][1] مسعود بن ماساى ؛ وأدار ابنُ الخطيب في ذلك مكرَه ، وحمل السلطان عليهما ، إلى أن سطا بهما ابن الأحمر ، واعتقلهما سائرَ أيام السلطان عبد العزيز ؛ وتغيّر الجو بين ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب وأظلم ، وتنكّر له ، فنزع عنه إلى عبد العزيز[2] سلطان المغرب سنة ثنتين وسبعين ، لِمَا قدَّم من الوسائل ، ومهَّد من السوابق ؛ فقبله السلطان ، وأحلّه من مجالسه محل الاصطفاء والقرب ، وخاطب ابنَ الأحمر في أهله وولده ، فبعثهم إليه ، واستقر في جملة السلطان . ثم تأكدت العداوة بينه و بين ابن الأحمر ، فرغَّب السلطانَ [عبد العزيز][3] في ملك الأندلس ، وحمله عليه ، وتواعدوا لذلك عند رجوعه من تِلْمِسان إلى المغرب ؛ ونَمَى ذلك إلى ابن الأحمر ، فبعث إلى السلطان [عبد العزيز][3] بهديّة لم يُسْمَع بمثلها ، انتقى فيها من متاع الأندلس وماعونها ، وبغالها الفارهة ومَعْلوجيّ[4] السَّبْي وجواريه ، وأوفد بها رسله ، يطلب إسلام وزيره ابن الخطيب إليه ، فأبى السلطان من ذلك ونَكِره . ولما هلك واستبد الوزير ابن غازى بالأمر ، تحيز إليه ابن الخطيب وداخله ، وخاطبه ابن الأحمر فيه بمثل ما خاطب السلطان [عبد العزيز][3] ، فلجَّ واستنكف عن ذلك وأقبح الردّ ، وانصرف رسوله إليه وقد رَهِب سطوته ؛ فأطلق ابن الأحمر لحينه عبدَ الرحمن بن أبي يفلوسن ، وأركبه الأسطول وقذف به إلى ساحل بطوية[5] ، ومعه الوزير مسعود بن ماساى ، ونهض — [يعنى ابن الأحمر] —[3] إلى جبل الفتح ، فنازله بعساكره ، ونزل عبد الرحمن ببطوية . [١٤٧]

(١) زيادة عن ابن خلدون .

(٢) العبارة من قوله « وتغير الجو » إلى قوله « عبد العزيز » ساقطة في تاريخ ابن خلدون .

(٣) زيادة عن نفح الطيب .

(٤) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٢٠٣ من هذا الجزء .

(٥) بطوية : من حصون ورباطات سفاقس ، وهي على البحر وبها منار مفرط في الارتفاع . (عن المغرب للبكرى) .

ثم ذكر ابن خلدون كلاما كثيرا ، تركته لطوله ، وملخصه : أن الوزير أبا بكر ابن غازى ، الذى كان معه[١] ابن الخطيب ، ولّى ابن عمه محمد بن عثمان مدينة سبتة ، خوفا عليها من ابن الأحمر ، ونهض هو ، أعنى الوزير ، إلى منازلة عبد الرحمن بن أبى يفلوسن ببطوية ، إذ كانوا قد بايعوه ، فامتنع عليه ، وقاتله أياما ، ثم رجع إلى تازا[٢] ، ثم إلى فاس ، واستولى عبد الرحمن على تازا ، و بينما الوزير أبو بكر بفاس يدبّر الرأى ، إذ وصله الخبر بأن ابن عمه محمد بن عثمان بايع السلطان أحمد بن أبى سالم ، وهو المعروف بذى الدولتين ، وهذه هى دولته الأولى ، وذلك أن ابن عم الوزير ، وهو محمد بن عثمان ، لما تولى سبتة ، كان ابن الأحمر قد طاول حصار جبل الفتح ، وأخذ بمخَنَّقه ، وتكرّرت المراسلة بينه و بين محمد بن عثمان والعتاب ، فاستعتب له ، وقبّح ما جاء به ابن عمه الوزير أبو بكر بن غازى ، من الاستغلاظ له فى شأن ابن الخطيب وغيره ، فوجد ابن الأحمر بذلك السبيل إلى غرضه ، وداخله فى [١٤٨] البيعة لابن السلطان أبى سالم ، من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الحَوْطة والرِّقبة ، وأن يقيمه للمسلمين سلطانا ، ولا يتركهم فوضى وهملا تحت ولاية الصبى الذى لم يبلغ ، ولا تصح ولايته شرعا ، وهو السعيد بن أبى فارس ، الذى بايعه الوزير أبو بكر بن غازى بتلمسان حين مات أبوه ، واستبد عليه ، واختص ابن الأحمر أحمدَ ابن أبى سالم من بين أولئك الأبناء ، لِمَا سبق بينه و بين أبيه أبى سالم من الموالاة . وكان ابن الأحمر اشترط على محمد بن عثمان وحزبه شروطا ، منها أن ينزلوا له عن جبل الفتح ، الذى هو محاصر له ، وأن يبعثوا إليه جميع أبناء الملوك من بنى مَرِين ، ليكونوا تحت حَوْطته ، وأن يبعثوا إليه بالوزير ابن الخطيب متى قدَروا

---

(١) فى نفح الطيب : « الذى كان تحيز إليه ابن الخطيب » .

(٢) تازا : موضع من أعمال بنى العافية ، فى جبل منه الذهب . (عن المغرب للبكرى) .

عليه ؛ فانعقد أمرهم على ذلك ، وتقبّل محمد بن عثمان شروطه ، وركب من سبتة إلى طنجة ، واستدعى أبا العباس أحمد من مكان اعتقاله ، فبايعه ، وحمل الناس على طاعته ، واستقدم أهل سبتة للبيعة وكتابتها ، فقدموا وبايعوا ، وخاطب أهل جبل الفتح ، فبايعوا ، وأفرج ابن الأحمر عنهم . وبعث إليه محمد بن عثمان عن سلطانه بالنزول له عن جبل الفتح ، وخاطب أهله بالرجوع إلى طاعته ؛ فارتحل ابن الأحمر من مالقة إليه ، ودخله ، ومحا دعوة بني مرين ، مما وراء البحر ، وأهدى للسلطان أبي العباس ، وأمده بعسكر من غُزاة الأندلس ، وحمل إليه مالاً للإعانة على أمره . ولما وصل الخبر بهذا كله إلى الوزير أبي بكر بن غازي ، قامت عليه القيامة ، وكان ابن عمه محمد بن عثمان كتب إليه يُموِّه بأن هذا عن أمره ، فتبرأ من ذلك ، ولاطف ابن عمه أن ينقض ذلك الأمر ، فاعتل له [١٤٩] بانعقاد البيعة لأبي العباس . وبينما الوزير أبو بكر ينتظر إجابة ابن عمه إلى ما رامه منه ، بلغه الخبر بأنه أشخص الأبناء المعتقلين كلهم للأندلس ، وحصلوا تحت كفالة ابن الأحمر ، فوجم وأعرض عن ابن عمه ، ونهض إلى تازا لمحاصرة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ، فاهتبل[1] في غيبة ابن عمه محمد بن عثمان مُلْكَ المغرب ، ووصله مدد السلطان ابن الأحمر من رجال الأندلس الناشبة[2] نحو ستمائة ، وعَسْكَرٌ آخر من الغُزاة . وبعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد مع ابن عمه السلطان أحمد ، ومظاهرته ، واجتماعهما على مُلْك فاس ، وعقد بينهما الاتفاق على أن يختص عبد الرحمن بملك سلفه ، فتراضيا . وزحف محمد بن عثمان وسلطانه إلى فاس ، وبلغ الخبر إلى الوزير أبي بكر بمكانه من

(١) اهتبل : غنم .
(٢) الناشبة ، يريد : الرماة .

تازا ، فانفضّ معسكره ، ورجع إلى فاس ، ونزل بكُدْية العرائس ؛ وانتهى السلطان أبو العباس أحمد إلى زرهون[١] ، فصمد إليه الوزير بعساكره ، فاختل مَصافّه ، ورجع على عقبه مفلولا ، وانتهب عسكره ، ودخل البلد الجديد البيضاء ، وجأجأ[٢] بالعرب أولاد حسين ، فعسكروا بالزّيْتون ظاهر فاس ، فنهض إليهم الأمير عبد الرحمن من تازا بمن كان معه من العرب الأجلاف ، وشرّدهم إلى الصحراء ، وشارف السلطان أبو العباس أحمد بمجموعة من العرب وزناتة ، وبعثوا إلى ولىّ دولتهم ونزمار بن عريف ، بمكانه من قصره الذى اختطه بمَلويّة[٣] ، فجاءهم وأطلعوه على كامن أسرارهم ، فأشار عليهم بالاجتماع والاتفاق ، فاجتمعوا بوادى النجا ، وتحالفوا ، ثم ارتحلوا إلى كُدْية العرائس فى ذى القعدة من سنة خمس وسبعين ، وبرز إليهم الوزير بعساكره ، فانهزمت جموعه ، [١٥٠] وأحيط به ، وخلص إلى البلد الجديد بعد غص الريق . واضطرب معسكر السلطان أبى العباس بكُدْية العرائس ، ونزل الأمير عبد الرحمن بإزائه ، وضربوا على البلد الجديد سياجا بالبناء للحصار ، وأنزلوا بها أنواع القتال والإرهاب ؛ ووصلهم مدد السلطان ابن الأحمر ، فأحكموا الحصار ، وتحكموا فى ضِياع ابن الخطيب بفاس ، فهدموها ، وعاثوا فيها . ولما كان فاتحَ سنة ست وسبعين داخل محمد بن عثمان ابنَ عمّه الوزير أبا بكر فى النزول عن البلد الجديد ، والبيعة للسلطان ، لكون الحصار قد اشتد به ويئس ، وأعجزه المال ، فأجاب ، واشترط عليهم الأمير

---

(١) الذى فى المغرب للبكرى : « زرهونة » .
(٢) كذا فى ت ونفح الطيب : وجأجأ : أهاب ودعا . وفى ط : « وجاء » .
(٣) ملوية : نهر كبير مشهور فى المغرب الأقصى ويصب إليه نهر سجلماسة ويصيران نهرا واحدا يصب فى بحر الروم فى شرقى سبتة وجنوبها على ثلاث مئة وعشرة أميال . (عن تقويم البلدان) .

عبد الرحمن التجانى له عن أعمال مراكش بدل سجلماسة ، فعقدوا له على كَره ، وطَوَوْا على المكر ، وخرج الوزير أبو بكر إلى السلطان أبى العباس وبايعه ، واقتضى عهده بالأمان وتخلية سبيله من الوزارة ، ودخل السلطان أبو العباس إلى البلد الجديد سابع المحرم ، وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى مراكش ، واستولى عليها .

نكبته ووفاته

محنة ابن الخطيب ووفاته :

ثم ذكر ابن خلدون الخبر عن مقتل ابن الخطيب فقال :

ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه [فاتح] [١] سنة ست وسبعين ، استقلّ بسلطانه ، والوزير محمد بن عثمان مستبد عليه ، وسليمان بن داود بن أعراب كبير بنى عسكر رديف له ، وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر عندما بويع بطنجة على نكبة ابن الخطيب ، وإسلامه إليه ، لِمَا نَمَى إليه عنه أنه كان يغرى السلطان عبد العزيز المرينى [٢] بملك الأندلس ، فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ، ولقيه أبو بكر بن [١٥١] غازى بساحة البلد الجديد ، فهزمه السلطان ، ولازمه بالحِصار ، أوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد ، خوفا على نفسه . فلما استولى السلطان على البلد أقام أياما ، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض عليه ، فقبضوا عليه ، وأودعوه السجن ، وطيّروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر ؛ وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب ، لما كان سليمان قد بايعه السلطان ابن الأحمر على مشيخة

(١) زيادة عن ت ونفح الطيب .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى ت ونفح الطيب .

الغزاة بالأندلس ، متى أعاده الله إلى ملكه ، فلما استقر له سلطانه ، أجاز له سليمان سفيرا عن [الوزير] [١] عمر بن عبد الله ، ومقتضيا عهده من السلطان ، فصده ابن الخطيب عن ذلك ، [محتجا] [١] بأن تلك الرياسة إنما هى لأعياض الملك من بنى عبد الحق ، لأنهم يعسوب زَناتة ؛ فرجع سليمان ، وأثار حقد ذلك لابن الخطيب ، ثم جاوز الأندلس لمحل إمارته من جَبَل الفَتْح ، فكانت تقعُ بَيْنه وبينَ ابنِ الخطيب مُكاتباتٌ ، يشير [٢] كلٌّ واحد منهما لصاحبه بما يُحْفِظه ، مما كَمَن فى صدورهما . وحينَ بلغ خبرُ القبض على ابن الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر بعثَ كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب ، وهو أبو عبد الله ابن زَمْرك ، فقدِم على السلطان أبى العباس ، وأحضر ابنَ الخطيب بالمَشْوَر [٣] فى مجلس الخاصة ، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له فى كتابه فى المحبة [٤] ، فعظُم النَّكِير فيها ، فوُبِّخ ونكِّل ، وامتُحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ ، ثم نُقِل [٥] إلى محبسه ، واشتوروا فى قتله بمقتضى تلك المقالات المسجَّلة عليه ، وأفتى بعضُ الفقهاء فيه ، ودسّ سليمانُ بن داود لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله ، فطرقوا السجن ليلا ، ومعهم زعانفة جاءوا فى لفيف الخدم ، مع سفراء السلطان ابن الأحمر ، وقتلوه خَنْقا فى محبسه ، وأُخرج شِلْوه من الغد ، فدُفن فى مقبرة باب المحروق ، [١٥٢] ثم أصبح من الغد على شافة [٦] قبره طريحا ، وقد جمعت له أعواد ، وأضرمت

(١) زيادة عن نفح الطيب .
(٢) فى نفح الطيب : « ينفث » .
(٣) كذا فى ت ونفح الطيب . والمشور : يريد مجلس المشورة . (راجع تكملة المعجمات لدوزى) . وفى ط : « بالمنشور » .
(٤) فى ت : « بالمحبة » .
(٥) كذا فى ط ونفح الطيب المطبوع . وفى ت والنسخة الخطية من نفح الطيب « ثل » .
(٦) كذا فى الأصلين . وفى نفح الطيب المطبوع والخطى : « سافة » . وفى الاحاطة : « ساقة » . ولعل الكلمة محرفة عن : « حافة » .

عليــه نار ، فاحترق شعره ، واسودّ بَشَره ، فأُعيد إلى حفرته ، وكان فى ذلك انتهاء محنته . وعجب الناس من هذه الشنعاء التى جاء بها سليمان ، واعتدُّوها من هَناته ، وعظُم النَّـكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته ، والله الفعال لمـا يريد .

شعره فى محبسه يبكى نفسه

وكان ، عفا الله عنه ، أيام امتحانه بالسجن يتوقّع مصيبة الموت ، فتجهش هواتفه بالشعر ، يبكى نفسَه ، ومما قال فى ذلك :

بَعُدْنا وإنْ جَاورتْنا البُيوتْ   وجِئْنا بوَعْظ ونحن صُموتْ
وأنفاسُنا سكنت دَفعــــةً   كَجَهْر الصلاة تلاه القُنوت
وكُنّا عِظامًا فصِرْنا عظاما   وكنا نَقُوت فهـــا نحن قُوت
وكنّا شموسَ سماء العُــــلا   غَرَبْن فناحت علينا السّموت[(١)]
فكم خَذَلَتْ ذا الحُسام الظُّبا   وذو البُخت كم جَدَّلَته البُخوت
وكم سِيقَ للقــبر فى خِرْقة   فتًى مُلِئت من كُساه التُّخوت
فقُلْ للعدا ذهب ابن الخطيب   وفات ومَنْ ذا الذى لا يفوت
ومَنْ كان يفرح منهم له   فقُل : يفرح اليومَ من لا يموتْ

انتهى كلام ابن خلدون فى ديوان العبر .

تخميس لبعض بنى الصباغ

ورأيت تخميسا لبعض بنى الصباغ على هذه القطعة ، لـكنّه زاد فيها بعضَ أبيات على ما ذكره ابن خلدون ، وها أنا أثبتُه تتميما للفائدة ، وهو :

أيا جاهــــلا غرّه ما يفوتْ   وألْهاه حالٌ قليــلُ الثبوتْ
تأمّل لمن بعد أنسٍ يَصُوتْ[(٢)]   بعــدنا وإن جاورتنا البيوتْ
وجئنا بوعظ ونحن صموتْ

(١) السموت : الطرق ؛ الواحد : سَمت . ولعله يريد : مدارات النجوم .
(٢) فى ط ونفح الطيب : « يفوت » .

لقد نِلتُ من دَهْرنا رِفعةً تقضَّت كبَرْق مضَى سُرْعةً
فهيهات ترجو لها رجعةً وأصواتنا(١) سَكَنت دَفعةً
كجهر الصلاة تلاه القنوتْ

بدا لى من العِزّ وجهُ شبابُ يُؤَمَّل سَيْبى وبأسى يُهابُ(٢) [١٠٣]
فسَرعان مُزِّق ذاك الإهابُ ومَدّت وقد أنكرتنا الثيابُ
علينا(٣) نسائجَها العنكبوتْ

فآها لعزّ تقضّى مَنامَا مُنِحْنا به الجاه دَوْما(٤) كِرامَا
وكنّا نَسُوس أمورًا عظامَا وكنّا عِظاما فصِرْنا عِظامَا
وكنّا نقوتُ فها نحن قُوتْ

وكنّا لذا المُلْك حَلْىَ الطُّلاَ فآها عليه زمانًا خلاَ
نُعَوَّض من جِدَّة بالبِلَى وكنا شُموسَ سماء العُلاَ
غَرَبْن فناحت علينا السُّموتْ

تعوّدْتُ بالرغم صرفَ الليالِى وحَمَّلْتُ نفسِىَ فوقَ احتمالِى
وأيقنتُ أنْ سوف يأتى ارتحالِى ومَنْ كانَ مُنتظراً للزوالِ
فكيف يُؤمَّل منه الثبوتْ

(١) فيما مر : « وأنفاسنا » .
(٢) كذا فى نفح الطيب . والسيب : العطاء . وفى ت : « يؤمن شيبى » . وفى ط : « يؤمن سيفى وسيبى .. الخ » .
(٣) فى ط : « عليها » .
(٤) كذا فى ت . وفى ط : « قدما » . وفى نفح الطيب : « قوما » .

هو الموت يا ما له من نبَا[١] يَجوز الحِجابَ إلى مَنْ أبَى
ويألف[٢] أخذ سنىّ الخِبَا[٣] فكم أسْلَمَتْ ذا الحُسام الظُّبَا
وذا البخت كم جدَّلته البُخوتْ

هو الموتُ أفصَحَ من عُجْمةٍ وأيقظَ بالوعظ من نَوْمةٍ
وسلَّى عن الحزن ذا حُرْقةٍ فكم سِيق للقبرِ[٤] فى خِرْقةٍ
فتى مُلِئتْ من كُساه التُّخوتْ

تقضَّى زمانى بعَيْشٍ خَصيبِ وعندى لذَنْبِى انكسارُ المُنيبِ
وهاالموتُ قد صُبْتَ منه نصيبى[٥] فقل للعدا ذهب ابن الخطيبِ
وفات ومن ذا الذى لا يفوتْ

مضَى ابنُ الخطيب كمن قبلَهُ ومَنْ بعده يَقْتفى سُبْلَهُ
وهذا الرَّدى ناثر شملَهُ[٦] فمن كان يفرح منهم لَهُ
فقل يفرح اليوم من لا يموتْ

---

(١) يريد : « نبأ » فسهل للشعر .
(٢) كذا فى نفح الطيب المطبوع . وفى الأصلين والنسخة الخطية من نفح الطيب : « ويأنف » .
(٣) كذا فى النسخة الخطية من نفح الطيب ، يريد : الخباء ، وقصره للشعر . ويريد بسنى الخباء : الشريف العزيز المتنع فى خبائه . وفى الأصلين ونفح الطيب المطبوع : « الحبا » .
(٤) فى ت (هنا) : « للموت » .
(٥) كذا فى نفح الطيب المطبوع والمخطوط . وفى ت : « قد ضقت منه نصيب » . وفى ط : « قد ضعت منه نصيب » .
(٦) موضع هذا الشطر فى الأصلين بياض . وقد زدناه عن نفح الطيب .

هو الموتُ عَمّ فما للعِـدَا يُسَرُّون بى حين[1] ذُقتُ الردَى
ومن فاته اليومَ يأتى غـدَا سَيَبْلى الجديدُ إذا ما المدَى

[١٠٤]

تتابع آحادُه والسُّبوتْ

أُخَىَّ توخَّ طـريقَ النجاةِ وقدِّم لنفسك قبـل المماتِ
وشمِّر بجِدٍ لمـا هو آتِى ولا تغـترِرْ بسَراب الحياةِ

فإنك عمّـا قريب تموتْ

انتهى . وقد تذكرت بقوله :

سيبلى الجـديد إذا ما المدا تتابع آحاده والسـبوت

قول الآخر :

نَطوِى سُبوتا وآحادا ونَنْشرها ونحن فى الطَّىِّ بين السَّبْتِ والأحدِ
فَعُدَّ ما شئتَ من سَبْت ومن أحدٍ لا بُدَّ أن يدخل المطْوِىُّ فى العَدَدِ

شعر ابن الخطيب

شعره :

قال بعض الأعلام : شعر ابن الخطيب ما بعده مطمع لطامع ، ولا مُعَرَّج على شاعر بعده للآذان والمَسامع ؛ فمن ذلك قوله سامحه الله :

عسى خَطْرَةٌ[2] بالرَّكْب ياحادىَ العِيسِ على الهضْبةِ الشَّماء من قَصْر باديسِ[3]

---

(١) فى ت : « حيث » .
(٢) كذا فى ط ونفح الطيب (ج ٤ ص ٥٨٤) . وفى ت : « نظرة » .
(٣) باديس : فرضة بينها وبين سبتة مئة ميل ، ويقابلها من الأندلس مالقة . (عن تقويم البلدان) .

لنظفر من ذاك الزُّلال بعَـلّة ... ونَنْعم فى تلك الظِّلال بتَعْريس (١)

حَبَسْت بها رَكْبى فُواقاً وإنّما ... عَقَدْت على قلبى لها عَقْد تَحْبيس (٢)

لقد رسخت آىُ الجَوا فى جوانحى ... كما رَسخ الإنجيل فى قلب قِسّيس

بمَيْدان جَفْنى للسّهاد كَتيبةٌ ... تُغِير على سَرْح الكَرَى فى كَراديس (٣)

وما بىَ إلا نَفْحة حاجرية ... سَرَتْ والدجى ما بين وَهْن وتَغْليس (٤)

ألاَ نَفَسٌ يا ريحُ من جانب الحِمَى ... تُنفِّس من نار الجوى بعضَ تَنْفيس

ويا قلب لا تُلْقِ السلاح فربما ... تعذَّر فى الدهر اطِّرادُ المقاييس

وقد تُعْتِب الأيامُ بعد عِتابها ... وقد يُعْقِب الله النعيمَ من البُوس

ولا تخشى لُجَّ الدمع يا خَطْرة الكرَى ... إلى الجفن بل قِيسى على صَرْح بِلْقِيس (٥)

تقول سُلَيْمَى : ما لجسمك شاحباً ... مقالةَ تأنيب يُشاب بتأنيس

وقد كنتَ تعطو كلما هبّت الصَّبا ... بريّانَ فى ماء الشَّبيبة مغموس

ومن رَابَح الأيامَ يا بنتَ عامر ... يجُوب الفَلا راحت يداه بتَفْليس (٦)

---

(١) التعريس : النزول للاستراحة آخر الليل .

(٢) الفواق (بالضم والفتح) : ما بين الحلبتين من الوقت ؛ أو ما بين فتح يدك وقبضها على الضرع . يريد : وقتا قصيرا .

(٣) الكراديس : القطع العظيمة من الخيل . يريد : جيوش السهاد .

(٤) حاجرية : نسبة إلى حاجر . وهو منزل من منازل الحاج . والوهن : نحو من نصف الليل أو بعد ساعة منه . والتغليس : آخره .

(٥) لا تخش : الصواب فيه فتح الشين وإسكان الياء ، إلا أن الوزن لا يستقيم بهذا الضبط . ويشير بصرح بلقيس إلى الآية الكريمة : « قيل لها ادخلى الصرح » .

(٦) رابح الأيام : غالبها ، يرجو أن ترجح كفته .

فلا تحسبي والصدقُ خيرُ(١) سجيّة ظُهورَ النّوَى إلاّ بطونَ النواميسِ(٢)

وقفــــراء أما رَكْبها فمُضلَّل ومَرْبعَها من آنس غيرُ مأنوس(٣)

سَـــنحنا(٤) بها من هضْبة لقرارة ضَلالا ومِلْنا من كِناس إلى خِيس(٥)

إذا مانهضنا عن(٦) مَقيلِ غزالة نزلنا فعرّسنا بساحة عِرّيس(٧) [١٥٥]

أدرنا بها كأساً دِهاقاً من السُّرَى أملنا بها عند الصَّباح من الروس

وحانة خَمَّار هدانا لقَصْدها شَميمُ الحُميّا واصطكاك النّواقيس

تَطلّع رَبّانيُّها من جِـــداره يُهَينِمْ فى جُنح الظلام بتَقْديس

بكرْنا وقُلْنا إذْ نزلنا بساحة عن الصافناتِ الجُردِ والضُّمَّرِ العِيس

أيا عابدَ الناسوت إنا عِصـــابة أتينا لتَثْليث بَلَى ولِتَسْـــديس

وما قَصْـــدنا إلا المقام بحَانة وكم أُلبِسَ الحقّ المبينُ بتَلْبيس

فأنزلنا قَوراء فى جَنَباتهـــا(٨) محاريب شتّى لاختلافِ النواميس

بَدَرْنا بها طين الختام بسَــجْدة أردنا بها تجـــديد حَسْرة إبليس

ودار العَذارى بالمُدام كأنها قطاً تتهادى فى رياش الطّواويس

وصارَفنا فيها نُضارا بمثـــله كأنا ملأنا الكأس ليلا من الكِيس

(١) فى ت : « غير » . وهو تحريف .

(٢) كذا فى الأصلين ونفح الطيب المخطوط والمطبوع . ولعلها محرفة عن « النواويس » بمعنى القبور .

(٣) المربع : الموضع الذى يرتبع فيه فى الربيع .

(٤) فى نفح الطيب : « سحبنا » .

(٥) الكناس : بيت الظبي . والخيس : موضع الأسد .

(٦) فى ت : « من » .

(٧) العريس : مأوى الأسد .

(٨) فى نفح الطيب المخطوط والمطبوع : « فأنزلنا فورا على جنباتها » .

وقُمنا نَشَاوَى عندما[1] متعَ الضُّحى ... كما نهضت غُلْب الأُسود من الخِيسِ[2]
فقال : لبئس المُسلمون ضيوفنا ... أما وأبيك الحَبْرْ[3] ما نحن بالبيس[4]
وهل فى بنى مَشْــواكَ إلا مُبرّز ... بحَلْبة شُورَى أو بحَلْقة تدريس
إذا هز عَسَّالَ اليَراعة فاتــكاً ... أسالَ نجيع الحِبْر فوق القراطيس
يقلِّب تحت النَّقْع مُقْلة ضاحك ... إذا التفتَ الأبطالُ عن مُقَل شُوس[5]
سَبينا عُقارَ الروم فى عُقْر خاننا[6] ... بحيلة[7] تَمْوِيه وخُدعة تَدْليس
لئن أنكرتْ شَــكْلى ففضلىَ واضحٌ ... وهل جائز فى العَقْل إنكار محسوس !
رسبت بأقصى الغرب ذُخْر مَضَنَّةٍ[8] ... وكم دُرّة علياء فى قاع قاموس
وأغريت سُوسِى[9] بالعُذَيْب و بارق ... على وَطن دانى الجِوار من السُّوس[10]

قصيدة لابن الخطيب فى المولد النبوى

ومن ذلك قوله رحمه الله فى الميلاد النبوى على صاحبه الصلاة والسلام يمدح مخدومه أبا عبد الله المخلوع :

ما على القلب بعدكم من جُناح ... أن يُرَى طائراً بغــــير جَناحِ

---

(١) فى ت : « بعدما » .
(٢) متع الضحى : بلغ آخر غايته .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « الخير » .
(٤) بالبيس : يريد : بالبئس ، أى لسنا بمن يقال لهم : بئس المسلمون .
(٥) شوس ، أى تنظر بمؤخر العيون غضبا .
(٦) فى نفح الطيب : « دارها » .
(٧) فى ط ونفح الطيب : « بحلية » .
(٨) فى نفح الطيب : « ثغر مضلة » .
(٩) كذا فى الأصلين ونفح الطيب المطبوع . والسوس (هنا) : السجية والطبع . وفى النسخة الخطية من نفح الطيب : « موسى » .
(١٠) العذيب وبارق : موضعان بالكوفة وفيهما يقول أبو الطيب :
تذكرت ما بين العذيب وبارق ... مجر عوالينا ومجرى السوابق
والسوس : كورة بالمغرب مدينتها طنجة .

وعلى الشوق أن يُشَبَّ إذا هـبَّ بأنفاسكم نسيمُ الصباحِ
جيرةَ الحى والحديث شُجون والليالى تلينُ بعـد الجِماح
أتَرَوْن السّـلُوَّ خامَر قلبى بعدكم ؟ لا ، وفالقِ الإصباح
ولَوَ أنى أُعْطَى اقتراحى على الأيّـام ما كان بُعْدُكم باقتراحى [١٠٦]
ضايقتنى فيكمُ صروفُ الليالى واستدارت عَلَىّ دَوْر الوُشاح[1]
وسَقَتنى كأس الفراق دِهاقاً فى اغتباق مُواصِلٍ واصْطباح[2]
واستباحت من جِدّتى وفتَائِى حَرَمًا لَمْ أَخَلْهُ بالمُسْتَبَاح

ومنها :

يا تُرَى والنفوس أسْرَى أمانى ما لها من[3] وَثاقها من سَراح
هل يُباح الوُرود بعـد ذِياد أو يُباح اللّقاء بعد انتزاح
وإذا أعوزَ الجسومَ التـلاقى نابَ عنـه تعارفُ الأرواح

قصيدة لأبى زكريا ابن خلدون يحاكى بها قصيدة ابن الخطيب

وهى طويلة ، ولم يحضرنى منها فى هذا التاريخ سوى ما كتبته . قلت : وأظن أن الفقيه الكاتب أبا زكريا يحيى بن خَلدون كاتب الإنشاء بتِلِمْسان المحروسة ، أيام السلطان أبى حمو[4] موسى بن يوسف الزَّيانى رحمه الله نسج على مِنوال هذه القصيدة فى قصيدة بديعة له ، ورفعها إلى السلطان أبى حمو فى مولد سنة

(١) الوشاح (بالضم والكسر) : أديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحها .
(٢) الاغتباق : شرب الغبوق ، وهو شراب العشى . والاصطباح : شرب الصبوح ، وهو شراب الصبح .
(٣) كذا فى ط ونفح الطيب (ج ٤ ص ٦٠٢) . وفى ت : « عن » .
(٤) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين هنا : « حم » .

ثمان وسبعين وسبع مئة . وهذا ابن خلدون أخو ولى الدين صاحب التاريخ المشهور ، ونص القصيدة :

ما على الصَّب فى الهوى من جُناحِ أَنْ يُرَى حِلفَ عَبْرة وافتضاحِ

وإذا ما المُحِبّ عِيلَ اصطبارا كيف يُصغِى إلى نصيحة لاحى

يا رَعَى الله بالمُحصَّب رَبْعا آذنتْ عهدَه النوَى بانتزاح[1]

كم أدرنا كأسَ الهوى فيه مَزْجا رُبَّ جِدٍّ من الجَوى فى المُزاح

هل إلى رَسمِه المُحيل سَبيل يا حُداة المطيِّ تلك الطِّلاح[2]

نسأل الدار بالخَليط ونسقى ذلك الربع بالدُّموع السِّفاح

أىَّ شَجْوٍ عاينتُ بعد نَواها من أسًى لازم وصَبْرٍ مُزاح[3]

أَهْلَ وُدّى إنْ رابَكُم بَرْحُ وَجْدى من صَبًا بارحٍ و بَرْق لَياح

فاسألوا البرق عن خُفوق فؤادى والصَّبَا عن سَقام جِسْمى المُتاَح

يا أُهَيل الحمى نداء مَشُوق ما له عن هوى الدُّمى من بَرَاح

طالما استعذب المَدامعَ وِرْداً فى هواكم عن كلّ عَذب قَراح

[١٠٧] عاده بالطُّلول للشوق عِيدُ من حَمام بدَوْحهن صِدَاح

مَنْ لقلبٍ من الجَوى فى ضِرام ولجَفْن من البُكا فى جِراح

ولصَبٍّ يَهيجه الذكرُ شوقاً فهو سُكْراً يرتاح من غير راح

ولَيال قضيتُ للَّهو فيها وَطَرا والشباب ضافِى الجَناح

---

(١) المحصب : موضع فيما بين مكة ومنى ، وهو إلى منى أقرب .(عن معجم البلدان) .

(٢) الطلاح : الإبل التى أعياها السفر وأضناها .

(٣) مزاح : بعيد .

راكباً فى الهوى ذَلُول تَصابٍ[1] ساحباً فى الغرام ذيلَ مَراحِ
ونجومُ المُنى تُنير إلى أن رَوَّع الشيْبُ سِرْبَها بالصباح
أىّ مسْرًى حَمِدتُ لم أخل[2] منه بسوى حسرةٍ وطول افتضاح
وَاخَسارِى يوم القيامة إنْ لم يغفرِ اللهُ زَلّتى واجتراحى
لم أقدِّم وسيلةً فيه إلا حُبَّ خيرِ الورَى الشفيع الماحى
سيّدِ العالمين دُنيا وأخرى أشرفِ الخلق فى العُلا والسَّماح
سيدِ الكون من سَماء وأرض سِرُّه بين غاية وافتتاح
زَهْرةِ الغَيْب مَظْهَر الوَحْى معنَى النور كُنْه المِشْكاة والمِصْباح
آيَة المكرُمات قُطْب المَعالى مصطفى الله من قُرَيش البِطاح
أوّل الأنبياء تَخْصيص زُلْفى آخر المرسلين بعثَ نجاح
صفوةِ الخلق أرفع الرسْل قَدْرا وسراج الهدى وشمسِ الفلاح
مَنْ لميلاده بمكة ضاءت من قُرَى قَيصَرٍ جميعُ الضواحى
وخَبَتْ نار فارسٍ وتداعتْ مِنْ مَشيد الإيوان كلُّ النواحى
من رَقِى فى السماء سبْعاً طِباقا ورأى آىَ ربّه فى اتضاح
ودنا منه قابَ قوسين قُرْبا ظافراً فى العُلى بكلّ اقتراح
من هَدَى الخلقَ بين حُمْر وسُودٍ وجلَا ليلَ غَيّهم بالصّباح
من يُجير الورى غدا يوم يُجْزَى كلُّ عاص وطائع باجتراح

---

(١) فى نفح الطيب : « نقاب » .

(٢) كذا فى ط ونفح الطيب الخطى والمطبوع . وفى ت : « لم أنل » .

مَن إلى حَوْضِه وظلّ لِواه[١] يلجأ الناسُ بين ظامٍ وضَاحِى[٢]
أحمدَ المجتبَى حبيباً وأنّى فوق عِزّ الحبيب مَرْمى طِماح
فى أناجيله المَسيحُ تلاه باسمه والكليمُ فى الألواح
ولَكَمْ حُجّةٍ وبرهانِ صدقٍ فى سَماعٍ أتى بها والتِماح
إنّ فى النَّجم والنباتِ لآياً بَهرتْ والجمادِ والأرواح
معجزات فُتْن المَدارِكَ وصْفاً وحِسَابا كالزُّهْر أو كالصَّباح
يا رُواة القَرِيض والشِّعر عجزاً ما عسى تُدْرِكون بالأمداح
[١٥٨] إنما حَسْبنا الصلاةُ عليه وهى للفوز آيةُ أستفتاح
يا إلهى بحق أحمدَ عفواً عن[٣] ذُنوبٍ جنيتُهنَّ قِباح
وأدِمْ دولةَ الخليفةِ موسى ذى المَعالى المُبِينَة الأوضاح
مفخَرُ المُلْكِ مستقرّ المزايا مَظْهر اللُّطف ذو التقى والصّلاح
ناصرُ الحق خاذل الجَور عَدْلا ملجأ الخائفين بحرُ السَّماح
يَتلقّى النَّدى بوجهٍ حَيِيّ ويُلاقى العِدا ببأس صِفَاح
وله المَكْرُمات إرثاً ولُبْساً[٤] حاز حَمْدا بها مُعلَّى القِدَاح
مِنْ عُلًا باذخٍ وفَخْرٍ صَميم وكمالٍ بحْتٍ ومَجْدٍ صُراح
وأحاديثَ فى المَعالى حِسانٍ رُوِيتْ عنه فى العَوالى الصِّحاح
عاقد صفْقَة العُلا كُلّ حِين فائز فيه سعْيُه بالرّبَاح

(١) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « حماه » .
(٢) الضاحى : الذى يبرز للشمس ويصلى حرها .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « من » .
(٤) كذا فى الأصلين ونفح الطيب . ولعلها : « كسبا » .

لِلنَدى والهُدى يَرُوح ويَغْدُو أىَّ مَغْــدًى إلى العُلَا وَمَرَاحِ
مَلِكٌ تُشْرِق الأسِرَّة منــه فى سَماء السَّرير نُور صَــباح
وإذا ما عَـــلَا بعَالى العَوالى صَهوةَ الجُرْد فهْو ليْث الـكِفاح
لَبِس الدهرُ منه حُـلّةَ حُسْن وثَنَى للسُّرور عِطفَ مِرَاح
وعَلَا عاتِقَ الخِلافة منـــه طِرْز فَخْرٍ سَــبَى النُّهَى بالتماح
وَرِث المُلْك شامخاً عن سَراةٍ شيَّدوا رُكْنه بأيدى الصِّـــفاح
مِنْ بَنِى القاسم الذين تحلَّوا بالمعالى واســتأثَروا بالفلاح
فَرَعُوا هَضْبَةَ الخِلافة مَجْـــداً رَفَعوا سَـــقْفه على الأرماح
نَشروا رايةَ المفاخر حَمْـداً خافقَ النور بالرُّبَا والبِطاح
يا إماما بَذَّ المــلوكَ جلالاً وجَمَـــالا فُدِّيتَ بالأرواح
أنت شمسُ الـكمال دُمْتَ عَلِيًّا فى اغتباق من المُنى واصْطِباح
وبَنُوك الأعلوْن أنجُمُ سَــعْدٍ زاهِراتٌ بنُــورِك الوضَّاح
وأبو تاشَـــفِين بَدرٌ مُنير زانهُ الله بالخِلال الصِّـــباح
أكْمل العالمين خَلْقاً وخُلْقاً أشرف الناس فى النَّدى والـكِفاح
وبكم زُيِّنَتْ سمَاء المعالى واهتدى الناسُ فى الدُّجى والصباح

قلت : قوله :

أكمل العـالمين خلقا وخلقا أشرف الناس فى الندى والـكفاح

لا يخلو من قلة تحفظ ، ومثل هذا فى الحقيقة إنما يُطلق على رسول صلى الله عليه [١٥٩] وسلم ، وإن كان المتكلّم أراد أهل عصره .

وصف ليالى مولد النبى أيام السلطان أبى حمو

وكان السلطان أبو حَمو[١] موسى بن يوسف الممدوح فى هذه القصيدة يحتفل لليلة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم غاية الاحتفال ، كما كان ملوك المغرب والأندلس فى ذلك العصر وما قبله يَعْتَنون بذلك ، ولا يقع منهم فيه إغفال ؛ وقد تقدم أن العَزْفِىَّ صاحب سِبتة هو الذى سَنَّ ذلك فى بلاد المغرب ، وأتى بزُلْفى تُدنيه إلى الله وتُقرّب ؛ واقتفى الناس سَنَنَه ، وتقلدوا مِنَنَه ؛ تعظيما للجناب الذى [وَجب] له السموّ والعلو ، على أن بعضهم قد خرج فى ذلك إلى حدّ الإسراف والغلو ؛ وكل يعمل على شاكلته .

ومن جملة احتفال السلطان أبى حمو[١] المذكور ما قاله صاحب راح الأرواح[٢] : « إنه كان يقيم ليلة الميلاد النبوىّ ، على صاحبه الصلاة والسلام ، بمشورة من تِلِمْسان المحروسة ، مَدْعاةً حَفيلة ، يحشُر فيها الناس خاصة وعامة ، فما شئت من نمارق مصفوفه ، وزَرَابِىّ مبثوثه ؛ وبُسُط مُوَشّاه ، ووسائد بالذهب مُغَشّاه ؛ وشمع كالأسطوانات ، وموائد كالهالات ؛ ومَباخر صُفْر منصوبة كالقباب ، يخالها المبصر من تِبْر [مذاب][٣] ؛ ويُفاض على الجميع أنواع الأطعمه ، كأنها أزهار الربيع المنمنمه ؛ تشتهيها الأنفس وتستلذها النواظر ، ويخالط حُسن ريّاها[٤] الأرواح ويُخامر ؛ رُتّب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال ، وقد علت الجميع أُبَّهة الوقار والإجلال ؛ وبعقب ذلك يحتفل المُسْمِعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ومُكفِّرات ترغّب فى الإقلاع عن الآثام ؛ يخرجون فيها من فن إلى فن ، ومن أسلوب إلى أسلوب ؛ ويأتون من ذلك بما[٥] تطرب له [١٦٠]

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « أبو حم » .
(٢) صاحب راح الأرواح هو أبو عبد الله التنسى ثم التلمسانى .
(٣) التكملة عن نفح الطيب .
(٤) فى ط : « رؤياها » .
(٥) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « ما » .

النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب ؛ وبالقرب من السلطان ، رضوان الله عليه ، خزانة [المِنْجانة[١] ، قد زُخْرِفت كأنها حُلَّة يمانيه ، لها أبواب مُرْتَجَة[٢] ، على عدد ساعات][٣] الليل الزمانيـه ؛ فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها ، وفتح عند ذلك باب من أبوابها ؛ وبرزت منه جارية صُوِّرت فى أحسن صوره ، فى يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطوره ؛ فتضعها بين يدى السلطان بلطافه ، ويُسراها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافه ؛ هكذا حالهم إلى انبلاج عمود الصباح ، ونداء المنادى حىّ على الفلاح » .

انتهى كلام صاحب راح الأرواح .

وقال[٤] فى نظم الدرر والعقيان فى هذا المعنى ما نصه :

«وكان ، يعنى السلطان أبا حمو ، يقوم بحق ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم ، يُقيم مَدْعاة ، يحشر لها الأشراف والسُّوقة ، فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزَرابىّ مبثوثة ، وشمع كالأسطوانات ، وأعيان الحضرة على مراتبهم ، تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبية الخزّ الملون ، وبأيديهم مباخر ومِرشّات ، ينال كل منها بحظه ، وخزانة المنجانة ذات تماثيل لُجين محكمة الصنعة ، بأعلاها أيكة تحمل طائرا ، فَرْخاه تحت جناحيه ، ويَخْتِله فيهما[٥] أرقم ، خارج من كَوّة بجذر الأيكة صُعُدا[٦] ، وبصَدْرها أبواب مُرْتجة

(١) المنجانة : آلة لرصد الوقت . (انظر تكملة المعجمات لدوزى) .

(٢) كذا فى النسخة الخطية من نفح الطيب وفيما سيأتى فى الأصلين . وفى الأصلين هنا ونفح الطيب المطبوع : « موجفة » .

(٣) التكملة عن ت ونفح الطيب .

(٤) يريد أبا عبد الله التلمسانى ثم التنسى صاحب راح الأرواح .

(٥) فى نفح الطيب : « فيها » .

(٦) فى نفح الطيب : « صاعدا » .

بعدد ساعات الله الزمانية ، يصاقب طرَفيها بابان كبيران ، وفوق جميعها دُوَيْن رأس الخِزانة ، قمر أكمل ، يسير على خط الاستواء سير نظيره من الفلك ، و يُسامت أول كل ساعة بابُها المرتَج ، فينقَضُّ من البابين الكبيرين عُقَابان ، بِفي[1] كل واحد منهما صَنْجة صُفْر ، يلقيها إلى طَسْت من الصُّفْر مجوّف ، بوسطه ثقب يفضى بها إلى داخل الخِزانة فيرنّ ، و ينهَش الأرقم أحد الفَرخين ، فيصفِر له أبواه ، فهنا يفتح باب الساعة الذاهبة ، وتبرز منه جارية محتزِمة ، كأظرف ما أنت راء ، يمناها إضبارة فيها اسم ساعتها منظوما ، ويُسراها موضوعة على فيها ، كالمُبايعة بالخلافة ، والمُسْمِع قائم ينشد أمداح سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم . ثم يُؤْتى آخرَ الليل بموائد كالهالات دَوْرا ، والرياض نَوْرا ؛ قد اشتملت من أنواع محاسن الطعام على ألوان تشتهيها الأنفس ، وتستحسنها الأعين ، وتَلَذّ بسماع أسمائها الأذن ، ويَشْره مُبْصِرها للقرب منها والتناول و إن كان ليس بغَرْثان ؛ والسلطان لم يفارق مجلسه الذى ابتدأ جلوسه فيه ، وكل ذلك بمرأى منه ومسمع ، حتى يصلّى هنالك صلاة الصبح . [١٦١]

على هذا الأسلوب تمضى ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم فى جميع أيام دولته ، أعلى الله مَقامه فى علّيين ، وشكر له فى ذلك صنعه الجميل ، آمين .

وما من ليلة مولد مرت فى أيامه إلا ونظم فيها [قصيدا][2] فى مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم أول ما يبتدئ المُسْمع فى ذلك المحفل العظيم بإنشاده ، ثم يتلوه إنشاد مَنْ رفع إلى مَقامه العلى فى تلك الليلة نظما » .

انتهى كلام صاحب نظم الدرر والعقيان ، وهو أتم مَساقا من كلامه فى راح الأرواح .

---

(١) فى نفح الطيب : « فى يد » .

(٢) زيادة عن ت ونفح الطيب .

شعر لأبى زكريا ابن خلدون فى المنجانة

أقول : ولا بد أن نذكر جملة من القطع التى أنشأها الكاتب أبو زكرياء يحيى بن خلدون كاتب السلطان أبى حمو المذكور ، على لسان جارية المَنْجانة ، مخاطبة بما مر من الليل ، وكانت الجارية تأتى بها فى يدها اليمنى ، كما ذكرناه ؛ فمن ذلك [قوله رحمه الله فى مضىّ ساعتين من الليل :

أخليفةَ الرحمن والملكَ الذى ... تعنو لعزّ عُلاه أملاكُ البَشَرْ
لله مجلسُك الذى يحكى عُـلاً ... بك مالِكى أفقَ السماء لمن نظر
أوَ ما ترى فيـه النجومَ زواهرا ... وجهُ الخليفة بينهن هو القمر
والليل منه ساعتان قد انقضت ... تُثْنى عليك ثَنا الرياض على المَطر
لا زال هذا المُلْك منصوراً بكم ... وبلغتَ ممّا ترتجى أسنى الوطر

[١٦٢]

و] قوله رحمه الله فى انقضاء ثلاث ساعات من الليل :

أمولاى يابن الملوك الأُلى ... لهم فى المعالى سَنِىّ الرتَبْ
تولت ثلاثٌ من الليل أبـقت لك الفخرَ فى عُجْمها والعرب
فدُمْ حجةَ الله فى أرضـه ... تنالُ الذى شئته من أرب

وقوله رحمه الله فى مضى ست ساعات :

يا ماجدا وهو فردُ ... تخاله فى عَساكرْ
سِتٌّ من الليل ولَّت ... ما إن لها من نظائر
دامت لَياليك حتى ... إلى المَعاد نَوَاضر

وقوله رحمه الله فى مُضِىّ ثمان ساعات :

يا أكرمَ الخلق ذاتاً ... وأشرفَ الناس أُسْرَهْ
مَرّتْ ثمانٌ وأبقتْ ... فى القلب مِنّى حَسْره

فيهنّ كان شبابى أخا نعيمٍ ونَضْره
وَلّى بها الدهرُ عَنِّى تُرَى لها بَعْدُ كَرَّه
فالله يُبقيك مَوْلَى يُطيل فى السعد عُمْره

وقوله رحمه الله فى مضى عشر ساعات :

يا مالك الخير والخيل التى حكمتْ له بعزٍّ على الأيام مُقْتَبَلِ
هذا الصباح وقد لاحت بشائرُه والليلُ وَدَّعنا توديعَ مُرْتحل
لله عشرٌ من الساعات باهرةٌ مَضَيْن لا عن قِلًى منّا ولا مَلَل
كذا تمرّ ليالى العُمْر راحلةً عنّا ونحن مَعَ الآمال فى شُغُل
نُمْسِى ونُصْبح فى لَهْوٍ نُسَرُّ به جهلاً وذلك يُدْنينا من الأَجَل
[١٦٣] والعمر يَمضى ولا نَدرِى فوا أَسَفَا عليه إذ مَرَّ فى الآثام والزَّلَل
ياليت شعرى غدًا(١) كيف الخلاص به ولم نُقَدِّم له شيئا من العمل
يا رَبِّ عفوَكَ عما قد جنته يدى فليْس لى بجزاء الذنب من قِبَل
يا ربِّ وانصر أمير المسلمين أبا حَمو الرِّضا وأَنِلْه غاية الأَمَل
وأبْقِ فى العز والتمكين مدّته وأعْلِ دولته الغرّا على الدُّول

موشحة للتلاليسى يخاطب بها أبا حمو

ومن الموشّحات التى خوطب بها السلطان أبو حمو رحمه الله فى مولد سنة سبع وستين وسبع مئة ، قولُ طبيب دولته أبى عبد الله محمد بن أبى جمعة الشهير بالتلاليسى ، رحمه الله تعالى :

لى مَدْمَع هَتَّانْ يَنهَلّ مثلَ الدُّرَرْ
قد صيَّر الأجفانْ ما إن لها من أثَرْ

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « ياليت أن غدا » . وفى ت « ياليت غدا » . وهما ظاهرتا التحريف .

حُقّ له يجـــرِى دَمًا على طـــول الدوامْ
مُذْ جَـــدَّ فى السيرِ ناسٌ إلى خـــير الأنامْ
وعاقـــنى وِزْرِى يا صاحِ عن ذاك المَقامْ
وسارت الأظْعانْ يُحْدى بها فى السَّحَرِ
فاستبشر الركبانْ بقرب نَيْل الوطَرِ

يا ســـعدَهُ مَنْ زارْ قـــبرَ النبىِّ المصطفَى
محمـــــد المختارْ قُطبِ المعالِى والوفا
فى مدحه قـــد حارْ الخَلْقُ طُرًّا وكَفى
فى مُحْكَمَ القرآن وشَرحِه والسِّـــيَرِ
فَضَّـله الرحمنْ على جميع البشَرِ

يا حادىَ الركبِ باللّٰه إن جئتَ البقيعْ
تحيـــةَ الصَّـــبِّ بلِّغ إلى الهـادى الشفيعْ
غُرِّبْتُ بالغـــربِ عن ذلك المَغْنَى الرفيعْ
وليس لى إمكانْ يُنهضنى للسفَرِ
إلا من السلطان الملكِ المظفَّـــرِ

[١٦٤]

من لم يزل يسمُو إلى المعالى كلَّ حِينْ
ذاك أبو حمّـــو المولَى أمـــيرُ المسلمينْ
طاعتُه غُـــنمُ نِلْنا بها دنيـــا ودِينْ
أظهرَ فى البُلْدانْ من عـدله المُشْتَهَرِ
وعَمَّ بالإحسانْ للبـدوِ ثم الحضَرِ

قابلَه إســـعادْ تكلّ عنـــه الألْسِنهْ

قَبيلُ عبـــدِ الوادْ[1] به غـــدت فى سلطنه

أيامُـــه أعيـــادْ يا ليتها ألفا سَـــنَهْ

مُلْكُ بنى زَيّانْ بالمشرَفىّ الذَّكَرِ

أحياه إذْ قد كانْ ليس لَه مِنْ خبَرِ

تاهتْ تِلِمْسانْ بملكه على البـــلادْ

صار لهـــا شان وسعدُها حِلْفُ ازديادْ

قد ضـــل إنسان قال بها يشكو السُّهادْ

ليلُ الهوَى يقظانْ والحِبّ تِرْب السَّهَرِ

والصبر لى خوّانْ والنوم من[2] عينى بَرِى[3]

شىء عن السلطان أبى حمو

وكان هذا السلطان أبو حمو رحمه الله يَقرض الشعر ، ويحب أهله ، وله رحمه الله تأليف حسن فى السياسة ، لخص فيه « سُلْوان المُطاع » لابن ظَفَر ، وزاد عليه فوائد ، وأورد فيه جملة من نظمه ، وأمورا جرت له مع معاصريه من ملوك بنى مَرِين وغيرهم ، وصنّفه برسم ولى عهده أبى تاشَـفِين ، وسمّاه « نظم السلوك ، فى سياسة الملوك » .

قصيدة ابن الخطيب للسلطان أبي حمو يستعيذ به

وكان الفقيه ذو الوزارتين أبو عبـد الله بن الخطيب المذكور آنفا كثيرا ما يوجّه إليه بالأمداح ، ومن أحسن ما وَجّه له[4] قصيدة سينية فائقة ، وذلك [١٦٥] عند ما أحسّ بتغير سلطانه عليه ، فجعلها مقدمة بين يدى نجواه ، لتمهد له مثواه :

(١) فى ط : « الجواد » .
(٢) كذا فى ط . وفى ت : « عن » .
(٣) برى : يريد : « برىء » فسهل للشعر .
(٤) كذا فى ط ونفح الطيب (ج ٤ ص ٤٢٧ طبعة بلاق) . وفى ت : « إليه » .

وتحصل له المستقرّ ، إذا ألجأه الأمر إلى المفرّ ؛ فلم تساعده الأيّام ، كما هو شأنها فى أكثر الأعلام ؛ وهى هذه :

أَطلعْن فى سُدَف الفُروع شُموسَا ... ضحِك الظلام لها وكان عَبُوسَا
وعَطَفْن قُضْبا للقُدود نواعِمًا ... بُوِّئْن أدواح النعيم غُرُوسا
وعَدَلْنَ عن جَهْر السلام مَخافةَ الْـ ... ـواشى فجِئْن بلفظه مَهموسا
وسَفَرْن من دَهَش الوداع وقومهن ... إلى الترحّل قد أناخوا العِيسا
وخَلَسْن من خَلَل الحِجال إشارة ... فتركن كلّ حِجالها مخلوسا
لم أَنْسَها من وَحْشةٍ والحىُّ قد ... زَجَر الحمولَ وآثرَ التَّغْليسا
لا المُلْتَقى من بعدها كَثَبٌ[1] ولا ... عُوجُ الركائب تَسْأم التخييسا[2]
فوقَفْتُ وِقْفة هائم بُرَحاؤُهُ ... وَقَفَتْ عليه وحُبِّسَتْ تَحْبِيسا
ودَعَوْتُ عينى عاتبا وعُيونها ... بعصا النَّوَى قد بُجِّسَتْ تبجيسا
نافَسْت يا عينىّ دُرَّ دُموعِهِمْ ... فعرضت دُرًّا للدُّموع نفيسا
ما لِلْحِمَى بعد الأحبّة مُوحِشاً ... ولَكَمْ تَراءى آهلاً مَأْنُوسا
ولِسِرْبه حَوْلَ الخميلة نافراً ... عمّن يُحِسّ به وكانَ أنيسا
ولِظِلِّه المورودِ غَمْرُ قَليبه ... لا يقتضِى وِرْدًا ولا تَعْريسا[3]
حَيَّيْتُه فأَجابنى رجْعُ الصَّدَى ... لا فَرْق بينهما إذا ما قِيسا
ما إن يَزيد على الإعادة صوته ... حَرْفا فيشفى بالمَزيد نَسِيسا[4]

(١) كثب ، أى قريب .
(٢) كذا فى ط . والتخييس : أن تذلل الدابة وتراض بالركوب . وفى ت ونفح الطيب : « التجنيسا » .
(٣) القليب : البئر . وغمره : أى ماؤه الغامر . والتعريس : النزول آخر الليل .
(٤) النسيس : غاية جهد الإنسان .

نَصَب المَعِين وقَلَّص الظلُّ الذى ظَلْنا وُقُوفا عنــده وجُلُوسا

نتواعد الرُّجْعَى ونَغْتَنِم اللِّقا ونُدِيرُ مِنْ شكوى الغرام كؤوسا

فإذا سألتَ فلا تسائِلْ مخبِرا وإذا سمعتَ فلا تُحِسَّ حَسِيسا

عَهْدِى به والدهرُ يُتْحِفُ بالمُنَى وقد اقتضتْ نُعماه أن لا بُوسا[1]

والعيْش غَضُّ الرَّيْع والدُّنيا قَدِ اجْــتُلِيَتْ بمغناه[2] علىَّ عَرُوسا

أَتُرَى يُعِيدُ الدَّهْرُ عَهْـدًا للصِّبا دَرَسَتْ مَغانِى الأنس فيه دُروسا

[أوطانُ أوطارٍ تعوَّضَ أُفْقُها من رَوْنَق البِشر البهىِّ عُبوسا] [3]

هيهاتَ لا تُغْنِى لَعَـلَّ ولا عَسَى فى مِثْلها إلا لآية عِيسى

والدَّهر فى دَسْت القضاءِ مُدَرِّسٌ فإذا قضى يستأنف التَّـدريسا

تَفْـتَنَّ فى جُمَـل الورَى أبحاثه لا سيَّما فى باب نِعْم وبِيسا [١٦٦]

وسَجيةُ الإنسان ليسَ بناصِلٍ من صِبْغها حتَّى يُرَى مَرْمُوسا

يغترّ مَهْما ساعدتْ آماله فإذا عَرَاه الخَطْبُ كان يئُوسا

فلَوَ انَّ نفسا مُكِّنَتْ من رُشْدها يوما وقدَّسها الهُدَى تقديسا

لم تستفزّ رسوخَها النُّعْمَى ولا هَلِعَتْ إذا كَشرت[4] إليها البُوسا

قل للزمان إليك عن متذمّم[5] بضمان عِزّ لم يكن ليَخِيسا[6]

---

(١) لا بوسا : لا بؤسا ، فسهل .
(٢) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « بمعناه » .
(٣) التكملة عن ت ونفح الطيب .
(٤) كذا فى نفح الطيب . وفى ت : « كسرت » . وفى ط : « كثرت » وكلاهما تحريف .
(٥) المتذمم : المستنكف .
(٦) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « تبخيسا » .

فإذا استحرَّ جِلادُه فأنا الذى اسـ ـتغشيت مِن سَرْد[١] اليقين لَبُوسا[٢]

وإذا طغا فِرْعونه فأنا الذى مِنْ ضُرِّه وأذاه عُذْتُ بموسى

أنا ذا أبو مثواه[٣] من يَحْمِى الحِمَى لَيْثا ويُعْـلِم بالزَّئير الخِيسا

بِحِمَى أَبى حَمُّو حَطَطْتُ ركائبى لما اختبرتُ الليْثَ والعِرِّيسا

أَسَد الهِياج إذا خطا قُدُمًا سَطَا فيُخَلِّف الأَسَدَ الهِزَبْرَ فَرِيسا

بَدْر الهُدَى يَأْبَى الظِّلالَ ضِياؤه أبداً فيجلو الظلمةَ الحِنْديسا[٤]

جَبَل الوَقار رَسَا وأَشْرَف واعْتَلى وسَمَا فَطَأْطأَتِ الجبالُ رُءوسا

غَيْث النوال إذا الغمامُ حَلوبةٌ مَثَلَتْ بأيدى الحالبين بَسُوسا[٥]

تلقاه يوم الأُنس روضًا ناعما وتراه بأساً فى الهِياج بَئيسا

كَمْ غَمْرةٍ جَلَّى وكم خَطْبٍ كفى إن أوطأ الجُرْد العِتاق وَطِيسا

كَمْ حِكمةٍ أبدَى وكم قَصْدٍ هَدَى للسالِكين أبان منه دَرِيسا[٦]

أَعلَى بَنِى زَيَّانَ والفَـذَّ الذى لَبِس الـكمال فزيَّن المَلْبوسا

جَمَع النَّدى والباسَ والشيمَ العُلاَ والسُّودَدَ المتواتِرَ القُدْموسا[٧]

والحِلْمَ ليس يُبايِن الخُلُق الرِّضا والعِـلْمَ ليس يعارض الناموسا

---

(١) سرد اليقين : أى درع من اليقين .

(٢) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « البوسا » .

(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « مثواى » .

(٤) الحنديس : الشديد الظلمة .

(٥) البسوس : الناقة التى لا تدر إلا على الإبساس ، أى التلطف ، بأن يقال لها : بس بس ، تسكينا لها .

(٦) الدريس : الطريق الخفى .

(٧) القدموس : القديم .

والسعدَ يغنى حكمه عن نَصْبةٍ　　تستخبرُ التربيعَ والتّسديسا
كم راضَ صعباً لا يُراضُ مُعاصيا　　كم خاض حَرْباً لا يُخاض ضَرُوسا
بَلَغَ التى لا فَوْقَها متمهِّلا　　وعَلَا السُّهَا واستسفلَ البِرْجيسا(١)
يا خيرَ مَنْ خفقت عليه سَحابة　　للنصر تُمْطِره أجشَّ بجيسا(٢)
وأجلَّ مَنْ حَمَلَتْه صَهْوَةُ سابح　　إنْ كَرَّ ضعضع كَرُّه الكُردوسا(٣)
قَسَماً بِمَنْ رفع السماءَ بغيرِ ما　　عَمَدٍ ورَفَّع فوقَها إدريسا
ودَحا البَسيطة فَوْق لُجٍّ مُزْبِدٍ　　ما إنْ يَزال على القرار حَبِيسا
حتّى يُهيب بأَهْلِهِ الوعدُ الذى　　حَشَرَ الرئيسَ إليْه والمرءوسا
[١٦٧] ما أنْتَ إلا ذخرُ دهرك دُمْتَ فى الصَّوْن الحريزِ مُمَتَّعا محروسا
لو ساومَتْه الأرضُ فيك بما حوتْ　　لَرَآك مُسْتاماً بها مَبْخُوسا
حلف(٤) البُرور بها أَلِيَّةَ صَادقٍ　　ويمينُ مَنْ عقد اليمين غَمُوسا(٥)
مَن قاسَ ذاتَكَ بالذواتِ فإنَّه　　جَهِلَ الوِزان وأَخْطأ التقييسا
لا تستوِى الأعيانُ فضلَ مَزِيَّةٍ　　وطبيعة فَطَرَ الإلٰه وَسُوسا(٦)
لعنايةُ التَّخصيص سرٌّ غامض　　من قبلِ ذرءِ الخلقِ خَصَّ نُفُوسا
مَن أَنْكَر الفضل الذى أُوتيتَه　　جَحَدَ العِيانَ وأنكرَ المحسوسا

---

(١) البرجيس (بالكسر) : نجم، أو هو المشترى .
(٢) بجيسا : غزيرا .
(٣) الكردوس : القطعة العظيمة من الخيل .
(٤) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : «كاف» .
(٥) يمين : يكذب . واليمين الغموس : التى تغمس صاحبها فى الإثم ثم فى النار، وهى الكاذبة التى يتعمدها صاحبها عالما بأن الأمر بخلافه .
(٦) السوس : الطبيعة والسجية .

من دَان بالإخلاص فيكَ فعقدُه لا يقبــلُ التمويه والتلبيسا
والمنتمَى العَلَوِىّ عِيصُك لم تكن لِتُرى دَخيلا فى بنيه دسيسا[1]
بيْتَ البَتولِ ومُنْتَمَى الشرَفِ الذى تَحْمِى الملائكُ دوْحَهُ المغْروسا
أمّا سياستك التى أحْكمْتها فرَمَيْتَ بالتقصيرِ أسْطَاليسا
فلَوَانْ كِسرَى الفرسِ أبصر بعضَها ما كان يَطْمع أن يُعَدّ سَوُّوسا[2]
لوسار عدلُك فى السنين لما اشتكتْ بخسا ولم يكُ بعضُهُنّ كبيسا
ولَوِ الجوارى الخُنَّسُ انتسبت إلى أقوامِ عِزِّك ما خَنَسْن خُنوسا[3]
قُدْتَ الصِّعاب فكل صَعْبٍ سامحٌ لكَ بالقِياد وكانَ قبلُ شَمُوسا
تَلْقَى الليوثَ وللقَتام غَمامة قدحَ الصفيحُ وَميضَها المقْبوسا
وكأنّها تحتَ الدُّروع أراقِمٌ يَنظُرْنَ من خَلَل المغافر شُوسا[4]
ما لابن مامةَ فى القديم وحاتمٍ ضرَبَ الزمانُ بجودهم ناقوسا[5]
من جاء منهم مثلَ جُودك كلّما حَسِبُوا المكارم كُسوة أوْ كِيسا
أنتَ الذى افْتَكّ السفينَ وأهلَه إذْ أوسَعَتْ سُبُل الخلاص طُمُوسا
أنت الذى أمددت ثغر الله بالصَّـــدَقاتِ تُبْلسُ كرَّةً إبْليسا
وأعَنْتَ أندلُسا بكل سَبيكةٍ مَوْسومةٍ لا تَعرِف التَّدْليسا

(١) العيص : الأصل .
(٢) فى نفح الطيب المطبوع والمخطوط : « بسوسا » .
(٣) الجوارى الخنس : منها زحل والمريخ والمشترى وعطارد والزهرة ؛ وخنوسها : اختفاؤها .
(٤) شوسا : ناظرة بمؤخر العين غضبا .
(٥) ابن مامة : هو كعب ، وهو من أجواد العرب .

وشَحنته بالبُرّ فى سُبل الرضا والبرّ قارب قاعُها القامُوسا

إن لم تجرّ بها الخَميسَ فطالما جَهّزْت فيها للنَّوال خميسا

ومَلأْتَ أيديَها وقد كادتْ على حُكْم القضاء تُشابه التَّفليسا

[١٦٨] صدّقْتَ للآمال صَنعة جابرٍ[1] وكفيْتَها التشميع والتشميسا[2]

والحَلّ والتقْطير والتَّصْعيد والتّـ خميرَ والتَّصْويل والتكْليسا[3]

فسبكت مِن آمالها مالا ومِنْ أوراقها وَرِقًا وكُنّ طرُوسا

بُهِتُوا فلمَّا استَخْبروا لم يُنْكِروا وَزْنا ولا لَوْنا ولا مَلمُوسا

تَدْبير مَنْ قلَب السُّطورَ سَبائِكا منها ومن طَبَع الحُروف فُلُوسا

ونَحَوْت نَحْوَ الفضل تَعْضِد منه بالـ ـمَسْموع ما ألفيتَ منه مَقيسا

وجَبَرْت بعد الكسرِ قومَك جاهدا تُغنِي العَديمَ وتُطْلِق المَحْبوسا

ونَشَرْت راية عِزّهم مِنْ بعدما دَال الزمانُ فسامَها تَنْكِيسا

أحكمتَ حيلة بُرْئِهِمْ بلطافةٍ قد أَعْجَزَتْ فى الطِّب جالينوسا

وفَلَلْتَ من حَدّ الزمان وإنه أَوْحَى وأَمْضَى من غِرار المُوسَى

وشَحذْتَ حَدًّا كان قبلُ مُثلَّما ونَعَشْت جَدًّا كان قبلُ تَعيسا

---

(١) انظر الحاشية (رقم ٢ ص ١٧١ من هذا الجزء).

(٢) التشميع : تليين الشىء وتصييره كالشمع . (عن مفاتيح العلوم للخوارزمى) .

(٣) الحل : أن تجعل المنعقدات مثل الماء . والتقطير : مثل صنعة ماء الورد ، وهو أن يوضع الشىء فى القرع ويوقد تحته ، فيصعد ماؤه إلى الأنبيق ، وينزل إلى القابلة ، ويجتمع فيه . والتصعيد : شبيه بالتقطير ، إلا أن أكثر ما يستعمل فى الأشياء اليابسة . والتصويل : أن يجعل الشىء الذى يرسب فى الرطوبات طافيا ، وذلك أن يصير مثل الهباء حتى يصول على الماء . والتكليس : أن يجعل جسد فى كيزان مطينة ويجعل فى النار حتى يصير مثل الدقيق . والشىء يكلس ثم يصول . (عن مفاتيح العلوم) .

لم تَرْجُ إلا اللهَ جــلّ جلالُه فى شِـدّة تُـكْفَى وجُرْح يُوسَى
قدمتَ صُبْحا فاستضأت بنوره ووجدت عنـد الشدة التنفيسا
ما أنتَ إلا فالح[1] متيقّن بالنُّجح تَعْمُر مُمْرعا ويَبيسا
ومُتَاجِرٌ جَعَلَ الأَريكة صَهْوة عَرَبيـــة والمتَّكا القَرَبُوسا[2]
ما إنْ تُبايع أو تُشارِى[3] واثقا بالربح إلا المالكَ القُـدُّوسا
والعزمُ يفـترع النجومَ بناؤه مَهْما أَقام على التُّقَى تأسيسا
ومَقام صَبرِك واتكالك مُذْ كرٌ بحديثـــه الشِّبْلِيَّ أو طاووسا[4]
ومَـنِ ارتضاه اللهُ وفّق سعيَهُ فرأى العظيمَ من الحظوظ خسيسا
ما ازددتَ بالتمحيص إلا جِدَّة ونضوتَ من خِلَـع الزمان لَبيسا
ولطالما طرقَ الخسوفُ أهـلّة ولطالما اعترض الـكُسوف شُموسا
ثم انجلتْ نسماتُها عن مَشْرِق للسّعد ليسَ بحاذر تتعيسا
خُـذْها إليك على النَّوَى سِينِيّة تُرْضِى الطِّباق وتشكُر التَّجْنيسا
إنْ طُوولت[5] بالدّر من حول الطُّلى يوما تشكَّت حَظَّها الموْكُوسا
لولاك ما أَصْغت لِخِطْبة خاطب ولَعَنَّسَتْ فى بيتها تَعْنيسا
قصدَتْ سليمانَ الزمانِ وقاربت فى الخطو تحسِبُ نفسها بلقيسا

---

(١) كذا فى الأصلين ونفح الطيب . وفى ت : « واجْ » .
(٢) القربوس : حنو السرج .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « ما إن يبايع أو يشارى » .
(٤) الشبلى : هو أبو بكر دلف بن جحدر الصوفى وكانت وفاته سنة ٣٣٤ هـ . وطاوس : هو أحمد بن محمد بن أحمد أبو سعيد الماليني الصوفى وكانت وفاته سنة ٤١٢ هـ .
(٥) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « طولت » .

لى فيك ودٌّ لم أكن من بعد ما أعطيتُ صَفقةَ عهده لِأَخِيسا

كَمْ لى بصحّة عَقْده مِنْ شاهدٍ لا يحذَر التجريحَ والتَّدْليسا

يَقْفو الشَّهادةَ باليمين وإنّه لمؤَمَّنٌ من أن يُعَدَّ فَسِيسا(1)

لا يستقرّ قرارُ أفكارى إلى أنْ أَستقر لَدى عُلَاك جَلِيسا

[١٦٩] وأَرَى تجُاهك مستقيمَ السيرِ للـقَصْد الذى أَعْملتُه معكوسا

هى دَين أيامى فإن سمحت به لم يبق من شىء عليه يُوسَى

لا زال صُنْع الله مجنوبا إلى مَثواك يُهْدى البِشر والتأْنيسا

متتابعا كتتابع الأيام لا يَذَرُ التعاقُبَ جُمعة وخَميسا

فلَوَ أنصفتك إيالة المُلك التى رُضْت الزمان لها وكان شَرِيسا

قَرَنَتْ بذكركَ والدعاءِ لك الذى تختارُه التسبيحَ والتقديسا

القلبُ أنت لها رئيس حياتها لم تَعتبر مهما صَلَحْتَ رئيسا

قال الحافظ أبو عبد الله التَّنَسِيّ، رحمه الله ورضى عنه : حذا ابن الخطيب فى هذه السينية حَذْو أبى تمام فى قصيدته التى أولها :

أَقَشيبَ رَبْعِهِمُ أراكَ دَرِيسًا تَقْرِى ضُيوفَك لَوْعة ورَسيسا

واختلس كثيرا من ألفاظها ومعانيها . انتهى .

نثر له أيضا وصل به القصيدة

ووصل ابن الخطيب هذه السينية بنثر بارع يخاطب به السلطان أبا حَمّو المذكور، ونصه :

---

(1) الفسيس : الأحمق الضعيف العقل . وفى ت : « قسيسا » بالقاف بدل الفاء، وهو تصحيف .

« هذه القصيدة ، أبقى الله أيام المَثَابة المَوْلوية المُوسَوِية ممتعة بالشمل المجموع ، والثناء المسموع ، والملك المنصور الجُموع ؛ نَفْثَة من باح بسرّ هواه ، ولبّى دعوة الشوق العابث بلبه[1] وقد ظفر بمن يهدى خبر جَواه إلى محل هَوَاه ؛ ويختلس بعث تحيَّته ، إلى مُثير أريحيته ؛ وهى بالنسبة إلى مايعتقد من ذلك الكمال ، الشاذّ عن الآمال ؛ عُنْوان من كتاب ، وذَوَاق من أوقار ذات أقتاب ؛ وإلا فمن يقوم بحق تلك المثابة لسانه ، أو يكافئ إحسانها إحسانه ؛ أو يستقل بوصفها يراعه ، أو تنهض بأيسر وَظيفها ذراعه ؛ ولا مكابرة بعد الاعتراف ، والبحر لا ينفَد بالاغتراف ؛ لا سيا وذاتكم اليوم والله يُبقيها ، ومِن المكاره يقيها ، وفى معارج القُرْب من حضرة القُدْس يُرَقّيها ، ياقوتة اختارها واعتبرها ، ثم بلاها بالتمحيص فى سبيل التخصيص واختبرها ، وسَبيكة خلّصها وسَجَرها ، نخلصها بِسَجْره من الشَّوْب ، وأبرزها من لُباب الذَّوْب[2] ؛ وقصرت عن هذه الأثمان ، وسُرَّ بصدق دعواه[3] البَهْرمان[4] ؛ ليفاضل بين الجَهام والصَّيِّب ، ويَميزَ الله الخبيثَ من الطيِّب ؛ فأراكم أن لا جَدْوَى للعديد ولا للعُدَّه ، وعَرَّفكم بنفسه فى حال الشِّده ، ثم فَسَح لكم بعد ذلك فى المُدَّه ؛ لتعرفوه إذا دال الرَّخاء ، وهَبّت بعد تلك الزعازع الرِّيحُ الرُّخَاء ؛ ومَلّاكم من التجارب ، وأوردكم من ألطافه أعذب المشارب ؛ ونقلكم بين إمرار الزمان وإحلائه ، ولم يسلبكم إلا حقيرا عند أوليائه ؛ [١٧٠]

(١) وردت هذه العبارة محرفة فى ت هكذا : « ودعوة الشوق الثابت بلبه » .

(٢) وردت هذه العبارة فى الأصلين هكذا : « وسبيكة خلصها وشحرها نخلصتهـ الشحيرة من الشوب وأبرزتها من ... الخ » . وفى نفح الطيب : وسبيكة خلصها وسخرها ، نخلصها لتسخيره من الشوب ... الخ » . والعبارة فى كل ذلك قلقة ، ولعل ما أثبتناه أقرب إلى المعنى المراد . والسجر : مصدر سجر التنور ونحوه ، إذا أحماه .

(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى ت : « دموعه » . وفى ط : « دعوته » .

(٤) البهرمان : العصفر ، وهو دون الأرجوان شدة حمرة .

وأعادكم المعاد المطهَّر ، وألبسكم من أثواب اختصاصه المُعلَمَ المشَهَّر ؛ فأنتم اليوم بعين العنايه ، بالإفصاح والكنايه ، قد وقف الدهر بين يديكم موقف الاعتراف بالجنايه ؛ فإن كان المُلك اليوم عِلْما يُدْرَس ، وقوانين فى قوة الحفظ تغْرُس ، وبضاعة برصَدِ التجارب تُحْرَس ؛ فأنتم مالك دار هجرته المحسوبه ، وأصْمَعِىّ شُعوبه المنسوبه ؛ إلى ما حُزتم من أشتات الكمال ، المُرْبية على الآمال ؛ فالبيت عَلَوِىّ المنتَسب ، والمُلك بين الموروث والمكتَسب ؛ والجود يعترف به الوجود ، والدِّين يشهد به الركوع والسجود ؛ والبأس تعرفه التهائم والنّجود ، والخُلُق يحسده الروض المَجُود ؛ والشِّعْر يغترف من عَذْب نمير ، ويصدق من قال بُدِئ بأمير وخُتِم بأمير ؛ وإن مملوككم حَوَّم من بابكم على العَذْب البَرود ، فعاقه الدهر عن الوُرود ؛ واستقبل أُفقه ليحقِّق الرَّصْد ، ولكنه أخطأ القصْد ؛ [١٧١] ومن أخطأ الغرض أعاد ، ورجا من الزمان الإسعاد ؛ فربما خَبِئ نصيب ، أو كان مع الخواطئ سهم مُصيب ؛ وكانَ يؤمّل صحبة ركّاب الحِجاز ، فانتقلت الحقيقة منه إلى المجاز ؛ وقَطَعَت القواطع التى لم ينَلْها الحساب ، ومنعت الموانع التى خَلَص منها إلى الفتنة الانتساب ؛ ومن طَلَب الأيام أن تجرىَ على اقتراحه ، وجب العمل على اطّراحه ؛ فإنما هى البحر الزاخر ، الذى لا يُدرك منه الآخِر ؛ والرّياح متغايره ، والسفينة الحائره ؛ فتارة يتعذر من المُرْسَى الصَّرْف ، وتارة تَقطع المسافة البعيدة قبل أن يرتدّ الطَّرف ؛ هذا إن سالمها عَطَبُها ، وأُعْفِى من الوَقود حطبُها ؛ ولقد علم الله جلّ جلاله أن لقاء ذلك المَقام الكريم عند المملوك تمام المطلوب ، ممن[١] يجبر كسر القلوب ؛ فإنه مما انعقد على كماله الإجماع ، وصح فى عوالى معاليه السماع ، وارتفعت فى وجود مثاله الأطماع ؛ أخلاقا هذّبها الكرم الوضّاح ،

(١) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « فمن » .

وسجية كَلِف بها الكمال الفضّاح ؛ وحِرصا على الذكر الجميل ، وما يتنافس فيه إلا من سمت همه ، وكَرُمت ذممه ، وأَلِفت الخلد رِمَمُه ؛ إذ الوجود سراب ، وما فوق التراب تراب ؛ ولا يبقى إلا عمل راق ، أو ذكر بالجميل يُسطَّر فى أوراق[1] ؛ حسبما قلت من قصيدة كتبتها على ظهر [مكتوب][2] موضوع ، أشار به من كانت له طاعه ، فوفت بمقترحه استطاعه :

يمضى الزمان فكلٌ فانٍ ذاهبٌ إلا جميـــلَ الذكر فهو الباقِى

لم يبق من إيوان كِسْرى بعد ذا ك الحفل إلا الذِّكرُ فى الأوراق

هل كان للسفّاح والمنصور والـــمهدىّ مِنْ ذِكْر على الإطلاق

أو للرشــيد وللأمين وصِنْوه لولا شَــــباةُ يَراعَةِ الورّاق

رجَع التراب إلى التراب بما اقتضتْ فى كلِّ خَلْق حِكْمة الخَلّاق [١٧٢]

إلا الثناءَ الخالدَ العِطرَ الشذا يُهْدِى حديث مكارم الأخلاق

والرغبة من مقامكم الرفيع الجناب ، أن يمكّنها من حُسْن المثاب[3] ؛ فتحظى بحلول ساحته ، ثم بلثم راحته ؛ ثم بالإصغاء ، ولا مزيد للابتغاء ؛ إلى أن ترتفع الوَساطه ، وتغنى عن التركيب البساطه ؛ ويُنْسَى الأثَر بالعين ، ويُحْسِن الدهر قضاء الدَّين ؛ ونسأل الذى أغرى بها القريحه ، ولم يجعل الباعث إلا المحبة الصريحه ؛ أن يُبقى تلك المَثَابة زيناً للزمان ، وذُخْرا مكنوفا باليمن والأمان ، مظلَّلا برحمة الرحمن ، بفضله وكرمه » . انتهى .

بعض مقطوعات لابن الخطيب فى السلطان أبى حمو

ومن مقطوعاته ، أى ابن الخطيب ، البديعة فى مخاطبة هذا السلطان أبى حَمُّو صاحب تِلِمْسان ، قوله يشكره على ما كان أعان به أهل الأندلس :

(١) فى ط : « أو ذكر جميل » .
(٢) زيادة عن نفح الطيب .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « المناب » .

لقد زارَ الجزيرة منكَ بحرٌ يُمِدّ فليس تعرف منه جَزْرا
أعدْتَ لها بعهدك عهد موسى سميِّك فهى تتلو منه ذِكرا
أقمتَ جِدارها وأفدت كَنْزا ولو شئت اتخذت عليه أجْرَا

وقوله :

وقالوا الجزيرة قد صَوَّحَتْ فقلت : غمامَ النَّدى تنتظرْ
إذا وكَفَتْ كَفُّ موسى بها غَماما يعود الجنابُ الخَضِر

ومخاطبات الوزير ابن الخطيب للسلطان أبى حمو كثيرة جدا ، ولنقتصر منها على ماذكرناه .

ومن نظم ابن الخطيب رحمه الله :

يا إمام الهدى وأى إمام أوضَحَ الحقَّ بعد إخفاء رَسْمهْ
أنتَ عبد الحليم حلمَك نرجو فالمسمّى له نصيبٌ مِن اسمه

شعر له يودع به عبد الواحد ابن سلطان إفريقية

[وله يخاطب عبد الواحد بن زكرياء بن أحمد اللّحيانى أبا مالك ابن سلطان إفريقية مُوَدِّعا :

أبا مالك أنت نجل الملوكِ غيوثِ الندى وليوثِ النزالِ
ومثلك يرتاح للمكرُماتِ وما لكَ بين الورى مِنْ مثال
عزيز بأنفسنا أَنْ نَرى رِكابك مُؤْذِنة بارتحال
وقد خبَرَتْ منك خُلْقا كريما أناف على درجاتِ الكمال
وفازت[1] لديك بساعاتِ أُنْس كما زار فى الليل طيفُ الخيال
ولولا تَعَلُّلنا أننا نزورك[2] فوق بساط الجَلال

(١) كذا فى نفح الطيب (ج ٤ ص ١٧٦) . وفى الأصلين : « وجازت » .
(٢) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « بزورك » .

ونبلغُ فيك الذى نبْتغى   وذاك على الله سَهْل المنال
لما فَتَرَتْ أَنْفُسٌ مِنْ أَسًى   ولا بَرِحت أدْمُعٌ فى انهمال
تلقتك حيثُ احتللت السعودُ   وكان لك الله فى كل حال

وتوفى أبو مالك المخاطب بهذا ببلد الجَريد سنة خمسين وسبع مئة] [١] .

ومن أبدع ما وقع لابن الخطيب لاميته التى أولها :

* الحق يعلو والأباطل تسفل *

من قصيدة «المنح الغريب» له

قال ابن حِجّة فى شرح بديعيته ، الذى سماه بتقديم أبى بكر ، ما نصه :

« ومما يشعر بالتهنئة والنصر على الأعداء ، براعة الاستهلال للعلامة إمام المغرب ، ذى الوزارتين لسان الدين بن الخطيب ، وهى :

الحق يعلو والأباطل تسفل   والله[٢] عن أحكامه لا يُسْأَل   [١٧٣]

فإنه قال : نظمت للسلطان أسعده الله تعالى وأنا بمدينة سَلا ، لما انفصل طالباً حقه بالأندلس ، قصيدة كان صنع الله براعة استهلالها[٣] ، ووجهت بها إليه إلى رُنْدة قبل الفتح ، ثم لما قَدِمْتُ أنشدْتها [بين يديه][٤] بعد الفتح وفاء بنذرى ، وسَمَّيتها : « المنح الغريب ، فى الفتح القريب » ، منها قوله رحمه الله :

وإذا استحالت حالة وتبدّلت   فالله عزّ وجلّ لا يتبدّلُ
واليسرُ بعد العُسْر موعود به   والصبر بالفَرَج القريب مُوَكّل
والمستعِدّ لما يؤمّل ظافر   وكفاك شاهد « قيّدوا وتوكلوا »

(١) فى نفح الطيب : سنة ٧٤٠ .
(٢) فى شرح بديعية ابن حجة : « والحق » .
(٣) فى شرح البديعية المذكور : « كان صنع الله مطابقا لاستهلالها » .
(٤) الزيادة عن شرح البديعية لابن حجة .

أمحمد والحمـــد منك سجية بحُلِيّها دون[1] الورَى تتجمّلُ
أمّا سُعودك فهو دون مُنازع عَقْـد بأحكام القَضاء مُسَجَّل
ولك السجايا الغُرّ والشِّيَم التى بغريبهـــا يَتمَثَّل المُتَمَثِّل
ولك الوَقار إذا تزَلْزَلَتِ الرُّبا وهَفَتْ من الرَّوْع الهِضاب المُثَّل
عَوِّذْ كمالك ما استطعتَ فإنه قد تنقصُ الأشياء مما تكمُل
تاب الزمان إليك مما قد جَنَى والله يأمُر بالمَتَاب ويَقْبَل
إن كان ماضٍ من زمانك قد مضى بإساءةٍ قد سَرّك المُسْتَقبل
هذا بذاك فشفع الثانى[2] الذى أرضاك[3] فيما قد جناه الأوّل
والله قد ولّاك أمرَ عبـــاده لمـا ارتضاك ولايةً لا تُعْزَل
وإذا تغمّـدك الإله بنصره وقضى لك الحُسْنى فمن ذا يخذُل
وظعنت عن أوطان ملكك راكبا مَتْن[4] العُبـاب فأىُّ صبر يحمل ؟
والبحرُ قد حُنِيَت[5] عليك ضلوعه والريح تقطع للزفير[6] وتُرْسِل
ولك الجوارى المنشآت قدِ اغْتدت تختالُ فى بُرْدِ الشباب وترفُل
جَوفاء يحملها ومن حملت به من يعلم الأنثى وماذا تحمل
صبّحتَهم غُرَرَ الجِياد كأنما سَدّ[7] الثنيّـــة عارضٌ متهلّل

(١) فى شرح البديعية : « بين » .
(٢) كذا فى البديعية . وفى الأصلين : « الجانى » .
(٣) كذا فى ط . وفى ت : « ارتضاك » .
(٤) كذا فى البديعية . وفى الأصلين : « بين » .
(٥) كذا فى نفح الطيب ، وفى ط : « خفقت » وفى ت : « خفت عليه » .
(٦) فى البديعية : « تبتلع الزفير » .
(٧) كذا فى البديعية . وفى ت : « كأنها بيد الثنية » أى بطريق الثنية . وفى ط : « كأنها أسد الثنية » وهى محرفة عما أثبتناه فى صلب الكتاب .

مِنْ كل منجَرِد أغرّ مُحَجَّل يرمى الجياد(١) به أغرُّ محجَّل
زَجل الجَناح إذا أجدّ لغارة(٢) وإذا تغنّى للصهيل فبُلبُل
جيد كما التفتَ الظَّليم وفوقه أُذُن ممشّقة وطَرْف أكْحل

ومنها :

[١٧٤]

وخليج هندٍ راق حسنُ صفائه حتى يكاد يعوم(٣) فيه الصيقل
غرقت بصفحته النّمال وأوشكت تبغى النجاةَ فأوثقتها الأرجل
فالصرح منهُ ممرّد ، والصفح منْـه مُورّد ، والشّطُّ منه مُصَنْدَل(٤)
وبكل أزرق إن شكت ألحاظُه مَرَهَ العُيون فبالعَجاجَة يُكْحَل(٥)
مُتَأوِّد أعْطافه فى نَشْوة مما يُعَلّ من الدماء ويُنْهل
عجباً له أنّ النجيع بطرفِهِ رَمَدٌ ولا يخفى عليه مُقتَل
لله موقفك الذى وثباته وثباته مَثَلٌ به يُتَمَثَّل
والنَّصْل خط ، والمجَال صحيفة والسمْر تنقُط ، والصوارم تَشْكُل
والبِيض قد كُسِرَتْ حروفُ جُفونها وعوامل الأسَل المثقّف تَعْمَل

وهى طويلة ، وجميعها فرائد ؛ ولم أكثر منها إلا لعلمى أن كلام لسان الدين ابن الخطيب غريب فى هذه البلاد » . انتهى كلام ابن حِجَّة رحمه الله .

ومِن هذه بعد قوله « وطرف أكحل » :

فكأنما هو صورة فى هيكل من لُطْفه وكأنما هو هيكل

---

(١) كذا فى البديعية . وفى الأصلين : « الجلاد » .
(٢) فى ت والبديعية : « لغاية » .
(٣) فى البديعية . « يقول » .
(٤) فى ط والبديعية ونفح الطيب : « مهدل » .
(٥) مره العيون : خلوها من الكحل ، أو فسادها لتركه .

ومنها ، بعد قوله : « والبيض قد كسرت » البيت ، قوله :

لله قومُك عنــد مُشْتَجَر القَنا إذ ثَوَّب الدَّاعى المُهِيب وأقبلوا
قوم إذا لَفَح الهَجِير وُجُوههمْ حَجَبوا برايات الجهاد وظَلَّلوا

من مقطوعات لـ... لمـا أشرف على مراكش

ومن مقطوعات ابن الخطيب قوله لما أشرف على مراكش :

ماذا أُحدِّث عن بحر سَبَحْت به من البحار فلا إثم ولا حَرَجُ
دَحاه مبتــدع الأشياء مستويا ما إن به دَرَك كَلاَّ ولا دَرَج
حتى إذا ما المنار الفرد لاح لنا صِحْت ابشرى يامطايا[1] جاءك الفرج
قَرُبْتِ من عامر داراً ومَنْزلة والشاهدُ العدل هذا الطِّيبُ والأرج

وقال رحمه الله :

كأنَّا بتامِسْنا نجوسُ خلالهَا وممدودها فى سيرنا ليس يُقْصَر
مراكبُ فى البحر المحيط تخبَّطتْ ولا جهة تدرى ولا البر يُبْصَر

كتاب ابن خاتمة إلى ابن الخطيب

[١٧٥] قال ابن الخطيب : ولمـا قضى الله عز وجل بالإدالة ، ورجعنا إلى أوطاننا من العُدوة ، واشتهر عنى ما اشتهر من الانقباض عن الخدمة ، والتِّيــه على السلطان ، والدالّة[2] والتكبّر على أعلى رُتَب الخدمة ، وتطارحْتُ على السلطان فى استنجاز وَعْد الرحلة ، ورغبت فى تبرئة[3] الذمة ، ونفرت عن الأندلس بالجملة ، خاطبنى ، يعنى أبا جعفر بن خاتمة ، بعد صدر بلغ من حسن الإشارة ، و براعة الاستهلال الغاية ، بقوله :

(١) هذه الكلمة ساقطة فى ت .
(٢) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « والدولة » .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى ت : « تفدية » وفى ط : « تفويت » .

« وإلى هـذا يا سيدى ومحل تعظيمى وإجلالى ، أمتع الله تعالى بطول بقائكم ، وضاعف فى العز درجات ارتقائكم[(١)] ؛ فإنه من الأمر الذى لم يغب عن رأى العقول ، ولا اختلف فيه أرباب المعقول ؛ أنكم بهـذه الجزيرة شمْس أُفقها ، وتاج مَفْرِقها ؛ وواسطة سِلْكها ، وطِراز ملكها ؛ وقِلادة نحرها ، وفريدة دُرّها[(٢)] ، وعِقْد جيدها [المنصوص][(٣)] ، وكمال زينها[(٤)] على العموم والخُصوص ؛ ثم أنتم مَدار أفلاكها ، وسر سياسة أملاكها ؛ وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، وطبيب[(٥)] مارَسْتانها ؛ والذى عليه عَقْد إدارتها ، وبه قِوام إمارتها ؛ فلدَيْه يُحَل المشكل ، وإليه يلتَجأ فى الأمر المعضِل ؛ فلا غَرْو أن تتقيد بكم الأسماع والأبصار ، وتحدّق نحوكم الأذهان والأفكار ؛ ويُزْجَرعنكم السانح والبارح ، ويُسْتنبأ ماتَطرِف عنه العينُ وتختلج الجوارح ؛ استقراء لمرامكم ، واستطلاعا لطالع اعتزامكم ، واستكشافا عن مرامى سهامكم ؛ لا سيما مع إقامتكم على جَناح خُفوق ، وظهوركم فى مُلْتَمَع بُروق ، واضطراب الظنون فيكم مع الغروب والشروق ؛ حتى تستقر بكم الديار ، ويلقِى عصاه التَّسْيار ؛ ولها العذر فى ذلك ، إذ صَدْعها بفراقكم لم يندمل ، وسرورها بلقائكم لم يكتمل ؛ فلم يَبْرَ بَعْدُ جناحها المَهِيض ، ولا جَمّ ماؤها المغيض ، [١٧٦] ولا تميزت من داجيها لياليها البيض ؛ ولا استوى نهارها ، ولا تألقت أنوارها ؛ ولا اشتملت نعماؤها ، ونسيت غماؤها ؛ بل هى كالناقه ، والحديث العهد بالمكاره ، تستشعر نفس العافيه ، وتتمسح منكم باليد الشافيه ؛ فبحنانكم عليها ، وعظيم

---

(١) فى ط : « ارتفاعكم » .

(٢) فى ط : « دهرها » .

(٣) التكملة عن نفح الطيب .

(٤) فى نفح الطيب : « وتمام زينتها » .

(٥) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « وطب » .

حرمتكم على من لديها ؛ لا تشوبوا لها عذب المُجاج بالأُجاج ، وتفطموها عما عُوِّدت من طيب المِزاج ؛ فما لدائها — وحياة قربكم — غير طِبّكم من عِلاج ؛ وإنى ليخطُر بخاطرى محبةً فيكم ، وعناية بما يَعْنيكم ، ما نال جانبكم — صانه الله — بهذا الوطن من الجفاء ، ثم أذكر ما نالكم من حسن العهد وكرم الوفاء ؛ وأن الوطن إحدى الحواضن الأظْآر ، التى يحق لها جميل الاحتفاء ، وما يتعلق بكم من حرمة أولياء القرابة وأودّاء الصفاء : فيغلب على ظنى أنكم لحسن العهد أجنح ، وبحق نفسكم عن حق أوليائكم أسمح ، وللتى هى أعظم قيمة من فضائلكم أوهب وأسجح . وهب أن الدُّرّ لا يحتاج فى الإثبات ، إلى شهادة النحور واللَّبّات ؛ والياقوت غنىّ المكان ، عن مظاهرة القلائِد والتيجان ، أليس أنه أعلى للعِيان ، وأبعد عن مكابرة البُرْهان ، تألقها فى تاج المَلِك أنوشِرْوان ؛ فالشمس وإن كانت أم الأنوار ، وجِلاء الأبصار ، مهما أغمى مكانها من الأفق قيل : أليل هو أم نهار ؛ وكما فى علمكم ما فارق ذوو الأرحام ، وأولو الأحلام ؛ مواطن استقرارهم ، وأماكن قرارهم ، إلا برَغْمهم واضطرارهم ، واستبدال دار خير من دارهم ؛ ومتى توازن الأندلس بالمغرب ، أو يعوض عنها إلا بمكة أو يثرب ؟ ما تحت أديمها أشلاء [١٧٧] أولياء وعُباد ، وما فوقه مرَابِط جهاد ، ومَعاقِد ألوية فى سبيل الله ومَضارب أوتاد ؛ ثم يُبَوِّئُ ولده مُبَوَّأ أجداده ، ويجمع له بين طارفه وتِلاده ؛ أعيذ أنظاركم المسدَّدة من رأى فائل ، وسَعْى طويل لم يحْل منه بطائل ، فحسبكم من هذا الإِياب السعيد ، والعَوْد الحميد » . وهى طويلة .

رد ابن الخطيب على كتاب ابن خاتمة

قال ابن الخطيب : فأجبته بقولى :

لُمْ فى الهوَى العُذْرىّ أو لا تَلُمْ فالعـــذلُ لا يدخل أسماعى

شأنُك تَعْنِيفى وشأنى الهوى كلّ امرئٍ فى شأنه ساعى

أهلا بتُحفَة القادم ، ورَيحانة المُنادِم ، وذِكرى الهوى المتقادم ؛ لا يُصفِر[1] الله مَسراك ، بما أسراك ؛ لقد جُبْت[2] إلىّ من همومى ليلا ، وجست رَجْلا وخيلا ، ووَفَّيت من صاع الوفاء كَيْلا ، وظَنَنْت بى الأسف على ما فات فأعملتَ الالتفاتَ لكيلا ؛ فأُقسم لو أنّ أمرى اليوم بيدى ، أو كانت اللِّمة السوداء من عُدَدِى ؛ ما أفلتَّ شراكى المنصوبة لأمثالك ، حول المياه و بين المسالك ، ولا علمت ما هنالك ؛ لكنكَ طرقتَ حِمًى كَسَعَتْه الغارةُ الشَّعواء ، وغيَّرت ربعه الأنواء ؛ فخمد بعد ارتجاجه ، وسكت أذينُ دَجاجه ، وتلاعبت الرياح الهُوج فوق فجاجه ؛ وطال عهده بالزمان الأوّل ، وهل عند رسم دارس من مُعَوَّل ؛ وحَيّا الله نَدْبا إلى زيارتى نَدَبك ، و بآدابه الحكمية أدَّبك :

فكان وقد أفاد بك الأمانى   كمن أهدى الشفاء إلى العليل

وهى شيمة بوركت من شيمه ، وهبة الله قِبَلَه مِن لَدُن المشيمه ، ومن مثله فى صِلة رَعْى ، وفَضْل سَعْى ، وقولٍ ووَعْى ؟

قسما بالكواكب الزُّهْـــر   والزهر عاتمـــه

إنما الفضل مِـــلة   ختمت بابن خاتمـه   [١٧٨]

كسانى حُلّة فضله ، وقد ذهب زمان التجمّل ، وحمّلنى شكره وكَتِدى واهٍ عن التَّحمُّل ، ونظرنى بالعين الكليلة عن العيب فهلا أجاد التأمّل ، واستطلع طِلع نَثّى ، ووالى فى مَبرَك المَعْجَزة حَثّى ، إنما أشكو بَثّى :

* ولو تُرِكَ القطا ليلا لناما *

---

(١) فى ط ونفح الطيب : « لا يصفر » .

(٢) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « جئت » .

وما حال شَمْل وتِدُه مفروق ، وقاعدته فَرُوق ، وصُواع بنى أبيه مسروق ؛ وقلبٍ قرحُه من عضة الدهر دام ، وجمرة حَسْرته ذات احتدام ؛ هذا وقد صارت الصغرى ، التى كانت الكبرى ؛ لمشيب[1] لم يَدَع أن هجم لما نجم ، ثم تهلل عارضه وانسجم :

لا تجمعى هَجْرا علىّ وغُرْبةً فالهجر فى تَلَف الغريب سريع

نظرتُ فإذا الجنب ناب ، والنفس فريسة ظُفُر وناب ، والمالُ أكِيلة انتهاب ، والعمر رَهْن ذهاب ، واليد صِفر من كل اكتساب ، وسوق المَعاد مترامية والله سريع الحساب :

ولو نُعْطَى الخيارَ لما افترقْنا ولكنْ لا خيارَ مع الزّمانِ

وهبْ أن العمرَ[2] جديد ، وظل الأمن مديد ، ورأى الاغتباط بالوطن سديد ، فما الحُجة لنفسى إذا مرت بمَطارح جفوتها ، وملاعب هفوتها ؛ ومثاقف قناتها ، ومظاهر عُزّاها ومَناتها ؛ والزمان ولود ، وزناد الكون غير صَلُود !

وإذا امرؤ لَدَغَتْهُ أفعَى مرة تركته حين يُجَرُّ حَبْلٌ يَفْرَق

ثم إن المرغِّب قد ذهب ، والدهر قد استرجع ماوَهَب ، والعارض قد اشتهب ؛ وآراء الاكتساب مرجوحة[3] مرفوضه ، وأسماؤه على الجوار مخفوضه ، والنية مع الله على الزهد فيما بأيدى الناس معقوده ، والتوبة بفضل الله عز وجل منقوده ، غير معترضة ولا منقوده[4] ؛ والمعاملة سامريه ، ودروع الصبر سابريه ؛ والاقتصاد [١٧٩]

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « لمسيب » وهو تصحيف .
(٢) فى ط : « الأمر » .
(٣) فى ط : « مرجومة » .
(٤) منقودة (الأولى) : من نقد الثمن ، وهو تعجيله . و(الثانية) : من النقد ، وهو تمييز ما فى الشىء من حسن وقبح .

قد قرت العين بصحبته ، والله قد عوّض حب الدنيا بمحبته ؛ فإذا راجعها مثلى من بعد الفراق ، وقد رَقَى لَدْغَتها ألف راق ؛ وجمعتنى بها الحجره . فما الذى تكون الأجره ؟ جل شانى ، وإن رضى الوامق[1] وسخِط الشانى : إنى إلى الله مهاجِر ، وللعَرَض الأدنى هاجِر ، ولأَظْعان السُّرَى زاجر ، لَنَجْدٍ إن شاء الله تعالى أو حاجر ؛ لـكن دعانى للهوى ، إلى هذا المولى المنعم هوى ؛ خلعتُ نعلَى الوجود وما خلعته ، وشوقى أمرنى فأطعته ، وغالَبَ صبرى والله فما استطعته ؛ والحال أغلب ، وعسى ألَّا يخيب المَطلب ؛ فإن يسّر رضاه فأمل كَمَل ، وراحل احتمل ، وحادٍ أشجى الناقة والجمل ؛ و إن كان خلاف ذلك ، فالزمان جم العوائق ، والتسليم بمقامى لائق :

ما بين غَمضة عين وانتباهتها يصرّف الأمرُ من حال إلى حال

وأما تفضيله هذا الوطن على غيره ، ليُمْن طيره ، وعموم خيره ؛ و بركة جهاده ، وعُمران رُباه ووِهاده . بأشلاء عُبّاده وزُهاده ؛ حتى لا يفضله إلا أحد الحرمين ، فحق برئ من المين ؛ لـكننى للحرمين جَنَحْت ، وفى جو الشوق إليهما سَنَحْت ؛ فقد أفضتْ إلى طريق قصدى مَحَجَّته ، ونصرتْنى والمنةُ لله حُجَّته ؛ وقصد سيدى أسْنَى قَصْد توخاه الحمد والشكر ، ومعروف عُرِف به النُّـكْر ؛ والآمال من فضل الله بعد تُمتار ، والله يخلق ما يشاء ويختار ؛ ودعاؤه بظهر الغيب مَدَد ، وعُدّة وعَدَد ، وبره حالَىِ الظَّعْن والإقامة معتمل ومعتمد ، ومجال المعرفة بفضله لا يحصره أمد . والسلام . انتهى .

من رثاء السلطان أبى سالم

وقال فى الإحاطة فى ترجمة السلطان أبى سالم ابن السلطان أبى الحسن المرينى ، بعد كلام كثير ، ما نصه :

---

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « الموافق » .

[١٨٠] « فلقد كان بقيّة البيت ، وآخر القوم دَماثة وحياء ، و بعداً عن الشر ، وركونا للعافية ، وأنشدت على قبره الذى وُوريت به جُثته بالقلة من ظاهر المدينة ، قصيدة أديت فيها بعض حقه ، وهى :

بنى الدنيا بَنى لَمْعِ السَّرابِ   لِدوا للموت وابنوا للخرابِ

انتهى المقصود منه .

شعر له فى الرغبة إلى الله

ومن نظم ابن الخطيب فى الرغبة إلى الله تعالى :

إِلٰهِىَ بالبيت المقدّس والمسعَى   وجَمْعٍ إذا ما الخلق قد نزلوا جَمْعا
وبالموقف المشهود يا ربّ فى مِنًى   إذا ما أسال الناسُ من خوفك الدمعا
وبالمصطفى والصَّحْب عَجِّلْ إقالتى   وأَنجِحْ دُعائى فيك يا خير من يُدْعَى
صَدَعْتُ وأنتَ المستغاث جنابه   أَقِلْ عثرتى يا مأمَلِى واجْبُرِ الصدعا

شعر له بعد عودته من الرحلة المراكشية

وقال رحمه الله عقب الإياب من الرحلة المراكشية :

أفادت وِجْهتى بِنَداكَ مالا   قضى دَيْنى وأَصْلح بعضَ حالى
ومَتعتُ الخواطر بانشراح   وأطرفْتُ النواظَر باكتحال
وأُبْتُ خفيفَ ظَهرٍ والمطايا   بجاهك تشتكى ثِقَل الرِّحال
وشانى للمعالم غير شانى   وحالى بالمكارم جِدُّ حال
فحُب عُلاكَ إيمانى وعَقْدى   وشكر نداكَ دينى وانتحالى
كأَنْ قد صحّ لله انقطاعى   بتأميلِى جنابَك وارتحالى
وما يبقى سوى فعل جميل   وحالُ الدهر لا تبقى بحال
وكل بداية فإلى انتهاء   وكل إقامة فإلى ارتحال
ومن سام الزمان دوام أمر   فقد وقفَ الرجاء على المُحال

وقال رحمه الله فى الضراعة إلى مولاه :

مولاى إن أذنبت ، يُنْكَر أن يُرَى منك الكمالُ ومنى النُّقصان ؟

والعفو عن سَبب الذنوب مُسبّب لولا الجِنَاية لم يَكُن غُفْران

وله فى مدرسة

[وقال سامحه الله مما كُتب فى حيطان المدرسة التى بناها السلطان أبو الحجاج :

ألا هكذا تُبنَى المدارس للعِلْم وتبقَى عهود المجد ثابتة الرسْمِ

ويُقْصد وجه الله بالعمل الرّضا وتُجْنَى ثمار العز من شجر العزم

تفاخر منى حضرة الملك كلما تقدّم خصم فى الفخار إلى خصم

فأجدَى إذا ضن الغمامُ من الحيا وأهدَى إذا جَنّ الظلام من النجم

فيا ظاعناً للعِلم يطلب رِحلة كُفيتَ اعتراض البِيدِ أو لُجج اليمّ

ببابىَ حُطَّ الرحْل لا تنو وِجهة فقد فزت فى حال الإقامة بالغُنم

فكم من شِهاب فى سمائىَ ثاقب ومن هالة دارت على قمر تِمّ

يُفيضون من نور مبين إلى هُدًى ومن حكمة تجلو القلوب إلى حُكْم

جزى الله عنى يُوسُفا خير ما جَزى ملوكَ بنى نصْر عن الدين والعلم

وله فى غرناطة

وقال ابن الخطيب مررت يوماً مع شيخنا أبى البركات ببعض مسالك غَرناطة ، فأنشد من نظمه :

« غرناطة ما مثلها حَضْرَهْ الماء والبهجة والخُضْرَه

واستجازنى رحمه الله تعالى ، فقلت »[1] :

سكانها قد أُسْكِنوا جَنّةً فَهُمْ يُلقَّوْن بها نَضْره][2]

وله يخاطب قبر الولى السبتى

وكتب رحمه الله عن سلطانه أبى عبد الله بن نصر يخاطب الضريح المقصود ، والمنهل المورود ، والمرعى المنتجع ، والخِوان الذى يكفى الغرْثَى ، ويمرّض المرضَى ،

(١) ما بين هذين القوسين « » من نفح الطيب وهو ساقط من ت .

(٢) ما بين القوسين ساقط فى ط .

[١٨١] ويقوت الزَّمنَى ، ويتعداهم إلى أهل الجِدَة زعموا والغِنَى ، قبر ولىّ الله سيدى أبى العباس السبتى[١] ، نفعنا الله به وجبر حالنا ببركاته النعم ، ودفع علينا النقم :

يا ولىّ الإله أنت جَــواد وقَصَدْنا إلى حِماكَ المنيعِ

راعنا الدهر بالخطوب فجئنا نرتجى من عُلاك حُسْنَ الصنيع

فمددنا لك الأكف نرجِّى عودة العز تحت شمل جميع

قد جعلنا وسيلةً تُرْبك الزا كى وزُلْفَى إلى العَليم السميع

كم غريب أسرَى إليك فوافَى برضاً عاجلٍ وخــير سريع

ياولىّ الله الذى جعل جاهه سبباً لقضاء الحاجات ، ورفع الأزمات ، وتصريفه باقياً بعد الممات ، وصدَّق نقلَ الحـكايات ظهور الآيات ؛ نفعنى الله بنيتى فى بركة تربك ، وأظهر علىَّ أثَر توسلى بك إلى الله ربك ؛ مُزِّق شملى ، وفُرِّق بينى وبين أهلى ؛ وتُعُدِّى علىّ ، وصرفت وجوه[٢] المكايد إلىّ ؛ حتى[٣] أخرجت من وطنى وبلدى ، ومالى وولدى ؛ ومحل جهادى ، وحق الذى صار لى طوعاً عن آبائى وأجدادى ؛ عن بَيعة لم يَحُلّ عُقدتها الدين ، ولا ثبوت جريمة تَشين ؛ وأنا قد قرعت باب الله بتأميلك ، فالتمس لى قبوله بقَبولك ؛ ورُدَّنى إلى وطنى على أفضل حال ، وأظهر علىّ كرامتك التى تُشد إليها ظهور الرحال ؛ فقد جعلت وسيلتى إليك رسول الحق ، إلى جميع الخلق ؛ والسلام عليك أيها الولى الـكريم ، الذى يأمن به الخائف وينتصف الغَريم ، ورحمة الله .

---

(١) أبو العباس السبتى هو الولى الصالح الشيخ أحمد بن جعفر السبتى الخزرجى ، وهو غير أبى العباس الشريف السبتى الذى تقدم ذكره فى هذا الجزء فى صفحة ٣٢ وما بعدها .

(٢) فى ت : « وجهة » .

(٣) فى ت : « حين » .

ولە يورى بدم الأخوين

وقال سامحه الله فى معنى التورية الطبية ، بالدواء المسمى بدم الأخوين ، فى شأن سلطان الأندلس القائم عليهم وأخيه ، وشأن ذلك الدواء النفع من الجراح :

بإسماعيل ثم أخيه قيس تأذّن هم ليلى بانبلاجِ
دم الأخوين داوى جُرْح قلبى وعالجنى وحَسْبك من عِلاج

وله فى اقتباس

وقال مقتبساً فى غير ذلك :

يامن بأكناف فؤادى رَبَعْ[1] قد ضاق بى فى حبك المتسعْ
ما فيك لى جَدْوَى ولا أرعوِى شُحٌّ مُطاعٌ وهَوًى مُتَّبَع

شعر له فى التورية بالطب

وقال فى التورية بالطِّب :

إنى وإن كنتُ ذا اعتلالِ رَثَّ القُوى بَيِّن الهُزالِ
فى «عارضِ التَّيس» لى شِفَاء فكيف فى عارض الغَزال

وقال يخاطب ابن مرزوق

وقال يُخاطب الحاجبَ الفقيهَ الخطيبَ ، سيّدى أبا عبد الله بن مَرْزوق ، وطغا على بيت المشارقة فى العِذَار :

[١٨٢]

أمَا والذى تُبْلَى لديه السَّرائرُ لمَا كنتُ أرضَى الخَسْفَ لولا الضرائرُ
غدوتُ لضَيْم ابن الرَّبيب فَرِيسةً أمَا ثار من قومى لنصرىَ ثائرُ[2]
إذا التمستْ كفِّى لديه جرايتى كأنىَ جانٍ[3] أوْبقَتْه الجرائر
وما كان ظنّى أن أنال جِراية يُحَكِّم من جرّائها فِىّ جائر
متى جاد بالدِّينار أخضرَ زائفاً ودارتُه دارتْ عليها الدوائر
وقد أخرج التعنيتُ كِيسَ مَرارتى ورقّت لِبَلْوَاى النفوسُ الأخاير

(١) ربع : أقام وسكن .
(٢) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « ناصر » .
(٣) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « جار » وهو تحريف .

تذكرت بيتاً فى العِذَار لبعضهم ... له مَثَل بالحُسْن فى الأرض سائر :

« وما اخضرّ ذاك الخدّ نبتا وإنما ... لكثْرة ماشُقّت عليه المرائر »[١]

وجاهُ ابنِ مرزوق لدىَّ ذخيرةٌ ... وللشــدّة العُظمَى تُعَدّ الذخائر

ولو كان يدرِى مادهانى لساءه ... وأنكر ما صارت إليــه المصاير

وكان ابن الربيب هذا من خُدّام السلطان أبى سالم ، وكانت جِراية ابن الخطيب وغيره ممن قدم من أعيان الأندلس على يده ، فكان لايوفّى بحقهم ، فاشتكى ابن الخطيب به إلى الحاجب ابن مرزوق بهذا النظم المذكور ، وإلى الله ترجع الأمور .

شعر له فى مخاطبة أحد الشرفاء

وقال رحمه الله يخاطب أحد الشرفاء الكرام :

أعْيا اللقاء علىّ إلا لمحةً ... فى جُملةٍ لا تقبل التفصيلاَ

فجعلت بابَك عن يمينك نائباً ... أُهديه عنــد زيارتى تقْبيلا

فإذا وجدتُك نِلْتُ ما أمّلته ... أو لم أجدك فقد[٢] شَفَيت غليلا

[١٨٣]

وقال يشكر السلطان أبا سالم على تخليصه إياه

وقال فى مخاطبة السلطان أبى سالم رحمه الله فى سبيل الشكر ، عند ما خلّصه من الورْطة بشفاعته التى قدّمنا ذكرها :

سَمِىَّ خليل الله أحييتَ مُهجَتى ... وعاجَلنى منك الصّريخُ على بُعْدِ

فإن عشتُ أُبلغْ فيك نفسىَ عُذْرَها ... وإن لم أعش فالله يجزيك من بعدى

وله فى التغزل

قال : وقلت فى التغزّل ، وما أبعده عنّى فى الوقت ، والحمد لله :

(١) هذا البيت لعيسى بن سنجر المعروف بالحاجرى المتوفى سنة ٦٣٢ هـ من قصيدة مطلعها :

على دمع عينى من فراقك ناظر ... يرقرقه إن لم ترقه المحاجر

(٢) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « فما » .

أصبح الخدّ منك جَنّــة عَدْن مُجْتلَى أعــيُنٍ وشَمَّ أُنوفِ
ظَلَّتها من الجُفون سُــيوف جَنَّةُ الخُلْد تحت ظلّ السيوف

من رسالة له فى تهنئة ابن أبى مدين بتقلد الخطة

وخاطب صاحب الأشغالِ أبا عبد الله بن أبى القاسم بن أبى مدين يهنئه بتقلد الخُطة من رسالة :

تعُود الأمانىُّ بعد انصراف ويعتدل الشىء بعد انحرافِ
فإن كان دهرُك يوماً جنَى فقد جاء ذا خَجل واعتراف

طلع البشير ، أبقاك الله ، بقبول الخلافة المَرينيَّه ، والإمامة السَّنيه(١) ، خصّها الله بنَيل الأُمنيه ؛ على تلك الذات التى طابت أُرومتها وزكت ، وتأوَّهت العلياء لتذكر عهدها وبكت ، وكاد السرور ينقطع لولا أنها تركت منك الوارث الذى تركت ؛ فلولا العذر الذى تأكّدت ضرورته ، والمانع الذى ربما تقرّرت لديكم صورته ؛ لـكنت أولَ مُشافه بالهناء ، ومُصارف لهذا الاعتناء ، الوثيق البناء ، فنقول والحمد لله والثناء . وهى طويلة .

رسالته إلى السلطان أبى سالم مستعينا به

وقال يخاطب السلطان أبا سالم عند انقطاعه بضريح والده بشالة سلا ، حيث مدفنُ مُلوك بنى مرين :

عن باب والدك الرِّضا لا أبرحُ يَأسو الزمانُ لأجل ذاك ويَجرحُ(٢)
ضُربَتْ خيامى فى حِماه فصِبْيتى تجنِى الجميمَ(٣) به وبَهمِى تَسْرح
حتى يُراعَى وجهُه فى وجهتى بعناية تَشفِى الصدور وتشرح
أيسوغ عن مثواه سيرى خائبا ومَنابر الدنيا بذكرك تَصْدح

---

(١) فى ط : « السريه » :
(٢) فى ط : « لأجل ذا أو يجرح » .
(٣) كذا فى الأصلين والسلاوى ، ولعلها مصحفة عن « الجميم » وهو النبت الـكثير . يريد أنهم فى بسطة من العيش .

أنا فى حماه وأنت أبصر بالذى يرضيه منك فوزن عقلك أرجحُ
فى مثلها سيف الحَمِية يُنْتضَى فى مثلها زَنْد الحفيظة يُقْدح
وعسى الذى بدأ الجميل يُعيده وعسى الذى سد المذاهب يفتح

[١٨٤] ومما كتب به إلى السلطان أبى سالم من مدينة سلا ، بعد عودته من مَرّا كش .

مولاى المرجو لإتمام الصنيعة ، وصلة النعمة ، وإحراز الفخر ، أبقاكم الله تُضْرَب بكمُ الأمثال فى البر والرِّضا ، وعلوّ الهمة ، ورعْى الوسيلة .

مقبِّل مَوْطئ قدمكم ، المنقطع إلى تُرْبة المولى والدكم ابن الخطيب ، من الضريح المقدس بشالة ، وقد حَطّ رحل الرجاء فى القبة المقدسة ، وتَيمَم[١] بالتربة الزكية ، وقعد بإزاء لحد المولى أبيكم ، ساعة إيابه من الوجهة المباركة ، وزيارة الرُّبُط المقصودة ، والترَب المعظمة ، وقد عزم ألاَّ يبرح طوعاً من هذا الجوار الكريم ، والدخيل المرعىّ ، حتى يصله من مَقامكم مايناسب هذا التطارح على قبر هذا المولى ، العزيز على أهل الأرض ثم عليكم ، والتماس شفاعته فى أمر سهل عليكم ، لا يجر إنفاذَ[٢] مال ، ولا اقتحام خَطر ، إنما هو إعمال[٣] لسان ، وخَط بَنان ، وصرف عزم ، وإحراز فخر وأجر ، وإطابة ذكر ، وذلك أن العبد عرفكم يوم وداعكم ، أنه ينقل عنكم إلى المولى المقدّس بلسان المقال ، ما يحضر مما يفتح الله فيه ، ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال ، ما يتلقى عنه من الجواب . وقال لى صدر دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم ، سيدى الخطيب ، سَنَّى الله أمله ، من

(١) كذا فى السلاوى (ج ٢ ص ١١٥) . وفى الأصلين : « وتدمم » .
(٢) فى السلاوى : « إنفاد » .
(٣) فى ت : « عمل » .

سعادة مقامكم ، وطول عُمركم : يا فلان ، أنت والحمد لله ممن لا يُنكَر عليه الوفاء بهذين الفرضين ، وصدر عنكم من البِشْر والقَبول والإنعام ما صدر ، جزاكم الله جزاء المحسنين . وقد تقدم تعريف مولاى بما كان من قيام العبد بما نقله إلى التربة الزكية عنكم ، حسبما أداه من حضر ذلك المشهد من خدامكم ، والعبد الآن يعَرِض عليكم الجواب ، وهو أنى لما فرغت من مخاطبته بمرأى من الملأ الكبير ، والجم الغفير ، أكببت على اللحد الكريم ، داعياً ومخاطباً ، وأصغيت [١٨٥] بأذنى نحو[(١)] قبره ، وجعل فؤادى يتلقى ما يوحيه إليه لسان حاله ، فكأنى به يقول لى : قل لمولاك : يا ولدى ، وقرة عينى ، المخصوص برضاى و برى ، الذى ستر حريمى ، ورد ملكى ، وصان أهلى ، وأكرم صنائعى ، ووصل عملى ، أُسلِّم عليك ، وأسأل الله أن يرضى عنك ، ويُقبل عليك ؛ الدنيا دار غُرور ، والآخرة خير لمن اتقى ، وما الناس إلا هالك وابن هالك ، ولا تجد إلا ما قدمت من عمل يقتضى العفو والمغفرة ، أو ثناء يجلب الدعاءَ بالرحمة ، ومثلك من ذُكِّر فتذكر ، وعُرِّف فما أنكر ؛ وهذا ابن الخطيب [قد][(٢)] وقف على قبرى ، وتهمّم بى ، وسبق الناس إلى رثائى ، وأنشدنى ومجّدنى ، و بكانى ودعا لى ، وهنأنى بمصير أمرى إليك ، وعفّر وجهه فى تربى ، وأمّلنى لما انقطعَتْ منى آمال الناس ، فلو كنتُ يا ولدى حيّا لما وَسِعنى أن أعامل معه إلا ما يليق بى ، وأن أستقل فيه الكثير ، وأحتقر العظيم ، لكن لما عجزتُ عن جزائه ، وَكَلْتُهُ إليك ، وأحلته يا حبيب قلبى عليك ، وقد أخبرنى أنه سَليب المال ، كثير العِيال ، ضعيف الجسم ، قد ظهر فى عَدَم[(٣)] نشاطه أثر السن ، وأمّل أن ينقطع بجوارى ، و يستتر بدخيلى

(١) كذا فى السلاوى . وفى الأصلين : « عند » .
(٢) التكملة عن السلاوى .
(٣) فى ط : « فى عظيم » .

وخدمتى ، ويُرَدّ عليه حقُّه بحرمتى ، ووجهى ووجوه من ضاجعنى من سلفى ، ويَعبدَ الله تحت حرمتك وحرمتى ، وقد كنت تشوفت إلى استخدامه فى الحياة ، حسبما يعلمه حبيبنا الخالص المحبة ، وخطيبنا العظيم المزية القديم القُرْبة ، أبو عبد الله ابن مرزوق ، فسله يذكرك ، واستخبره يخبرك ، فأنا اليوم أريد أن يكون هذا [١٨٦] الرجل خديمى بعد الممات ، إلى أن نلحق جميعاً برضوان الله ورحمته التى وسعت كل شىء ، وله يا ولدى ولد نجيب يخدم ببابك ، وينوب عنه فى ملازمة بيت كُتّابك ، وقد استقر بدارك قراره ، وتعيّن بأمرك مَرْتَبَهُ ودِثاره ، فيكون الشيخ خديم الشيخ ، والشاب خَديمَ الشاب ، هذه رغبتى منك ، وحاجتى إليك . واعلم أن هذا الحديث لا بد له أن يذكر ويُتَحَدّث به فى الدنيا ، وبين أيدى الملوك والكبراء ، فاعمل ما يبقى لك فخره ، ويتخلد ذكره ، وقد أقام مجاوراً ضريحى ، تالياً كتاب الله علىّ ، منتظراً ما يصله منك ، ويقرؤه علىّ ، من السعى فى خلاص ماله ، والاحتجاج بهذه الوسيلة فى جبره ، وإجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة ، فاللهَ اللهَ يا إبراهيم ، اِعمل ما يُسْمع عنى وعنك فيه ، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال » . [انتهى][١] .

والعبد يا مولاى مقيم تحت حرمته وحرمة سلفه ، منتظر منكم قضاء حاجته ، ولتعلموا وتتحققوا أنى لو ارتكبت الجرائم ، ورزأت الأموال ، وسفكت الدماء ، وأخذت حسائف[٢] الملوك الأعزة ممن وراء النهر من التتر ، وخلف البحر من الروم ، ووراء الصحراء من الحبشة ، وأمكنهم الله منى من غير عهد ، بعد أن بلغهم تذممى بهذا الدخيل ، ومقامى بين هذه القبور الكريمة ، ما وسع أحداً منهم من حيث الحياء والحِشْمة من الأموات والأحياء ، وإيجاب الحقوق ، التى

(١) التكملة عن السلاوى .

(٢) الحسائف : العداوات ، جمع حسيفة .

لايغفلها الكبار للكبار ، إلا الجود الذى لايتعقبه البخل ، والعفو الذى لا تفسده المؤاخذة ، فضلا عن سلطان الأندلس ، أسعده الله بموالاتكم ، فهو فاضل ، وابن ملوك أفاضل ، وحوله أكياس ، مافيهم من يجهل قدركم وقدر سلفكم ، لاسيما مولاى والدكم ، الذى أتوسل به إليكم وإليهم ، فقد كان يتبنَّى مولاى أبا الحجاج ، ويشمله بكنفه ، وصارَخَه بنفسه ، وأمده بأمواله ، ثم صيّر الله ملكه إليكم ، وأنتم من [١٨٧] أنتم ذاتا وقبيلا ، فقد قرّت يا مولاى عين العبد بما رأت فى هذا الوطن المراكشى ، من وفور حشودكم ، وكثرة جنودكم ، وترادف أموالكم وعددكم ، زادكم الله من فضله . ولا شك عند عاقل ، أنكم إن انحلت عروة تأميلكم ، وأعرضتم عن ذلك الوطن ، استولت عليه يد عدوه ، وقد عُلِم تطارحى بين الملوك الكرام ، الذين خضعت لهم التيجان ، وتعلُّقى بثوب الملك الصالح ، والد الملوك [الكرام] (١) ، مولاى والدكم ، وشهرة حُرْمة شالة معروفة ، حاشَ لله أن يضيعها أهل الأندلس ، وما تُوُسِّل إليهم قَطُّ بها إلا الآن ، وما يجهلون اغتنام هذه الفضيلة الغريبة ، وأملى منكم أن يتعين من بين أيديكم خديم ، بكتاب كريم ، يتضمن الشفاعة فى رد ما أخذ لى ، ويخبر بمثواى مترامبا على قبر والدكم ، ويقرر ما لزمكم بسبب هذا الترامى ، من الضرورة المهمة ، والوظيفة الكبيرة ، عليكم وعلى قبيلكم حيث كانوا ، وتطلبون منهم عادة المكارمة بحل هذه العقدة ، ومن المعلوم أنى لو طلبت بهذه الوسائل من طيب (٢) مالهم ، ما وسعهم بالنظر العقلى إلا حفظ هذا الوجه مع هذا القبيل وهذا الوطن ، فالحياء والحشمة يأبيان العذر عن هذا فى كل مِلّة ونحلة ، وإذا تم هذا الغرض ، ولا شك فى إتمامه بالله ، تقع صدقتكم على القبر الكريم

(١) التكملة عن السلاوى .

(٢) فى ت : « صلب » .

بى ، وتعينوننى لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقده ، ومدح النبى صلى الله عليه وسلم ليلة المولد فى جواره ، و بين يديه ، وهو غرض غريب مناسب لبركم به ، إلى أن أحج بيت الله بعناية مقامكم ، وأعود داعيا مثنيا ، مستدعيا للشكر والثناء من أهل المشرق والمغرب ، وأتعوض من ذِمتى بالأندلس ذمة بهذا الرِّباط المبارك ، [١٨٨] يرثها ذريتى ، وقد ساوَمتُ فى شىء من ذلك ، منتظرا ثمنه ، مما يباع بالأندلس بشفاعتكم ، ولو ظننت أنهم يتوقفون لكم فى مثل هـذا ، أو يُتَوَقَّع فيه وَحشة أو جفاء ، واللهِ ما طلبته ، لـكنهم أسرى وأفضل ، وانقطاعى أيضا لوالدكم مما لا يسع مجدَكم إلا عملُ ما يليق بكم فيه ، وهأنا أرتقب جوابكم ، بما لى عندكم من القَبول ، ويسعنى مجدكم فى الطلب ، وخروج الرسول لاقتضاء هذا الغرض ، والله يطَّلع من مولاى على ما يليق به . والسلام .

وكتبه فى الحادى عشر من رجب ، عام أحَد وستين وسبع مئة .

وفى مدرج الـكتاب بعد نثر هذه القصيدة :

مولاى هأنَا فى جوار أبيـــكا فابذل من البر المقـــدّر فيكا
أسمعه ما يرضيه من تحت الثرى والله يسمعك الذى يُرضيكا
واجعل رضاه إذا نهدْتَ كَتيبة تهدى إليك النصر أو تَهْديكا
واجبرْ لجبرى قلبه تنـــل المنى وتطالع الفتح المبين وشيكا
فهو الذى سن البُرور بأمّـــه وأبيـــه فاشرع شرعه لبنيكا
وابعث رسولك منـذرا ومحذرا وبما تؤمل نيـــــلَه يأتيكا
قد هز عزمك كل قطر نازح وأخاف مملوكا به ومليـــكا
فإذا سموتَ إلى مرام شاسع فغضونه ثمرَ المــــــنى تجنيكا
ضِمنت رجالُ الله منك مَطالبى لما جعلْتك فى الثواب شريكا

فلئن كَفَيتَ وُجوهها فى مقصِدى ورَعيتها بركاتها تكفيك
وإذا قضيت حوائجى وأريتنى أملى فربك ما أردتَ يريكا
واشدد على قولى يدا فهو الذى برهانه لا يقبل التشكيكا
مولاى ما استأثرت عنك بمُهجتى أنى ومهجتى التى تفديكا
لكن رأيت جناب شالةَ مغنما يُضْفِى علىّ العزَّ فى ناديكا
وفروض حقك لا تفوت فوقتها باق إذا استجزيته يَجزيكا
ووعدتنى وتكرر الوعد الذى أبت المكارم أن يكون أفيكا
أضفى عليك الله سِتر عناية من كل محذور الطروّ يقيكا
ببقائك الدنيا تُحاط وأهلها فالله جل جلاله يُبقيكا

رد السلطان أبى سالم على ابن الخطيب

[١٨٩] ولما وصل هذا السلطان أبا سالم رحمه الله راجعه بما نصه ، بعد البسملة والصلاة :

من عبد الله المستعين بالله إبراهيم أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، [أبى الحسن ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين] [١] أبى سعيد ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ، أيد الله أمره ، وأعزّ نصره ، إلى الشيخ الفقيه الأجل الأسنى ، الأعز الأحظى ، الأوجه الأنوه ، الصدر الأحفل ، المصنف البليغ ، الأعرف الأكمل ، أبى عبد الله ابن الشيخ الأجل الأعز الأسنى ، الوزير الأرفع الأنجد ، الأصيل الأكمل ، المرحوم المبرور أبى محمد بن الخطيب ، وصل الله عزته ، ووالى نعمته [٢] .

(١) ما بين القوسين زيادة عن ت وعن السلاوى .
(٢) فى ت : « رفعته » .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد حمد الله تعالى ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم المصطفى ، والرضا عن آله وصحبه أعلام الإسلام ، وأئمة الرشد والهدى ، وصلة الدعاء لهذا الأمر العلى العزيز المنصور المستعينى ، بالنصر الأعز ، والفتح الأسنى .

فإنا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم بلوغ الأمل ، ونُجْح القول والعمل ، من منزلنا الأسعد ، بضَفة وادى ملويه ، يمنه الله ، وصنع الله جميل ، ومنُّه جزيل ، والحمد لله ، ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل ، والعناية المُتَكَفّلة[1] برعى الوسائل ، ذلكم لما تميزتم به من التمسك بالجناب العلى المولوىّ العلوىّ ، جدد الله عليه ملابس غفرانه ، وسقاه غيوث رحمته وحنانه ، وبما أهديتم إلينا ، من التقرب [١٩٠] لدينا ، بخدمة ثراه الطاهر ، والاشتمال بمَطارف حُرْمته السامية المظاهر ، وإلى هذا وصل الله حظوتكم ، ووالى رفعتكم ، فإنه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده ، المقابَل بالإسعاف المستعذَب ورده ، فوقفنا على ما نصَّه ، واستوفينا ما شرحه وقَصَّه ، فآثرنا حسن تلطفكم فى التوسل بأكبر الوسائل إلينا ، ورعينا أكمل الرعاية حق ذلكم الجناب العزيز علينا ، وفى الحين[2] عَيَّنّا لكمال مطلبكم ، وتمام مأربكم ، والتوجه بخطابنا فى حقكم ، والاعتمال بوفقكم ، خديمينا أبا البقاء بن تاشكورت ، وأبا زكرياء بن فرقاجة ، أنجدهما الله وتولاهما ، وأمسِ تاريخه انفصلا مودّعين إلى الغرض المعلوم ، بعد التأكيد عليهما فيه ، وشرح العمل الذى يوفيه ، فكونوا على علم من ذلكم ، وابسطوا له جملة آمالكم ، وإنا لنرجو ثواب الله فى جبر أحوالكم ، وبرء اعتلالكم ، والله سبحانه يصل

(١) فى ت : « المتكافة » .

(٢) فى ت : « فى الحسن » ، وهو تحريف .

مَبرتكم ، ويتولى تكرمتكم ، والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته .

كتب فى الرابع والعشرين لرجب عام واحد وستين وسبع مئة .

رد ابن الخطيب على السلطان أبى سالم شاكرا

فراجعه ابن الخطيب بمـا نصه :

مولاى خليفة الله بحق ، وكبير ملوك الأرض عن حجة ، ومعدن الشفقة والرحمة ، ببرهان وحكمة ، أبقاكم الله عالى الدرجة فى المنعمين ، وافر الحظ عند جزاء المحسنين ، وأراكم ثمرة بر أبيكم فى البنين ، وصنع لكم فى عدوكم الصنع الذى لا يقف عند معتاد ، وأذاق العذاب الآليم من أراد فى مثابتكم بإلحاد .

عبدكم الذى ملكتم رِقَّه ، وآويتم غربته ، وسترتم أهله وولده ، وأسنيتم رزقه ، وجبرتم قلبه ، يُقبّل مَوْطِيء الأخمص الكريم من رجلكم الطاهرة ، المستوجبة بفضل الله لموقف النصر ، الفارعة هضْبَةَ العز ، المعملة الخطو فى مجال السعد(١) ، ومسير(٢) الحظ ، ابن الخطيب من شَالَة التى تَوَكَّد بملككم الرضىّ احترامها ، وتجدد برعيكم عهدها ، واستبشر بملككم دفينها ، وأشرق بحسناتكم نورها ، [١٩١] وقد ورد على العبد الجواب المولوى ، البر الرحيم ، المنعم المحسن ، بمـا يليق بالملك الأصيل ، والقدر الرفيع ، والهمة السامية ، والعزة القَعْساء ، من رعى الدخيل ، والنصرة(٣) للذمام ، والاهتزاز(٤) ابر الأب الكريم ، فثاب الرجاء ، وانبعث الأمل ، وقوى العضُد ، وزار اللَّطَف ، فالحمد لله الذى أجرى الخير على يدكم الكريمة ، وأعانكم على رعْى ذمام الصالحين ، المتوسّل إليكم أولا بقبورهم

---

(١) فى ط : « السعة » .

(٢) كذا فى السلاوى . ذا الأصلين : « وميسر » .

(٣) فى ت : « والمعرة » .

(٤) فى ت : « والاعتزاز » .

ومتعبداتهم ، وتراب أجداثهم ، ثم بقبر مولاى ومولاكم ومولى الخلق أجمعين ، الذى تسبب فى وجودكم ، واختصكم بحبه ، وغمركم بلطفه وحنانه ، وعلمكم آداب الشريعة ، وأورثكم ملك الدنيا ، وهيأتكم دعواته بالاستقامة إلى ملك الآخرة ، بعد طول المدى ، وانفساح البقاء ، وفى علومكم المقدمة ما تضمنت الحكايات عن العرب ، من النصرة(١) عن طائر داست أفراخه ناقة فى جِوار رئيس منهم ، وما انتهى إليه الامتعاض لذلك ، مما أهينت فيه الأنفس ، وهلكت الأموال ، وقُصارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خُدّامكم ، من عرب تامِسْنا ، فما الظن بكم وأنتم الكريم ابن الكريم [ابن الكريم] فيمن لجأ أولا إلى حِماكم بالأهل والولد ، عن حسنة تبرعتم بها ، وصدقة حملتكم الحرية على بذلها ، ثم فيمن حَطَّ رحل الاستجارة بضريح أكرم الخلق عليكم ، دامع العين ، خافق القلب ، دامى القُرحة(٢) ، يتغطى بردائه ، ويستجير بعليائه ، كأننى ترامَيتُ عليه فى الحياة أمام الذعر الذى يُذهل العقل ، ويحجب عن التمييز ، بقصر داره ، ومضجع رقاده ، ما من يوم إلا وأجهر بعد التلاوة : [١٩٢] يا لَيعقوب ، يا لَمَرِين ، نسأل الله ألّا يقطع عنى معروفكم ، ولا يسْلُبنى عِنايتكم ، ويستعملنى ما بقيت فى خدمتكم ، ويتقبل دعائى فيكم ، ولحين وصول الجواب الكريم ، نهضت إلى القبر المقدس ، ووضعته بإزائه ، وقلت : يا مولاى ، يا كبير الملوك ، وخليفة الله ، وبَرَكة بنى مَرِين ، صاحب الشهرة والذكر فى المشرق والمغرب ، عبدك المنقطع إليك ، المترامى بين يدى قبرك ، المتوسل إلى الله ثم إلى ولدك بك ، ابن الخطيب ، وصله من مولاه ولدِك ما يليق بمقامه ، من رعى وجهك ، [والتقرب إلى الله برَعْيك] ، والاشتهار فى مشرق الدنيا ومغربها ببرك ، وأنتم من

(١) كذا فى ط والسلاوى . وفى ت : « النعرة » .

(٢) فى السلاوى بدل هذه العبارة : « واهى الفزعة » .

أنتم ، من إذا صنع صنيعة كمَّلها ، وإذا بدأ مِنّة تمَّمها ، وإذا أسدى يدا أبرزها طاهرة بيضاء غير معيبة ولا ممنونة ولا منتقصة ، وأنا بعدُ تحت ذيل حرمتك ، وظل دخيلك ، حتى يتم أملى ، ويخلص قصدى ، وتحف نعمتك بى ، ويطمئن إلى مأمنك قلبى .

ثم قلت للطلبة : أيها السادة ، بينى وبينكم [تلاوة] كتاب الله منذ أيام ، ومناسبة النِّحلة ، وأُخوّة التألف بهذا الرِّباط المقدس ، والسّكنى بين أظهركم ، فأمِّنوا على دعائى بإخلاص من قلوبكم ، واندفعت فى الدعاء والتوسل ، الذى نرجو أن يتقبله الله ولا يضيعه ، وخاطب العبد مولاه شاكراً لنعمته ، مُشيدا بصنيعته ، مسرورا بقبوله ، وشأنه من التعلق والتطارح شأنه ، حتى يكْمُلَ القصد ، ويتم الغرض ، معمور الوقت بخدمة يرفعها ، ودعاء يردده ، والله المستعان .

تهنئته للسلطان أبى سالم بفتح تلمسان

وفى يوم الخميس سابع عشر من شعبان ، من العام المؤرخ ، ورد كتاب فتح تِلِمْسان ، فأصدر ابن الخطيب إلى باب السلطان أبى سالم ما نصه : [١٩٣]

مولاى فتّاح الأقطار والأمصار ، فائدة الزمان والأعصار ، أثيرَ هبات الله الآمِنة مِنَ الاعتصار ، قدوة أولى الأيدى والأبصار ، ناصر الحق عند قعود الأنصار ، وهى طويلة ، انظرها فى الريحانة ، وبعدها قصيدة بديعة مطلعها :

أطاع لسانى فى مديحك إحسانى وقد لَهِجت نفسى بفَتح تلمسانِ

من مخاطباته لابن مرزوق

ومن مخاطباته للحاجب ابن مَرزوق .

سيدى ، بل مالكى ، بل شافعى ، ومنتشلى من الهفوة ، ورافعى وعاصمى عند تجويد حروف الصنائع ، ونافعى الذى بجاهه أجزَأتِ المنازل قِراى ، وفضلت أولاى ، والمنة لله أخراى ، وأصبحتُ وقول الحسن هِجِّيراى :

عَلِقتُ بحَبْل من حِبَال محمد أمِنْتُ به من طارق الحـدَثَانِ
تَغَطَّيت من دهرى بظل جَناحه فعيْنى ترى دهرى وليس يرانى
فلو تسأل الأيام ما اسمى ما درتْ وأين مكانى ما عَرَفْن مكانى

وصلت مِكناسة ، حرسها الله تعالى ، تحت غيثٍ حَذانى حَذو نداك ، وسحائب لولا الخصال المبرة قُلْت يداك ، وكأن الوطن لاغتباطه بجوارى ، وما رآه من انتياب زُوّارِى ، أوعز إلى بهت يقطع الطريق ، وأطلق يده على التغريق ، وأشراق القوافل مع كثرة المـاء بالريق ، فلم يسع إلا المُقام أياما ، قُعودا فى البر وقياما ، واختيارا لضروب الأنس واعتياما ، ورأيت بلدةً معارفها أعلام ، وهواؤها برد وسلام ، ومحاسنها تعمل فيها ألْسنة وأقلام ، فحيا الله سيدى ، فلكم من فضل أفاد ، وأنس أحياه وقد باد ، وحفظ منه على الأيام الذخْر والعتاد ، كما [١٩٤] ملّـكه زِمام الكمال فاقتاد ، وأنا أتطارح عليه فى صلة تفقده ، وموالاة يده ، بأن يسهمنى فى فرض مخاطباته مهما خاطب ، معتبرا فى هذه الجهات ، ويصحبنى من مناصحته بكئوس مسرة ، يعمل فيها هاك وهات ، فالعز بعزه معقود . والسعد بوجوده موجود ، ومَنهل السرور بسروره مورود ، والله عز وجل يبقيه ببقـاء الدهر ، [ويجعل حبه وظيفة السر ، وحمده وظيفة الجهر ، ويحفظ على الأيام من زمنه زين الدهر] ويصل لنا تحت إيالته العام بالعام والشهر بالشهر ، آمين آمين . انتهى.

وقال رحمه الله :

شىء من صراحة ابن الخطيب فى مجلس السلطان أبى عنان

حضرت يوما بين يدى السلطان أبى عِنان فى بعض وفاداتى عليه ، لغرض الرسالة ، وجرى ذكر بعض أعدائه ، فقلت ما اعتقدت فى اطراء ذلك العدو ، وما عرفته من فضله ، وأنكر على بعض الحاضرين ، ممن لا يحطِب إلا فى حبل السلطان ، فصرفت وجهى وقلت : أيدكم الله ! تحقير عدو السلطان بين يديه

ليس من السياسة فى شىء ، بل غير ذلك أحق وأولى ، فإن كان السلطان غالبا عدوه كان قد غلب غير حقير ، وهو الأولى بفخره ، وجلالة قدره ، وإن غلبه العدو لم يغلبه حقير ، فيكون أشد للحسرة ، وأوكد للفضيحة . فوافق رحمه الله على ذلك ، واستحسنه ، وشكر عليه ، وخجل المعترض . انتهى .

شعر له فى مكناسة

ومن نظمه رحمه الله :

مِكناسةٌ جُمِعت بها زُمَرُ العِدا ... فمدى بريدٍ فيـــه ألف بريد

من واصلٍ للصوم لا لرياضة ... أو مدمن للجوع غـيرِ مُريد

فإذا سلـكت طريقها متصوفا ... فابن السلوك بها على التجريد

شعر له فى مدينة آنفى

ولما دخل رحمه الله مدينة آنفى ، ومر منها على دار عظيمة ، تنسب إلى والى جبايتها « عبو » من بنى الترجمان ، قارون قومه ، وغنى صنفه ، قال :

قد مررنا بدار « عبو » الوالى ... وهى ثَـكْلَى تشكو صروف الليالى

أقْصَدَتْ ربها الحوادث لما ... رشقته بصائبـــات نِبال

كان بالأمس واليـــا مستطيلا ... وهو اليوم ما له من وال

شعر له فى ابن بطان

ومن نظمه رحمه الله فى الشيخ ابن بطان الصنهاجى :

[١٩٥]

لله درك يا ابن بطان فمـــا ... لشهير جودك فى البسيطة جاحد

إن كان فى الدنيا كريم واحد ... يزن الجميع فأنت ذاك الواحد

أجريتَ فضلك جعفرا يحيا به ... ما كان من مجد فذكركَ خالد

فالقوم منك تجمعوا فى مُفرد ... ولد كما شاء العـــلاء ووالد

وهى الليـالى لا تزال صروفها ... يشقى بموقعها الكـريم المـاجد

وبمستعين الله يصلح منك ما ... قد كان أفسده الزمان الفاسـد

شعر له في البرغوث

وقال رحمه الله وقد انتابه البرغوث :

زَحَفَتْ إلىّ ركائبُ البُرغوث ... تحت الظلام بِرَكْبِها المحثوثِ

بالحبّة السوداء قابل مَقدمى ... لله أىّ قِرًى أعدّ خبيث

كسحَتْ بهن ذباب سرح تجلّدى[1] ... ليلا فحَبْل الصبر جِدّ رَثيث

إن صابرت نفسى أذاه تعبّدت ... أوْ صِحْتُ منه أَنِفْت من تحنيثى

جَيْشان من ليل و برغوث فهل ... جيش الصباح لصَرْختى بمُغيث

شعر له في ابن روح

[ومن نظمه رحمه الله فى عثمان بن يحيى بن عمر بن روح :

أسَمِىّ ذى النورين وجهُك فى الوغى ... شمس الضحى حلّت بليث عَرين

إن تفتخر بمَرِينَ أرضُ العُدوة الْـ ... ـقُصوى فإنك أنت فخر مَرِين][2]

شعر له صدر به رسالته إلى ابن حسون

وقال يخاطب الوالى محمد بن حَسُّون بن أبى العلاء ، وصدّر بها رسالة :

لم يُبق لى جودُ الولاية[3] حاجةً ... فى الأمن أو فى الجاه أو فى المالِ

بعد اللقاء أولو الفضائل بغيتى ... ورأيت هذا القصدَ شرط كمال

أجملته وتشوفت لبيانه ... هِمَم فكنت مفسر الإجمال

وخصصت بالإلغاء غيرك غَيرة ... وجعلت ذكرك شاهدَ الأعمال

أُلبِست[4] يا بْنَ أبى العلا قُشُب العُلا ... وتركت أهلَ الأرض فى أسمال

إن دوّن الفُضلاء فضلا مُعْلَما ... فلقد أتيتَ عليه بالإكمال

تُثنى عليك رعيّة آمالها ... فى أن تفوز يداك بالآمال

---

(١) كذا فى نفح الطيب والسلاوى . وفى الأصلين : « به ديباج » . وهو محرف عما أثبتناه .

(٢) ما بين القوسين زيادة عن ت .

(٣) فى الأصلين : « الخلافة » . وقد أثبتنا رواية نفح الطيب لملاءمتها السياق .

(٤) فى نفح الطيب : « للبست » .

أَزْعِيتَها هَمَــــلا فلم يَطْرق لها بمَنيع سُـــورك طارقُ الإهمالِ
من كنتَ واليه تولّته العُـــلاَ ومن اطَّرحت فمــا له من والى

شعر له فى ندب مراكش بعد الموحدين

وقال رحمه الله عند وقوفه على مَرّاكش ، واعتباره بما صار إليه أمرُها(١) :

بَلَد قد غزاه صَرْفُ الليالى وأباح المَصُونَ منــه مُبِيحُ
فالذى خَرّ من بِناه قتيل والذى خرّ منه بعضٌ جَريح
[١٩٦]
وكأنّ الذى يزورُ طبيبٌ قد تأتّى له بها التشريح
أُعْجِمت منــه أربُع ورُسوم كان قِدْما بها اللسان الفَصِيح
كم مَعانٍ غابت بتلك المَغانى وجمالٍ أخْفاه ذاك الضريح
ومُلوكٍ تعبّدوا الدهرَ لمّا أصبح الدهرُ وهو عَبْد صَريح
دوّخوا نازح البَسيطة حتى قال ما شاء ذابِل وصَفِيح
حَيْث(٢) شُبّتْ لهم من البأس نار ثم هَبّتْ لهم من النَّصْر رِيح
أَثَر يَنْــــدُب المؤثِّر لمّا طال(٣) بعد الدنوّ منه النُّزوح
ساكنُ الدار رُوحها كيف يبقى جَسَد بعــد ما تولّى الروح

شعرله يخاطب به عامرا الهنتاتى

وقال يخاطب عَميد مَرّاكش(٤) ، المتميّز بالرأى والسياسة والهمّة ، وإفاضة العدل، وكفّ اليد ، والتجافى عن مال الجباية ، عامر بن محمد بن على الهَنتاتى :

تقول لى الأظعانُ والشوق فى الحشَى له الحُكْم يَمْضى بين ناهٍ وآمرِ
إذا جبلَ التوحيد أصبحتَ فارعا نخيِّم قريرَ العين فى دار عامرِ

(١) كذا فى الأصلين وفى نفح الطيب . وفى السلاوى زيادة فى هذه العبارة يتضح بها المقام ، قال : « ولما وقف على مصانع مراكش وقصورها وقصبتها واعتبر ما صار إليه أمرها بعد الموحدين قال » .
(٢) فى ط : « حين » .
(٣) فى ط : « كان » .
(٤) فى السلاوى : « عميد البلاد المراكشية » .

وزُرْ تربة المعلوم إنَّ مَزارها هو الحجّ يُفضِى نحوَه كلُّ ضامرِ
ستَلْقَى بمَثوَى عامر بن محمد ثغورَ الأمانى من ثنـايا البشائر
ولله ما تبلوه من سـعد وجْهة ولله ما تَلْقاه من يُمْن طائر
وتُستعمل الأمثال فى الدهر منكما بخـير مَزُور أو بأغبطِ زائر

تعريف بعامر الهنتاتى

أقول : عامر بن محمد هذا ، هو قَريع[1] هَنْتاتة ، وكانت له مع أبى الحسن المَرينى فى الوفاء أحاديث ، صَحّحت عند أبى عِنان وغيره مُتاته ، ولم يزل فى رياسته مدة أبى عِنان ومَن بعده من ملوك بنى مَرين ، إلى زمن أبى فارسٍ عبد العزيز ابن أبى الحسن ، فنازله بجنوده ، وحاصره بمعتقَله ، حتى استولى عليه وقتله .

وقد ساق أمرَه ابنُ خَلدون واستوفاه ، ومنعنى من الإتيان به ما حصل من التطويل فى هذه الترجمة ، وقد أشار إليه ابن الأحمر فى « نَثير فرائد الجُمان » عند ما ذكر الشريف الشبوكى ، ونصه :

شئ عن الشريف الشبوكى

[١٩٧] « صاحبنا الفقيه ، محمد بن يوسف بن أحمد بن محمد بن يوسف ، يُكْنَى أبا عبد الله ، ويعرف بالشبوكى ، رأيته وصحبته ، ونِسْبته حسْبما نقلته من خطه على متن كتاب ، وأخبرنى هو به ، وسمعته أيضا بفاس ، من بعض الناس ، وهو محمد ابن يوسف بن أحمد بن محمد بن يوسف بن عمران بن عبد الرحيم بن نوح بن شعيب بن على بن أبى محمد بن حَيّان بن فضل بن طاهر بن مطهر بن حمود بن زياد ابن محمد بن الحسن[2] بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، ويعرف بالشبوكى . وشبوكة : قرية بينها وبين مدينة فاس ثلاثة أميال[3] ؛ وأخبرنى أن جده عبد الرحيم

(١) القريع : السيد الرئيس .
(٢) فى ط : « الحسين » .
(٣) فى ت : « أيام » .

أتى من المشرق إلى المغرب ، واستوطن بشبوكة ، وهو شريف ؛ ويوسف أبوه كان رحمه الله جميل الوجه جدا ، شاعرا مجيدا فقيها ، وبرّز عَدْلا فى سِماط شهود فاس ، واستخدمه أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو عِنان المرينى شاهدا فى دار صناعته ؛ وأحمد والد يوسف كان فقيها صوفيا ؛ ومحمد والد أحمد كان فقيها صالحا ؛ ويوسف والد محمد كان فقيها عالما صالحا مكاشفا مجاب الدعوة ، من أهل الطبقة العليا فى الصلاح ؛ وأبو عبد الله هذا كتب الوثيقة بشهود فاس .

شعر للشبوكى فى مدح أبى فارس والتحريض على الهنتاتى

حاله أكرمه الله : هو فارس القَريض ، وحامل لوائه الطويل العريض ، وله وجه وسيم ، وحياء جسيم ، وسُموّ همته لم يبلغها إنسان ، ولم يُسْمع بمثلها فى سالف الأزمان ، ويُؤْثِر عزة نفسه على هواه ، ويختار مَهْيَع السمو على ما سواه ، وأنشدنى لنفسه يمدح أمير المسلمين أبا فارس عبد العزيز المَرينى ، بعد قتله لوزيره المتغلب على أمره ، عمر بن عبد الله بن على اليابانىّ ، ويحرضه على قتال الشيخ [١٩٨] أبى ثابت عامر بن محمد بن على الهنْتاتى ، صاحب جبل هَنْتاتة ، من حوز مراكش ، حين خرج عليه به ، بالسلطان المعتمد على الله أبى الفضل محمد بن أخى السلطان عبد العزيز هذا :

أبانَ فى حبّـــــه ما قال عاذلهُ دمعٌ جرى فوق صَفْح الخد هاملهُ
فبات من وطأة التفريق ذا وجل (١) يستنجد الصـبر عونا وهو خاذله
صَبٌّ إذا ما بدا بالرَّقمتين له وَميض برق الحِمى هاجت بلابله
يبكى لمنزل أنس بان آهــــله وظاعن عنه قـــد شَطَّت منازله
يا حسن عصر بهم قضّيته زمنا رقّت حواشيه إذ رقّت أصائله

(١) فى ط : « فى وجل » .

كأنّ صوبَ دموعى بعد بُعْدِهِم ... سَيْب المليك إذا وافاه سـائلهُ
عبدِ العزيز الذى عزت بدولته ... مراتب الحق والتاحت دلائله
وأصبح الملك فى أمن وفى دَعة ... مِنَ الذى كان غالتـه غوائله
عادت بعِيـدٍ لنا منه نَضارته ... فعاد يافعه واشـتد كاهله
كالروض باكَره طَلٌّ على ظمأ ... وجادَه بعـد ذاك الطَّلّ وابله
هو الإمام الذى من أَمَّ ساحَته ... جادت عليه بجـدْواها أنامله
ومن تخلّف جهلا عن إجابته ... سارت إليه على علم صـواهله
قُلْ للذى عنـه أقصَتْه جرائمه ... وعَقَّلته عن العَليا مَعاقله
زُرْ حضرةَ الملكِ الميمون طالعُه ... تَحْظ بما أنت فى دنياك آمله
فطَبْعه الصفح والمعروف شيمته ... والحِلْم والصَّوْن والتقوى شمائله
أبلغ جميع العِدا أن سوف يشملُهم ... من الظُّبَى كلُّ ماضى الحد فاصله
هـذا المليك أتاهم فى كتائبه ... لنَسْخ آجالهم تُنْضَى رَواحـله
بكل خِرْق طويل الباع مُتَّئِد ... مقصِّر عمرَ من تَلْقى مناصله[1]
وجحفلٍ فيه سُمْر الخط مُشْرَعةٌ ... قد حَجَّبت أنجُمَ الشِّعْرَى قَساطله
سيعلم الغُمْر عُقْبَى ما جنـاه إذا ... كَلَّت مواضيه وانفضّت كلا كله
وحاط بالجبـل البحر المحيط ولا ... حت فوق أرؤسهم منـه جداوله
فانهض إليهم أميرَ المسلمين فقد ... أُعْطيت كل المُـنى فيما تحاوله
[١٩٩] من ذا يُنـازل جيشًا أنت قائده ... يومَ الـكريهة أو مَنْ ذا يُناضله

(١) المناصل : السـيوف ؛ الواحد : منصل (بضم الميم وسكون النون مع ضم الصاد وفتحها) .

ألا ترى المارقَ الرِّعديدَ حين عتا وأضمر المكر صادَتْه حبائلُهُ
ظنَّ الضنين بأن يسمو ويعلوَ فى دنيا سَمَتْ وعلت فيها بواطله
فغادرته الصِّعاد الزُّرْق منْجَدِلا فوق الصَّعيد تُنـاديه جنادله
دنياه تَضْحك من أحواله عجبا به وفى الحىّ تبكيه أرامله
فلْيَهْنِ دين الهدى من بعد مدته أنْ أنت يا ذا المُحَيَّا الطَّلْق كافِله
لم ينتصب قطُّ فى الدنيا لواءُ عُلاً إلاَّ ومن آل عبد الحق حامله
مولاى مولاى دُم ماعشت مُصطحِبا عُـلاً ونخرا وعِزًّا لا تزايله
إن سار جيشك فالتأييد يَقْدُمه والنصر عاجله يقفوه آجله

انتهى كلام ابن الأحمر .

وأقارب هذا الشريف الشبوكىّ لم يزالوا إلى الآن ، ولهم مصاهرة مع وليّنا الفقيه المحدِّث ، الحاج الرَّحال البَرَكة ، القدوة الصالح الناصح ، أبى عبد الله سيدى محمد بن الولىّ الصالح سيدى أبى بكر بن محمد ، صاحب الدّلا[١] ، أبقى الله علاهم ، وأعانهم على ما أولاهم .

شعر لابن الخطيب على قبر السلطان أبي الحسن المرينى

ولنرجع إلى ابن الخطيب فنقول :

وقال رحمه الله ، وقد شاهد بجبل هَنتاتة محل وفاة السلطان أبى الحسن المَرينى ، حيث أصابه طارق الأجل ، الذى فَصَل الخُطَّة ، وأصمت الدّعوة ، ورفع المنازعة ، وعاينه مُرَفَّها[٢] عن الابتذال بالسكنى ، مفترَشا بالحصباء ، مقصودا بالابتهال والدعاء ، فلم يبرح يومَ زيارة محل وفاته أنْ قال :

(١) كذا وردت هذه الكلمة فى الأصلين ، ولم نفهم المراد منها ، ولم نعثر على مرجع آخر لهذا الكلام المنقول عن ابن الأحمر ، لنعارض به هذا النص .
(٢) كذا فى الأصلين . وفى نفح الطيب : « مرفعا » .

يا حسنَها من أرْبُعٍ وديار أضحت لباغى الأمن دارَ قرارِ

وجبـال عزّ لا تذِل أنوفُها إلا لعز الواحـد القهار

ومقر[1] توحيـدٍ وأُس خلافة آثارُها تُنْبى عن الأَخْبـار

ما كنت أحسب أنَّ أنهار النَّدَى تجرى بها فى جمـلة الأنهار

ما كنت أحسب أن أنوار الحِجا تلتـاح فى قُنَنٍ وفى أحجار

مَجَّت جوانبُها البَرود وإن تكن شَبَّتْ بها الأعداءُ جَذوة نار

هـدّت بناها فى سبيل وفائها فكأنّها صَرْعى بغـير عُقار

لمّا توعّدها على المجد العـدا رضِيَتْ بعَيْث النـار لا بالعار

[٢٠٠]

عَمرت بحِـلّة[2] عامر وأعزّها عبـد العزيز بمُرهَفٍ بتّار

فرسَا رِهان أحرزا قَصَب النَّدى والبأسَ فى طَلَق وفى مِضمار

وَرِثا عن النَّـدْب الـكبير أبيهما محضَ الوفاء ورفعـةَ المقدار[3]

وكذا الفروع تطول وهى شبيهة بالأصـل فى وَرَق وفى أثمار

أزْرَتْ وجوهُ الصِّيد من هنتاتة فى جوِّها بمطالع الأقمـار

لله أى قبيـلة تركت لها النـظراءُ دَعْوى الفخر يوم فخار

نصرتْ أميرَ المسلمينَ[4] وملـكَه قـد أسلمته عزائمُ الأنصار

وارَتْ عليًّا عنـدما ذهب الرَّدَى والروعُ بالأسماع والأبصـار

وتخاذل الجيشُ اللُّهام وأصبح الـأبطال بين تقاعُـد وفِرار

---

(١) فى ط : « ومحل » .

(٢) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين والسلاوى : « بحلة » . ويريد بعامر : عامر بن محمد الهنتاتى .

(٣) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « الأقدار » .

(٤) فى ط : « المؤمنين » .

كُفِرَتْ صنائعُه فيمّم دارها ... مُسْتظهِرا منها بِعِــــز جِوارِ
وأقام بين ظهورها لا يتّقى ... وقْع الردى وقــد ارتمى بشرار
فكأنهـا الأنصارُ لمّا آنست ... فيما تقـــادم[١] غُربة المختار
لمـا غــدا لحظًا وهم أجفانُه ... نابتْ شِـــفارهمُ عن الأشفار
حتى دعاه الله بين بيوتهـــم ... فأجاب مُمتثِلا لأمر البـــارى
لو كان يُمنع من قضاء الله ما ... خلصتْ إليه نوافـــذُ الأقدار
قد كان يأمُل أن يكافئ بعض ما ... أولَوْه لولا قاطعُ الأعمـــار
ما كان يقنعه لو امتدَّ المَدَى ... إلا القيامُ بحقّها من دار
فيعيد ذاك الماءَ ذائبَ فِضّة ... ويعيد ذاك الترب تِبْرَ[٢] نُضَار
حتى تفوز على النوى أوطانُها ... من مُلْكه بجلائل الأوطار
حتى يلوح على وجوه وجوههمْ ... أثَرُ العناية ساطعَ الأنوار
ويُسَوِّغَ الأملَ القصيَّ كِرامَها ... من غـــير ما ثُنْيا ولا استعصار[٣]
ما كان يَرْضَى الشمسَ أو بدرالدجى ... عن دِرْهم فيهم ولا دينـار
أو أن يُتوَّج أو يقـــلِّد هامَها ... ونحورَها بأهِـــلّة ودَرارى
حقٌّ على المولى ابنه[٤] إيثارُ ما ... بذلوه من نصر ومن إيثار
فلمثلها ذُخِر الجزاء ومثـــلُه ... من لا يُضيع صـــنائع الأحرار
وهو الذى يقضى الديونَ وبِرُّه ... يُرضيه فى عَلَن وفى إسرار

---

(١) فى ط ونفح الطيب : « تقدم » .

(٢) فى نفح الطيب والسلاوى : « ذوب » .

(٣) الثنيا : الاستثناء . والاستعصار : استفعال من العصر بمعنى المنع . ولم ترد صيغة « استفعل » من العصر فى المعاجم التى بأيدينا .

(٤) يريد بالمولى : ابنه السلطان أبا سالم بن أبى الحسن المرينى .

[٢٠١] حتى تُحَج مَحِلّة رَفعوا بها عَلَمَ الوفاء لأعْيُن النُظّارِ
فيصير منها البيتُ بيتا ثانيا للطائفين إليه أى بِدار
تغْنِى قلوب القوم عن هَدْى به ودموعُهم تكفى لرمى جِمار
حُيِّيتِ من دار تكفَّل سعيها الـمحمود بالزُّلْفى وعُقْبى الدار
وضَفَت عليكِ من الإله عناية ما كَرَّ ليلٌ فيك إثْر نَهار

شعر لابن الخطيب على قبر المعتمد

وقال رحمه الله ، حين زار بخارج أغماتَ قبر المعتمد بالله أبى القاسم ابن عَبَّاد ، أمير حِمْصٍ[1] وقُرطبة والجزيرة ، وما إلى ذلك الصُّقع الغربى ، ونص كلامه الذى رتبه فى ذلك أنه قال :

وقفت على قبر المعتمد بالله بمدينة أَغْمات ، فى حركة راحة أعملتها إلى الجهات المَراكشية ، باعثها لقاء الصالحين ، ومشاهدة الآثار عام واحد وستين وسبع مئة ، وهو بمقبرة أغمات ، فى نَشَز من الأرض ، قد حَفَّت به سِدرة ، و إلى جنبه قبر اعتماد حَظِيّته مولاة رَميك ، وعليهما هيئة[2] التغرب ، ومعاناة الخمول من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما ، فأنشدت فى الحال :

قد زُرت قبرَكَ عن طوعٍ بأَغمات رأيتُ ذلك من أُولى المهماتِ
لِمْ لا أزورك يا أندى الملوك يدا ويا سراجَ الليالى المدلَهِمَّات
وأنت مَنْ لو تَخطَّى الدهرُ مَصْرَعَه إلى حياتى لجادت فيه أبياتى
أناف قبرُك فى هَضْب يميِّزه فتنتحيه حَفِيَّات التَّحيات
كرُمت حياً ومَيْتاً واشتهرت عُلًا فأنت سلطان أحياء وأموات

(١) يريد بحمص (هنا) : مدينة إشبيلية بالأندلس ، لأن العرب الذين نزلوها عند الفتح أسموها باسم بلدهم فى الشرق .
(٢) فى نفح الطيب : « أثر » .

مارِيء[١] مثلك فى ماض، ومُعْتَقَدى أن لا يُرَى الدهرَ فى حالٍ ولا آتِى

شعر له فى مخاطبة ابن يوسف

وقال رحمه الله مخاطباً أحمد بن يوسف حفيد الولى الصالح سيدى أبى محمد صالح النائم فى ظل صيته، رحمهم الله :

يا حفيدَ الولىّ يا وارث الفخـــر الذى نال فى مقال[٢] وحالِ

لك يا أحمد بن يوسف جُبنا كل قفر[٣] يعيى أكف الرحال

[٢٠٢] ولما خرج رحمه الله من آسِفَى[٤] سار إلى منزل ينسب لأبى خدو[٥]؛ فيه رجل من بنى المنسوب إليه، اسمه يعقوب، قال فى نُفاضة الجراب، فألطف وأجزل وآنس فى الليل، وطلبنى بتذكرة تثبت عندى معرفته، فكتبت له :

نزلنا على يعقوبَ نجل أبى خَدُّو فعرّفنا الفضل الذى ما له حَدُّ

وقابلَنا بالبشر واحتفل القِرى فلم يبق لحم لم ننله ولا زُبد

يحق علينا أن نقوم بحقـــه ويلقاه منا البر والشكر والحمد

وله فى مخاطبة السلطان

وقال يخاطب السلطان :

أنت للسلمين خـــير عِماد ومَلاذ وأىّ حِــرْزٍ حريزِ

لو رأى ما شرعت للخلق فيه عمرُ الفاضلُ ابن عبـد العزيز

لجزى ملـككَ المبارك خـيرا وقضى بالشّـــفوف[٦] والتبريز

فاشكر الله ما استطعت بفعل وبقول مُطَوّل أو وجـيز

(١) رىء : أصله (رئى) بالبناء للمجهول ، قدمت اللام على العين .
(٢) فى ت : « مقام » .
(٣) فى نفح الطيب : « قطر » .
(٤) آسفى : من الثغور المراكشية .
(٥) فى نفح الطيب : « حذو » .
(٦) يريد بالشفوف (هنا) : الزيادة .

كل مَلْكٍ يُرَى بصُحْبة أهل الــعلم قد باء بالمحــل العزيزِ
فإذا ما ظفرت منهم بإكسيــر ملأت البلاد من إبريز
والبرايا تَبِيد والمُــلْك يفنى أين كسرى الملوك مَعْ أَبْرَويز

وله فى مخاطبة ابنه وقد وصل لزيارته

وقال : أنشدت ابنى عبد الله وقد وصل لزيارتى من الباب السلطانى ، حيث [جرايته ووظيفته ، وانجر حديث] (١) ما فُقِد بغرناطة فى شجون الكلام :

يا بنىّ عبــدَ الإله احتسابا عن أثاث ومــنزلٍ وعَقَارِ
كيف يَأسَى على خَسارة جزء من يرى الــكلّ فى سبيل الخَسار
هَدَف لا تَنِى سِهامُ الليــالى عن سِــباق تجاهَه و بِدار
واحد طائِش وثان مصيبٌ ليس ينجى منها اشتمالُ حِذار
غير ذى الدار صُرِّفَ الهمُّ فيها فمناخ الرحيــل ليس بدار

وقال : أنشدته وأمرته بحفظه ، والتأدب به ، واللَّهَج بحكمته :

إذا ذهبتْ يمينُكَ لا تُضــيِّع زمانكَ فى البكاء على المصيبهْ
ويُسراك اغتنم فالقوس ترمِى وما تدرِى أرشقتها قريبه
وما بغريبة نُوَب الليــالى ولــكن النَّجاةَ هى الغريبه [٢٠٣]

بعض مقطوعات له

وقال رحمه الله :

يَأهل هذا القُطْر ساعده القَطْر بُليتُ فدُلُّونى لمن يُرْفع الأمرُ
تشاغلتُ بالدنيــا ونمتُ مفرِّطا وفى شُغُلى أو نَوْمتى سُرِق العمر

وقال رحمه الله :

مالى أهذِّبُ نفسى فى مطالبِها والنفسُ تأنَفُ تهذيبى وتَهذِى بى

(١) ما بين القوسين تكملة عن ت .

إذا استعنتُ على دهرى بتجربة تأبى المقاديرُ تجريبى وتجرى بى

وله فى مشرف الدار حين أكل القابض

وقال رحمه الله مَوَرِّيا حين أكل مُشْرف الدار القابض[1] ، أى أخذ ماله :

مُشْرِف دار الملك ما بالُه منتفخَ الجوف شكا نافضا

فقيل لى ليس به علة لكنه قد أكل القابضا

وقال رحمه الله :

يا نفس لا تُصغى إلى سَلْوة كم أخلف الموعدَ عُرقوبُ

وأنت يا قلبىَ وَصَّاك إبراهيم بالحزن ويعقوب

وله فى رأس الغادر بالدولة

قال : وقلت فى رأس الغادر بالدولة حين عرض على :

فى غير حفظ الله مِن هامة هام بها الشيطان فى كل وادْ

ما تركتْ حمداً ولا رحمة فى فم إنسان ولا فى فؤادْ

وله فى الغزل

وقال رحمه الله :

يا كوكبَ الحسن يا معناه يا قمرَهْ يا روضه المتناهى الرَّيْع يا ثمرَهْ

أَمرتِنى بِسُلُوٍ عنكِ ممتنع مأمور حسنك لمَّا يَقْضِ ما أَمَرَه

شعر له فى السعيد أبى بكر

[وقال رحمه الله فى السعيد أبى بكر ابن السلطان أبى عنان :

أميراً كأن قُمَير الدجى أفاض الضياء على صفحتيه

تملَّأ قلبىَ من حبه غداةَ نظرت بعينى إليه

فلا بسط الدهر كفَّ الرَّدى لذاك الشُّخَيص وذاك الوُجَيه][2]

---

(١) القابض : من الألفاظ الأندلسية ، وهى هنا بمعنى المال المأخوذ .

(٢) ما بين القوسين ساقط فى ت .

وله فى توديع ابنه لما انصرف عنه إلى فاس

وقال عند ما انصرف عنه ابنه إلى مدينة فاس ، لإقامة رسمه من الخدمة ، قال : وأشجانى انصرافه لوقوع قَرحه على قرح ، والمستعان الله :

بان[1] يومَ الخميس قرةُ عينى — حسْبىَ الله أىُّ موقف بَيْنِ !
لو جنى موقف النَّوى حَيْن حَىٍّ — حانَ يومَ الوداع والله حينى
ضايقتنى صروف هذى اللّيالى — وأطالت همى وألْوَتْ بدينى
وطن نازح وشَمْل شَتيت — كيف يبقى مُعذَّب بين ذَيْن ؟
يا إلهى أدرك بلطفك ضعفى — إن ما أشتكيه ليس بهيْن

[٢٠٤]

وله فى السيادة الخطيبية

قال : وخاطبت السيادة الخطيبية[2] مع طيفور طعام :

تَعلَّمَ طيفورى خِــلال سميّه[3] — وإن كان منسوباً إلى غير بِسْطَام
وجاء فقيرَ الوقت لابسَ خِرقة — فليس براض غير صحبة صَوّام
فدَيْتك لا تردده عنك مخيَّبا — ودَرِّســه يا مولاى قِصّــة بِلْعام[4]

قال : وكتبت إلى السيادة الخطيبية ، ووصل ولدها إلى سلا ، ومنعنى عن لقائه عذر من مرض ، وكان نزوله بزاوية النساك :

صَدّنى عــن لقاء نَجْلك عذر — يمنع الجسم عن تمــام العبادهْ
واختصرت القِرى لأن حَطّ رحلا — فى محل الغِنى ودار الزَّهاده

(١) فى ت : « فات » .
(٢) يريد بالسيادة الخطيبية ، الخطيب ابن مرزوق حاجب الدولة الغرناطية .
(٣) طيفورى : يريد طبقا عليه مأكول . وسميه : يريد به القطب طيفور بن عيسى ابن سروشان ، المكنى بأبى يزيد البسطامى ، شيخ الصوفية ، وصاحب الأحوال المشهورة . (انظر شرح القاموس) .
(٤) لعله يريد بلعام بن باعوراء من بنى إسرائيل ، وكان مجاب الدعوة ، وله قصــة مشهورة .

وَلَوَ أُنى احتفلتُ لم يُعِنِ الدهْــرُ ولا نِلْت بعضَ بعضٍ أراده
وعلى كل حالة فقُصورى عادة إذ قَبُولك العــذرَ عاده
لا عدمتَ الرضا من الله والحُسْــنى كما نص وحيُه والزياده

وقال يخاطبه من ضريح السلطان أبى الحسن بشالة ، لاستنهاض عزيمته فى قضاء غرضه :

بَرِئت لله من حولى ومن حِيَلِى إن نام عنى وَلِيِّى فهْوَ خيرُ وَلى
أصبحت مالىَ من عَطْف أُؤمّله من غيره فى مُهِمّات ولا بَدَل
ما كنتُ أَحْسِب أن أُرْمَى بقاصية للهجر أقطعُ فيها جانب الأمل
من بعد ما خَلَصت نحوى الشفاعة ما بين الفلا[1] والدّجي والبيض والأَسَل
إن كنتُ لستُ بأهل للذى طمحتْ إليــه نفسى وأَهْوَى نحوه أملى
فــكيف يُلْغَى ولا تُرْعَى وسيلتُه دَخيلُ قبر أمير المسلمين عَلِى
من بعد ما اشتهرت حالى به وسَرَتْ بها الركائب فى سهل وفى جبل
والرســل تَتْرى ولا تخفى نتائجها عنــد التأمُّل من قول ولا عمل
ولا لليلِىَ من صُبح أطالعه كأن همِّىَ قد مد الدُّجُنَّـة لى
لو أننى بابن مرزوق عقدتُ يدى وكان محتكمًا فى خِيرة الدُّول
لكان كربىَ قدْ أفضَى إلى فرج وكان حُزْنىَ قد أوفى على جَذَلِ
أَلْمَتْ[2] بالعتب لم أحذَرْ مواقعه « أنا الغريقُ فما خوفى من البلل » [٢٠٥]
ولستُ أجحد ما خُوِّلْتُ من نِعَمٍ لــكنها النفسُ لا تنفكّ عن أمل
ولست أيأسُ من وعد وُعِدْت به وإنما « خُلِق الإنسانُ من عَجَل »

(١) فى نفح الطيب : « العلا » .
(٢) فى نفح الطيب : « ألمحت » .

وله فى مخاطبة السلطان أبى الحجاج

وقال رحمه الله يخاطب السلطان أبا الحجاج :

أمولاى إن الشعرَ ديوانُ حكمة ... يفيد الغنَى والعزّ والجاه مَنْ كانا

وقد وُجِد المختارُ فى الحَفْل مُنْصِتا ... له وَحبا كعبا عليه وحسّانا

وفيما رواه الناقلون وأثبتوا ... بذلك ديواناً صحيحاً فديوانا

بأن أبا بكر خليفتَه الرّضا ... وفاروقَه الأدنى إليه وعثمانا

وأن عليا قدس الله جمعَهم ... وكرمنا بالقُرب منهم وحيّانا

لهم فى ضروب القول إذْ هُمْ لخوالُه ... خطاب وشِعْر يستقِرّان تبيانا

وفاض على أهل القريض نوالُهم ... فرُوِّض رَوْضُ القول سَحّا وتَهتانا

وأنتَ أحقُّ الناس أن تفعل التى ... بها(1) فعل المختار ديناً وإيمانا

فما زلتَ تَهْدِى فى البرية هديَه ... وتقضى بما يُرْضيه سِرّاً وإعلانا

وإن قيل قدر المرء ما هو محسنٌ ... فصنعة نظم القول أرفعه شانا

وله فى التورية

وقال رحمه الله فى فن التورية :

بنفسى حبيب فى ثناياه « بارق » ... ولكنها للواردين عِذابُ

إذا كان لى منه عن الوصل «حاجر» ... فدمعى « عقيق » بالجفون مُذاب

وقال :

عَذَّبتَ قلبى بالهوى فقيامه ... فى نار هجركَ دائماً وقُعودهُ

ولقد عَهِدتُ القلب وهو موحّد ... فعلام يُقْضَى فى العذاب خلوده

وله فى التجنيس

وقال فى التجنيس :

دَعَوْتُك للود الذى جَنَباته ... تداعتْ مبانيها وهَمّت بأن تَهِى

(1) فى نفح الطيب : « الذى به » .

وقلتُ لعهد الوصل والقرب بعد ما تناءى أأسلو عن حياتى [(١)] وأنت هى
ومن شام من جو الشبيبة بارقا ولم تنهه عنه النُّهَى كيف ينتهى ؟

وقال أيضاً :

ناديتُ دمعىَ إذْ جدَّ الرحيلُ بهم والقلبُ من فَرَق التوديع قد وَجَبا
سَقَطْتَ يادمعُ من عينى غَداة نأى عنى الحبيبُ ولم تقض الذى وجبا

[٢٠٦]

وله فى التورية أيضا

وقال مُوَرِّيا :

كتبتُ بدمع عينى صفحَ خدِّى وقد مَنَع الكَرى هجرُ الخليل
وراب الحاضرين فقلت هـذا كتاب « العين » ينسب للخليل

وتذكرت بهذا قول الشيخ أبى حيان :

سبقَ الدمع بالمسير المطايا إذ نوى من أحب عنّىَ نُقْلَهْ
وأجاد السطور فى صفحة الخدّ ولمْ لا يجيد وهو ابن مُقْله

والبيتَ الثانى أردت ، ولكن ابن الخطيب قد قصد تورية أخرى لم يقصدها أبو حيان ، وكلاهما قد أحسن فى توريته .

بعض شعره

وقال ابن الخطيب :

ولما رأت عزمى حثيثاً على السُّرَى وقد رابها صَبْرى على موقف البينِ
أتت بصِحاح الجوهرى دموعُها فعارضتُ من دمعى بمختصَر العين

وقال أيضا :

بحق ما بيننا يا ساكنى القصَبهْ رُدُّوا علىَّ حياتى فهْى مغتصَبهْ
ماذا جنيتم على قلبى ببَيْنِكُمُ وأنتمُ الأهلُ والأحباب والعصَبهْ

---

(١) فى نفح الطيب : « وهل أسلو حياتى » .

وقال عفا الله عنه :

مَضجعى فيك عن قتادة يَرْوى ‏ ‏ ‏ ‏ ورَوى عن أبى الزِّناد فؤادى
وكذا النوم شاعر فيك أمسى ‏ ‏ ‏ ‏ من دموعى يَهيم فى كل وادى

وقال رحمه الله :

حين ساروا عنى وقد خنقتنى ‏ ‏ ‏ ‏ عَبَرات قد أعربت عن وَلُوعى
صِحْت من ينصر الغريبَ فلمّا ‏ ‏ ‏ ‏ لم أجد ناصراً بلغت دموعى

وقال عفا الله عنه :

قال لى والدموع تَنْهَلُّ سُحْبا ‏ ‏ ‏ ‏ فى عِراض(١) من الخدود مُحولِ
بك ما بى فقلت مولاىَ عافا ‏ ‏ ‏ ‏ كَ الْمعافى من عَبْرتى ونُحولى
أنا جفنى القريحُ يَرْوِى عن الأعـــمش والجفنُ منك عن مكحول

وله فى جلوس السطان فى يوم برد للسلام

وقال ، وقد جلس السلطان فى يوم شديد البرد للسلام :

جلس المولَى لتسليم الوَرَى ‏ ‏ ‏ ‏ ولفصل البرد فى الجو احتكامْ
فإذا ما سألوا عن يومنا ‏ ‏ ‏ ‏ قلت هـذا اليومُ بردٌ وسلامْ

[٢٠٧]

وله فى الغزل

وقال رحمه الله تعالى :

بأبى بدر(٢) غزانى ‏ ‏ ‏ ‏ مستبيحاً سَرْح(٣) صدرى
فأنا اليوم شهيـد الـــحب من غزوة بدْر

وقال :

أشكو لمبسِمه الحريقَ وقد حَمَى ‏ ‏ ‏ ‏ عنِّى لَمَاه المشتهَى ورحيقَـهُ
يا ريقَـــه حيّرتنى ومَطلتَنى ‏ ‏ ‏ ‏ ما أنت(٤) إلا باردٌ يا ريقَـهُ

(١) كذا فى الأصلين ونفح الطيب ، ونميل إلى أن هذه الكلمة محرفة عن «عراص» بالصاد المهملة ، فهى أليق بهذا المقام .
(٢) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « ظبى » .
(٣) كذا فى ت . والسرح : فناء الدار . وفى ط : « صرح » . والصرح : القصر .
(٤) فى ط : « ما كنت » .

أبيات له فى المحسنات البديعية

وقال فيمن ركب البحر وماد :

ركب السفينة واستقلّ بأفقها فكأنما ركب الهلالَ الفرقدُ
وشكوا إلىّ بمَيْدهم فأجبتهم[1] لا غروَ أنْ ماد القضيب الأملد

وقال أيضاً :

يا مالكى بخـــلال تُهدِى إلى الفكر[2] حَيْرهْ
أضرمتَ قلبىَ نارا يا مالكُ بنَ نُوَيرهْ

وقال عنـد ما خرج السلطان ابن الأحمر من فاس متوجهاً إلى الأندلس اطلب حقه :

ولما حثثتَ السيرَ والله حاكم لملكك فى الدنيا بعزّ وفى الأخرى
حكى فرسَ الشِّطْرنج طِرفُكَ لا يُرى يُنَقَّل من بيضاءَ إلا إلى حمرا

وقال رحمه الله تعالى :

تعجلتُ وخْطَ الشَّيْب فى زمن الصبا لخوضى غِمارَ الهمّ فى طلب المجدِ
فمهما رأيتم شَيبة فى مفارقى[3] فلا تنكروها إنها شَيبة الحمد

وقال رضى الله عنه :

يا من تقلد للعَلاَء سُلوكا والفضلُ أضحى نهجُه مسلوكا
كاتبتنى متفضِّلا فملكتنى لا زلتُ منك مكاتَبا مملوكا

---

(١) كذا ورد هذا الشطر فى ط . وفى ت : « وشكا إلى بعيده فأجبته » ؛ وفى نفح الطيب : « وشكوا إليه بميدهم فأجبتهم » .

(٢) فى نفح الطيب : « القلب » .

(٣) فى نفح الطيب : « فوق مفرقى » .

وقال عفا الله عنه :

أجاد يراع الحسن خَطَّ عِذارهِ وأوْدَعه السرَّ المصون الذى يَدْرِى
ولم يفتقر فيـــه لختم وطابع فبسمه أغناه عن طابع السر

[٢٠٨] وقال فى رجل حلف وأقسم أنه ذو مال وأمانة ، وطلب من السلطان الخدمة :

حلفتَ لهم بأنك ذو يسار وذو ثقة وبر فى اليمين
ليستندوا إليك بحفظ مال فتأكل باليسار وباليمين

وقال فى الفخر :

ما ضرنى أن لم أكن[1] متقدما فالسبق يُعرَف آخرَ المِضمارِ
ولئن غدا رَبْع البلاغة بلقْعا فلرُبَّ كنزٍ فى أساس جِدار

وقال فى مديح السلطان أبى الحجاج :

فى مصر قلبى من خزائن يوسُفٍ حَبٌ وعـيرُ مدائحى تمتارهُ
حلّيْت شـعرى باسمه فكأنه فى كل قُطْر حَـلّه ديناره

وقال يخاطب ابنَه السلطانَ أبا عبد الله :

قالوا لخدمته دعاك محمـدٌ فكرهتُها وزهـدتُ فى التنويهِ
فأجبتهم أنا والمهيمنِ كاره فى خـدمة المولى مُحِبٌّ فيه

ومن قوله فى غرناطة :

أحبُّكِ يامغنى[2] الكمال بواجب[3] وأقطع فى أوصافك الغُرِّ أوقاتى
تقسَّم منك التربَ قومى وجيرتى ففى الظَّهر أحيائى وفى البطن أمواتى

---

(١) كذا فى الأصلين ؛ وفى نفح الطيب : « أن لم أجىْ » .
(٢) فى نفح الطيب : « أحبيك يامعنى » .
(٣) الواجب : القلب .

وقال فى غرض ينحو به نحو المشارقة :

رمَوْا بالسُّلوِّ حليفَ الغرامِ   وأدمعه كالحيا الهاطلِ
أعوذ بعزكَ يا سيدى   لذلىَ من دَعوة الباطل

وقال أيضاً :

يا ليلُ طُلْتَ ولم تجُد بتبسُّم   وأريتنى خُلُقَ العبوس النادمِ
هلاّ رحمتَ تغرُّبى وتفرُّقى   لله ما أقساك يا بن الخادم

وله فى سكين الأضاحى

وقال فى سكين الأضاحى للسلطان أبى الحجاج رحمه الله :

لىَ الفضلُ أن شاهدتنى واختبرتنى   على كل مصقول الغِرارين مُرْهَفِ
كفانىَ فخراً أن ترانىَ قائماً   بسنة إبراهيم فى كف يوسف

وله فى مروحة سلطانية

وقال فى مِرْوحة سلطانية :

كأنىَ قوس[1] الشمس عندطلوعها   وقد قَدمت من قبلها نَسمةُ الفجْرِ
وإلا كما هبّت بمُحْتَدمِ الوَغى   بنَصْرٍ ولكن من جُنود بنى نَصْر[2]

[٢٠٩]

وله يخاطب ابن الجياب

وقال يخاطب شيخه ابن الجياب :

بين السِّهام وبين كُتْبكَ نسبة   فيها يُصاب من العدو المَقْتلُ
وإذا أردت لهما زيادة نسبة   هذى وهذى فى الكِنانة تُجْعَل

وله فى الغزل

وقال يتغزَّل ، وفيه معنى غريب :

إن اللِّحاظ هى السيوف حقيقة   ومن استرابَ فحجتى تكفيهِ
لم يُدْع غمدُ السيف جَفناً باطلا   إلا لشبه اللحظ يُغْمَد فيه

قيل : وأحسن منه قول غيره :

إن العيون النُّجْل أمضى موقعا   من كل هندىّ وكل يمانِ

---

(١) فى ت : « ظل » .

(٢) بنو نصر : هم بنو الأحمر ملوك غرناطة .

فضل العيون على السيوف بأنها[١] قَتَلَتْ ولم تخرُج من الأجفان

وأصل ما قال ابن الخطيب قول الآخر :

بين السيوف وعينيه مشاركة[٢] من أجلها قيل للأغماد أجفانُ

وله فى البراغيث أيضا

وقال ابن الخطيب أيضا فى البراغيث :

بِتْنا نكابدُ هَمَّ القحْط ليلتَنا وأنجد السُّهد والكَرْب البراغيثا[٣]

وكان يُحْمَلُ ما كُنّا نكابده من المشـــقّة لو أنَّ البرا غيثا[٤]

وله فى خالد البلوى

وقال فى خالد البَلَوِى صاحب الرحلة ، وقد استكثر من سرقة كتاب « البرق الشامى » للعماد الأصبهانى :

خليـــلىَّ إن يُلْف اجتماع بخالد فقولا له قولا ولن تَعْدُوَا الحقّا

سرقتَ العِماد الأصبَهانىَّ برقَه وكيف ترى فى شاعرٍ سَرَق البرقا ؟

وله فى المنجانة

وقال فى المنجانة :

تأمّلِ الرمْلَ فى المَنجان منقطعاً يجرى وقَدِّره عمراً منك منتهياً

والله لو كان وادى الرمل يُنجده ما كان[٥] كامله إلا وقد ذهبا

وله فى الغزل

وقال :

أقول لعاذلى لمـــا نهانى وقد وجد المقالة إذ جفانى

علمتَ بأنه مُرُّ التجنى وفاتك أنه حُلْو اللســان

---

(١) فى ت : « لأنها » .

(٢) فى ط : « بين اللحاظ وعينيه مناسبة » .

(٣) رواية هذا البيت فى نفح الطيب :

بتنا نطارح هم القحط ليلتنا وأيد الهم والسهد البراغيثا

(٤) البرى : التراب . ورسمت (البرى) بالألف ليتم الجناس بين البيتين . وغيث : أصابه الغيث .

(٥) فى ت : « ماطال » .

وله فى التصوف

وقال فى غرض صُوفى :

لا تنكروا أن كنتُ قد أحْبَبْتُكم أو أننى استولى علىّ هواكُم
طوعاً وكرهاً ما ترَوْن فإننى طُفْتُ الوجود فما وجدتُ سواكم

وله فى المديح موريا

[٢١٠]

وقال يمدح وفيه تورية :

وإن نظرتَ إلى لألاء غُرّته يوم الهِياج رأيت الشمس فى الأسدِ

شعر له يشك أنه للمشارقة

ونسب إليه الحافظ أبو عبد الله التَّنَسى رحمه الله ، قصيدة يخرج منها أكثر من ثلاث مِئَة بيت ، ونسبها غير التَّنَسى إلى بعض المشارقة ، فالله أعلم ، وهى :

داءٌ ثوى بفؤادى شـفَّه سَقَمَ[1] لمِحنتى من دواعى الهمّ والكمدِ
بأضلعى لَهَبٌ تَذْكُو[2] شَرارته من الضنى فى محل الرُّوح من جسدى[3]
يومَ النَّوى حل فى قلبى له ألمٌ[4] وحُرْقتى و بلائى فيـه بالرصَد
توجُّعى من جوًى شُبَّت حرارته مع العنا قَدْ رَثَى لى فيه ذو الحسد
أصل الهوى مُلْبِسى وجْدا به عَدَم لمهجتى من رشاً بالحسن منفرد
تَتَبُّعى وَجْه[5] من تزهو نضارته إذا انثنى قاتلى عمداً بلا قَوَد
مُهْدِى الجوى مُولَعٌ بالهجر منتقم ما حيلتى قد كوى قلبى مع الكبد
لمصرعِى معتـــد تحلو مرارته يا قومنا[6] آخذ نحو الرَّدَى بيدى
قلبى كَوى ملكٌ فى النفس محتكم اقصَّتى فهو سؤلى وهو معتمَدى
مُرَوِّعى قمر تَســـــبِى إشارته إذا رنا ساطع الأنوار فى البلد

(١) فى ت هنا : « ألم » .
(٢) فى ط : « تبدو » .
(٣) فى ت هنا : « ... الروح والجسد » .
(٤) فى ت : « يوم النوى ظل فى قلبى به ألم » .
(٥) فى ت : « وجد » .
(٦) فى ط : « ياقومنا » .

هَدَّ القُوَى حَسَن كالبدر مبتسم ... لِفتنتى مُوهِن عند النَّوى جَلَدى
مُودِّعى النار قد شَبَّت زيارته ... لمـا جنى مُورثى وجدا مع الأبد

قلت : وعندى أنها بعيدة من نَفَس ابن الخطيب ، مع أن الحافظ التَّنَسى نسبها له ، وغيره نسبها لبعض المشارقة ، وذكر التَّنَسى أنه يخرج منها ثلاث مئة بيت ونيف وستون بيتاً(١) ، والله ولى التوفيق .

ثم وقفت بعد هذا على كراسة من بعض تآليف الصَّفَدى بخطه ، عبّر(٢) فيها أنها لبعض المشارقة ، وأورد القطعة مع تقديم وتأخير ، فأردت أن أذكره إتماماً للفائدة ؛ ونصه :

صالح بن أحمد بن عثمان صلاح الدين القوّاس الشاعر الخِلاطى ثم البعلبكى ، توفى سنة ثلاث وعشرين وسبع مئة ، كان رجلا خيّراً متواضعاً ، صحب [٢١١] الفقراء ، وسافر الكثير ، وكان يعبُرُ الرؤيا ؛ قال الصَّفَدى : أنشدنى من لفظه الشيخ الحافظ الذهبى ، قال : أنشدنى المذكور قصيدته السائرة ذات الأوزان ، وهى :

داءٌ ثَوى بفؤادى شَفَّه سَقَمُ ... لِمحنتى من دواعى الهم والكمدِ
بأضلُعى لَهَب تذكو شَرارته ... من الضَّنَى فى محل الرُّوح من جسدى
يومَ النَّوَى ظلّ فى قلبى به أَلَمَ ... وحُرْقتى وبلائى فيه بالرَّصَد
توجعى من جوًى شبّت حرارته ... مع(٣) العنا قدْ رثى لى فيه ذو الحسد
أصل الهوى مُلْبِسى وجدا به عَدَم ... لمهجتى من رَشًا بالحسن منفرد

---

(١) طريقة ذلك أن يؤخذ الشطر الأول من كل بيت كما هو أو مع تغيير فى بعض كلماته ، ثم يوضع مع ماينا سبه معنى من الشطور الثوانى فى القصيدة كلها ، فتخرج من ذلك صور كثيرة للبيت الواحد .

(١) فى ت : « عين » .

(٢) فى ط : « من » .

تتبعى وَجْه(١) من تزهو نضارته لما جنى مُورثى وجدا مع(٢) الأبدِ
هَدَّ القوى حَسَن كالبدر مبتسم لِفتْنتى مُوهِن عند النّوى جَلَدى
مُودّعِى قمَر تَسْبِى إشارته إذا رنا ساطع الأنوارِ فى البَلَد
مُهْدِى الجَوى مُولَع بالهجر مُنتقِم ما حياتى قد كوى قلبى مع الكَبِد
لمصرعى مُعْتَدٍ تحلو مرارته يا قومَنا آخذ نحو الردَى بيدى
قلبى كوى مَلِكٌ فى النفس محتكم لقصتى وهو سُؤلِى وهو معتمدى
مولّعى النار قد شَطَّت(٣) زيارته لما انثنى قاتلى عمداً بلا قَوَد

قال الصَّفَدى : قلت : هذه القصيدة تقرأ على ثلاث مئة وستين وجهاً .

وله فى المشيب

[وقال فى المشيب :

إنى لَمُبْلًى بالهوى من بعد ما للوخْط بالفَودين أى دبيبِ
لَبِس البياضَ وحلّ ذِروةَ مِنبر منى ووالَى الوعظَ فِعْل خطيب

وله وقد أجاز بسبتة

وكتب ببعض الحيطان لما أجاز بِسَبتة :

أقمنا بُرْهة ثم ارتحلنا كذاك الدهرُ حالا بعد حالِ
وكل بِداية فإلى انتهاء وكل إقامة فإلى ارتحال
ومن سام الزمانَ دوام أمر فقد وقف الرجاءَ على المُحال

وقد قدّمنا بعض هذه المقطوعة على غير هذا الوجه](٤) .

وله فى طاق الماء

وقال مما يكتب فى طاق الماء بباب القبة :

أنا طاق تزهو بِىَ الأيامُ تَعِبت فى بدائعى الأفهامُ

---

(١) فى ت : « متيمى وجد » .
(٢) فى ت : « وجدى مدى » .
(٣) فى ت : « مروعى سار لا شطت » .
(٤) ما بين القوسين جاء متأخرا فى ط بعد قوله : « قلبى الثانى » .

وتبـــدّيت للنواظر مِحرا بًا كأن الإناء فيّ إمامُ[1]
واقف للصــلاة حتى إذا ما جئت للشُّرب حان منى السلام

وقال فى ذلك أيضاً :

ياصانعى لله ما أحكمتــــه فَلأَنْتَ بين العـــالَمين رئيسُ
أحْـكمتَ تاجي يوم صُغت رُقوشه فصَبَت إليـه مَفارقٌ ورءوس
وأقمتُ فى محرابه فـكأنه مجلَى[2] إناء المـــاء فيه عَروس

بين ابن الجياب وابن الخطيب

وكتب إليه شيخه ابن الجيّاب بقوله :

أيا كتابى إذا ما جئت ما لَقَةً دارَ المكارم من ثِنْيٍ ووُحدانِ
فلا تُسَـلِّمْ على رَبْع بذى سَلَمَ بها وسَلِّمْ على ربع لسَلْمان

[٢١٢]

فأجابه ابن الخطيب بقوله :

يا ليت شعرىَ هل يُقْضَى تألُّفنا ويثنىَ الشوقَ عن غاياته الثانى
أو هل يحن على نفسى معذبُها أو هل يرق لقلبى قلبيَ الثانى

بعض أبيات له

وقال رحمه الله :

عَدِّ عن كيتَ وكيتْ ما عليها غيرُ ميتْ
كيف تُرْجَى حالة البُقــــيَا لمِصباح وزَيْت

وقال رحمه الله :

والله ما جانٍ على ماله أو جاهه مَن ذاد عن عرضه[3]

---

(١) فى ط : « الإمام فى قيام » .
(٢) فى ط : « يحكى » .
(٣) فى ط : « من حاط من عرضه » .

والناس فى خير وفى[1] ضده هم شهداء الله فى أرضه

موشحة له فى مدح السلطان يوسف أبى الحجاج

وقال رحمه الله : ومما قلته من الموشّحات التى انفرد باختراعها الأندلسيون ، وطمس الآن رسمُها :

رُبَّ ليل ظفرتُ بالبدرِ ونجوم السماء لم تدْرِ

حفظ الله ليلنا ورَعى

أىَّ شمل من الهوى جَمَعا

غفلَ الدهرُ والرّقيب معا

ليت نهرَ النهار لم يجرِ حكمَ الله لى على الفجْرِ

عَلّل النفس يا أخا العربِ

بحديث أحلى من الضَّرَبِ

فى هوى مَنْ وِصالُه أرَبى

كلّما مرَّ ذكر من تَدْرِى قلتُ يا بردَه على صدرِى

صاحِ لا تهتَمِمْ بأمرِ غَدِ

وأجِزْ صِرْفَها يداً بيَدِ

بين نهر وبلبـــل غَرِدِ

[٢١٣]

وغصون تميد من سُكْرِ أعْلَنتْ يا غمامُ بالشكْرِ

يا مرادى ومنتهى أملى

هاتها عَسْجدية الحُلَلِ

حلّت الشمسُ مَنْزل الحَمَلِ

وبُنُـــود الربيع فى نشْرِ والصَّبا عنــبرية النَّشْرِ

(١) فى ت : « وإن » .

غُرَّةُ الصبح هذه وضحتْ
وقيان الغصون قد صدحتْ
وكأَن الصَّبا إذا نفَحتْ
وهفا طيبها عن الحصْرِ مِدحــــة في عُلا بنى نَصْرِ
هُمْ ملوك الورى بلا ثُنْيا
مَهَّدوا الدين زَيَّنوا الدنيا
وحَمَى اللهُ منهمُ العَلْيـــا
بالإمام المرفَّع الخَطَرِ والغمام المبـــارك القَطْرِ
إنمـا يوسفٌ إمام هُدَى
حاز في المَعْلُوات كلَّ مدَى
قالْ لدهر بمُلْـكه سَعِدا
افتخر جمـــلة على الدَّهْرِ كافتخار الربيع بالزَّهْرِ
يا عمـاد العـــلاء والمجدِ
أطلع العيـدُ طالع السعدِ
ووفى الفتح فيـــه بالوعد
وتجلت فيـــه على القصرِ غُرَر من طلائع النَّصرِ
فتهنَّأ من حسـنه البَهِجِ
بحيـاة النـفوس والمُهَجِ
واستمعْهَا ودعْ مقال شجى
قَسَماً بالهوى لِذى حِجْرِ ما لليلِ المَشوق مِنْ فجرِ
ومن بديع موشّحاته رحمه الله قوله :

[٢١٤] كم ليوم الفراق من غُصَّهْ في فؤاد العميـــدْ
نَرفع الأمر فيه والقِصَّهْ للولىّ الحميـــدْ

رحل الركب يقطع البيدا بسفين النيـــاقْ
كل وَجْناء تُتْلِعُ الجيدا وتَبُــذّ الرِّفاقْ
حَسبتْ ليـلة اللقا عيداً فهْىَ ذات اشتياقْ
صائمات لا تقبل الرخصهْ قبل فِطْر وعيـــدْ
فهى مذ أمَّلَتــه مختصه بجهـاد جهيـــد

ومنها وهو آخرها :

يا إمام العُــلا والفَخْرِ ذا السَّــنا الأبهــج
ها كها لا عَدمتَ فى الدهرِ آمِـــلاً يَرْتَجِى
عارضَتْ قول بائع التمر بمقــــال شَجِ
غرّبوكِ الجمالُ يا حفصـــهْ من مكان بعيدْ
من سجلماسة ومن قَفْصَهْ وبـــلاد الجَرِيد

ولَه فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم

ومن بديع نظمه رحمه الله فى مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم هذه القصيدة المشهورة وهى :

سَلْ ما لِسَلْمَى بنار الهجر تَـكْوِينى وحبُّها فى الحَشى مِنْ قَبْلِ تـكوينى
وفى مُناها تمنَّيتُ المُنَى فغَــدَا قلبى كئيباً ببَـلْواه يُنَاجِينى
وفى قِباب قُبًا قامَتْ لنا بقبا طرازُها مُذْهبٌ فى حُسْن تَزْيين
لمّا انثنَت فى الحِلى تَزْهُو ببَهْجتها وبالغــــزالة تُزْرِى والسَّراحِين
لمّا تفنَّنْتُ فى أفنان قامتهــــا تفنَّنَتْ بفُنون الصّـــدِّ تُفْنينى
ويحسبُ الصبُّ يُسلينى محبّتَها هيهات لو أن جمّ النار يُصْلينى
النارُ فى كَبِدى والشَّوْق يُقْلقنى والقُربُ يَنْشُرنى والبُعْد يَطوينى

ورُكْن صَبْرى تَخَلَّى فى الغرام وقد ... تمكَّن الحبُّ فِيَّ أىَّ تمكين
وقد رأيتُ مَسِيرى عزَّ مطلبُه ... والطَّرف والظَّرف يُبكينى ويكوينى
نصَبْت حالى لرَفْع الضَّم منجزم ... بالكسْر عَلَّ برَشْف الضَّم تُحيينى
ياصاح عُجْ بالحِمَى وانزِل بهم سحَرا ... وانظر لِعُجْب أُثيلاث البساتين
[٢١٥] وفوق سَفْح عَقيق الدَّمع عُجْ لِترى ... جآذر الحىّ بين الخُرَّد العِين
ومِلْ على أَثلاتِ البَان مُنْعطفا ... وحَىِّ سَلْعا وسَلْ عن حال مِسكين
ثم أْتِ جَزْعاً وجُزْ عن حىّ كاظمة ... واقْرَ السَّلام على خير النبيِّين
محمد المصطفى المختار مَنْ ظهرت ... آياته فتسلَّى كلُّ مَحْزون
مَنْ خَصَّه الله بالقرآن معجزةً ... ما نالها مُرْسَلٌ قد جاء بالدين
ومن شهاب بدا من نوره رُجِمَت ... شُهْب الدياجى رُجُوماً للشَّياطين
وفوق راحته صُمُّ الحَصَى نطقتْ ... والماء مِنْ كفِّه يُزْرِى بجيْحُون
وهْو الذى اختاره البارى وأرْسَله ... بَرًّا رءوفاً رَحيماً بالمساكين
إنْ سار فى الرَّمْل لم يَظْهر له أثرٌ ... وإنْ علا الصَّخرَ عادَ الصخرُ كالطين
كأنَّ بالرَّمْل ما بالصخر من جَلَدٍ ... شوْقاً وبالصخر ما بالرَّمْل من لِينِ
وفى الصَّحِيحيْن أنَّ الجِذْعَ حَنَّ له ... والعِذْق أنَّ إليه أىَّ تأْنين
وقد سَمِعنا بأنّ الطير خاطَبَه ... فى مَنطِق مُفْصِحٍ مِنْ غَيْر تلكين
والظبىَ والضَّبَّ جاءا يشهدان بأنْ ... لا شىء أعظم من طه ويسين
فكيف أُحْسِن مَدْحا فى محاسنه ... لكنَّ لى قَبولاً مِنْهُ يكفينى
أُقبِّل الأرض إجلالاً لهيبته ... وألثِمُ التُّربَ علَّ الوصل يحيينى
وقد أقول ابنُ حَمْدانَ الغريبُ أتَى ... مُنادياً بفؤادٍ منه محزون
يا أكرمَ الخَلْق من عُرْب ومن عجم ... وأحسنَ الناس من حُسنٍ وتزيين

إنّى أتيتُك فاقبلنى وخُذْ بيـــدى ومن لهيب لَظًى جِرْنى[(١)] وسجّين
وقد مَدَحْتُك فارحمنى وجُدْ فعسى من هَوْلِ يوم اللقا والحشر تنجينى
وكن شفيعى من النّيران ياأملى لعلّ أحظى بأجرٍ غير مَمْنون
صلّى عليكَ إله العرش ما صَدَحت قُمْرِيّةٌ فوق أفنـــانِ الرّياحين
صلّى عليك إله العَرش ما غَرَدت حَمائمٌ فوق أغصان البساتين
صلّى عليك إلَهُ العرش ما وفدت نُوَيقة لحِمَى الأطلال تبرينى
صلّى عليك إلَه العرش ما هَطَلت مدامع السّحب أو عيْن المحِبّين
صلّى عليك إله العرش ماضحكت مَبَاسم الزّهر فى ثَغْر الأفانين
وألْفُ ألفِ صلاةٍ لا نفادَ لهـــا مضروبة فى ثمان ألفَ تسعين [٢١٦]
عليك ياخـــيرَ خَلْق الله قاطبةً وألفُ ألفِ ســـلام فى ثمانين
وَآلِك الغُرّ وَالأصحـــابِ كلِّهِم وَتابعيهم ليوم الحشرِ والدّين
ماعطّرالرّوْض فىالأسحارعُرف صَبا وَفاح نَشْر خُزَامى منه نَسْرين
وَما شَدَا مُنْشِد صبٌّ لفَرْط جوًى سَلْ ما لِسَلْمى بنار الهَجْر تكوينى

ولهِ فى الرجوع إلى الله

[وقال رحمه الله :

لَبِســـنا فلم نُبْلِ الزمان وأبلانا يُتابع أخرانا على الغيّ أُولانَا
ونغـــترّ بالآمال والعمْرُ ينقضى فما كان بالرُّجْعَى إلى الله أولانا
وماذا عسى أن ينظر الدهرُ ما عسى فما انقاد للزجر الحثيث ولا لانا
جَزَينـا صنيعَ الله شرَّ جزائه فلم نَرْع ما مِنْ سابق الفضل أَوْلانا
فيارَبِّ عاملْنا بمـا أنت أهـلُه من العفو واجبُر صَدْعنا أنتَ مولانا][(٢)]

انتهى .

(١) يريد : « أجرنى » .
(٢) ما بين القوسين زيادة عن ت .

ولنقتصر من نظمه على هذا القدر ، فإنه طويل عريض ، وإنما أطلت النفَسَ فى ترجمة ابن الخطيب ، رحمه الله ، عِلْما منّى بأن الذين رغبوا فى تأليف هذا الموضوع ، لهم تشوّف إلى أنباء ابن الخطيب ، وكلامه وجلية أحواله ليست عندهم ، وإنما يحفظون بعضَ نظمه ونثره ، ولا يدرون ابتداء أمره وانتهاءه ، وقد حكى غير واحد أنه رِىءَ رحمه الله بعد موته ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لى بسبب بيتين ، وهما :

يا مصطفى من قبل نشأة آدم والكونُ لم تُفْتح له أغلاقُ
أيروم مخلوق ثناءَك بعد مَا أثنَى على أخلاقِك الخلّاق

تخميس للغسانى على بيتين لابن الخطيب

وقد رأيت على هذين البيتين تخميساً لا بأس به ، لأبى عبد الله بن جابر الغسّانى المِكناسى ، رحمه الله ، وهو :

يا سائراً لضَريح خير العالَمِ يُنْهِى إليه مَقالَ صبّ هائم
بالله نادِ وقلْ مقالَة عالم يامصطفى من قبلِ نشأةِ آدم
والكون لم تُفتح له أغلاق

بثَناكَ قد شَهِدت ملائكةُ السَّما والله قد صلّى عليك وسلّماَ
يا مجتبَى ومعظّماً ومُكرّماً أيروم مخلوق ثناءك بعد ما
أثنى على أخلاقك الخلّاقُ

انتهى .

* * *

أولاد ابن الخطيب

وأولاد ابن الخطيب رحمه الله ثلاثة : عبد الله ، ومحمد ، وعلىّ . وكلهم حدَّث عن أبيه وعن ابن الجَيّاب ، وعلىٌّ منهم هو صاحب السلطان أحمد المَرينى الملقّب بالمستنصر . [٢١٧]

على بن الخطيب والمستنصر فى بستان

وحُكى أنه حضر معه فى بستان ، سحّ فيه ماء المذاكرة الهتّان ؛ وقد أبدى الأصيل شواهد الاصفرار ، وأزمع النهار لمّا قدِم الليلُ على الفرار ؛ فقال المستنصر[١] لمّا لان جانبه ، وسالت بين سَرَحات البستان جداوله ومَذانبه :

يا فاسُ إنّىَ وأَيْمُ الله ذو شَغفٍ ... فى كلّ ربع له معناه يَسْبِينى
وقد أنِسْتُ بقُرب منك يا أملى ... ونظرة فيكم بالأنس تحيينى

فأجابه على بن الخطيب بقوله [العذب المُصيب][٢] :

لا أوحش الله رَبعاً أنت زائرُه ... يا بَهجة المُلْك والدنيا مع الدّين
يا أحمدَ الحمد أبقاك الإله لنا ... فخر الملوك وسُلطانَ السلاطين

شىء عن عبد الله ومحمد ابنى الخطيب

وأما عبد الله فقد كتب بالعُدوتين ، عن ملوك الحضرتين . وأما محمد فقد نال حظاً من التصوّف ، ولم يكن له إلى خدمة الملوك تشوف .

وصية ابن الخطيب لأولاده

ولا بد أن نُلمّ بوصية ابن الخطيب ، رحمه الله ، لأولاده المذكورين ، لما فيها من الحِكم والوصايا النافعة لمن عمل بها ، وهى :

الحمد لله الذى لا يَروعه الحِمَام المرقوب ، إذا شِيم نجمه المثقوب ، ولا يَبْغَته الأجل المكتوب ، ولا يَفْجَؤُه الفراق المعتوب ، مُلْهِم الهُدى الذى تطمئن به القلوب ، وموضّح السبيل المطلوب ، وجاعل النصيحة الصريحة فى قِسْم الوجوب ، لاسيّما للولىّ المحبوب ، والولد المنسوب ، القائل فى كتابه المعجز الأسلوب ، « أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ » ، « ووَصَّى بِها إبراهيمُ بَنيهِ ويَعْقُوب » ؛ والصلاة

---

(١) فى ط : « السلطان » .
(٢) زيادة عن ت .

والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله أكرم من زُرّت على نوره جُيوب الغيوب ، وأشرفِ من خُلعت عليه حُلَل المَهابة والعصمة ، فلا تقتحمه العيون ولا تَصِمُه[1] [٢١٨] العيوب ، والرّضا عن آله وأصحابه المثابرين على سبيل الاستقامة بالهوى المغلوب ، والأمل المسلوب ، والاقتداء الموصل للمرغوب ، والعز والأمن من اللُّغوب .

وبعد ، فإنى لمّا عَلانى المشيب بغُمّته[2] ، وقادنى الكِبَر فى رُمّته ، وادّكرتُ الشباب بعد أُمَّته ؛ أسِفتُ لِمَا أَضَعْت ، وندِمت بعد الفِطام على ما رَضِعت ؛ وتأكّد وُجوب نُصْحى لمن لزمنى رَعْيُه ، وتعلّق بسعيى سَعْيه ، وأمّلت أن تَتَعَدّى إلىّ ثمراتُ استقامته ، وأنا رهين فَوات ، وفى برزخ أموات ؛ ويأمنَ[3] العثور فى الطريق التى اقتضت عِثارى ، إن سلك — وعسى ألاّ يكون ذلك — على آثارى : فقلت أخاطب الثلاثة الوَلَد ، وثمرات الخَلَد ؛ بعد الضراعة إلى الله فى توفيقهم[4] ، وإيضاح طريقهم ، وجمع تفريقهم ؛ وأن يَمُنَّ علىّ فيهم بحسن الخَلَف ، والتلافى من قبْل التَّلَف ، وأن يرزق خَلَفهم التمسك بهَدْى السَّلَف ؛ فهو ولىّ ذلك ، والهادى إلى خير المسالك .

اعلموا هداكم مَنْ بأنواره[5] يَهتدى الضُّلّال ، وبرضاه تُرفع الأغلال ، وبالتماس قربه يحصل الكمال ، إذا ذهب المال ، وأُخلفت الآمال ، وتبرأت من يمينها الشِّمال ؛ أنى مودعكم وإن سالمنى الردَى ، ومُفارقكم وإن طال المدَى ، وما عدا

(١) كذا فى نفح الطيب ؛ وفى ط : « ولا تصفه » ، وهو تحريف .
(٢) فى ط : « الهرم » .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « وليأمن » .
(٤) فى ط : « تفضيلهم » .
(٥) فى نفح الطيب : « هداكم الله تعالى الذى بأنواره ... الخ » .

مما بدا(١) ؛ فكيف وأدوات السفر تُجمع ، ومنادِى الرحيل يُسْمَع ؛ ولا أقل للحبيب المودِّع من وصية محتضَر ، وعُجالة مقتصِر ؛ ورَتيمة تُعقد فى خِنصَر ، ونصيحة تكون نَشيدة واعٍ ومُبْصِر ؛ تتكفل لكم بحُسْن العواقب من بعدى ، وتوضّح لكم فى الشفقة والحنو قَصْدى ، حسْبَما تضمن وعْدُ الله من قبل وعدى ؛ فهى أَرَبكم الذى لا يتغيّر وقفُه ، ولا ينالكم المكروه ما رَفّ عليكم سَقْفه ؛ وكأنى [٢١٩] بشبابكم قد شاخ ، و برَاحلكم قد أناخ ؛ و بنشاطكم قد كسِل ، واستبدل الصابَ من العسَل ، ونُصول الشيب ترُوع بأسَل ، لا بل [السَّام](٢) من كل حَدَب قد نَسَل ، والمَعاد اللَّحْد ولا تسَل ؛ فبالأمس كنتم فِراخ حَجْر ، واليوم آباء(٣) عَسْكر مَجْر ، وغدا شيوخ مَضْيعة وهَجْر ؛ والقبور فاغره ، [والنفوس عن المألوفات صاغره](٤) ؛ والدنيا بأهلها ساخره ، والأُولى تَعقبها آخره ؛ والحازم من لم يُتَّعظ به فى أمر ، وقال : بيدى لا بيد عمرو ؛ فاقتنُوها من وصيّه ، ومَرامٍ فى النصح قَصيه ؛ وخُصُّوا بها أولادكم إذا عقَلوا ، ليجدوا زادها إذا انتقلوا ؛ وحسبى وحسبُكم الله الذى لم يخلق الخلق هَمَلا ، ولكن ليبلُوَهم أيُّهم أحسن عملا ؛ ولا رضِى الدنيا منزلا ، ولا لطَف بمن أصبح عن فئة الخير منعزلا ؛ ولْتُلَقنوا تلقينا ، وتعَلموا علماً يقينا ؛ أنكم لن تجدوا بعد أن أنفرِدَ بذنبى ، و يفترش الترابَ جنبى ؛ و يسُح انسكابى ، وتهرول عن المصلَّى ركابى ؛ أحرصَ منى على سعادة إليكم تُجلب ، أو غاية كمال بسببكم تُرتاد وتطلب ؛ حتى لا يكون فى الدين والدنيا أوْرَفَ

(١) ماعدا مما بدا : أى ما الذى يصرف الإنسان عن إتمام ما بدا منه . يريد أنه لايمنعه من الرحيل عن هذه الدنيا مانع .

(٢) زيادة عن نفح الطيب . والسام (بتخفيف الميم) : الموت .

(٣) فى نفح الطيب : « أبناء » .

(٤) زيادة عن نفح الطيب .

منكم ظِلاّ ، ولا أشرف محلّا ، ولا أغبط نَهلا وعَلاّ ؛ وأقل ما يوجب ذلك عليكم أن تُصيخوا إلى قولى الآذان ، وتتلمحوا صُبْح نصحى فقد بان ، وسأعيد عليكم وصيّة لقمان :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم « وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » . « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » . [٢٢٠]

وأعيد وصيّة خليل الله وإسرائيله ، حسبما تضمّنه محكم تنزيله : « يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » . والدين الذى ارتضاه واصطفاه ، وأكمله ووفّاه ، وقرّره مصطفاه ، من قبل أن يتوفّاه ، إذا أُعمل فيه افتقاد ، فهو عمل واعتقاد ؛ وكلاهما مقرّر ، ومستمد من عقل أو نقل محرر ؛ والعقل متقدّم ، و بناؤه مع رفض أخيه متهدم ؛ فالله واحد أَحَد ، فرد صَمَد ، ليس له والد ولا ولد ؛ تَنَزّه عن المكان والزمان ، وسبق وجوده وجود الأكوان ؛ خالق الخلق وما يعملون ، والذى لا يُسْأل عن شيء وهم يُسْأَلون ؛ الحى العليم المدبّر القدير ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ؛ أرسل الرسل رحمة لتدعو العباد[١] إلى النجاة من الشقاء ، وتُوَجِّهَ[٢] الحجة فى مصيرهم

(١) فى ط : « توجب » .
(٢) فى نفح الطيب : « الناس » .

إلى دار البقاء ، مؤيَّدَة بالمعجزات التى لاتتصف أنوارها بالاختفاء ، ولا يجوز على تواترها دعوى الانتفاء ؛ ثم ختم ديوانَهم بنبىّ مِلّتنا المُرْعية للهَمَل ، الشاهدة على المِلَل ، فتلخّصت الطاعه ، وتبينت[١] له الإمرة المطاعه ، ولم يبق بعده إلا ارتقاب الساعه ؛ ثم إن الله قبضه إذ كان بشرا ، وترك دينه يضم من الأمة نَشَرا ؛ فمن اتبعه لحِق به ، ومن حاد عنه تورّط فى مُنْتَسَبِه[٢] ، وكانت نجاته على قدر سببه .

روى عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم[٣] تضلوا بعدى : كتاب الله وسنتى ، فعَضوا عليهما بالنواجذ » . [٢٢١]

فاعملوا يا بَنِىَّ بوصيةٍ مِنْ ناصح جاهد ، ومُشْفِق شفقة والد ؛ واستشعِروا حبه الذى توفرت دواعيه ، وعُوا مَراشد هديه فيافَوْز واعيه ؛ وصِلُوا السبب بسببه ، وآمنوا بكل ما جاء به مجملا [أو مفصلا][٤] على حَسَبه ، وأوجبوا التجلّة لصحبه ؛ الذين اختارهم الله لصحبته ، واجعلوا محبتكم إياهم من توابع محبته ؛ واشملوهم بالتوقير ، وفضّلوا منهم أولى الفضل الشهير ؛ وتبرءوا من العصبية التى لم يدعكم إليها داع ، ولا تعِ التشاجرَ بينهم أُذنٌ واع ؛ فهوعنوان السداد ، وعلامة سلامة الاعتقاد ؛ ثم اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء المله ، وأئمتها الجِله ؛ فهم صَقَلَة نصولهم ، وفروعٌ ناشئة عن أصولهم ، وورثتهم وورثة رسولهم ؛ واعلموا أنى قطعت فى البحث زمانى ، وجعلت النظر شانى ، منذ برانى الله وأنشانى ، مع نبل يعترف به الشانى ، و إدراك يسلمه العقل الإنسانى ؛ فلم أجد خابط وَرق ، ولا مصيب عَرَق ؛ ولا

(١) كذا فى ط . وفى ت : « تيقنت » . وفى نفح الطيب : « تعينت » .
(٢) كذا فى الأصلين . وفى نفح الطيب : « ومن تركه نوط عنه فى منسبه » .
(٣) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « لن تضلوا » .
(٤) زيادة عن نفح الطيب .

نازع خِطام ، ولا متكلف فِطام ، ولا مقتحم بحر طَام ؛ إلا وغايته التى يقصدها قد فَضَلتهـا الشريعة وسبقتها ، وفَرَعت ثنيتها وارتقتها ؛ فعليكم بالتزام جادّتها السابله ، ومصاحبة رُفقتها الكافله[1] ، والاهتداء بأقمارها غير الآفله ؛ والله يقول وهو أصدق القائلين : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ » ؛ وقد علت[2] شرائعُه ، وراع الشكوكَ رائعُه ؛ فلا تستنزلكم الدنيا عن الدين ، وابذلوا دونه النفوس فِعل المهتدين ، فلن ينفع مَتاعٌ بعد الخلود فى النار أبد الآبدين ، ولا يضرّ مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق الواعدين ، ومتاع الحياة الدنيا أخسّ ما ورث الأولاد عن الوالدين ، اللهم قد بلّغت ، فأنت [٢٢٢] خير الشاهدين ؛ فاحذروا المعاطب التى توجب فى الشقاء الخلود ، وتستدعى شَوْه الوجوه ونُضْج الجلود ؛ واستعيذوا[3] برضا الله من سُخْطه ، وار بئوا بنفوسكم عن غمطه ؛ وارفعوا آمالكم عن القنوع بغرور قد خدع أسلافكم ، ولا تَحْمَدوا على جيفة العَرَض الزائل ائتلافكم ؛ واقنعوا منه بما تيَسّر ، ولا تأسَوْا على ما فات وتعذّر ؛ فإنمـا هى دُجنة[4] يَنسخها الصباح ، وصَفقة يتعقّبها الخسار والرباح ؛ ودونكم عقيدةَ الإيمان ، فشدّوا بالنواجذ عليها ، وكفكفوا الشُّبَه أن تدنو إليها ؛ واعلموا أن الإخلال بشىء من ذلك خَرْق لا يرفؤه عمل ، وكل ما سوى الراعى هَمَل ، وما بعد الرأس فى صلاح الجسم أَمَل ؛ وتمسكوا بكتاب الله حفظاً وتلاوه ، واجعلوا حمله على حمل التكاليف عِلاوه ؛ وتفكروا فى آياته ومعانيه ، وامتثلوا أوامره وانتهوا عن مناهيه ، ولا تتأوّلوه ولا تَغْلُوا فيه ؛ وأَشْرِبوا قلوبكم حب

---

(١) فى نفح الطيب : « الكاملة » .
(٢) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « علمت » .
(٣) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « واستعتبوا » .
(٤) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « دجية » .

من أُنزل على قلبه ، وأكثروا من بواعث حبه ؛ وصونوا شعائر الله صَوْن المحترِم ، واحفظوا القواعد التى ينبنى عليها الإسلام حتى لا ينخرِم .

اللهَ اللهَ فى الصلاة ذريعة التجلّه ، وخاصة الملّه ، وحاقنة الدم ، وغنى المستأجَر المستخدَم ؛ وأم العباده ، وحافظة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهاده ؛ والناهية عن الفحشاء والمنكر مهما[(١)] عرض الشيطان عرضهما ، ووطّأً للنفس الأمارة سماءها وأرضهما ؛ والوسيلة إلى بَلّ الجوانح ببَرود الذكر ، وإيصال تحفة الله إلى مريض الفكر ؛ وضابطة[(٢)] حسن العشرة من الجار ، وداعية المسالمة من الفُجّار ؛ والواسمة بسِمَة السلامه ، والشاهدة للعقد برفع الملامه ؛ وغاسول الطبع [٢٢٣] إذا شانه طَبَع ، والخير الذى كل خير له تَبَع ؛ فاصبِروا النفس على وظائفها بين إبداء وإعاده ، [فالخير عاده][(٣)] ؛ ولا تفضلوا عليها الأشغال البدنيه ، [وتُؤْثِروا على العَلِية الدنيّه][(٤)] ؛ فإن أوقاتها المعينة بالانفلات تَنْبِس[(٥)] ، والفلك بها من أجلكم لا يحبس ؛ وإذا قرنت[(٦)] بالشواغل فلها الجاه الأصيل ، والحكم الذى لا يغيره الغدو ولا الأصيل ؛ والوظائف بعد أدائها لا تفوت ، وأين حق من يموت ، من حق الحى الذى لا يموت ؟ وأحكموا أوضاعها إذا أقمتموها ، وأتبعوها النوافل ما أطقتموها ؛ فبالإتقان تفاضلت الأعمال ، وبالمراعاة استُحِقّ[(٧)] الكمال ،

(١) كذا فى الأصلين . وفى نفح الطيب : « وإن » .
(٢) فى نفح الطيب : « ضامنة » .
(٣) زيادة عن ت ونفح الطيب .
(٤) زيادة عن نفح الطيب .
(٥) تنبس : تسرع .
(٦) فى ط : « قورنت » .
(٧) فى نفح الطيب : « استحقت » .

ولا شكر مع الإهمال ، ولا ربح مع إضاعة رأس المال ؛ وثابروا[١] عليها فى الجماعات ، وبيوت الطاعات ؛ فهو أرفع للملام ، وأظهر لشرائع الإسلام ؛ وأبرّ بإقامة الفَرْض ، وأدْعى إلى مساعدة البعضِ البعض .

والطهارة التى هى فى تحصيلها سبب موصِّل ، وشرط لمشروطها محصِّل ؛ فاستوفوها ، والأعضاء نظفوها ، ومياهها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها ؛ والحُجول والغُرر فأطيلوها ، والنيات فى كل ذلك فلا تهملوها ؛ فالبناء بأساسه ، والسيف برِئاسه[٢] . واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطُهور ، وذكر مجهور وغير مجهور ؛ تستغرق الأوقات ، وتنازع شتى الخواطر المفترقات ؛ فلا يضبطها إلا من ضبط نفسه بعِقال ، وكان فى درجة الرجولة ذا انتقال[٣] ، واستعاض صَدأه بصِقال ؛ وإن تراخى تقهقر الباع ، وسرقته الطباع ، وكان لما سواها أضيع فشَمَل الضياع .

والزكاة أختها الحبيبة ، ولِدَتُها القريبة ؛ مِفتاح السماحة بالعرَض الزائل ، وشُكْران المسئول على الضد من درجة السائل ؛ وحق الله فى مال من أغناه ، لمن أجهده فى المعاش وعنّاه ؛ من غير استحقاق مَلْء يده وإخلاء يد أخيه ، [٢٢٤] ولا عِلّة القدر الذى يخفيه ، وما لم ينله حظ الله فلا خير فيه ؛ فاسمحوا بتفرقتها للحاضر لإخراجها ، واختيار عرضها ونِتاجها ؛ واستحيُوا من الله أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل ، وخالفوا الشيطان كلما عذل ؛ واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تَمْلِكون ، ولا تدرون أين تسلُكون ؛ فوهَب وأقدَر ، وأورد

(١) العبارة عن قوله : « وثابروا » إلى قوله : « وأبر » ساقطة فى نفح الطيب .
(٢) فى نفح الطيب : « بمراسه » .
(٣) هذه الجملة ساقطة فى نفح الطيب .

بفضله وأصدر ؛ ليرتب بكرمه الوسائل ، أو يقيم الحجج والدلائل ؛ فابتغوا إليه الوسيلة بماله ، واغتنموا رضاه ببعض نواله .

وصيام رمضان عبادة السر المقرَّبة إلى الله زُلْفى ، الممحوضة لمن يعلم السر وأخفى ؛ مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام ، والقيام ببر القيام ؛ والاجتهاد ، وإيثار السهاد على المهاد ؛ وإن وَسِـع الاعتكافُ فهو من سننه [المرعيه ، ولواحقه][(1)] الشرعيه ؛ فبذلك تَحْسُن الوجوه ، وتحصل النفوس من الرقة على ما ترجوه ؛ وتهذَّب الطباع ، ويمتد فى ميدان الوسائل إلى الله الباع .

والحج مع الاستطاعة الركن الواجب ، والفرض على العين لايحجبه الحاجب ؛ وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره فيما فرض عن ربه وسَنَّه ، وقال : ليس له جزاء عند الله إلا الجنه .

ويلحق بذلك الجهاد فى سبيل الله إن كانت لـكم قوة عليه ، وغنى لديه ؛ فكونوا ممن يسمع نفيرَه ويُطيعه ، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه .

هذه عُمُد الإسلام وفروضه ، ونقود مَهره وعُروضه ؛ فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين ، وعلى من يُناوئكم ظاهرين ، وتلقَوُا الله لا مبدِّلين ولا مغيرين ، ولا تضيّعوا حقوق الله فتهلـكوا مع الخاسرين .

واعلموا أنّ بالعلم تُستكمَلُ وظائف هـذه الألقاب ، وتُجْلى محاسنها من بعد الانتقاب ؛ فعليكم بالعلم النافع ، دليلا بين يدى الشافع ؛ فالعلم مفتاح هذا [٢٢٥] الباب ، والموصِّل إلى اللُّباب ؛ والله عز وجل يقول : « هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو ٱلْأَلْبَابِ » . والعلم وسيلة النفوس

(١) التكملة عن ت ونفح الطيب .

الشريفه ، إلى المطالب المُنيفه ، وشرطه الخشـية لله والخِيفه ؛ وخاصة الملأ الأعلى ، وصفة الله فى كتبه التى تُتْلى ؛ والسبيل فى الآخرة إلى السـعاده ، وفى الدنيا إلى التَّجِلّة عاده ؛ والذُّخر الذى قليله يشـفع وينفع ، وكثيره يُعْلِي ويرفع ؛ لايغصبه الغاصب ، ولا يسلبه العدو المناصب ؛ ولا يبتزه الدهر إذا مال ، ولا يستأثر به البحر إذا هال ؛ من لم ينله فهو ذليل وإن كثرت آماله ، وقليل وإن جَمّ ماله ؛ وإن كان وقته قد فات اكتسابَكم ، وتخطّى حسابكم ؛ فالتمسوه لبنيكم ، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم ؛ واحْملوهم على جمعه ودرسـه ، واجعلوا طباعهم ثرًى لغرسه ؛ واستسهلوا ماينالهم من تعب من جرّاه ، وسهر يهجُر له الجفن كراه ؛ تَعْقِدوا لهم ولاية عِزّ لا تُعزل ، وتُحِلّوهم مَثابةَ رفعة لا يُحط فارعها ولا يستنزل ؛ واختاروا من العلوم التى يُنْفِقها الوقت ، ما لا يناله فى غيره المقت ؛ وخير العلوم علوم الشريعه ، وما نجم بمنابتها المَريعه ؛ من علوم لسان لاتستغرق الأعمارَ فصولُها[1] ، ولا يضايق ثمرات المعاد محصولها ؛ فإنما هى آلات لغير ، وأسباب إلى خير منها وخير ؛ فمن كان قابلا منها لازدياد ، وألفى فهمَه ذا انقياد ؛ فليخص تجويد القرآن بتقديمه ، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه ؛ ثم الشروع فى أصول الفقه ، فهو العلم العظيم المِنّه ، المُهْدِى كنوز الـكتاب والسُّنَّه ؛ ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجله ، والتدرب فى طرق النظر وتصحيح [٢٢٦] الأدلّه ، وهذه هى الغاية القصوى فى المِلّه ؛ ومن قصّر إدراكُه عن هذا المرمَى ، وتقاعد عن التى هى أسمى ؛ فليرْوِ الحديث بعد تجويد الـكتاب وإحكامه ، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه ؛ وإياكم والعلوم القديمه ، والفنون المهجورة الذميمه ، فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكا ، ورأيًا ركيكا ؛ ولا يثمر فى

---

(١) فى ط : « فضولها » .

العاجلة إلا اقتحام العيون ، وتطريق الظنون ؛ وتطويق الاحتقار ، وسِمة الصَّغار ، وخمول الأقدار ، والخسف من بعد الإبدار ؛ وجادة الشريعة أعرق فى الاعتدال ، وأوفق[1] من قطع العمر فى الجدال ؛ هذا ابن رشد قاضى المصر[2] ومفتيه ، وملتمس الرشد ومؤتيه ؛ عادت عليــه بالسَّخطة الشنيعه ، وهو إمام الشريعه ؛ فلا سبيل إلى اقتحامها ، والتورُّط فى ازدحامها ، ولا تخلطوا سامكم بحامها ؛ إلا ما كان من حساب ومساحه ، وما يعود بجدوى فلاحه ، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحه ؛ وما سوى ذلك فمحجور ، وضَرَم مسجور ، وممقوت مهجور .

وأْمروا بالمعروف أمراً رفيقا ، وانهَوْا عن المنكر نهيا حريا بالاعتدال حقيقا ، واغبطوا من كان من سِنَة الغَفَلات مُفيقا ، واجتنبوا ما تُنهون عنه حتى لا تسلكوا منه طريقا ؛ وأطيعوا أمر من ولاّه الله من أموركم أمرا ، ولا تقرِّبوا من الفتنة جمرا ، ولا تداخلوا فى الخلاف زيداً ولا عمْرا .

وعليكم بالصدق فهو شِعار المؤمنين ، وأهم ما أضْرَى[3] عليه الآباء ألسنة البنين ؛ وأكرم منسوب إلى مذهبه ، ومن أكثر من شىء عرف به . وإياكم والـكذبَ فهو العورة التى لا توارى ، والسَّوْءة التى لا يُرْتاب فى عارها ولا يُتمَارى ؛ وأقل عقوبات الـكذاب ، بين يدى ما أعدَّ الله له من العذاب ، ألّا يُقبل صدقه إذا صدق ، ولا يعوَّل عليه إن كان بالحق قد نطق . [٢٢٧]

وعليكم بالأمانة فالخيانة لُوم ، وفى وجه الديانة كُلُوم ؛ ومن الشريعة التى

---

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « وأشفق » .

(٢) كان ابن رشد قاضى الجماعة بقرطبة .

(٣) يقال : أضراه بالشىء إذا أغراه به وعوده إياه ، وكأنه ضمن الفعل معنى : مرنه على الشىء .

لا يُعذَر بجهلها ، أداء الأمانات إلى أهلها ؛ وحافظوا على الحِشمة والصيانه ، ولا تَجزُوا من أقرضَكم دَين الخيانه ؛ ولا توجدوا للغدر قَبولا ، ولا تقروا عليه طبعاً مجبولا ؛ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ؛ ولا تستأثروا بكنز ولا خَزْن ، ولا تَذهبوا لغير مناصحة المسلمين فى سَهْل ولا حَزْن ، ولا تَبْخَسوا الناس أشياءهم فى كيل أو وزن ؛ والله َ اللهَ أن تعينوا فى سفك الدماء ولو بالإشارة أو بالكلام ، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام ؛ واعلموا أن الإنسان فى فُسحة ممتدّه ، وسبيل الله غير منسدّه ؛ مالم يَنْبِذ إلى الله بأمانه ، ويغمس فى الدم الحرام بيده أو لسانه ، قال الله تعالى فى كتابه الذى هدى به سَنَناً قويماً ، وجلّى من الجهل والضلال ليلا بهيما : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيما » .

واجتناب الزنا وما تعلق به من أخلاق من كرمت طباعه ، وامتد فى سبيل السعادة باعه ، ولو لم تتلق[1] نور الله الذى لم يهد[2] شعاعه ، فالحلال لم تضق عن الشهوات أنواعه ، ولا عدم إقناعه ؛ ومن غلبت عليه غرائز جهله ، فلينظر هل يحب أن يُزنَى بأهله ؟ والله قد أعد للزانى عذاباً وبيلا ، وقال : « وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً » .

والخمر أم الكبائر ، ومفتاح الجرائم والجرائر ؛ واللهو لم يجعله الله فى الحياة شرطا ، والمحرّم قد أغنى عنه بالحلال الذى سَوّغ وأعطى ؛ وقد تركها فى الجاهلية أقوام لم يرضَوا لعقولهم بالفساد ، ولا لنفوسهم بالمضَرّة فى مَرْضاة [٢٢٨]

(١) فى ط : « تتلو » .

(٢) فى ت : « يهده» .

الأجساد ، والله قد جعلها رِجْساً محرماً على العباد ، وقَرَنها بالأنصاب والأزلام فى مباينة السَّداد .

ولا تقربوا الربا فإنه من مناهى الدين ، والله تعالى يقول : « وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . وقال : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِه » فى الكتاب المبين . ولا تأكلوا مال أحد [بغير حق يبيحه](١) ، وانزعوا الطمع عن ذلك حتى تذهب ريحه ؛ والتمسوا الحلال يسعى فيه أحدكم على قدمه ، ولا يَكِلِ اختياره إلا للثقة من خدمه ، ولا تَلْجَئوا إلى المتشابه إلا عند عدمه ؛ فهو فى السلوك إلى الله أصل مشروط ، والمحافظ عليه مغبوط .

وإياكم والظلم ، فالظالم ممقوت بكل لسان ، مجاهر لله بصريح العصيان ، والظلم ظُلمات يوم القيامة كما ورد فى الصِّحاح الحِسان ؛ والنميمة فساد وشتات ، لا يبقى عليه مُتاَت ، وفى الحديث : « لا يدخلُ الجنة قتَّات » . واطرحوا الحسد فما ساد حسود ، وإياكم والغِيبة فباب الخير عنها مسدود ، والبخلَ فما رُئى البخيل وهو مودود(٢) ؛ وإياكم وما يُعتذر منه ، فمواقف الخزى لا تستقال عثراتها ، ومَظِنَّات الفضائح لا تُؤْمن غَمَراتها ؛ وتفقَّدوا أنفسكم مع الساعات ، وأفشوا السلام فى الطرق والجماعات ، ورِقُّوا على ذوى الزَّمانات والعاهات ، وتاجروا مع الله بالصدقة يُربحكم فى البضاعات ؛ وعوِّلوا عليه وحده فى الشدائِد ، واذكروا المساكين إذا نصبتم الموائِد ؛ وتقربوا إليه باليسير من ماله ، واعلموا أن الخلق عيال الله وأحب الخلق إليه المحتاط لعياله ؛ وارْعَوْا حقوق الجار ، [٢٢٩]

(١) زيادة عن ت ونفح الطيب .
(٢) كذا فى نفح الطيب وفى الأصلين : « إلا وهو مردود » .

واذكروا ما ورد فى ذلك من الآثار ؛ وتعاهدوا أولى الأرحام ، والوشائجَ البادية الالتحام ؛ واحذروا شهادة الزور فإنها تقطع الظهر ، وتفسد السر والجهر ؛ والرِّشَا فإنها تَحُطُّ الأقدار ، وتستدعى المذلة والصَّغار ؛ ولا تَسامحوا فى لُعْبَة قَمْر ، ولا تشاركوا أولى البطالة فى أمْر ؛ وصونوا المواعـد من الإخلاف ، والأيمان من حِنْث الأوغاد والأجلاف ، وحقوقَ الله من الازدراء والاستخفاف ، ولا تَلهَجُوا بالآمال العِجاف ، ولا تـكْلفوا بالـكَهانة والإرجاف ؛ واجعلوا العُمر بين مَعاش ومَعاد ، وخصوصية وابتعاد ، واعلموا أن الله بمرصاد ، وأن الخلق بين زرع وحصاد[1] ؛ وأَقِلُّوا بغير الحالة الباقية الهموم ، واحذروا القواطع عن السعادة كما تُحذر السموم ، واعلموا أن الخير أو الشر فى الدنيا محال أن يدوم ؛ وقابلوا بالصبر أذية المُؤْذِين ، ولا تقَارضوا[2] مَقالاتِ الظالمين ، فالله لمن بُغى عليه خير الناصرين ؛ ولا تستعظموا حوادث الأيام كلما نزلت ، ولا تضجوا[3] للأمراض إذا أعْضَلَتْ ؛ فكل منقرض حقـير ، وكل منقضٍ وإن طال فقصير ؛ وانتظروا الفرَج ، وانتشقوا من جناب الله الأرَج ؛ وأوسعوا بالرجاء الجوانح ، [واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فطوبَى لعبد إليه جانح][4] ، وتضرعوا إلى الله بالدعاء ، والجئوا إليه فى البأساء والضراء ؛ وقابلوا نِعم الله بالشكر الذى يقيِّد منها الشارد ، ويُعذِب الموارد ؛ وأسهموا منها المساكين ، وأفضلوا عليهم ، وعينوا الحظوظ منها لديهم ؛ فمن الآثار : « يا عائشة أحسنى جِوار

---

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « وأن الخلق زرع حصاد » .

(٢) فى نفح الطيب : « ولا تعارضوا » .

(٣) كذا فى ت ونفح الطيب . وفى ط : « تضجروا » .

(٤) زيادة عن نفح الطيب .

نِعَمَ الله ، فإنها قلما زالت عن قوم فعادت إليهم » . ولا تُطْغِكم النعم فتقصروا فى(1) [٢٣٠]
شكرها ، وتلفكم الجهالة بسكرها ؛ وتتوهموا أن سعيكم جَلَبها ، وجِدَّكم حلبها ؛
فالله خير الرازقين ، والعاقبة للمتقين ، ولا فعل إلا الله إذا نظر بعين اليقين .
واللهَ اللهَ لا تنسوا الفضل بينكم ، ولا تُذهبوا بذهابه زَيْنكم ؛ وليلتزم كل منكم
لأخيه ، ما يشتد به تواخيه ؛ بما أمكنه من إخلاص وبر ، ومراعاة فى علانية
وسر ؛ وللإنسان مزية لا تُجْهل ، وحق لا يُهْمل ؛ وأظهروا التعاضد والتناصر ،
وصِلُوا التعاهد والتزاور ؛ تُرْغِموا بذلك الأعداء ، وتستكثروا الأوِدّاء ؛ ولا تَنافسوا
فى الحظوظ السخيفه ، ولا تَهارَشوا تهارُش السباع على الجيفه ؛ واعلموا أن
المعروف يُكَدَّر بالامتنان ، وطاعة النساء شر ما أفسد بين الإخوان ؛ فإذا
أسديتم معروفاً فلا تذكروه ، وإذا برز قبيح فاستروه ، وإذا أعظم النساء أمرا
فاحتقروه ؛ واللهَ اللهَ لا تنسَوا مقارضة سَجْلِى ، وبَرُّوا أهل مودتى من أجْلى ؛
ومن رُزق منكم مالا بهذا الوطن القَلِق المِهاد ، الذى لا يصلح لغير الجهاد ؛ فلا
يستهلكه أجمعَ فى العَقار ، فيصبح عرضة المذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه إن
تغلَّب العدو على بلده فى الافتضاح والافتقار ؛ ومُعوَّقاً عن الانتقال ، أمام النُّوب
الثقال ؛ وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالإجمال فى الطلب أولى ؛ وازهدوا
جُهْدكم فى مصاحبة أهل الدنيا ، فخيرها لايقوم بشرها ، ونفعها لا يفى بضُرها ؛
وأعقاب من تقدم شاهِدَه ، والتواريخ لهذه الدعوى عاضده ؛ ومن بُلِى منكم بها
فليستظهر بسَعة الاحتمال ، والتقلل من المال ، ويحذر مُعاداة الرجال ، ومَزَلات
الإذلال ، وفساد الخيال ، ومداخلة العيال ؛ وإفشاء الأسرار ، وسكر الاغترار(2) ؛ [٢٣١]

---

(١) فى نفح الطيب : « ولا تطغوا فى النعم فتقصروا عن شكرها » .

(٢) فى نفح الطيب : « وإفشاء السر ، وسكر الاغترار ، فإنه دأب الغر » .

وليصن الديانه ، ويؤثر الصمت ويلزم الأمانه ، ويسر من رضا الله على أوضح الطرق ، ومهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحق ؛ وليقف فى التماس أسباب الجلال ، وسمو القدر ورفعة الحال دون الكمال ، فما بعد الكمال غير النقصان ، والزعازع تسالم اللَّدْن اللطيف من الأغصان . وإياكم وطلبَ الولايات رغبة واستجلاباً ، واستظهاراً على الحظوظ[1] وغِلاباً ؛ فذلك ضرر بالمُروءات والأقدار ، داع إلى الفضْح[2] والعار ؛ ومن امتُحن منكم بها اختياراً ، أو جُبِر عليها إكراهاً وإيثاراً ؛ فليتلق وظائفها بسَعة صدره ، ولْيبذل من الخير فيها ما يشهد أنّ قدرها دون قدره ؛ فالولايات فِتنة ومِحنه ، وأسْر وإحْنه ؛ وهى بين إخطاء سعاده ، وإخلال بعاده ؛ وتوقّع عزل ، وإدالة رخاء بأَزْل ، وبيع جِدّ من الدنيا بهزْل ؛ ومَزَلّة قدم ، واستتباع ندمْ ؛ ومآل العمر كله فَوْت ومَعاد ، واقتراب من الله وابتعاد ؛ جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير والتنبيه ، وممن لا ينقطع بسببه عمل أبيه .

هذه أسعدكم الله وصيتى التى أصدرتها ، وتجارتى التى لربحكم أدرتُها ؛ فتلقَّوها بالقَبول لنصحها ، والاهتداء بضوء صبحها ؛ وبقدر ما أمضيتم من فروعها ، واستغشيتم من دروعها ؛ اقتنيتم من المناقب الفاخره ، وحصلتم على سعادة الدنيا والآخره ؛ وبقدر ما أضعتم من لآليها النفيسة القِيَم ، استكثرتم من بواعث الندم ؛ ومهما سئمتم إطالتها ، واستغزرتم مقالتها ؛ فاعلموا أن تقوى الله فذلكة الحساب ، وضابط هذا الباب ؛ كان الله خليفتى عليكم فى كل حال ، فالدنيا مُنَاخ ارتحال ، وتأميل الإقامة فرض محال ؛ فالموعد للالتقاء ، دار البقاء ؛ [٢٣٢]

---

(١) فى نفح الطيب : « الخطوب » .

(٢) فى نفح الطيب : « الفضيحة » .

جعلها[١] الله من وراء خُطة[٢] النجاه ، ونَفَّق بضائعها المُزْجاه ، بلطائفه المرتجاه ؛ والسلام عليكم من حبيبكم المودِّع ، والله يَلأَمُهُ[٣] حيث شاء من شمل متصدِّع ؛ والدِكم محمد بن عبد الله بن الخطيب ورحمة الله و بركاته .

انتهت الوصية ، وهى غريبة فى معناها .

قلت : ولأجل ذلك كان شيخ شيخنا الفقيه الإمام القاضى العلامة سيدى عبد الواحد الوانشريشى رحمه الله ، كثيراً ما يُدخِل منها فى خطبه ، على مالا يخفى على من طالعها ، و إلى الله ترجع الأمور .

و إذ بلغنا فى ترجمة ابن الخطيب إلى هذا الحد الذى يستطيله الناظر فيه ، وهو والله لا يتم التعريف بابن الخطيب ولا يوفيه ، فلنذكر القاضى النُّباهىّ والـكاتب ابن زَمْرَك ، اللذين كان لهما مع ابن الخطيب أول الأمر مصافاة ومُتَات ، ثم استحالت إلى ما علمت من العداوة ذات البتات .

انتهى الجزء الأول من أزهار الرياض فى أخبار عياض

ويليه الجزء الثانى ، وأوله : أخبار القاضى النباهى

(١) فى ط : « جعله » ، وفى نفح الطيب : « جعل » .

(٢) فى نفح الطيب : « خطته » .

(٣) كذا فى نفح الطيب . ولأم الصدع من باب منع : أصلحه . وفى الأصلين : « يلمه » .

فهارس الكتاب

فهرس الأعلام

(ب)

(ت)

(ج)

(ن)

(هـ)

فهرس الشعراء

فهرس القبائل

فهرس الأماكن

(ا)

(ب)

(ت)

فهرس الكتب

(ن)

(و)

(ى)

فهرس القوافى

(ل)

(م)

(ن)

فهرس أنصاف الأبيات

فهرس الموضوعات

تصويب أخطاء مطبعية

خطأ	صواب	ص	س
محمد بن الخلفاء	محمد ابن الخلفاء	٥٨	٤
لسان العربى	لسان العرب	٩٢	١٧
الأسود ابن قنان	الأسود بن قنان	٩٥	١٠
نظم بن صفوان	نظم ابن صفوان	١٩٠	١٣
ابن يفلوسن	ابن أبى يفلوسن	٢١٠	١٧
آسِفَى	آسَفِى	٢٩٨	٩